

شرح مقامات الحريري

للأبي العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشيرازي

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الرابع

المكتبة العصرية
مكتبة بركات

جميع الحقوق محفوظة

١٤١٣ هـ ١٩٩٢ م

شركة إنشاء شريف للأصياريا للطباعة والنشر والتوزيع

المكتب العامة للطباعة والنشر

الدار البيضاء - ص.ب. ٢٢١ - ت. ٢٩١٩٨٤

بكرات - ص.ب. ٨٣٥٥ - ت. ٢٩١٩٨٤

ص.ب. ٢٢١ - ت. ٢٩١٩٨٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المفامة الحاديّة والثلاثون وهي الرملية

حكى الحارث بن همام قال : كنتُ في عُنفوانِ الشباب ، ورِيعانِ
العيشِ اللّباب ، أَقْلَى الاكْتِنَانِ بالغاب ، وأَهْوَى الاندِلاقِ مِنَ
الزّراب ؛ لِمِلمى أَنَّ السّفَرَ ، يَنْفُجُ السّفَرَ ، وَيُنْدِجُ الظّفَرَ ، ومُعَاقِرَةَ
الوَطَنِ تَعْقِرُ الفِطْنَ ، وَتَحْقِرُ مِنْ قَطَنِ ، فَأَجَلْتُ قِدَاحَ الاسْتِشَارَةِ ،
وَأَقْتَدَحْتُ زِنَادَ الاسْتِخَارَةِ ، ثُمَّ امْتَجَشْتُ جَأشاً أَثْبَتَ مِنَ الحِجَارَةِ .
وَأَضَعَدْتُ إِلَى سَاحِلِ الشَّامِ للتَّجَارَةِ ، فَلَمَّا خِيَّمْتُ بِالرَّمْلَةِ ،
وَأَلْقَيْتُ بِهَا عَصَا الرُّحْلَةِ ، صَادَفْتُ بِهَا رِكَاباً تُعَدُّ لِلسَّرَى ، وَرِحَالاً
تُسَدُّ إِلَى أُمِّ الْقُرَى .

عنفوان ورِيعان ، معناهما أول . اللباب : الخالص . أَقْلَى : أبفض .
الاكتنان : الاستتار والإقامة في السكن . والغاب : الشجر الملتف ، وهو بيت
الأسد ، وأراد به بلدته ، وأنه كان يكره الإقامة بها ويحبُّ السفر . أهوى :
أحب . الاندلاق : الخروج بسرعة وسهولة . والقرباب : وعاء يُجعلُ فيه
السيف ، وهو غده . السّفَر : جمع سُفْرة ، وهي التي يجعل فيها الخبز ويضم عليها

بِحَقِّ، وتستعمل في السفر . يُنْفَج : يُكْثِر ، أى تكثُر المأكولات في السفر
فتنفج به . يُنْتَج : يولد . الظفر : الفوز بالحاجة . معاقرة الوطن : ملازمة بلد
الإنسان . تعمق الفطن : تمت القلوب وتبلد الأذهان . قطن : سكن وأقام، فيريد
أن الإقامة في بلد الإنسان تُحَقِّر شأنه وتبَلِّد خاطره .

[مما قيل في الأوطان]

قال الشاعر :

أنفق من الصبر الجميل فإنه لم يحش فقراً مُنفِق من صبره
والمرء ليس يبالغ في أرضه كالصقر ليس بصائد في وكره
وأُشد الفَنجديهي :

نقل ركابك في الفلأ ودع العوالى والقصور
فحالفوا أوطانهم أشباه سكان القبور
لولا التفرب ما ارتقى دُرُّ البحور إلى الثُجور

وقالوا : مَنْ لم يصاحب البر والفاجر، ولم يؤدبه الرخاء مرة والشدة أخرى ،
ولم يخرج من الظل إلى الشمس ، فلا ترجه . وتقدم مثل هذا في التاسعة^(١) .

وقال أبو العباس الأعمى :

مَلَّتْ حصّ وملتني فلو نطقت كما نطقت تلاحيناً على قدر
وسولت لي نفسي أن أفارقها والماء في المزن أصفى منه في القدر
أما اشتفت مني الأيام في وطني حتى تضايق بي ماعز من وطري
ولا قضت من سواد العين حاجتها حتى تكرّ على ما كان في السفر

وقال البحتري :

وَلَيْسَ اغْتِرَابِي مِنْ سَجَسْتَانٍ أَنَّنِي عَدِمْتُ بِهَا الْإِخْوَانَ وَالْأَهْلَ (١)
وَلَكِنِّي مَالِي بِهَا مِنْ مُشَاكِلٍ وَإِنَّ الْغَرِيبَ الْفَرْدَ مَنْ يَعدَمُ الشَّكْلَ

ولأبي الفتح البستي عفا الله عنه : (٢)

مَا أَنْصَفَتْ بَغْدَادُ حِينَ تَوَحَّشَتْ لِنَزِيلِهَا وَهِيَ الْحِلَّةُ الْآنَسُ
لَمْ يَرَعْ لِي حَقَّ الْقِرَابَةِ بِحُتْرٍ (٣) فِيهَا وَلَا حَقَّ الْمَرْوَةِ فَارِسُ (٤)

وتعقب عليه المعري في هذا فقال في أبي القاسم علي بن الحسن التتوخي

القاضي :

ذِمَّ الْوَلِيدُ وَلَمْ أَذُمَّ جَوَارِكُمْ فَقَالَ مَا أَنْصَفَتْ بَغْدَادُ حَيَّتَا (٥)
فَإِنْ لَقِيتُ وَلِيدًا وَالنَّوَى قَدْ (٦) يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَمْ أَغْذِمِهِ تَبَكِّيًّا
أَحْسَنْتَ مَا شِئْتَ فِي تَأْنِيسٍ مَغْتَرِبٍ وَلَوْلَبْتَ الْمَدَى (٧) أَحْسَنْتَ مَا شِئْتَ

وقال أبو الفتح البستي (٨) :

وَمَا غُرْبَةُ الْإِنْسَانِ فِي شُقَّةِ النَّوَى وَلَكِنَّهَا وَاللَّهِ فِي عَدَمِ الشَّكْلِ

(١) ديوانه ٢٦٢٩ (عن الشريشي) .

(٢) كذا في الأصول ، والصواب أن البيتين للبحتري ، من قصيدة يمدح فيها علي بن يحيى المنجم في ديوانه ١١٣٣ ، وهما أيضا في شرح البطايوسي على سقط الزند ١٦٤١ .

(٣) ط : « مجتر » ، تصحيف ، وفي الديوان : « طي » .

(٤) الديوان : « ولاحق الصداقة » .

(٥) سقط الزند ١٦٤١ ، ١٦٤٢ ، وفيه : « حوشيتا » .

(٦) قدف ، أي بميدة .

(٧) سقط الزند : « المني » .

(٨) يتيمة الدهر ٤ : ٣١ ، ونسبهما إلى أبي سليمان الخطابي

ولمّني غريب بين بُسْتِ وأهلها وإن كان فيها أُمّرتي وبها أهلي
ولأبي بكر بن بقي: ^(١)

أقمتُ فيكم على الإفتار والعدم لو كنت حراً أباي النَّفس لم أقيم ^(١)
فلا حدّ يفتكم بُجنى لها ثمرٌ ولا سماءُكم تنهلُ بالديم
أنا امرؤٌ إن نبتتُ في أرضٍ أندلسٍ جئت العراق فقامت لي على قدم
ما العيش بالعلم الإحالة ^(٢) ضعفت وحُرْفَةٌ وُكِلَتْ بالقعدِ الهرم

وللفقيه أبي محمد بن حزم:

ولي حول أكناف العراق صباية ولا غرو أن يستوحش الكلف الصَّبُّ
فإن يُنزل الرحمن رَحلي بينهم لحينئذ يبدو التأسف والكربُ
هنالك يَدْرِي أن للبعد قصة وأن كساد العلم آفته القُربُ

* * *

قوله: أَجَلْتُ، أي صرّفت . قداح : سهام . الاستشارة : مشاورة غيره في رأيه ، وإجالة القداح تأتي في الثالثة والأربعين ، واستعمار هنا لمن يستشير في أمر السفر قداحاً، فإن وافق رأيه فكأنه خرج له على السهم: «افعل» وإن خالفه فكأنه خرج عليه «لا تفعل» . اقتدحت : ضربت . زناد : ما يكون فيه النار . الاستخارة : طلب الخيرة من الله تعالى . استجشت : حرّكت . جأشاً : نفساً، وهي في سكونها عن السفر كالحجر فلا تتحرك للسفر . أصعدت : طلعت . خيّم : أقمت .

(١) نفع الطيب ٣ : ٤٨ .

(٢) النفح : «رحيلة» ، «البرم» .

الرَّمْلَة : بلدة بالشام ، سَمَّتها العرب بالرَّمْلَة لما غلب عليها الرمل ،
وهي من كُور فلسطين ، بينها وبين بيت المقدس ثمانية عشر ميلا ، وكانت
لَدَ (١) مدينة فلسطين القديمة ، فلما وَلِيَ الخلافة سليمان بن عبد الملك ابقى مدينة
الرَّمْلَة ، وخرَّب لَدَ ، ونقل أهل لَدَ إليها ، فصارت الرملة مدينة فلسطين .
أُقيمت : تركت . الرِّحْلَة : الارتحال ، وكفى بإلقاء العصا عن الإقامة . بد
أن تهَيَّأ .

أم القرى : مكة . وكنا نؤينا ترك ذكر مكة لشهرتها ، ثم وجدنا شيخنا ابن
جُبَيْر قد ذكر فيها أشياء قَلَّ مَنْ يَضبطها ، فأثبتناها إعلاماً لمن أحبَّ استطلاعها ،
وتبرَّأ كما بذكر البيت الشريف أعزه الله تعالى .

[ذكر مكة ومعالمها]

قال شيخنا (٢) : مكة بلد قد وضعها الله تعالى بين جبال محدِّقة بها ، وهي في
بطن وادٍ ، مدينة كبيرة مستطيلة لها ثلاثة أبواب :

باب المعلى يخرج منه إلى الجبَّانة بالموضع الذى يعرف بالحجُّون عن يسار
المارِّ إليها جبلٌ في أعلاه ثنية ، عليها علم يشبه البرج منها إلى العمرة ، وتعرف
الثنية بكداء ، وهي التي جعلها حسان موعد خيل الإسلام في قوله :

* تُثِيرُ النَّفْعَ مَوْعِدُهَا كَدَاءُ (٣) *

ومنها دُخِلَتْ مكة يوم الفتح ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ادخلوها
من حيث قال حسان » .

(١) لد ، بالضم والنشديد ، ذكرها ياقوت وقال : « قرية قرب بيت المقدس ، من نواحي
فلسطين » .

(٢) هو محمد بن أحمد بن جبَيْر السكتاني الأندلسي ، المعروف بابن جبَيْر ، صاحب الرحلة
المعروفة باسمه .

(٣) ديوانه ٤ ، و صدره :

* عَدِمْنَا خَيْلَنَا إِن لَمْ تَرَوْهَا *

والحجون هو الذي قال فيه الحارث بن مُضاض :

كَانَ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحُجُونِ إِلَى الصَّفَا
أُنَيْسٌ وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرٌ^(١)

وعن يسار المارّ إليها جبل ، وفي جبّانة الحُجُونِ مدفن جماعة من الصّحابة
ذُئِرَت اليَوْمَ قبورهم ، وفيها بقية علم ظاهر ، وهو موضع خشبة عبد الله بن
الزبير ، كان في موضعه بناء مرتفع ، فهدّمه أهل الطائف غيرهم منهم على
ما كان يحدّد من لعنة الحجاج صاحبهم . وعن يمينك إذا استقبلت الجبّانة مسجد
في مَسِيلِ بَيْنِ جِبَالَيْنِ ، وهو الذي بايعت الجنّ فيه النبي صلى الله عليه وسلم ،
وعلى باب الحُجُونِ طريق الطائف والعراق ، والصُّعُودُ إلى عرفات ، والباب
بين الشرق والشمال مائلا إلى الشرق^(٢).

الباب الثاني: باب السفلى^(٣) إلى جهة الجنوب، عليه طريق اليمن ، ومنه دخل
خالد بن الوليد ، يوم الفتح .

الباب الثالث : باب العمرة يعرف بالباب الزاهر ، عليه طريق المدينة والشّام
وجُدّة ، وهو غربيّ ، ومنه يُخْرَجُ إلى التَّنْعِيمِ ، وهو على فرسخ من مكة ، وهو
أقرب ميقات للمعتزين ، وطريقه حسن ، فيه الآبار العذبة المسماة بالشَّيْبِكَة .

وعلى ميل من مكة في طريق التَّنْعِيمِ يُبْلَغُ مَسْجِدُ بِلَازَانِهِ حَجَرٌ كالمصطبة ،
يعلموه حجر آخر مسند ، فيه نقش دائر ، يقال إن النبي صلى الله عليه وسلم قعد عليه
مستريحاً عند مجيئه من العمرة ، يسمح الناس خدودهم به تبرّكا . وبعده بقلّة على

(١) تاريخ الطبري ٢: ٢٥٨ من قصيدة، وبعده في ابن جبير:

بلى نَحْنُ كَنَّا أَهْلَهَا فَأَبَادَنَا صُرُوفُ اللَّيَالِي وَالْجُدُودِ الْعَوَارِ

(٢) رحلة ابن جبير : « إلى الشرق أميل » . (٣) ابن جبير : « السفلى » .

يسار الطريق قبر أبي لهب وامرأته ، قد علاهما جبلان عظيمان من الصخر لرجم الناس على قديم الدهر .

وعلى قدر ميل يُبقي الزاهر ، وعموميتي على جانبي الطريق ، يحتوي على دار وبساتين لأحد المسكينين ، وفيه مكان مستطيل ، عليه كيزان الماء ، ومراكن مملوءة ، وهى القصارى للشرب والظهور ، وفيه منفعة كبيرة للمعتمرين .

وعلى جانبي الطريق فى الزاهر أربعة أجيال : جبلان ، من هنا وجبلان من هنا ، يذكر أنها التى جعل إبراهيم عليه السلام أجزاء الطير عليها ، ثم دعاها عند قوله : ﴿ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ ^(١) .

وعند إجازتك بالزاهر تمر بالوادي المعروف بذي طوى ، كان ابن عمر رضى الله عنهما يفتسل فيه عند دخوله مكة ، وفيه نزل النبي عليه الصلاة والسلام عند دخوله ، وفيه مسجد إبراهيم عليه السلام ، وفيه آثار تعرف بالشبيكة . ثم تخرج من الوادي إلى أعلام ، وهى أحجار موضوعة بين الحِلّ والحرم ، كالأبراج المصفوفة ، فداخلها إلى جهة مكة حَرَم ، وهى كالأبراج ، وآخذة من أعلى جبل ، يعترض عن يمين الطريق فى [التوجه] ^(٢) إلى العمرة ، وينشق الطريق إلى جبل عن يساره ، وهما ميعات المعتمرين ، [وفيها مساجد مبنية بالحجارة] ^(٣) وخارجها ^(٣) بنحو غلوتين مسجد عائشة رضى الله عنها .

ومن جبال مكة جبل أبى قُبَيْس ، وهو على الحرم فى الجهة الشرقية يقابل الحجر الأسود ، فى أعلاه مسجد عليه سطح يشرف على مكة ، ويظهر حسنهما وحُسن الحرم واتساعه وجمال السكبة ، وهو مستودع الحجر الأسود من الطوفان ، حتى أذاه إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وفيه قبر آدم عليه السلام ، وهو أحد أخشبي مكة ، والأخشب الثانى المتصل بقميعةان فى الجهة

(٢) من رحلة ابن جبير .

(١) سورة البقرة ٢٦٠ .

(٣) الرحلة : « خارج هذه الأعلام » .

الغربية ، وفيه موقف النبي صلى الله عليه وسلم ، عند انشقاق القمر .

ومن جبالها حراء ، على مقدار فرسخ ، ومشرف على منى ، وهو مرتفع في الهواء ، كان متعبداً للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى اهتز تحتة ، فقال : اسكن حراء ، فما عليك إلا نبي وصديق وشهيدان ، لعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضى الله عنهما ، وفيه نزلت أول آية من القرآن ، وهو أخذ من المغرب إلى الشمال ، وعلى طرفه الشمالى جبانة الحجون المتقدمة .

ومن جبالها جبل ثور ، وهو فى الجهة اليمانية على فرسخ أو أزيد ، وفيه الغار الذى أوى إليه النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى مقربة من الغار قبة جبريل ، وهى عمود منقطع من الجبال ، قد قام شبه الذراع المرتفعة مقدار نصف القامة ، وانبسط من أعلى شبه الكف ، كأنه قبة مبسوطة ، يستظل تحتها نحو العشرين رجلاً ، ومن مكة إلى منى نحو خمسة أميال .

ومنى مدينة عظيمة الآثار واسعة الاختطاط ، وقد خربت اليوم إلا منازل يسيرة محدثة للنزول ، كان الطريق إليها الميدان اتساعاً وانفساحاً . وأول ما يلقى المتوجه إليها بقرىها مسجد البئعة التى عقدها العباس للنبي صلى الله عليه وسلم على الأنصار ، ثم يُفَضَّى بها إلى جرة العقبة ، وهى أول منى وعليها مسجد ، وبها علم منصوب شبه أعلام الحرم المذكورة ، يجعله الراعى عن يمينه مستقبلاً مكة ، ويرى بها سمع حصيات يوم النحر أثر طلوع الشمس ، ثم ينحدر أو يذبح ، ويحلق أو يقصر ، ومنى كلها منحر ، ويحل له كل الأشياء إلا النساء ، وبعدها الجرة الوسطى ، وبها أيضاً علم ، وبين الجرتين قدر غلوة ، وبعدها بمقدار غلوة الجرة الأولى التى ترمى وقت الزوال ثانى يوم النحر بسمع حصيات ، وفى الوسطى بسمع ، وفى جرة العقبة بسمع ، فتلك إحدى وعشرون حصاة ، ويُفَعَّل ذلك فى ثالث يوم النحر ، فتلك اثنتان وأربعون حصاة ، وسبع تقدمت يوم النحر ، فتكمل تسع وأربعون حصاة .

وفي أثر ذلك ينفض الحاج إلى مكة ، وعند الجرة الأولى يُلقى مجرى الذبيح عليه السلام ، وفي موضع المجرى حَجَرٌ ملصق بجدار فيه أثر قدم صغيرة ، يقال إنها أثر قدمه ، عند تحرّكه لأنّ له الحجر إشفاقاً ، فيقبله الناس ويلمسونه تبرّكاً به .

ومسجد الخيف آخر مِنّى ، وهو متنوع الساحة ، كأ كبر ما يكون من الجوامع ، وصومعته في رحبة المسجد ، وله في القبلة أربع بلاطات ، وهو مسجد مشهور البركة ، ومن مِنّى إلى المزدلفة نحو خمسة أميال ، والمزدلفة تسمى المشعر الحرام وجماً فلها ثلاثة أسماء . ووادي محسّر حدٌّ بين المزدلفة ومِنّى . والمزدلفة بسيط من الأرض فسيح حولها صهاريج للماء ، وفي وسط البسيط حلق في وسطها قبة ، في أعلاها مسجد يصعد إليه على أدراج من جهتين ، يزدهم الناس عليه للصلاة فيه عند ميّتهم بها ، وبين المزدلفة وعرفات أزيد من خمسة أميال .

وعرفات بسيط من الأرض [على] مدّة البصر ، لو حُسِر الخلائق فيه لوسمهم ، تحدّقُ به جبال كثيرة . وفي آخر البسيط جبل الرّحمة ، وهو موقف الناس ، والعلّمان قبله ، فما أمامهما إلى عرفات جبل ، وما دونهما حَرَم .

وجبل الرحمة منقطع عن الجبال ، قائم في البسيط ، فهو ككلّه حجارة . وكان صعب المرتقى ، فأحدثوا فيه من أربع جهاته أدراجاً وطبقة يصعد فيها بالدوابّ الموقرة . وفي أعلاه قبة تنسب لأم سلمة رضى الله عنها ، وفي وسطها مسجد يحدّق به سطح فسيح الساحة جميل المنظر ، يزدهم الناس عليه للصلاة فيه ، فيشرف منه على بسيط عرفات ، وفي أسفله عن يسار القبلة دار عتيقة البنيان ، فيها عُرف ، لها طيقان تنسب إلى آدم عليه الصلاة والسلام . وعن يسارها مسجدٌ صغير . وبمقربة من العلّمين مسجد إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، بقي منه

الجدار القبلي يخطب فيه الخطيب يوم الوقفة ، ثم يجمع بين الظهر والعصر ، ثم يقف الناس بعد جمعهم الظهر والعصر باكين داعين متضرعين ، حتى يغيب قرص الشمس ، ثم يدفع الإمام المالكي بالناس بالتفرد دفعا ترتج منه الجبال ، فيصلون بمزدلفة المغرب والعشاء الآخرة ، فيبيتون بها ، والدنيا كلها شموع مُسْرَجَة ، فإذا صلوا الصبح غدوة النحر وقفوا داعين .

ومزدلفة كلها موقف إلا وادي محسر ، فإن فيه تقع الهزولة إلى منى ، فإذا بلغوا منى رموا بها جرة العقبة .

ثم ينفّر الناس إلى البيت للمكرم إلى طواف الإفاضة ، وهو كمال الحج .

وأما البيت المكرم فهو قريب من التربع ، له أربعة أركان : ركن ينظر إلى الشرق وفيه الحجر الأسود ، ومنه ابتداء الطواف . يبعد الطائف عنه قليلاً ، والبيت عن يساره ، ثم يُلَاقِي بعد ذلك في طوافه الركن العراقيّ ، وهو ناظر إلى الشمال . ثم الركن الشاميّ ، وهو ناظر إلى المغرب ، ثم الركن اليمانيّ ، وهو ناظر إلى الجنوب ، ثم يعود إلى ركن الحجر الأسود ، وذلك شوط واحد .

وباب البيت في السّفح الذي بين ركن الحجر والركن العراقيّ ، وهو قريب من الحجر بعشرة أشبار ، وما بين الحجر والباب يسمى الملتزم ، وهو موضع استعجابه الدعاء ، ويرتفع الباب من الأرض أحد عشر شبراً ونصفاً ، والباب من فضة ، مذقّب بديع الصّنة ، يستوقف الأبصار حسناً ، وعُضاداته كذلك ، وعلى رأسه لوح ذهب خالص إبريز في سعة نحو شبرين ، وله تقارنا فضة ، كبيرتان يتعلق عليهما قفل الباب ، والباب ناظر إلى الشرق ، وسعته ثمانية أشبار ، وطوله ثلاثة عشر شبراً ، وغِلَظ الحائط الذي ينطوى عليه الباب خمسة أشبار ، وداخل البيت مفروش بالرخام المجزّع ، وحيطانه كلها رخام مجزّع ،

قد قام على ثلاثة أعمدة من الساج ، مفرطة الطول ، بين كل عمود وعمود أربع خطأ ، ودائرة البيت كله من نصفه الأعلى مطلى بالفضة المذهبة ، يُخَيَّل إليك أنها صفيحة ذهب لفظها بالجوانب الأربع .

ولبيت خمسة مصاييح ، وعليها زجاج عراقي بديع النقش ، أدرجت في وسط السقف ، ومع كل ركن مضوا ، ويُبنى الداخل من الباب عن يساره ركن الحجر الأسود وباب الرحمة ، هو الذى يصعد عليه إلى السطح .

والمقام حجر مفسى بالفضة ، ارتفاعه ثلاثة أشبار ، وسعته شبران ، أعلاه أوسع من أسفله ، وآثار القدمين والأصابع فيه ، صُبَّ لنا فيه ماء زمزم ، فشرباه منه .

ومن الباب إلى الركن العراقى حوض طوله اثنا عشر شبرا وعرضه خمسة أشبار ، وارتفاعه شبر ، هو علامة موضع المقام ، وهو مصب ماء البيت . وموضع المقام الذى يصلّى فيه ما بين الباب والركن العراقى ، وموضع المقام قبة حديد موضوعة إلى جانب قبة زمزم ترفع في أشهر الحج ، وتزال قبة الخشب ، لأنها أجمل ، لازدحام الناس . ومن ركن الحجر إلى الركن العراقى أربعة وخمسون شبرا ، ومن الحجر الأسود إلى الأرض ستة أشبار ، فالطويل يتطامن لتقبيله ، والقصير يتطاوّل له .

وموضع الطواف مفروش بحجارة مبسوطة كأنها الرخام : سود وحر وبيض ، تتسع عن البيت مقدار تسع خطأ ، وسائر الحرم مفروش برمل أبيض ، وطواف النساء في آخر الحجارة المفروشة .

والحجر ستة أذرع وهو الذى تركته قريش من البيت ، وعليه جدار دوره تسع وعشرون خطوة ، وهى أربعة وسبعون شبرا من داخل الدويرة ، ودور جداره كله مجزّع بديع الإلصاق من الرخام ، وهو مفروش بالرخام المجزّع البديع المتفاريح والتقاطيع ، فراه عجيب .

والحرم له ثلثمائة سوار من الرخام ، وذراع الحَرَم في الطول أربعة ذراع ،
وفي العرض ثلثمائة ذراع ، فتكسیره ثمانية وأربعون مرجعا ، وله تسع صوامع
وتسعة عشر بابا ، أكثرها مفتوح على الأبواب ، منها باب الصفا ، وهو مفتوح
على خمسة أبواب ، وهو أكبرها ، وعليه يُخْرَج إلى السعى بين الصفا والمروة .
وللصفا أربع عشرة درجة ، وللمروة خمسة ، وما بين الصفا والمروة ميل ،
وهو اليوم سوق جميل ، يجمع الفواكه بمكة وحوانيت الباعة يمين وشمال
فلا يكاد الساعون يخلصون للسعى لكثرة الزحام .

وقبة بئر زمزم تقابل الحجر الأسود ، منها إليه أربع وعشرون خطوة ،
وداخلها مفروش بالرخام الأبيض وتنور البئر في وسطها من رخام دوره أربعون
شبرا ، وارتفاعه أربعة أشبار ونصف ، وغلظه شبر ، وعمقه إحدى عشرة قامة ،
وعمق الماء سعم ، وباب القبة ناظر إلى الشرق .

ثم ذكر في البيت وما يتصل به من البئر من ذلك غرائب من صنع الرخام
والنقوش وغير ذلك أشياء لا يسع كتابنا ذكرها ، فلنقتصر على هذا القدر ^(١) .

* * *

فمَصَّفَتْ بِي رِيحُ الْغَرَامِ ، وَاهْتَجَّ لِي شَوْقٌ إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ ؛
فَزِمَمْتُ نَاقَتِي ، وَنَبَذْتُ عُلْقِي وَعِلَاقَتِي
وَقُلْتُ لِلْأَمْنَى أَقْصِرْ فَإِنِّي سَاخِتَارُ الْمَقَامِ عَلَى الْمَقَامِ
وَأَنْفِقُ مَا جَمَعْتُ بِأَرْضِ جَمْعٍ
وَأَسْأَلُ بِالْحَظِيمِ عَنِ الْخَطَامِ

تَمَّ انْتِظَمْتُ مَعَ رُقَّةٍ كُنْجُومِ اللَّيْلِ ، لَهْمٌ فِي السَّيْرِ جَزِيَّةٌ

(١) رحلة ابن جبير صفحة ٨٢ وما بعدها ، مع تصريف .

السَّيْلِ ، وإلى الخيرِ جَرَى الخَيْلِ ؛ فلم تَزَلْ بين إِذْلَاجٍ وتَأْوِيبٍ ،
وإِيحَافٍ وتَقْرِيبٍ ، إلى أَنْ حَبَّتْنَا أَيْدِي المَطَايَا بِالثَّحْفَةِ ، في إِيصَالِنَا
إلى الجُحْفَةِ ؛ فَحَلَلْنَاهَا مُتَّاهِبِينَ لِالإِحْرَامِ ، مُتَبَاشِرِينَ بِإِدْرَاكِ المَرَامِ ،
فَلَمْ يَكُ إِلَّا أَنْ أَنْخَأَ بِهَا الرِّكَائِبَ ، وَحَطَطْنَا الحَقَائِبَ ، حَتَّى طَلَعَ
عَلَيْنَا مِنْ بَيْنِ الهَضَبِ ، شَخْصٌ ضَاحِي الإِهَابِ ؛ وَهُوَ يُنَادِي :
يَا أَهْلَ ذَا النَادِي ، هَلُمَّ إِلَى مَا يُنْجِي يَوْمَ التَّنَادِي . فَانْخَرَطَ إِلَيْهِ
الحَجِيجُ وَانْصَلَتُوا ، وَاحْتَفُوا بِهِ وَانْصَتُوا . فَلَمَّا رَأَى تَأَثُّفَهُمْ حَوْلَهُ ،
وَاسْتِعْظَامَهُمْ قَوْلَهُ ، تَسَمَّ إِحْدَى الآكَامِ ، ثُمَّ تَمَخَّجَ مُسْتَفْتِحًا
لِلْكَلَامِ ، وَقَالَ :

* * *

قوله : عَصَفَتْ ، تَحَرَّكَتْ وَاشْتَدَّتْ . الْغَرَامُ : الشَّوْقُ . اهْتِاجٌ : تَحَرُّكٌ .
زَمَمْتُ : شَدَدْتُ زَمَامَهَا . نَبَذْتُ : رَمَيْتُ . عَلَّقِي : مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ وَيُمْسِكُهُ عَنْ
إِرَادَتِهِ . عِلَاقَتِي : مَا يَتَعَلَّقُ بِقَلْبِي . أَقْصِرْ : كَفْ . الْمَقَامُ : مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ
عليه السلام . الْمُقَامُ : الإِقَامَةُ . وَجَعَ : اسْمُ الْمَزْدَلِفَةِ ، سَمِيَتْ بِذَلِكَ لِاجْتِمَاعِ النَّاسِ
فِيهَا . الْحَطِيمُ : حَجَرٌ بِمَكَّةَ . الْحَطَامُ : كَسْبُ الدُّنْيَا . انْتَضَمْتُ : ارْتَفَقْتُ .
كَنْجُومُ اللَّيْلِ ، أَيْ هُمْ أَشْرَافُ وَأَهْلُ أَحْسَابِ . جَرِيَّةٌ : انْصِبَابٌ . الإِذْلَاجُ :
سَيْرُ اللَّيْلِ . تَأْوِيبٌ : سَيْرُ النَّهَارِ . إِيحَافٌ : إِسْرَاعٌ . تَقْرِيبٌ : جَرِيٌّ مُتَقَارِبٌ .
حَبَّتْنَا : أَوْصَلْتَنَا وَأَعْطَتْنَا . الثَّحْفَةُ : الْهَدِيَّةُ . إِيصَالِنَا : تَوْصُلُنَا .

الجُحْفَةُ مِيقَاتُ أَهْلِ الشَّامِ وَمِصْرَ وَالْمَغْرِبِ ، وَبَيْنَهَا وَالْبَحْرَ ثَمَانِيَةُ أَمْيَالٍ .
حَلَلْنَاهَا : نَزَلْنَاهَا فِيهَا . الإِحْرَامُ : الدُّخُولُ فِي الْحَرَمِ . مُتَبَاشِرِينَ : يَبْشُرُ
بَعْضُنَا بَعْضًا . بِإِدْرَاكِ الْمَرَامِ : بَلُوغِ الْحَاجَةِ . أَنْخَأَ الرِّكَائِبَ : بَرَكْنَا الْإِبِلَ

بالأرض . حططنا الحقائق : أنزلنا الأحمال عن ظهورها . الهضاب : الكدَى ،
واحدتها هَضْبَةٌ . ضاحى الإهاب : بارز الجلد ، أى ثوبه خَلَقَ لا يستره .
النَادَى : المنزل . هَلَمْ ، أى أقبلوا . يوم التنادى ، أى يوم البعث لاجتماع الناس
فيه ، أو لأنه ينادى للحساب . انخرط : اندفع بسرعة . الحجيج : اسم للجماعة
الحجَّاج . انصلتوا : خرجوا إليه مسرعين . احتفوا : استداروا : وأنصتوا :
سكتوا . تأفَّهم : اجتمعهم وثبوتهم حتى صاروا له كالأنثى للقدْر . استطاعهم
قوله : استدعاءهم كلامه . تسَمَّ : ارتفع عليها ، وأصل « تسَمَّ » ركب البعير ،
الآكام : الكدَى .

يَا مُعْشَرَ الْحَجَّاجِ ، النَّاسِلِينَ مِنَ الْفِجَاجِ ، أَتَعْقِلُونَ مَا تَوَاجِهُونَ ،
وإِلَى مَنْ تَتَوَجَّهُونَ ! أَمْ تَدْرُونَ عَلَى مَنْ تَقْدَمُونَ ، وَعَلَامَ تُقْدِمُونَ !
أَتَخَالُونَ أَنَّ الْحِجَّ هُوَ اخْتِيَارُ الرَّوَاحِلِ ، وَقَطْعُ الْمَرَاكِجِ ، وَاتِّخَاذُ
الْحَامِلِ ، وَإِيقَارُ الزَّوَامِلِ ! أَمْ تَظُنُّونَ أَنَّ الذُّسُكَّ هُوَ نَضْوُ
الْأَرْدَانِ ، وَإِنْضَاءُ الْأَبْدَانِ ، وَمُفَارَقَةُ الْوُلْدَانِ ، وَالتَّائِي عَنْ الْبُلْدَانِ !
كَلَّا وَاللَّهِ ، بَلْ هُوَ اجْتِنَابُ الْخَطِيئَةِ ، قَبْلَ اجْتِلَابِ الْمَطِيئَةِ ، وَإِخْلَاصُ
النِّيَّةِ ، فِي قَصْدِ تِلْكَ الْبَيْتَةِ ، وَإِمْحَاضُ الطَّاعَةِ ، عِنْدَ وَجْدَانِ
الاسْتِطَاعَةِ ، وَإِصْلَاحُ الْمُعَامَلَاتِ ، أَمَامَ إِعْمَالِ الْيَعْمَلَاتِ !

...

الناسلين : المسرعين . الفِجَاجِ : الطرق . وتعقلون : تفهمون . تواجهون :
تستقبلون بوجوهكم ، يريد البيت . إلى مَنْ تَتَوَجَّهُونَ : تقصدون . الرواحل :

الإبل . المراحل : المواضع يُرحل إليها وينزل فيها . الحامل : آلات من خشب يركب عليها ، واحداها محمل ، يقال : إن الحجاج أول من أحدثها ، ولذلك قال الشاعر :

أول عبد صنع الحاملا أخزاه رنى عاجلا وآجلا

قوله : لزوامل : جمع زاملة ، وهى البعير وغيره من الدواب يحمل عليها الطعام . وإيقارها : رفع الأوقار عليها ، وهى الأحمال ، والوقر : الحمل . النسك : التعمّد ، نضو الأردن ، تجريد المحيط من الثياب . العنأى : التباعد . اجتناب بُعد ، واجتنبه : بعدت عنه وتركته . الخطيئة : الذنب ؛ يريد أن أول ما يجب على الحجاج أن يقدموا التوبة . والبنية ، هى الكعبة . إمحاض : إخلاص . وُجدان : إصابة . الاستطاعة : القدرة على الشيء ، وهى شرط وجوب الحج . المعاملات : الأفعال التى يتعامل بها الناس بينهم من المبيعات وغيرها ، وأراد إصلاح فعل العبد بينه وبين ربه . إعمال اليعمّلات : استعمال الإبل للمشى ، واليعمّلة : الناقة تعمل كثيرا فى المشى .

• • •

فوالذى شرع الناسك للناسك ، وأرشد السالك فى الليل الحالك ، ما يُنقى الاغتسال بالذنوب ، من الانغماس فى الذنوب ، ولا تعدل تغرية الأجسام ، بتعبه الأجرام ، ولا تُفنى لبسة الإحرام ، عن المتلبس بالحرام ، ولا ينفع الاضطباع بالإزار ، مع الاضطلاع بالأوزار ، ولا يُجدي التقرب بالخلق ، مع الثقل فى ظلم الخلق ، ولا يرحض التنسك فى التقصير ، درن التمسك بالتقصير ، ولا يسعد بعرفة ، غير أهل المعرفة ، ولا يزكو بالخيف ، من يرغب فى الخيف ، ولا يشهد المقام ،

(٢ - شرح مقامات المريرى ج ٤)

إِلَّا مَنْ اسْتَقَامَ ، وَلَا يَحْطَى بِقَبُولِ الْحُجَّةِ ، مَنْ زَاغَ عَنِ الْحُجَّةِ ،
فَرَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا صَفَا ، قَبْلَ مَسْعَاهُ إِلَى الصَّفَا ، وَوَرَدَ شَرِيعَةً
الرِّضَا ، قَبْلَ شُرُوعِهِ عَلَى الْأَصَا ، وَنَزَعَ عَنْ تَلْيِيسِهِ ، قَبْلَ نَزْعِ
مَلْبُوسِهِ ، وَفَاضَ بِمَعْرِفِهِ ، قَبْلَ الْإِفَاضَةِ مِنْ تَعْرِيفِهِ . ثُمَّ رَفَعَ
عَقِيرَتَهُ بِصَوْتٍ أَسْمَعَ الصُّمَّ ، وَكَادَ يُزْعِزُ الْجِبَالَ الصُّمَّ .

* * *

شرع : فرض . المناسك : مواضع الذبح والنحر ، والمناسك : الذي يأتي
بنسك ، وهو ما يُذبح أو ينحر في الحرم . أرشد السالك : على الطريق للمشى
فيها . الحالك : الشديد السواد . الذنوب : الدلو . الانهاس : الغطس ، يريد
أن التطهر لا يزيل الذنوب . وما أحسن قول الحلواني في غلام وسيم أراد
النهوض للحج :

يَا طَالِبَ الْحَجِّ وَهُوَ ذُو صِفَرٍ عَجَلْتَ فَاسْتَأْنِهِ إِلَى الْكَبَرِ^(١)
إِنْ كُنْتَ تَبْغِي مَثْوًى فَعَسَى تَحْمِلُ لِي قُبْلَةً إِلَى الْحَجَرِ
وَأِنْ زَمَيْتَ الْجَارَ فَارْمِ بِهَا كُلَّ فُؤَادٍ عَلَيْكَ لَمْ يَطِرْ
فَقَالَ دَعْنِي وَزَمَزَمًا فَعَسَى أَغْسِلْ عَن وَجْنَتِي دَمَ الْبَشَرِ

قوله : تعجل ، أى تقاوم وتساوى . الأجرام : الأجسام ، واحدها جِرم .
تعبئة الأجرام : تحمل أعباء الذنوب . لبسة : هيئة اللباس . التلبس : التعلق
والاختلاط . الاضطباع : الاشتغال والالتحاف ، واضطبع الرجل بثوبه ، إذا
أدخله تحت عضده الأيمن وألقاه على منكبيه الأيسر ، والاضطلاع : القيام بها .
والأوزار : أقال الذنوب . يجدى : ينفع . يَرَحُصُ : يغسل . التقصير : الأخذ
من الشعر . دَرَنَ : وسخ . التمسك : التعلق . التقصير : التضييع ، وترك الاجتهاد ،

(١) الذخيرة لابن بسام ٢٢١/١/٤ ، وهو الشاعر الأندلسي عبد الكريم بن فضال ،
المعروف بالحلواني .

عَرَفَة: يوم من أيام الحج، سُمِّيَتْ بذلك لأنَّ آدم عليه السلام لما أهبط من الجنة، نزل بالهند، وحواء بجدة فالتقيا بعرَفة، فسُمِّيَ موضع التقائهما ويوم التقائهما عَرَفَة، وقيل: هي من العرف وهو الصَّبر، ورجل عارف، أى صابر، فسُمِّيَ الموضع عرفة لصبر الناس على القيام به للدعاء. وقيل: هي من العرف، وهو الرِّيح الطَّيِّبة، لأنها طيِّبة بنسبتها إلى منى لما بعث من أقدار الفروث والدماء لأنَّ بمنى يُنحر الهدى. يزكو: يكون نامياً، والزكاه: النماء والصلاح. والخيف: موضع بمكة سمي بالخيف، وهو ما ارتفع من الأرض عن موضع السيل، وانحدر عن غِلَظ الجبل. والخيف: الظلم. يحظى: يسعد ويظفر. زاغ: مال وخرج. الحجَّة: الطريق المستقيم. صفا: خلص قلبه. مَسْعاه: سعيه وجريه. الصفا: صخرة بمكة. ورد: دخل. شريعة الرِّضا: طريقة الخير، والشريعة في النهر والغدير: الطريق. يهبط عليه إلى الماء، وبه سُمِّيَتْ شريعة الدين لأنه طريق موصل إلى الله تعالى، فورَد الشريعة، دخل فيها، ووصل إلى الماء، وشرعت الدواب في المساء: دخلت فيه. الأضا: الغدران. نزع: زال وكف. تليسه: تخليطه، والإفاضة: آخر الطواف. تعريفه: وقوفه بعرَفة. عقيرته: كناية عن صوته يُزعزع: يحرك. الشم: المرتفعة.

* * *

وأنشد:

ما الحجَّ سَيْرُكَ تَأْوِيّاً وَإِدْلَاجاً ولا اعتيائُكَ أجمالاً وأخذاجاً
الحجُّ أنْ تَقْصِدَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ عَلَى
تَجْرِيدِكَ الْحَجَّ لَا تَقْضِي بِهِ حَاجَا
وَتَمْتَطِي كَاهِلَ الْإِنصَافِ مُتَّخِذاً
رَدْعَ الْهَوَى هَادِياً وَالْحَقَّ مِنْهَا جَا

وَأَنْ تَوَاسَى مَا أُوتِيتَ مَقْدَرَةً مَنْ مَدَّ كَفًّا إِلَى جَذْوَاكَ مُحْتَاجَا
فهذه إِنْ حَوَّتْهَا حِجَّةٌ كَمَلَتْ وَإِنْ خَلَا الْحَبِيطُ مِنْهَا كَانَ إِخْدَاجَا
حَسْبُ الْمَرَاتِينِ غَبْنًا أَنَّهُمْ غَرَسُوا

وَمَا جَنَوْا وَلَقُوا كَدًّا وَإِزْعَاجَا
وَأَنَّهُمْ حُرِمُوا حِرْزًا وَمَخِيذَةً

وَأَلْحَوْا عِرْضَهُمْ مَنْ عَابَ أَوْ هَاجَى
أَخِيَّ فَايْغِبْ بِمَا يُبْدِيهِ مِنْ قُرْبِ وَجْهِ الْمُهَيِّمِ وَلَا جَا وَخَرَّاجَا
فَلَيْسَ تَخْفَى عَلَى الرَّحْمَنِ خَافِيَةٌ

إِنْ أَخْلَصَ الْعَبْدُ فِي الطَّاعَاتِ أَوْ دَاجَى
وَبَادِرِ الْمَوْتِ بِالْحُسْنَى تَقَدَّمَهَا

فَا يُنَبِّئُهُ دَاعِي الْمَوْتِ إِنْ فَاجَا
وَإِنَّ التَّوَاضُّعَ خُلُقًا لَا تَزِيلُهُ عَنْكَ اللَّيَالِي وَلَوْ أَلْبَسْنَكَ التَّاجَا
وَلَا تَشِمُ كُلَّ خَالٍ لِأَخٍ بَارِقُهُ

وَلَوْ تَرَأَى هَتُونَ السَّكْبِ ثَجَّاجَا
مَا كُنْ دَاعٍ بِأَهْلٍ أَنْ يُصَاحَ لَهُ

كَمْ قَدْ أَصَمَّ بِنْعِي بَعْضُ مَنْ نَاجَى
وَمَا اللَّيْبُ سِوَى مَنْ بَاتَ مُقْتَنِعًا

يُلْفِئَةُ تُدْرِجُ الْأَيَّامَ إِذْ رَاجَا
فَكُلُّ كَثْرٍ إِلَى قُلٍّ مَغْبِيَّةٌ وَكُلُّ نَازٍ إِلَى لَيْنٍ وَإِنْ هَاجَا

اعتيامك : اختيارك . أخذاجاً : جمع حُدْج ، وهو ما يجعل على ظهر البعير ، يُركب عليه . حاجاً : جمع حاجة . تمتطى : تركب . كاهل : مقدّم الظهر . رذع : كفّ وردّ . هادياً : دليلاً . منهاجا : طريقاً . تواسى : تعطى . جدّواك : عطيتك . حَوَّتها : جمعتها . إخذاجاً : نقصاناً . المرائين : المظلمين الخير ، وهم على خلافه . وحَسَب ، بمعنى يكفي . كدّاً : عجلة وشدة . الإزعاج : ضد السكون والقرار ، وأزعجته : لم تدعه يستقرّ . حرزا : تحصيل ، وأحرزه : جعله تحت حرز . ألمجوه : أمكنوه من لجه . العِرض : ما يسبّ من الرجل أو يمدح . هاجى : شاتم وسابّ .

[ذكر المرائين وما قيل فيهم]

ومما قيل في الرياء : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إياكم والشرك الأصغر . قالوا : وما الشرك الأصغر ؟ قال : الرياء » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لا رياء ولا سُمتة مَنْ يسمع بِسْمِ اللَّهِ به » . وقال صلى الله عليه وسلم : « من أسرّ سريرة ألبسه الله رداءها ؛ إن خيراً نغير ، وإن شراً فشر » .

وقال : « مَنْ أصلح سريرته ، أصلح الله علانيته » .

وقال الشاعر :

ولإذا أظهرت شيئاً حسناً فليكن أحسن منه مائسراً
فمسيرُ الخير موسومٌ به ومسيرُ الشرِّ موسومٌ بشرّاً

وقال يحيى بن أكنم :

يقول لى القاضى معاذ مشاوراً وولى أمراً فيما يرى من ذوى الفضل
بميشيك ماذا تحسبُ المرء فاعلا فقلت وماذا يفعل الذئب فى القحل !
يدقُ خلاياها وبأكلُ شهدها ويترك للزُّبَال ما كان من فضل

وأنشد الفرزدق :

رئيس السوق محمود السجايَا يقصر عن مدائحه البليغُ
نسميه بيحيى وهو ميت كما أن السليم هو اللديغُ
يعاف الورذ إن ظمئت حشاهُ وفي مال اليتيم له ولوغُ
ولالأبيض في الفقهاء المرائين :

أهل الرياء لبستمُ ناموسكمُ كالذئب يدلج في الظلام العائِمُ^(١)
فلستمُ الدنيا بمذهب مالكُ وقستمُ الأموال بآبن القاسمِ
وركبتُمُ شُهْبَ البغال بأشهبِ وبأصغر صبغت لکمُ في العالمِ^(٢)

وله في نحوه أيضاً :

قل للإمام سنا الأئمة مالكُ نورُ العيون ونزهةُ الأسماعِ^(١)
لله درك من همام ماجدٍ قد كنت راعيناً فنعم الرّاعى
فمضيت محمود التقيية طاهراً وتركنا قنصاً لشرّ سبعِ
أكلوا بك الدنيا وأنت بمعزلٍ طاول الحشى متكفّت الأضلاع
تشكوك دنيا لم تزل بك برّةً ماذا رفعت بها من الأوضاع !

وفي الإمبرائيات : جاءت عصفورة ، فوقفت على فنج ، فقالت له : ما لى أراك منحنيًا ؟ قال : لكثرة صلاتى انحنيت ، قالت : فما لى أراك بادية عظامك ؟ قال : لكثرة صيامى بدت عظامى ، قالت : فما هذا الصوف عليك ؟ قال : لزهادتى لبست الصوف ، قالت : فما هذه الحبّة فى يدك ؟ قال : قربان إن مرّ بى مسكين ناولته إياها ، قالت : فإنى مسكينة ، قال : خذها فقبضت على الحبّة ، فإذا الفخ فى عنقها ، فصاحت : قعى قعى . تفسيره : لا غرنى وراء بعدك أبدا .

(١) نفع الطيب : ٣ : ٤٤٨ .

(٢) ابن القاسم وأشهب وأصبع ، من فقهاء المالكية .

قال الشاعر :

نعوذ بالله من أناسٍ تشيخُوا قَبْلَ أن يَشِيخُوا
تَقَوَّسُوا وانحنُوا رِياءً فاحذرهُمُ إنَّهُمُ فخوخُ
وكان صائدٌ يصيدُ العَصافيرَ في يومٍ باردٍ ، فكان يذبحها والدموع تسيل ،
فقال عصفور لصاحبه : لا بأس عليك من الرجل ، أما تراه يبكي ! فقال له الآخر :
لا تنظر دموعه ، وانظر ما تصنع يداه .

ورأى بعضهم ثم هتك الله ستره ، فقال :

يَينأُ أنا في توبتي مقبلاً قد شبهوني بآبنِ دَوادٍ
وقد حملتُ العلمَ مستظهِراً وحَدَّثُوا عني بِإِسنادٍ
إذ خطر الشيطانُ بي خَطَرَةً نَكَّستُ منها في أبي جادٍ
ابن دَوادٍ : عابدٌ بمكة .

صلى رجل مرأه فتيل له : ما أحسن صلاتك ! قال : ومع ذلك فإنى صائم .
وقال طاهر بن الحسين لأبي عبد الله المروزي : كم لك منذ نزلت العراق ؟
قال : منذ عشرين سنة ، وأنا أصوم الدهر منذ ثلاثين سنة ، قال : يا أبا عبد الله
سألتك عن مسألة فأجبنا عن مسألتين .

وأمر عمر لرجل بكيس ، فقال : آخذ الخيط ؟ فقال عمر : ضع الكيس .
وكتب رجل عند الحسين كتاباً فقال : أتجعلني في حلٍّ من تراب الحائط ؟
فقال : يا أخى بل ورعك لا يتكسر .
وأخبارهم كثيرة .

* * *

قوله : انزع أى اطلب : القرب : أفعال البر التي تقرب من الله تعالى ، واحدها
قُرْبَةٌ . ولأجاً وخرأجاً ، أى كيف تصرف فيها . داجى : سائر العداوة وناقى .

الحسنى : اسم لفعل الحسن ، وتكون الحسنى مؤنثة الأحسن فتلزمها اللام ، كالكبرى والأكبر وبابه ، وتكون الحسنى كاللشرى والرُجعى .

ينهنه يزجر ويكف . فاجى : جاء بفتة ، ول بعضهم :

وهل نحن إلا سراى السهام ويحفزها نابله دائب
طرائد تطلبنا النائبات ولا بد أن يدرك الطالب
حبائل للدهر مبثوثة يرد إلى جذبها الهارب
وقال آخر فى معناه :

تخاربنا جنود لا تجارى ولا تلقى بأساد الحروب
تفوق أسما عن ظهر غيب وما أغراضها غير القلوب
فأتى باحتراس من جنود مؤيدة تمتد من الغيوب

وقال ابن جبلة :

وأرى الآلى ما طوت من شيرتى زادته فى عظمى وفى إفهامى^(١)
وعلمت أن المرء من سنن الردى حيث الرمية من سهام الرامى
قوله : أقن ، أى اكتسب والتزم . خلقا : طبيعة .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من تواضع لله رفعه الله » .

وقالت الحكماء : كل ذى نعمة محسود عليها إلا المتواضع .

وقال عبد الملك : أفضل الرجال من تواضع عن رفعة ، وعفا عن قدرة ، أنصف عن قوة .

وقال رجل لبكر بن عبد الله : علمنى التواضع ، فقال له : إذا رأيت من وأكبر منك فقل : سبقتنى إلى الإسلام والعمل الصالح فهو خير منى ، وإذا رأيت هو أصغر منك ، قل : سبقته إلى الذنوب فهو خير منى .

وقال أبو العتاهية :

يامن تشرفَ بالدنيا ولذتها ليس التشرفُ رفعَ الطَّينِ بالطَّينِ^(١)
إِذَا رَأَيْتَ شَرِيفَ الْقَوْمِ كُلِّهِمْ فَانْظُرْ إِلَى مَلِكٍ فِي زِيٍّ مَسْكِينٍ
وقال أبو الفتح البستي :

من شاء عيشاً رغيداً يستفيدُ به في دينه ثمَّ في دنياه إقبالا^(٢)
فلينظرنَّ إِلَى مَنْ فَوْقَهُ أَدْبَاً ولينظرنَّ إِلَى مَنْ دُونَهُ مَالاً
قوله : لا تَشُمُّ ، أي لا تنظر . خالٍ : سحاب . لاح بارقه ، ظهر برقه : تراءى :
تظاهر . هَتُون : كثير الماء . السَّكْب : الصَّبَّ ثجاجاً : صتاباً ، ثَج الماء ينثج ثجاجاً
ويججته أنا . يُصاخ : يسمع . أَسَم : كسب الصمم . والتمى : الخبر بالموت .
ناجى : حَدَّث . اللبيب : العاقل . بُلغة : قوت يوم . تدرج تطوى . كُثِر :
كثرة . قُل : قلة . مغبته : عاقبته وآخره . ناز : مرتفع ، ونزاً الفحل ينزو نزواً :
قفز على الأثني . لين : فتور . هاج : اضطرب ، ويروى : « وكل نازٍ إلى لين » وهو
الصحيح ، أخذه من المثل : فلان ينزو ويلين ، يقول : لانتخدع بما يكون له ظهور
في ملبسه ومعيته ، فقد يخيب ظنك وتقلَّ فائدته ، أو يكون مضرّاً لانفعاً كما قد
ينادى بك ، فتظنَّ النداء لمنفعة ، فإذا سمعته فاجأك بمصيبة . وأخذ لفظ « كم قد أَسَم »
بمعنى : من قول أبي تمام :

أَسَمَ بِكَ النَّاعَى وَلَمَّا كَانَ أَسَمَاءً فَأَصْبَحَ مَعْنَى الْجُودِ بَعْدَكَ بَلَقَاءً^(٣)
والسابق إلى هذا المعنى جَزَوْ بنِ ضِرَار ، أخو الشماخ بقوله :
أَتَانِي فَلَمْ أَسْرُرْ بِهِ حِينَ جَاءَنِي حَدِيثٌ بِأَعْلَى الْقَبْتَيْنِ عَجِيبُ
تصامته حتى . أَتَانِي بَقِينَةٍ وَأَفْرَغَ مِنْهُ مَخْطِئاً وَمَصِيبُ
وقال المتنبي :

طَوَى الْجَزِيرَةَ لَمَّا جَاءَنِي خَبْرُ فَرَعَتْ مِنْهُ بِأَمَالِي إِلَى السَّكَدِ^(٤)

(٢) يتيمة لدهر ٤ : ٣٠٧

(٤) ديوانه ١ : ٨٧ ، ٨٨

(١) ديوانه ٢٧٤

(٣) ديوانه ٣٧٤

حتى إذا لم يدع لي صدقه خبراً شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي
أشار بعد ذلك بالبيتين إلى القناعة ، وأن كثير الدنيا مصيره إلى قليل ، وقد
تقدم أمثال هذا .
وقال أبو تمام :

يا قليل البقاء في هذه الدار ر إلى كم يفرك التسويف^(١)
عجباً لأمري يذلّ لدى الما ل ، ويكفيه كل يوم رغيّف
ولابن عمران :

عجباً لنا نبغى الغنى والفقر في نيل الغنى لو صحت الألباب
فيما يبلغني الحلّ كفاية والفضل فيه تكاثر وحساب

* * *

قال الراوي : فلما ألقح عُقم الأفهام ، يسخر الكلام ،
استزوّخت ريح أبي زيد ، وما د بي الارتياح إليه أيّ ميسد ،
فكشت حتى استوعب نث حكمتيه ، وانحدر من أكمته .
ثم دلفت إليه ، لأتصفّح صفحات مخياه ، وأستشفّ جوهر
خلاه ؛ فإذا هو الضالة التي أنشدّها ، ونأظم القلائد التي
أنشدّها ، فعاثته عناق اللام للآلف ، ونزلته منزلة البرء
عند الدنف . وسألته أن يلازمني فأبى ، أو يزاملني فنبأ ، وقال :
آليت في حجتي هذه ألا أحتقب ولا أعتقب ، ولا أكتسب
ولا أنتسب ، ولا أرتفق ولا أرافق ، ولا أوافق من ينافق .

(١) لم أجدها في ديوانه .

ثم ذهب يُزَوِّل ، وغَادَرَنِي أَوَّلُول .

فلم أَزَلْ أَقْرِيبَهُ نظري ، وأودَّ لو يَمْشِي عَلَى نَاطِرِي ، حَتَّى
تَوَقَّلَ أَحَدَ الْأَطْوَادِ ، وَوَقَّفَ لِلْحَجِيجِ بِالْمِرْصَادِ .

فلما شاهدَ إِضْغَاعَ الثَّرْكَانِ فِي الْكَشْبَانِ ، وَقَعَ بِالْبَنَانِ عَلَى الْبَنَانِ .

• • •

قوله : فلما أَلْقَحَ عُقْمَ الْأَفْهَامِ ، أَى جَعَلَ الْعَقِيمَ مِنْهَا حَامِلًا بِالْعِلْمِ وَالْفَهْمِ .
استروحت : شمت فوجدت رَأْمَتَهُ . مَادَ : مَال . الْارْتِيَا ح : الطَّرَب . مكثت :
أَقَمْتُ . أَسْتَوْعِبَ : أَسْتَوْفَى : نَتَّ : نَشَرَأ . كُذِّبَتْهُ ^(١) . دَلَفَتْ : أَسْرَعَتْ .
أَنْصَفَحَ : أَنْظَرَ . صَفَحَاتُ مَحْيَاهُ : جِهَاتُ وَجْهِهِ . أَسْتَشَفَّ : أَبَالِغُ النَّظَرَ فِيهَا .
جَوْهَرُ حُلَاهُ : خَلْقَةُ صِفَاتِهِ . أَنْشَدَهَا : أَطْلَبَهَا . الْقَلَائِدُ : جَمْعُ قَلَادَةٍ ، وَهِيَ مَا يُجْعَلُ
فِي الْعُنُقِ مِنْ سُلُوكِ الْجَوْهَرِ وَغَيْرِهَا ، وَمِنْهُ تَقْلِيدُ الْبُذْنِ بِمَكَّةَ ، وَتَقَلَّدَتْ
بِالسَّيْفِ : جَعَلَتْهُ فِي عُنُقِي ، وَقَلَّدَتْكَ الْأَمْرَ : جَعَلَتْهُ فِي عُنُقِكَ ، وَنَاطَمَ الْقَلَائِدُ : جَاعَلَهَا
فِي خَيْطِهَا ، وَيَعْنِي بِالْقَلَائِدِ مَا نَثَرَ مِنْ وَعْظِهِ ، وَأَنْشَدَهُ مِنْ شَعْرِهِ - وَصَدَّقَ لَعَمْرِي
إِنَّ كَلَامَهُ الْمَنْظُومَ وَالْمَشُورَ أَبْهَى مِنَ الْقَلَائِدِ فِي أَعْنَاقِ الْخِرَائِدِ .

وقوله : عَنَاقُ اللَّامِ لِلْأَلْفِ ، أَمَّا بِحِطِّ الْمَغْرِبِ فَلَا مَعَانِفَةَ بَيْنَهُمَا إِلَّا فِي
الطَّرَفَيْنِ ، وَرَبَّمَا وَقَعَتْ فِي بَعْضِ هَذَا الْخَطِّ كَالصَّالِبِ ، وَفِي بَعْضِهِ لَا التَّقَاءَ بَيْنَهُمَا
الْبَتَّةَ ، وَإِنَّمَا يَرِيدُ صُورَةَ لَامٍ أَلْفٍ بِالْخَطِّ الْكَوْفِيِّ ، وَهِيَ بِذَلِكَ الْخَطِّ مَتَعَانِفَتَانِ
مُتَلَازِمَتَانِ مِنَ الْأَعْلَى إِلَى الْأَسْفَلِ . وَأَخَذَ اللَّفْظَ مِنْ قَوْلِ بَكْرِ بْنِ خَارِجَةَ :

يَا مَنْ إِذَا قَرَأَ الْإِنْجِيلَ ظَلَّ لَهُ قَلْبُ الْحَنِيفِ عَنِ الْإِسْلَامِ مَنْصَرِفًا
رَأَيْتُ شَخْصَكَ فِي نَوْمِي يِعَانِقُنِي كَمَا تَعَانِقُ لَامُ السَّكَانِبِ الْأَلْفَا

(١) السَّكْدِيَّةُ : الْأَرْضُ الْغَلِيظَةُ .

[مما قيل في العناق من الشعر]

ونذكر هنا ما يستحسن في العناق ، قال البحتري :

تلك نِعْمٌ لو أنعمت بوصولٍ لشكرنا في الوصل لإنعام « نعم »^(١)
 نسيّت موقف الجمارِ وشخصاً نا كشخصٍ ، أرمى الجمارَ وترى
 وقال أيضاً :

ولم أسَ ليلتنا في العنا قِ لَفَ الصَّبَا بقضيب قضيباً^(٢)
 كما مرّت الريح في سيرها فطوراً خفوقاً ، وطوراً هبوباً
 وقال ابن المعتز :

كأنما عانت ريحانةً تنفّست في ليلها البارد^(٣)
 فلو ترانا في قميص الدُّجَى حسبتنا من جسدٍ واحدٍ

وقال عليّ بن الجهم :

سقى الله ليلاً ضمناً بعد هجمةٍ وأدنى فؤاداً من فؤاد معذب^(٤)
 فبقنا جميعاً لو تُراق زجاجةٌ من الماء فيما بيننا لم تسربِ
 وقال ابن عبدوس الناصبي : سرتُ يوماً إلى ابن الجهم ، فأشدني البيتَين
 في العناق ، فاقترح زندي لإيراد مثله ، فقلت :

لا وللنازل من نجدٍ وليكنّا بميد إذ جسدانا بيننا جسدُ
 كرام فينا الكرى مع لطف مسلكه نوما فما انفك لا خدٌ ولا عضدُ
 ما أنصفوني ، دعوني فاستجبت لهم حتى إذا قربوني منهم بُعدوا

أخذ هذا البيت من قول الآخر :

أشكو الذين أذاقوني مودتهم حتى إذا أيقظوني للهوى رقدوا

(١) ديوانه ١٩٤٠ (٢) ديوانه ١٥٠ (٣) ديوانه ٧٧
 (٤) للعباس بن الأحنف ؛ ديوانه ٨٤

وقال أبو نواس :

لبسنا رداء الليل والليل راضعٌ إلى أن تردّي رأسه بمشيبِ
وبنّنا كفصنّى بانهٍ عصفتُما مع الصّبح ريحاً شمال وجنوبِ
إلى أن بدّا ضوء الصّباح كأنه مبادئ نصول في عذار خضيبِ
فيا ليلُ قد فارقبتَ غير مذمّمٍ وباصبح قد أصبحتَ غير حبيبِ

قال صالح بن موسى :

لى سيّد ما مثله سيّدٌ تصدّتِ الحتمى له فاشتكى
عاقته عند موافقها والأفق بالليل قد أحلّوكا
فجاءت الحتمى لعاداتها فلم تجد ما بيننا مسلكا

ولابن الرومي :

طالما التفت إلى الصبِّ يح لنا ساقٌ بساقِ
في نقابٍ من ودادٍ ولثامٍ من عناقِ

وقال أيضاً :

أعانقها والنفس بعد مشوقةً إليها وهل بعد العاق تدان^(١)
وألّم فاما كي تموت حرارتى فيشتدّ ما ألقى من الهيمانِ
كان فؤادى ليس يشفى غليله سوى أن يرى الروحانيّ ممتزجانِ

وقال ابن المعتز :

ياربّ فتیان محبتهم ——— لا يرفعون لسلوة قلبا
لو تستطيع قلوبهم نفذت أجسامهم فتعانت حبا

وقال ابن رشيقي :

ومفهفٍ يحميه عن نظر الوري
فلثمتُ خدًا منه ضرْمَ لوعي
وضمته للصدر حتى استوهبت
فكان قلبي من وراء ضلوعه
وقال ابن لبّال :

ما كنت أحسب قبل رؤية وجهه
غازلته حتى بدا لي ثغره
كم ليلة عانته فكأنما
يطنى وياعب عند عقد سواعدي
وقال آخر :

مشتاقة طرقت في الليل مشتاقا
يا زائرا زار من قُرب على بُعد
يا ليل عرج على إلفين قد جملا
وقال ابن الزقاق :

ومرّجة الأعطاف أمّا قوامها
سريت^(٢) فبات الليل من قصرها
وبت وقد زارت بأنعم ليلة
على عاتق من ساعدتها خمائل^(٣)
فلدن^(١)، وأما ردفها فرداح^(٢)
يطير وما غير السرور جناح
يعانقني حتى الصباح صباح
وفي خصرها من ساعدي وشاح

(١) نقله في التنف ١٣ .

(٢) ديوانه ١٢٩ والرداح : الضخمة .

(٣) ديوانه « ألت »

ونظير هذا قول برهون الغرناطي :

لله درّ ليلٍ ما أَحْسَنَهَا وما أَحْسَنَ منها لَيْلَةَ الْأَحَدِ
لو كنتَ حاضِرًا فيها وقد غفلتُ عينُ الرقيب فلم تنظر إلى أَحَدِ
أبصرتُ شمس الضحى في ساعدي قمرٍ ريمٌ مُوسِدةٌ في ساعدي أُسَدِ

وقال ابن قاضي ميلة :

حيث التقى أُسْدُ العرين وطِيبَةٌ تحت اللعاف وصارِمٌ وَسِوَارُ
قالت أرى بيني وبينك ثالثًا ولقد عهدتكَ، للدخيل تغارُ
أُؤْمِنْتُ نَشَرَ حَدِيثِنَا فَأَجَبْتُهَا هذا الذي تُطَوِّى له الْأُمُرَارُ
أخذ هذا من قول امرئ القيس :

تجافى عن المأثور بيني وبينها وتُذَنِّي على السَّابِرِيِّ المضلَعَا^(١)
يعنى بالمأثور السيف .

قوله : الدِّف : المريض . يُرَامَلْنِي : يرادفني ، والزَّمِيل : الرديف . نَبَاً :
ارتفع وامتنع . أحتقب : أركب موضع الحقيبة ، وهى ما يملأ خلف الراكب ،
فيريد أنه حلف ألا يكون رديفاً ، ويريد بأحتقب أأخذ حقيبة للزَّاد ، يريد أنه
لا يحمل زاداً انكالا على ما عند الله تعالى . أعتقب : أركب عقبة يعنى نوبة ،
وما يعتقبان ويتعاقبان ، إذا ركب أحدهما فجاء الآخر فكان مكانه ، والاعتقاب :
ركوب واحد ونزول آخر .

ولحاتم في المعنى :

وما أنا بالساعي بفضل زمامها لتشرب ماء الحوض قبل الركائب^(٢)

وَمَا أَنَا بِالطَّائِىِ حَقِيقَةً رَحَلَهَا لِأَبْعَثَهَا خِفَا وَأَنْزَلَ صَاحِبِي
 إِذَا كُنْتَ رَبًّا لِلْقُلُوصِ فَلَا تَدْعُ رَفِيقَكَ يَمْشِي حَلْفَهَا غَيْرَ رَاكِبٍ
 أَنْحِيهَا فَأَرْدِفْهُ فَإِنَّ حَامَتَكُمَا فَذَلِكَ وَإِنْ كَانَ الْعَقَابُ فَعِصَابٍ
 أَرْتَفَقَ: أَسْتَعِينُ أَرَاغِقُ: أَطْلُبُ رَفِيقًا. يَهْرُؤُلُ: يَسْرَعُ الْمَشْيَ. غَادَرَنِي: تَرَكَنِي
 أَوَّلُولُ: أَصْبَحُ: يَا وَيْلَى. أَقْرَبُهُ: أَتَبِعُهُ. تَوَقَّلْ: صَعِدْ. الْأَطْوَادُ: الْجِبَالُ.
 بِالْمُرْصَادِ: بِمَضِيقِ الطَّرِيقِ بِمَحِثٍ يَرْتَصِدُ فِيهِ جَمِيعُ النَّاسِ، وَالْمُرْصَدُ وَالْمُرْصَادُ عِنْدَ
 الْعَرَبِ الطَّرِيقُ. إِبْضَاعٌ: سُرْعَةٌ، وَقَدْ أَوْضَعَ فِي سِيرِهِ: أَسْرَعَ كَأَنَّهُ يَهْتَزُّ وَيَرْكُضُ.
 الْكُثْبَانُ: أَكْدَاسُ الرَّمْلِ. رَقَعَ: ضَرَبَ بِالْبَنَانِ عَلَى الْبَنَانِ، أَيْ صَفَّقَ
 بِيَدَيْهِ، وَقَدْ تَطَلَّقَ الْبَنَانُ مَرَادًا بِهَا الْيَدُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَضْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ
 بَنَانٍ﴾^(١)، أَيْ الْأَيْدَى وَالْأَرْجُلَ.

وَأَنْشُدِ الْفَنَجْدِيَّ:

أَقَامُوا الدَّيْدَبَانَ عَلَى يَفَاعٍ وَقَالُوا لَا تَنَمُ لِلدَّيْدَبَانَ
 إِذَا أَبْصَرْتَ ضَيْفًا مِنْ بَعِيدٍ فَوَقَّعَ بِالْبَنَانِ عَلَى الْبَنَانِ
 ثَرَاهِمَ خَشْيَةِ الْأَضْيَافِ خُرْسًا يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ بِلَا أَذَانٍ

* * *

وَأَنْدَفَعُ يَنْشُدُ:

لَيْسَ مَنْ زَارَ رَاكِبًا مِثْلَ سَاعٍ عَلَى الْقَدَمِ
 لَا وَلَا خَادِمٌ أَطَاعَا عَ كَمَا صِيَ مِنَ الْخَدَمِ
 كَيْفَ يَأْقُومُ يَسْتَوِي سَعَى بَانَ وَمَنْ هَدَمَ
 سَيَقِيمُ الْمَفْرَطُو نَ غَدَاً مَا تَمَّ النَّدَمُ
 وَيَقُولُ الَّذِي تَقَرَّرَ بَ: طَوَّبَى لِمَنْ خَدَمَ

وَيْكَ يَا نَفْسُ قَدِّمِي صَالِحًا عِنْدَ ذِي الْقَدَمِ
 وَازْدَرِي زَخْرَفَ الْحَيَةِ - لَافٍ فَوُجِدَانَهُ عَدَمَ
 وَاذْكُرِي مَصْرَعَ الْحِمَا م - إِذَا خَطْبُهُ صَدَمَ
 وَانْدُبِي فِعْلَكَ الْقَيِّمَ - ح - وَسِحِّي لَهُ بَدَمَ
 وَادْبُعِيهِ بِتَوْبَةٍ قَبْلَ أَنْ يَحْمَلَ الْأَدَمَ
 فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَقْسِيكَ السَّعِيرَ الَّذِي احْتَدَمَ
 يَوْمَ لَا عَثَرَةَ تُقَالُ وَلَا يَنْفَعُ السَّدَمَ

• • •

قوله : ليس من زار راكباً ... البيت . يريد أن ثواب الماشي في الحج أكثر من ثواب الراكب .

وقال ابن عباس لبنيه : اخرجوا من مكة مشاة ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنَّ للحاجَّ الراكب بكلِّ خطوة تخطوها راحلته سبعين حسنة ، وللماشي بكلِّ خطوة سبعمائة حسنة من حسنات الحرم ، قالوا : يا رسول الله ، وما حسنات الحرم ؟ قال : الحسنات منها بمائة ألف .

وقوله : سَعَى بَانَ وَمَنْ هَدَمَ ، من قول بشار :

مَتَى يَبْلُغَ الْبَنِيَانُ يَوْمًا تَمَامَهُ إِذَا كُنْتَ تَبْنِيهِ وَآخِرُ يَهْدِمَ

المقرطون : المقصرون . مَاتَمَ : مناحة . وَيَكُ : تعجب . اَزْدَرِي : احتقرى . زَخْرَفَ : زينة . وَجِدَانُ ، مصدر وجدت الشيء . اَنْدُبِي : ابكى . الْحِمَامُ : الموت . مَصْرَعُهُ : طَرْحُهُ للعت بالارض . خَطْبُهُ : أمره الشديد . صَدَمَ : ضرب ، والصَّدَمُ : ضرب الشيء الصلب بمثله ، وأراد أنه أصاب ، من قولهم : صدمهم أمر ، أى ضربهم . (٣ - مقالات الحريري ج ٤)

أصابهم . سِجِّي : ضُجِّي . يحلم : يتنقب . الأدم : الجلد ، وهو مثل يُضرب للشيء يفوت ، قال الشاعر :

* كدابةٍ وقد حلم الأديم^(١) *

السَّعِير : النار المتقدة . احتدم : التهب واشتد انتقاده . السَّدَم : همٌّ مع ندم .

* * *

ثمَّ إِنَّهُ أَغْمَدَ عَضْبَ لِسَانِهِ ، وَانْطَلَقَ لِشَانِهِ ، فَمَا زِلْتُ فِي كُلِّ مَوْرِدٍ نَزْدُهُ ، وَمُعَرَّسٍ تَتَوَسَّدُهُ ، أَتَفَقَّدُهُ فَأَفْقِدُهُ ، وَأَسْتَنْجِدُ بِمَنْ يَنْشُدُهُ فَلَا يَجِدُهُ ، حَتَّى خِلْتُ أَنَّ الْجِنَّ اخْتَطَفَتْهُ ، أَوِ الْأَرْضَ اقْتَطَفَتْهُ ، فَمَا كَابَدْتُ فِي الْغُرْبَةِ ، كَهَذِهِ الْكُرْبَةِ ، وَلَا مُنِيتُ فِي سَفَرَةٍ ، بِمِثْلِهَا مِنْ زَفَرَةٍ .

° ° °

عضب : حدّ ، وأراد بإغماده سكوته . لشانه : لأمره . مورد : موضع الماء . نزده : نقصده . معرّس : موضع النزول بالسَّحَر للاستراحة . تتوسّد : تنزل فيه . أتفقّد : أطلبه ، والتفقّد طلب المفقود ، قال الله تعالى : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ ﴾^(٢) ، طلبه بعد ما فقدّه . أستنجد : أستمع . ينشده : يطلبه . اختطفته : أخذته ، بسرعة . اقتطفته : اقتطعته . كابدت : قاسيت . الكربة : الهم . مُنيت : بُليت . زفرة : تنفّس المهموم .

(١) صدره :

* فَإِنَّكَ وَالْكِتَابَ إِلَى عَلِيٍّ *

من أبيات الوليد بن عتبة يحض فيها معاوية على قتال علي . الاسان - حلم .
(٢) سورة النمل ٢٠ .

ولأبي طالب الرقي في غلام محرم^(١) :
 ومشتعل عطف عفاف وفتنة
 يرى قتل من يهوى إلى النك مسلكا
 جنى اللحظ من خديه ورذا مكفورا^(٢)
 ومن عارضيه ياسمينًا ممسكا
 فيا رائحا منه بأوفر فتنة تجهز لعام بعد هذا لعلكا
 وقال صالح بن موسى :
 عشقت صوفيًا له شاهد
 يقيم عذري عند عذالي
 قد عبد الله بأحواله فليت
 ينظر في حالي

(١) أبو طالب الرقي من شعراء اليتيمة ، والأبيات في الجزء الأول فيها ص ٢٤٥ .

(٢) اليتيمة : «موردا» .

المقامة الثانية والثلاثون وتعرف بالطبيبة

حكى الحارث بن همام ، قال : أَجْمَعْتُ حِينَ قَضَيْتُ مَنَاسِكَ الْحَجِّ ،
وَأَقَمْتُ وُظَائِفَ الْعَجِّ وَالشَّجِّ ، أَنْ أَقْصِدَ طَيْبَةَ ، مَعَ رُقُقَةٍ مِنْ بَنِي
شَيْبَةَ ؛ لِأَزُورَ قَبْرَ الْمُصْطَفَى ، وَأَخْرُجَ مِنْ قَبِيلِ مَنْ حَجَّ وَجَفَا ،
فَأَرْجِفَ بَأْنَ الْمَسَالِكِ شَاغِرَةَ ، وَعَرَبَ الْحَرَمَيْنِ مُتَشَاكِرَةَ ،
فَحِرْتُ بَيْنَ إِشْفَاقٍ يُثَبِّطُنِي ، وَأَشْوَاقٍ تُنَشِّطُنِي ؛ إِلَى أَنْ
أُنْقِيَ فِي رُوعِي الْإِسْتِسْلَامَ ، وَتَغْلِبُ زِيَارَةَ قَبْرِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ
فَأَعْتَمْتُ الْقُعْدَةَ ، وَأَعْدَدْتُ الْمُدَّةَ ، وَسِرْتُ وَالرُّقُقَةَ ، لَا نَلْوِي
عَلَى عُرْجَةٍ ، وَلَا نَنِي فِي تَأْوِيلٍ وَلَا ذُلَّةٍ ، حَتَّى وَافَيْنَا بَنِي
حَرْبٍ ، وَقَدْ آبَوْا مِنْ حَرْبٍ ، فَأَزْمَعْنَا أَنْ نُنْقِضَ ظِلَّ الْيَوْمِ ،
فِي حِلَّةِ الْقَوْمِ .

أَجْمَعْتُ : عَزَمْتُ عَلَيْهِ كَأَنَّهُ جَمَعَ فَسَمِعَ لَهُ . وَمَنَاسِكَ الْحَجِّ : مَتَعَبِدَاتُهُ . وَظَائِفُ :
لَوَازِمُ ، وَالْوُظَائِفُ : النَّصِيبُ الَّذِي يَلْزَمُكَ عَزْمُهُ . الْعَجَّ : رَفَعَ الصَّوْتُ بِالتَّلْبِيَةِ ،
وَكَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا أَتَمُّوا حَجَّهُمْ يَتَفَاخَرُونَ بِمَا ثَرَأَبَاهُمْ ، فَأَمَرُوا بِالنَّهْيِ عَلَى
اللَّهِ تَعَالَى . وَالنَّجَّ : إِرَاقَةُ الدَّمَاءِ ، وَعَجَّ يَعْجُ عَجًّا وَعَجِيحًا : رَفَعَ صَوْتَهُ ، وَنَجَّجَتْ
الدَّمْعُ ، أَتَجَّهَ : أَسْلَمَتْهُ ، وَهُوَ لَازِمٌ وَمَتَعَدٌّ . وَسُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ عَنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ فَقَالَ : « الْعَجَّ وَالنَّجَّ » .

طَيِّبَةُ : مدينة النبي صلى الله عليه وسلم . بنو شيبَةَ : حَجَّابَةُ البيت ، وشيبَةُ هو عبد المطلب ، وَسُمِّيَ بذلك ، لأنه نشأ بالمدينة عند أخواله صغيراً ، فلما مات أبوه هاشم ذهب إليه المطلب ، فَأَتَى به فَرَأَهُ معه أهلُ مَكَّةَ فقالوا : ما هو إلا عبد اشتراه ، فغلب عليه عبدُ المطلب . جَفَأَ أراد به قول النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ حَجَّ البيت ولم يَزُرْنِي ، فقد جفاني ، وَمَنْ زارني بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من جاءني زائراً لايهته إلا زيارتي كان حقاً على الله أن أكون له شفيعاً يوم النيامة » . وفي رواية : « مَنْ زار قبري وَجَبَتْ له شفاعتي » .

وَأَرْجَفَ الرَّجُلُ : خاض في الفتنة والأخبار المسيئة . وشغَرَ الطريقُ : خلا من حُماته والمدينةُ خلت من حماتها ، وبلد شَاغَرَ ، بعيد من القاضى والسلطان ، فلا يمتنع مِنْ غارة أحد، والشَّغَرُ : التفرقة ، ومنه : خرجوا شَغَرَ بَغَر ، أى تفرقوا ، وشغَرَ عن بلده شَغَرًا وشَغَارًا ، إذا طرحوه ونفوه ، واشتغَرَتِ الحربُ بينهم : اتسعت وعظمت ، وامرأة شَاغِرَةٌ ، إذا رفعت رجليها السكَلَّ من نكحها ، والمعنى أَنَّ المسالك شَاغِرَةٌ ، أى أَنَّ الطرق مضطربة خالية من حماتها . الحرمين : مكة والمدينة . متشاجرة : مختلفة . إِشْفَاقٌ : خوف . يَبْطِطُنِي : يَحْبِسُنِي . تَنْشِطُنِي : تَحَرِّضُنِي . رُوعِي : نَفْسِي . الاستسلام : الانقياد لأمر الله تعالى . أَعْتَمَت : اخترت . الْقُعْدَةُ : الراحلة المتخذة للركوب . تَلَوَّى : تعطف . عُرْجَةُ شَيْءٍ : يُشْغَلُ لِيُعْرَجَ عليه . نَتْنِي : نفتر ، وتَأْوِيبٌ ودُلْجَةٌ : مشى النهار والسَّحَرُ ، والدَّلْجَةُ ، بضم الدال : الاسم من الإدلاج ، وهو سير جميع الليل ، والتأويب : سير النهار أجمع ، والدَّلْجَةُ ؛ بفتح الدال من الإدلاج بوزن الافتعال ؛ وهو أن يسير من آخر الليل . يعقوب : خرجنا بدُلْجَةٍ ودُلْجَةٍ : إذا خرجوا في آخر الليل . وافيناً :

وصلنا . آباؤا : رجعوا . أزمعنا : عزمنا . نقضى : فتم ، أراد عزمنا على أن نزل .
ونتم بقية يومنا عندهم ، وظل الشئ إنما يبقى ببقائه . والحلة : النزول ، والقوم :
اسم للجمع ، والحلة هيئة الحلول ، والحلة مجلس القوم ومجتمعهم ، لأنهم يحلونه ،
والجمع حلال ، والحلة جماعة بيوت الناس .

وبينا نحن نتخير المناخ ، وتروُد الورد النقاخ ، إذ رأيناهم
يزكضون ، كأنهم إلى نصب يوفضون ، فرأينا انثيالهم ،
وسأنا ما بالهم ؟ فقل : قد حضر ناديم فقيه العرب : فإهرأعهم .
لهذا السبب : فقلت لرفقتي : ألا تشهد مجمع الحى ، لتبين
الرشد من الغى ؟ فقالوا : لقد أسمعنا إذ دعوت ، ونصحت .
وما ألوت .

المناخ : موضع النزول . تروُد : نطلب . الورد النقاخ : الماء البارد العذب .
وأشد أبو على :

تركت النبيذ لأهل النبيذ وأصبحت أشرب عذبا نقاخا

سمى نقاخا ، لأنه ينقخ القواد بيرده ، أى يكسره . يركضون : يبحرون
مسرعين . نصب : صنم ، كانوا فى الجاهلية ينصبونه ، ويذبحون عليه لأوثانهم ،
وجمعه أنصاب ، والنصب : للشر ، قال الله تعالى : ﴿ بَنَصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ . يوفضون :
يسرعون . إهرأعهم : إسرأعهم ، وأهرع : أسرع فزعا مرتعدا . ويهرعون :
يستعثنون . ألوت : قصرت .

نَمْ نَهَضْنَا نَتَّبِعُ الْهَادِيَ ، وَنَوْمُ النَّادِي ، حَتَّى إِذَا أَظْلَمْنَا عَلَيْهِ ،
 وَاسْتَشْرَفْنَا الْفَقِيهَ الْمَنُودَ إِلَيْهِ ، أَلْفَيْتُهُ أَبَا زَيْدٍ ذَا الشُّقْرِ وَالْبُقْرِ ،
 وَالْفَوَاقِرَ وَالْفِقْرَ ، وَقَدْ اعْتَمَّ الْقَفْدَاءُ ، وَاشْتَمَلَ الصَّمَاءُ ، وَقَمَدَ
 الْقَرْفَصَاءُ ، وَأَعْيَانُ الْحَيِّ بِهِ مُحْتَقُونَ ، وَأَخْلَاطُهُمْ عَلَيْهِ مُلْتَفُونَ ،
 وَهُوَ يَقُولُ : سَأُونِي عَنِ الْمُعْضِلَاتِ ، وَامْتَوِضُوا مِنِّي
 الْمُشْكِلَاتِ ، فَوَالَّذِي فَطَرَ السَّمَاءَ ، وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ ، إِنِّي لَفَقِيهُ
 الْعَرَبِ الْعَرَبَاءُ ، وَأَعْلَمُ مَنْ تَحْتَ الْجُرْبَاءِ . فَصَمَدَ لَهُ فُتِي
 فَتِيقُ اللَّسَانِ ، جَرِيءُ الْجَنَانِ ، وَقَالَ : إِنِّي حَاضِرْتُ فَقَهَاءَ
 الدُّنْيَا ، حَتَّى اتَّخَلْتُ مِنْهُمْ مِائَةَ فُتِيَا ، فَإِنْ كُنْتَ يَمَنُّ يَرْغَبُ
 عَنِ بَنَاتٍ غَيْرَ ، وَيَرْغَبُ مِنَّا فِي مَيْرٍ ، فَاسْتَمِعْ وَأَجِبْ ، لِتَقَابَلَ
 بِمَا يَجِبُ ، فَقَالَ : اللَّهُ أَكْبَرُ ، سَيَبِينُ الْمَخْبِرُ ، وَيَنْكَشِفُ
 الْمُضْمَرُ ، فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ .

. . .

الهادي : الدليل . نوم : تقصد . النادي : مجتمع القوم . أظلمنا : قربنا منه
 ودنونا وأشرقنا عليه . استشرفنا : نظرنا وتأملنا ، والاستشراف : أن تضع يدك
 على حاجبك من الشمس إذا أردت النظر إلى شيء يبعد منك . المنهود : المقصود ،
 ونهدت إليه ونهضت بمعنى ، ونهد ينهد نهداً ، أي شخص ونهض . وقيل :
 أكثر ما يستعمل هذا في الحرب ، يقال : نهذ إلى العدو ، إذا نهض ليقاته .
 ألفتته : وجدته . ذا الشُّقْرِ وَالْبُقْرِ : صاحب الدواهي ، يقال : جاءنا بالشُّقْرِ
 وَالْبُقْرِ ، إذا جاء بالكذب المستفطع ، وجاء بالشُّقَارَى وَالْبُقَارَى ، أي بالكذب .
 والفواقير : قواصم الظَّهَر ، يراد بها الدواهي ، والفاقرة : الكاسرة للفقار ، وهو

عظم الضُّلْب . والفَقَر في النثر ، مثلُ القوافي في الشعر . القَفْداء ، بالثقاف قبل الفاء : أن يلفَّ عمامته على رأسه ولا يرسل منها شيئاً . ابن سيده : القَفْداء : والقَفْد ، إذا لوى عمامته على رأسه ، ولم يُسَدِّلها ، قال الأزهرى رحمه الله تعالى : العَمَّة القَفْداء معروفة ، وهى الميلاء ، والسَّنَّة أن يتمم ويُسَدِّل خلف ظهره .

ابن عمر رضى الله عنهما . كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا تمم سدَلَّ عمامته بين كتفيه . والصَّمَاء : أن تُجَلَّلَ نفسك بالثوب غير الخيط ، ولا ترفع شيئاً من جوانبه ، فتسكون فيه فُرْجة تخرج منها اليد ، وإنما نهى عن ذلك مخافة أن تصيبه شدة في تلك الحالة ، وهو لا يقدر على إخراج يده ، فيدفعها فيهلك .

وقال الفجنديهى : رأيت بخط الحريرى : اشتمل الصَّمَاء ، أى التحف بثوب جَلَّل جسده ، وقيل لها صَّمَاء لأنها لا منفذ فيها كالصخرة الصماء ، التى لا صدع فيها ولا خرق ، وهى عند الفقهاء أن يشتمل بثوب واحد ليس عليه غيره ، ثم يرفه من أحد جانبيه فيضمه على مَنْكبيه ، فتبدو عورته ، فنهى عن ذلك .

وقال الأزهرى : هذا أصَحُّ الكلام ، والفقهاء أعلم بتأويل هذا . والقُرْفُصاء : أن يقعد على إِيْتَيْنِ ، وينصب ساقيه ، ويصق فخذه بيطنه ويحتبى بيديه فيضعهما على ساقيه ، قاله أبو عبيد . وقيل : هى جلسة المحتبى ، ثم يرفع فخذه وركبته إلى صدره ، ويدير يديه على ساقيه ، ويشدّهما ، فإذا فعلت ذلك بالرجل وشدّت يدبك عليه ، فقد قرصته .

الفجنديهى : رأيت بخط الحريرى : معناه أن يَحْتَبِىَ بيديه ، قال أبو أمامة : كان النبي صلى الله عليه وسلم يجلس القُرْفُصاء فيضع يده اليمنى على الشمال عند المفصل . وتقرّص الرجل ، إذا جمع يديه وانضم من جَرَب أو قروح به .
أعيان : أشراف . محتَقُونَ : مخلّقون ، والمنزل محفوف بالناس إذا اجتمعوا بحفافيه ، أى بجانبه . والأخلاط : الدّون من الناس . والمعضلات : الغامضات

من الكلام الصَّعب. واستوضحوا ، أى طلبوا منى إيضاها ، أى بيانها . فَطَرُ : خلق ، وفطر الله الخلق ابتداء خلقهم ، قال ابن عباس : ما كنت أدرى ما فاطرُ السموات والأرض حتى احتكم إلى أعرا بيان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرُها ، أى ابتدأتها ، وقال الله تعالى : ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾^(١) أى خلقتنى . ويتفطرن : يشققن ، وانفطرت : تشققت . وعلم آدم الأسماء كلها ، أى علمه أسماء كل شيء من المخلوقات . وقيه العرب ، أى عالمهم ، وقال تعالى : ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾^(٢) أى ليكونوا علماء به ، وكل عالم بشيء فهو ققيه فيه ، ويقال : فقهت عنك ، أى فهمت ، وفقهت فقهاً ، أى صرت فقيها ، وهو الخاذق بما يعلمه ، وفقهت الرجل : غلبته في الفقه . العرباء : الخالصة ، وهذا الادعاء الذى يدعى الآن يسمى انتحال العلم .

وقال بعض الحكماء : لا ينبغي لأحد أن ينتحل العلم .

وقال مقاتل بن سليمان يوما ، وقد دخلته أبهة العلم : سلوني عما تحت العرش إلى أسفل الثرى ، فقال له رجل : مانسألك عن شيء من ذلك ، إنما نسألك عما مملك في الأرض ، أخبرني عن كلب أهل الكهف ما كان لونه ؟ فأخذه .

ولما شهرت تأليف ابن قتيبة ، ولحظ بعين العالم المتفتن ، صعد المنبر ، وقد غصَّ المحفل واعتلى ، تبريزاً على علماء وقته ، مع فضل جاه اشتمل به من السلطان ، فقال : ليسألني مَنْ شاء عما شاء ، فقام إليه أحد الأغفال ، فقال له : ما الفتيل والتطهير ؟ فلم يُجِر جواباً ، وأخذه ونزل خجلاً ، وانصرف إلى منزله كسلاً . فلما نظر اللفظتين وجد نفسه أذكّر الناس بهما ، وهذا من عقاب العُجب .

ورأيت في بعض الأخبار أن ابن قتيبة سُئِلَ عن حرف لغة فلم يعلمه وقت

السؤال - وكان أبيض مشرباً بمجرة - فلما وجد الحرف غلبت الحمرة على وجهه ، حتى طفىء أسفاً على قوتِ الحرف وقت الحاجة ، ولعله كان ما قدمنا في الحكاية .

وقال قتادة : ما سمعت قط شيئاً إلا حفظته ، ولا حفظت قط شيئاً فنتسيته .
ثم قال : يا غلام هات نعلی ، فقال : هما في رجلك ، ففضحه الله .

وقال قتادة : حفظت ما لم يحفظ أحد قط ، ونسيت ما لم ينس أحد قط ، حفظت القرآن في سبعة أشهر ، وقبضت على الحيتي ، وأنا أريد أن أقطع ما تحت يدي ، فقطعت ما فوقها .

وكان بشرى رجل من أهل الدين والورع ، وحجّ في أيام أبي حامد وصحبه ، ففانت صلاة الصبح يوماً لأحد أصحابه ، فلامه على ذلك ، فاعتذر له صاحبه فلم يعذره . ثم قال له على معنى الترغيب : كمُلت لي اليوم عشرون سنة ، ما فاتني صلاة الصبح في جماعة ، فلما كان في اليوم الثاني أدرك الحاج من صلاة الصبح ركعة واحدة ، فلما لقيّه صاحبه بعد الصلاة قال له : هذا كما رأيت . وإنما ذكرت عمالك على معنى التبصرة والإرشاد ، فلو ذكرتّه على غير ذلك لفانتك ، وإذا كان موسى كلم الله قد عانته الله على الانتحال ، حين سئل : أيّ الناس اليوم أعلم ؟ قال : أنا ، وابتلى بالسفر حتى لقي الخضر ، وجلس إليه راغباً في أن يعلمه ، والخضر لا ينبسط له في التعليم ، ونقرّ عصفور في البحر ، فقال له الخضر : ما علمي وعلمك في علم الله تعالى ، إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر .

وروى عن عبد الملك بن حبيب من طريق وهب بن منبه : أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام : أتدري لم كأمّتك ؟ قال : لا ياربّ ، قال : إني أطّمت على قلوب العباد فلم أرَ فيها قلباً أشدّ تواضعاً من قلبك ، قال المنجم :

لكل شيء في الوري آفة وآفة المرء من الكبر

وقال آخر :

الكثير يأسُ والتواضع رفعةٌ والمزح والضحك الكثير سقوط
والحرصُ فقر والقناعة رفعةٌ واليأس من روح الإله قنوطٌ
فينبغي لكل عاقل أن يقول : ما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم
بقوله : ﴿ ربِّ زدني علماً ﴾^(١) ، ولا يَرَى لنفسه حظاً ، ويشكر الله تعالى على ما أعطاه
فهو بالأدب ليق ، وبالشرع أوفق .
ومن سخييف الشعر في الانتحال :

وما عن لي من غامض العلم غامضٌ مدَى الدهر إلا بتَّ منه على علمٍ
وقال عدى بن الرقاع :

وعلمت حتى ما أشاورُ عالماً عن علم واحدٍ لكي أزدادها^(٢)
وسمعه كثير ينشده الوليد بن عبد الملك ، فقال له : كذبت ورب البيت
الحرام ، فليمتحنك أمير المؤمنين في صغار الأمور دون كبارها ، حتى يتبين
جهلك ، وما كنتَ قط أحق منك اليوم حين تظنّ هذا في نفسك^(٣) .
وقال أبو موسى المنجم : ما أحدٌ تمنيت أن أراه ، فلما رأيته أمرت بصفه
إلا عدياً ، فقيل له : ولم ذلك ؟ قال : لقوله هذا البيت ، كنت أعرض عليه
أصناف العلوم ، فكلما مرّ عليه بشيء لا يحسنه أمرت بصفه .
قوله : وأعلم من تحت الجرباء : سُمِّيت السماء جرباء ، لأن النجوم فيها
كالجرب في البدن .

وقال ابن الرومي في غلام يهواه وخرج عليه جذريٌّ ، وأشار إلى
جرب السماء :

وقالوا شأنه الجذريّ فانظر إلى وجهه به أثر السكومِ
فقلت : ملاحه نُثِرَتْ عليه وما حُسِنُ السماءُ بـلـانـجـومِ !

وقال أبو بكر بن السراج في الفتح بن مسروق البلخي ، وقيل : قالهما
في ابن ياسر اللقي ، وكان من أحسن الناس وجهاً :

لِي قمر جُدِّرَ لَنَا استَوَى فزاده حسنا وزات الموم^(١)
كَأَنَّمَا غَنَى لشمس الضحى فنقطته طربا بالنجوم

وقال آخر :

كَأَن أَمَّارٌ يُجَدِّدُ بوجنته عشر معورة في صحن راق

* * *

وقال ذو الوزارتين أبو الوليد بن زيدون :

قَالَ لِي اعْتَلَّ مَنْ هَوِيَ بِجَسَدُ قُلْتَ أَنْتَ الْعَلِيلُ وَيَنُحْكَ ، لَا هُوَ^(٢)
مَا الَّذِي تَنْقِمُونَ مِنْ بَثَرَاتٍ ضَاعَفَتْ حَسَنَهُ وَزَانَتْ حِلَاهُ
وَجْهَهُ - فِي الصَّفَاءِ وَالرَّقَّة - الْمَا ، فَلَا غَرَوُ أَنْ حَبَابَهُ عِلَاهُ

قوله : صمد ، أى قصد . فتيق : طليق . جرى الجنان : ماضى القلب
قوية . انتخلت : اخترت . الفتيا : لغة في الفتوى ، وهما اسمان يُوضعان موضع
الإفتاء ، تقول : إفتاء وفُتِّيًا وفَتَوَى .

بنات غير ، كناية عن الكذب . الفنجديهي . رأيت بخط الحريري :
بنات الغير : الكذب .

القراء : يقال للرجل ، أبو بنات عبر ، وهو الباطل بعين مهملة وباء منقوطة ،
واحدة .

مئر : رزق وحلة ، وأصله جَلَب الطعام للأكل . الله أكبر : حكى
أهل اللغة أن معناه كبير ، وقال الفرزدق :

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا يَبْعًا دَعَائِمَهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ^(٣)

(١) لبناء الرواة ٣ : ١٤٨

(٣) ديوانه ٧١٤ .

(٢) ديوانه ١٢٤ .

أى عَزِيْزَةٌ طَوِيْلَةٌ .

قال معن بن أوس :

لَعَمْرُكَ مَا أَدْرَى وَإِنِّى لَأَوْجِلُ عَلَى أَيِّنَا تَعَدُّوْا الْمَنِيَّةَ أَوَّلُ^(١)
أى لوجل ، وقال النحويون : الكسائي والفراء وهشام معناه : أكبر
من كل شيء ، لحذفت مِنْ لَأَنَّ أَفْعَلَ خبر ، كقولك : أبوك أفضل وأعقل ،
أى من غيره ، ولو كان اسما لم يحذف منه شيء ، ألا ترى أن مَنْ قال : أخوك
أفضل لم يقل إن أفضل أخوك ، لحذفت « مَنْ » فى الخبر ، لأن الخبر يدل
على أشياء غير موجودة فى اللفظ ، نحو أخوك قام ، فيدل على المصدر والزمان
والمكان والاسم لا يحذف منه شيء يدل عليه . والخبر ، مصدر خبرت خَبَرَةً
ومُخْبَرًا ، إذا جَرَّبْتَهُ ، فأراد : سيتبين لك بالتجربة ما دأعيت من العلوم ، وينكشف
لك ما أضمرته منها . اصدع : تكلم وأظهر ، وصدعت بالحق تكلمت به جهارا ،
وقوله تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾^(٢) أى أظهر دينك .

وإنما اعتمد الشيخ أبو محمد الحربى فى شرح الألفاظ التى ألغز بها على
الوجه المعنى ؛ ولنشرح ما سوى ذلك مما اشتملت عليه إن شاء الله تعالى :

[فقيه العرب وفتواه]

قال : مَا تَقُولُ فِيمَنْ تَوْضًا ثُمَّ لَمَسَ ظَهَرَ نَعْلِهِ ؟ قال :
انْتَقَضَ وَضُوْهُهُ بِفِعْلِهِ (النعل : الزوجة) .
قال : فَإِنْ تَوْضًا ثُمَّ أَنْكَأَهُ الْبَرْدُ ؟ قال : يَجْدُّ الْوُضُوْءُ
مِنْ بَعْدُ (البرد : النوم) .
قال : أَيْمَسَّحُ الْمُتَوَضِّئُ أَنْثِيَّتَهُ ؟ قال : قَدْ نُدِبَ إِلَيْهِ ، ولم
يُوجِبْ عَلَيْهِ . (الأنثيان : الأذنان) .

قال : أَيَجُوزُ الوضوءُ بِمَا يَقْذِفُهُ الثُّعْبَانُ ؟ قال : وَهَلْ أَنْظِفَ مِنْهُ لِّلْعُرْبَانِ ! (الثُّعْبَانُ : جمع ثُعْب ، وهو مَسِيلُ الوادى)

قال : أَيْسْتَبَاحُ ماءِ الضَّرِيرِ ؟ قال : نعم ، وَيُجْتَنَبُ ماءُ التَّصِيرِ . (الضَّرِيرُ : حَرَفُ الوادى . والبَصِيرُ : الكَلْبُ) .

قال : أَيْحِلَّ التَّطَوُّفُ فِي الرَّيِّعِ ؟ قال : يُكْرَهُ ذَلِكَ لِلْحَدَثِ الشَّنِيعِ . (التَّطَوُّفُ : التَّغَوُّطُ . والرَّيِّعُ : النَّهْرُ الصَّغِيرُ) .

* * *

قوله : لَسْ ، جَرَّ أَصَابِهِ عَلَيْهَا . أَنْكَاهُ : جَعَلَهُ مُتَّكِنًا . يَقْذِفُهُ : يَطْرَحُهُ مِنْ بَطْنِهِ . وَالضَّرِيرُ : الْأَعْمَى . وَالْبَصِيرُ : الْبَصَرُ .

وَالطَّوْفُ : مَصْدَرُ طَافَ حَوْلَ الشَّيْءِ إِذَا دَارَ بِهِ . وَالْحَدَثُ : الْغَائِطُ ، وَجَعَلَهُ شَنِيعًا لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا فَعَلَهُ فِي الْمَاءِ ظَهَرَ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ فَكَانَتْ بِهِ شَنْعَةٌ ، وَاسْتَقْدَرَ الْمَاءَ فَلَمْ يَسْتَعْمِلْ ، وَإِنْ كَانَ مَبَاحًا اسْتَعْمَلَهُ .

* * *

قال : أَيْجِبُ الْغُسْلُ عَلَى مَنْ أُمْنَى ؟ قال : لَا وَلَوْ ثَنَى . (أُمْنَى : نَزَلَ مَنَى ، وَيُقَالُ مِنْهُ : مَنَى وَأُمْنَى وَأُمْتَنَى) .

قال : فَهَلْ يَجِبُ عَلَى الْجُنُبِ غَسْلُ فَرْوَتِهِ ؟ قال : أَجَلْ وَغَسْلُ إِبْرَتِهِ (الْفَرْوَةُ : جِلْدَةُ الرَّأْسِ ، وَالْإِبْرَةُ : عَظْمُ الْمِرْفَقِ) .

قال : أَيْجِبُ عَلَيْهِ غَسْلُ صَحِيفَتِهِ ؟ قال : نعم كَغَسْلِ شَعَثَتِهِ (الصَّحِيفَةُ : أَمِيرَةُ الْوَجْهِ) .

قال : فَإِنْ أَخْلَى بَغْسِلَ فَأَمْسِهِ ؟ قال : هُوَ كَمَا لَوْ أَلْنَى غَسْلَ رَأْسِهِ (الْفَأْسُ : الْعَظْمُ الْمَشْرِفُ عَلَى نَقْرَةِ الْقَفَا) .

قال : أَيْجُوزُ الْغُسْلُ فِي الْجِرَابِ ؟ قال : هو كَأَغْسَلٍ فِي الْجِبَابِ .
(الجِرَاب : جَوْفُ الْبُئْرِ)

قال : فما تَقُولُ فِيمَنْ تَيْتَمُ ثُمَّ رَأَى رَوْضًا ؟ قال : بَطَلَ
تَيْتَمُهُ فَلْيَتَوَضَّأْ . (الرَّوْضُ هَاهُنَا : جَمْعُ رَوْضَةٍ ، وَهِيَ الصُّبَابَةُ تَبْقَى فِي الْحَوْضِ) .

أَخْلَ : نَقَصَ . مُنْقَرَةٌ : حُقْرَةٌ . الرَّوْضُ : مَوَاضِعُ النِّيْثِ . وَالصُّبَابَةُ :
الْبَقِيَّةُ .

قال : أَيْجُوزُ أَنْ يَسْجُدَ الرَّجُلُ فِي الْعَذِرَةِ ؟ قال : نَعَمْ وَلِيَجَانِبَ الْقَذِرَةَ
(الْعَذِرَةُ : فَنَاءُ الدَّارِ) .

قال : فَهَلْ لَهُ الشُّجُودُ عَلَى الْخِلَافِ ؟ قال : لَا ، وَلَا عَلَى أَحَدِ
الْأَطْرَافِ . (الْخِلَافُ : هَكَذَا) .

قالَ : فَإِنْ سَجَدَ عَلَى شِمَالِهِ ؟ قال : لَا بِأَسْفَلِهِ . (الشِّمَالُ :
جَمْعُ شِمْلَةٍ) .

قال : فَهَلْ يَجُوزُ الشُّجُودُ عَلَى الْكُرَاعِ ؟ قال : نَعَمْ ، دُونَ الدَّرَاعِ
(الْكُرَاعُ : مَا اسْتَقَالَ مِنَ الْحَرَّةِ ، وَهِيَ أَرْضٌ ذَاتُ حِجَارَةٍ سَوْدٍ) .

قال : أُمُيَصِّلِي عَلَى رَأْسِ الْكَلْبِ ؟ قال : نَعَمْ ، كَسَاءُ الْهَضْبِ
(رَأْسُ الْكَلْبِ : نَمِيَّةٌ مُفْرَوقةٌ) .

قال : أَيْجُوزُ لِلدَّارِسِ حَمْلُ الْمَصَاحِفِ ؟ قال : لَا ، وَلَا حَمْلُهَا فِي الْمَلَاخِيفِ .
(الدَّارِسُ : الْحَاضِرُ) .

قال : ما تقول فيمن صَلَّى وعَاتَهُ بَارِزَةٌ ؟ قال : صَلَاتُهُ جَائِزَةٌ .
(الْعَانَةُ : الْجَمَاعَةُ مِنْ مُحَرِّمِ الْوَحْشِ) .

والْكُرَاعُ : الرَّجُلُ ، وَكُرَاعُ كُلِّ شَيْءٍ طَرَفُهُ . وَالْحَزْرَةُ : أَرْضٌ فِيهَا
حِجَارَةٌ سُودٌ . وَالْهَضْبُ : جَمْعُ هَضْبَةٍ وَهِيَ الصَّخْرَةُ الْعَظِيمَةُ ، وَالْكُدْيَةُ الصَّغِيرَةُ ،
وَقِيلَ : الْهَضْبَةُ الْجَبَلُ الْمُنْبَسِطُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ، وَقِيلَ : الْجَبَلُ الطَّوِيلُ الْمُنْتَسِعُ
وَالْجَمْعُ هَضَابٌ . ثَنِيَّةٌ : عَقَبَةٌ .

* * *

قال : فَإِنْ صَلَّى وَعَلَيْهِ صَوْمٌ ؟ قال : يُعِيدُ وَلَوْ صَلَّى مِائَةَ يَوْمٍ .
(الصَّوْمُ : ذَرَقُ النَّعَامِ)

قال : فَإِنْ حَمَلَ جَرَوْا وَصَلَّى ؟ قال : هُوَ كَمَا لَوْ حَمَلَ بِأَقْلَى .
(الْجَرَوُ : الصَّغَارُ مِنَ الْقِتَاءِ وَالرِّمَانِ) .

قَالَ : أَتَصِحُّ صَلَاةُ حَامِلِ الْقُرْوَةِ ؟ قَالَ : لَا ، وَلَوْ صَلَّى فَوْقَ الْمَرْوَةِ
(الْقُرْوَةُ : مِثْلَةُ الْكَلْبِ) .

قَالَ : فَإِنْ قَطَرَ عَلَى ثَوْبِ الْمُصَلِّي نَجَسٌ ؟ قال : يَمْضِي فِي صَلَاتِهِ
وَلَا غَرَوُ . (النَّجَسُ : السَّحَابُ الَّذِي قَدْ هَرَّاقَ مَاءَهُ) .

قال : أَيْجُوزُ أَنْ يَوْمَ الرِّجَالِ مُقْتَنِعٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَيَوْمُهُمْ مُدْرَعٌ .
(الْمُقْتَنِعُ : لَا بَسَ الْمَغْفَرُ ، وَالْمُدْرَعُ : لَا بَسَ الدَّرْعُ) .

قال : فَإِنْ أَمَّهُمْ مَنْ فِي يَدِهِ وَقْفٌ ؟ قال : يُعِيدُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَلْفُ

(الوَقْف : السَّوَارُ من العَلاج أو الذَّبَل ، وأراد أَنَّهُ لَا يَجُوزُ للرجال الاِتِّمَامُ بالنِّساء) .

...

الميلَفة : ما يَشْرَبُ فِيهِ السَّكَبُ الماء ، وَهِيَ من وَلَغِ السَّكَبِ ، إِذَا تَنَاوَلَ الماءَ بِلِسَانِهِ وَالْقَرَوَةُ : نَقِيرٌ من خَشَبٍ تَشْرَبُ مِنْهُ السَّكَابُ . وَالْقِثَاءُ : هُوَ الْفَقُّوسُ . وَالنَّجْوُ : هُوَ الْحَدَثُ لَا غَرَوُ : لَا عَجَبٌ . وَلِلقَنَّعِ : لَابِسُ القِنَاعِ ، يَرِيدُ المَرَأَةَ . وَالْوَقْفُ : مَا وَقَفَ وَحَبَسَ مِنَ الْأَمْوَالِ عَلَى الْمَسَاكِينِ وَالْمَسَاجِدِ . وَالدَّبَلُ : جِلْدُ السَّلْحَفَاءِ الْبَرِّيَّةِ ، وَيُقَالُ : إِنَّهَا تَعْظُمُ ، فَرُبَّمَا يَضَعُ التَّاجِرُ لَيْلًا عَلَيْهَا حِمْلَهُ يَظُنُّهَا صَخْرَةً فَتَرْتَحِلُ بِهِ ، وَيَسْتَعْمَلُ مِنَ الطَّبَقِ الَّذِي عَلَيْهَا خِلَافًا لِلْحَشَمِ وَالْعَبِيدِ . وَالْعَاجُ . عَظْمُ الْفِيلِ .

* * *

قال : فَإِنْ أُمَّهُمْ مَنْ فَخِذُهُ بَادِيَةٌ ؟ قال : صَلَاتُهُ وَصَلَاتُهُمْ مَاضِيَةٌ .
(الْفَخِذُ : الْعَشِيرَةُ ، وَبَادِيَةٌ ، أَيْ يَسْكُنُونَ الْبَدُو ، وَاخْتَارَ بَعْضُ أَهْلِ اللُّغَةِ تَسْكِينِ الْخَاءِ مِنْ هَذِهِ الْفَخِذِ ، لِيَحْصُلَ الْفَرْقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْعَضْوِ) .
قال : فَإِنْ أُمَّهُمْ الثَّوْرُ الْأَجَمُّ ؟ قال : صَلَّ وَخَلَكَ ذَمٌّ . (الثَّوْرُ : السَّيِّدُ . وَالْأَجَمُّ : الَّذِي لَا رُمُحَ مَعَهُ) .

قال : أَيْدْخُلُ الْقَصْرُ فِي صَلَاةِ الشَّاهِدِ ؟ قال : لَا ، وَالْغَائِبِ الشَّاهِدُ . (صَلَاةُ الشَّاهِدِ : صَلَاةُ الْمَغْرِبِ ، تُسَمَّى بِذَلِكَ لِإِقَامَتِهَا عِنْدَ طُلُوعِ النَّجْمِ ، لِأَنَّ النَّجْمَ يُسَمَّى الشَّاهِدِ)

قال : أَيْجُوزُ لِلْمَعْذُورِ أَنْ يُفْطِرَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ ؟ قال : مَا رُخِّصَ فِيهِ إِلَّا لِلصَّبَّيَّانِ . (الْمَعْذُورُ : الْمُخْتَلُونَ ، وَهُوَ أَيْضًا الْمُعْذَرُ) .
قال : فَهَلْ لِلْمَعْرُوسِ أَنْ يَأْكُلَ فِيهِ ؟ قال : نَعَمْ بِمِلءٍ فِيهِ .

(المرءس : المسافر الذى ينزل فى آخر ليله لِيَسْتَرِيحَ ثُمَّ يَرْتَحِلُ).
 قال : فَإِنْ أَفْطَرَ فِيهِ الْعُرَاةُ ؟ قال : لَا تُنْكَرُ عَلَيْهِمُ الْوُلاةُ .
 (المرأة : الَّذِينَ تَأْخُذُهُمُ الْعُرُوءُ ، وَهِيَ الْحَتْمَى بِرِعْدَةٍ) .

* * *

قال : فَإِنْ أَكَلَ الصَّائِمُ بَعْدَ مَا أَصْبَحَ ؟ قَالَ : هُوَ أَحْوَطُ لَهُ وَأَصْلَحَ .
 (أصبح ، أى استصْبَحَ بِالْمَصْبَاحِ) .
 قال : فَإِنْ عَمِدَ لِأَنْ أَكَلَ لَيْلًا ؟ قَالَ : يُشَمَّرُ لِلْقَضَاءِ ذِيلاً .
 (ذكر ابن دُرَيْدٍ أَنَّ اللَّيْلَ فَرَنَخُ الْحَبَارَى ، وَقَالَ غَيْرُهُ : هُوَ وَلَدُ الْكَرْوَانِ) .
 قال : فَإِنْ أَكَلَ قَبْلَ أَنْ تَمُوتَ الْبَيْضَاءُ ؟ قَالَ : يَلْزِمُهُ وَاللَّهِ الْقَضَاءُ .
 (الْبَيْضَاءُ مِنْ أَسْمَاءِ الشَّمْسِ) .
 قال : فَإِنْ اسْتَنَارَ الصَّائِمُ الْكَئِدَ ؟ قَالَ : أَفْطَرَ وَمَنْ أَحَلَّ الْعَيْنِدَ .
 (الْكَئِدُ : الْقَيْ . وَاسْتَنَارَهُ ، أَيْ اسْتَدْعَاهُ) .
 قال : أَلَا إِنَّهُ يُفْطِرُ بِالْجَاحِ الطَّابِخِ ؟ قَالَ : نَعَمْ لَا بِطَاهِيِ الْمَطَابِخِ .
 (الطَّابِخُ : الْحَتْمَى الصَّالِبُ) .
 قال : فَإِنْ ضَحِكَتِ الْمَرْأَةُ فِي صَوْمِهَا ؟ قَالَ : بَطَلَّ صَوْمُ يَوْمِهَا .
 (ضَحِكَتْ هَا هُنَا ، أَيْ حَاضَتْ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقٍ ﴾) .
 قال : فَإِنْ ظَهَرَ الْجُدَرَى عَلَى ضَرْبِهَا ؟ قَالَ : تُفْطِرُ إِنْ آذَنَ بِمَضَرَّتِهَا .
 (الْمَضَرَّةُ : أَهْلُ الْإِبْهَامِ ، وَأَهْلُ الثَّنَدِيِّ أَيْضًا) .

الطَّامِي : طابخ اللحم . والصَّالِب : الحمى لا ترعد ، وإلحاحها : ملازمتها .
الجُدْرِي : قروح صفار تخرج على الصبيان . وضَرَّتْها : شريكتهما في زوجها .

* * *

قال : ما يجبُ في مائةِ مُصْبَاحٍ ؟ قال : حِقَّتَانِ يا صاح .
(المِصْبَاح : النّاقة التي تُصْبَع في المَبْرَك) .
قال : فإن مَلَكَ عَشْرَ خَنَاجِرٍ ؟ قال : يُخْرِجُ شَاتَيْنِ وَلَا يُشَاجِرُ .
(الخَنَاجِر : الثُّوق الفِزار الدَّر ، واحدها خِنْجَرٌ وَخِنْجُورٌ) .
قال : فإن بَمَحَ للسَّاعِي بِحِمِيمَتِهِ ؟ قال : يا بُشْرَى لَهُ يَوْمَ قِيَامَتِهِ .
(السَّاعِي : جَانِي الصَّدَقَةِ ، وَاحْتِمِيمَةٍ : خِيَارُ الْمَالِ) .
قال : أَيْسْتَحِقُّ حَمَلَةَ الْأَوْزَارِ مِنَ الزَّكَاةِ جُزْأً ؟ قَالَ : نَعَمْ
إِذَا كَانُوا غُزًى . (الْأَوْزَار : السَّلَاح . وَغُزًى : جَمْعُ غَازٍ) .
قال : أَيْجُوزُ لِلْحَاجِّ أَنْ يَفْتَمِرَ ؟ قال : لَا ، وَلَا أَنْ يَخْتَمِرَ .
(الْإِعْتِمَارُ : لُبْسُ الْعِمَارَةِ ، وَهِيَ الْعِمَامَةُ ، وَالْإِخْتِمَارُ : لُبْسُ الْخِمَارِ) .
قال : فَهَلْ لَهُ أَنْ يَقْتُلَ الشُّجَاعَ ؟ قال : نَعَمْ ، كَمَا يَقْتُلُ السَّبَاعُ .
(الشُّجَاع : الْحَيَّة) .

الحِقَّة : التي امْتَحَنَتْ أَنْ يَرْكَبَ عَلَيْهَا . والخَنَاجِر : نوع من السَّكَاكِينِ
السَّكْبَار . ويشَاجِر : يَخَالِف . والجَانِي : الجامع للصدقة ، ومنه الجبابة .
والأَوْزَار : أَثْقَالُ الذُّنُوبِ . والغُزًى : هُؤُلَاءِ الرَّمَاةُ بِالنِّسَابِ . وَيَفْتَمِرُ :
يَحْجُجُ بِعِمْرَةٍ . وَيَخْتَمِرُ : يَسْتَعْمَلُ الْخَبْزَ الْمُخْتَمِرَ .

* * *

قال : فَإِنْ قَتَلَ زَمْرَةً فِي الْحَرَمِ ؟ قَالَ : عَلَيْهِ بَدَنَةٌ مِنَ النَّعَمِ .
(الزَّمْرَةُ : النِّعَامَةُ وَاثْمُ صَوْتِهَا الزَّمَارُ) .

قال : فَإِنْ رَمَى سَاقَ حُرٍّ فَجَدَّ لَهُ ؟ قَالَ : يُخْرِجُ شَاةً بَدَلَهُ .
(سَاقُ حُرٍّ : ذَكَرُ الْقَمَارِيِّ)

قال : فَإِنْ قَتَلَ أُمَّ عَوْفٍ بَعْدَ الْإِحْرَامِ ؟ قَالَ : يَتَصَدَّقُ بِقُبْضَةٍ
مِنْ طَعَامٍ . (أُمُّ عَوْفٍ : الْجُرَادَةُ) .

قال : أَيْجِبُ عَلَى الْحَاجِّ اسْتِصْحَابُ الْقَارِبِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ،
لَيْسَوْقَهُمْ إِلَى الْمَشَارِبِ . (الْقَارِبُ : طَالِبُ الْمَاءِ بِاللَّيْلِ) .

قال : مَا تَقُولُ فِي الْحُرَامِ بِنَدِ السَّبْتِ ؟ قَالَ : قَدْ حَلَّ
فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ . (الْحُرَامُ : الْحَرَمُ ، وَالسَّبْتُ : حَلَقُ الرَّأْسِ . وَحَلَّ ،
مِنْ تَحْلِيلِ الْحَجِّ) .

قال : مَا تَقُولُ فِي بَيْعِ الْكُمَيْتِ ؟ قَالَ : حَرَامٌ كَبَيْعِ الْمَيْتِ .
(الْكُمَيْتُ : الْخُمُرُ) .

وَالزَّمْرَةُ : الْمَرْأَةُ تَضْرِبُ بِالزَّمَارِ . وَالْبَدَنَةُ الْفَاقَةُ ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِضَخَامَتِهَا
وَبَدَنُ الرَّجُلِ ضَخَمٌ . جَدَّ لَهُ : قَتَلَهُ وَطَرَحَهُ عَلَى الْجِدَالَةِ ، وَهِيَ الْأَرْضُ .
وَمِنْ أَيْتَاتِ الْقُرْآنِ فِي الْجُرَادَةِ :

وَمَا صَرَّاهُ تُكْنِي أُمَّ عَوْفٍ كَانَ سُؤْيُفَتَيْهَا مِنْجِلَانِ
وَالْقَارِبُ : السَّفِينَةُ الصَّغِيرَةُ . وَالْكُمَيْتُ : الْفَرَسُ الْأَسْوَدُ الْعُرْفُ وَالذَّنْبُ .
وَالْكُمَيْتَةُ : مُحْرَةٌ تَضْرِبُ إِلَى السَّوَادِ .

قال : أيجوزُ بَيْعُ الخَلِّ بِلَحْمِ الجَمَلِ ؟ قال : ولا بِلَحْمِ الحَمَلِ .
(الخَلُّ : ابنُ الخاض ، ولا يَحَلُّ بَيْعُ اللَّحْمِ بِالْحَيَوَانِ ، سواء كان من جنسه
أو من غير جنسه) .

قال : أَيْحَلُّ بَيْعُ الهَدِيَّةِ ؟ قال : لا ولا يَبِيعُ السَّبِيَّةُ . (الهدية ،
بالتشديد : ما يُهْدَى إلى السكبة ، ويقال فيها هَدْيَةٌ ، بتسكين الدال وتخفيف
الياء . والسبِيَّةُ : الخمر) .

قال . ما تقول في بيع العَقِيقَةِ ؟ قال : محظورٌ على الحقيقة . (العَقِيقَةُ :
ما يُذْبَحُ على المولود في اليوم السابع من ولادته) .

قال : أيجوزُ بَيْعُ الدَّاعِي ، على الرَّاعِي ؟ قال : لا ، ولا على السَّاعِي .
(الدَّاعِي : بَقِيَّةُ اللَّبَنِ في الصَّرْعِ ، والسَّاعِي : جَائِي الصَّدَقَةِ) .
قال : أَيْبَاعُ الصَّقَرِ بِالتَّمْرِ ؟ قال : لا ، ومالك الخَلْقُ والأَمْرُ .
(الصَّقَرُ : الدُّبْسُ) .

قال : أَيْشَتَرِي المَسْلِمُ سَلَبَ المُسْلِمَاتِ ؟ قال : نَعَمْ ، ويورثُ
عنه إذا مات . (السَّلَبُ : لِحَاءُ الشَّجَرِ ، وهو أيضا خُوصُ الثَّمَامِ)

والحَمَلُ : الخروف . والعَقِيقَةُ : حَرَزَةٌ حمراء . محظور : ممنوع . والصَّقَرُ :
من جوارح الطير . الدُّبْسُ : عسل التمر . خُوصُ : ورق . الثَّمَامُ : شجر ضعيف
يَرْقَهُ كورق الدَّوْمِ مزدوجة .

* * *

قال : فهل يجوزُ أَنْ يُبْتَاعَ الشَّافِعُ ؟ قال : ما لجوازه من دافع
(الشافع : الشاة التي يتبعها سخلها) .

قال : أَيْبَاعُ الإِبْرِيقِ على بنى الأصْفَرِ ؟ قال : يُكْرَهُ كَيْعُ المَغْفَرِ .

(الإبريق : السَّيْفُ الصَّقِيلُ الكثير الماء . وبنو الأصفر : الروم) .
 قال : أيجوز أن يبيعَ الرَّجُلُ صَيْفِيَّهٖ ؟ قال : لا ، وَلَيْكِنْ لِيَبْعَ صَفِيَّاهُ . (الصَّفِيّ : الولد على الكِبَر ، والصَّفِيّ : الناقة الغزيرة الدَّر) .
 قال : فَإِنْ اشْتَرَى عَبْدًا فَبَانَ بِأَمِّهِ جِرَاحٌ ؟ قال : مَا فِي رَدِّهِ مِنْ جُنَاحٍ . (الأَمُّ : مُجْتَمَعُ الدِّمَاغِ) .
 قال : أَتَثْبِتُ الشُّفْعَةَ لِلشَّرِيكِ فِي الصَّحْرَاءِ ؟ قال : لا ، وَلَا لِلشَّرِيكِ فِي الصَّفْرَاءِ . (الصَّحْرَاءُ : الْأَتَانُ الَّتِي يُمَازَجُ بِبَاضِهَا غُبْرَةً وَالصَّفْرَاءُ : النَّاقَةُ) .
 قال : أَيْحَلُّ أَنْ يُحْمَى مَاءُ الْبَيْتْرِ وَالْخَلَا ؟ قال : إِنْ كَانَ فِي الْفَلَا فَلَا . (يُحْمَى : يَمْنَعُ . وَالْخَلَا : الْكَلَا) .

الإبريق : آنية الخمر . الصَّفِيّ : مَا وَلَدَ فِي زَمَنِ الصَّيْفِ . وَالصَّفِيّ : الصَّاحِبُ الْخَالِصُ . وَالْدَّرّ : اللَّبَنُ . وَبَانَ : ظَهَرَ . وَجَنَاحٌ : لُحْمٌ . وَالْأَتَانُ : الْأُنْثَى مِنَ الْحَمِيرِ .

* * *

قال : مَا تَقُولُ فِي مَيْتَةِ الْكَافِرِ ؟ قال : حِلُّ الْمَقِيمِ وَالْمَسَافِرِ . (الْكَافِرُ : الْبَحْرُ ، وَمَيْتَتُهُ : السَّمَكُ الطَّافِي فَوْقَ مَائِهِ) .
 قال : أَيْجُوزُ أَنْ يُضَيَّعَ بِالْحَوْلِ ؟ قال : هُوَ أَجْدَرُ بِالْقَبُولِ . (الْحَوْلُ : جَمْعُ حَائِلٍ) .
 قال : فَهَلْ يُضَيَّعُ بِالطَّلَاقِ ؟ قال : نَعَمْ ، وَيُقَرَّى مِنْهَا الطَّارِقُ . (الطَّلَاقُ : النَّاقَةُ تُرْسَلُ تَرْعى حَيْثُ شَاءَتْ) .

قال : فَإِنْ ضَحَّى قَبْلَ ظَهْرِ الْغَزَالَةِ ؟ قال : شاة لحمٍ بلا مَحَالَةٍ .
 (الغَزَالَةُ : الشمس) . قال بعضهم : يقال : طَلَعَتِ الْغَزَالَةُ . ولا يقال :
 غَرُبَتْ ، وَضَدَّهَا الْجَوْنَةُ ، تَسْمَى بِهَا عِنْدَ مَغِيبِهَا ، لِأَنَّهَا تَسْوَدُّ حِينَ تَغِيبُ ،
 كما قال الشاعر :

* تبادر الجَوْنَةُ أَنْ تَغِيبَا ^(١) *

قال : أَيَحِلُّ التَّكْسُّبُ بِالطَّرْقِ ؟ قال : هو كالقِمَارِ بلا فَرْقٍ .
 (الطَّرْقُ : الضَّرْبُ بِالْحَصَى ، وهو من أفعال الكَهْنَةِ) .
 قال : أَيَسْلَمُ الْقَائِمُ عَلَى الْقَاعِدِ ؟ قال : مَحْظُورٌ فِيمَا بَيْنَ الْأَبَاعِدِ .
 (القاعد : التي قعدت عن الحَيْضِ أو عن الْأَزْوَاجِ) .

وَالطَّافِي : الارتفاع على وجه الماء . وَالْحَوْلُ : جمع أَحْوَلٍ وَحَوْلَاءٍ . أَجْدَرُ :
 أَحَقُّ . وَالطَّرْقُ : السَّيْرُ بِاللَّيْلِ . مَحْظُورٌ : ممنوع .

* * *

قال : أَيَنَامُ الْعَاقِلُ تَحْتَ الرِّقِيعِ ؟ قال : أَحَبُّبٌ بِهِ فِي الْبَقِيعِ .
 (الرِّقِيعُ : السَّمَاءُ ، وَعَنَى بِالْبَقِيعِ الْمَدِينَةُ) .
 قال : أَبُتْمَعُ الذَّمَّى مِنْ قَتْلِ الْعَجُوزِ ؟ قال : مَعَارَضَتُهُ فِي
 الْعَجُوزِ لَا تَجُوزُ . (الْعَجُوزُ : الْخمر . وَقَتْلُهَا : مَرْجُهَا) .
 قال : أَيَجُوزُ أَنْ يَنْتَقِلَ الرَّجُلُ عَنْ عِمَارَةٍ أُبْيَهِ ؟ قال : مَا يُجَرِّزُ
 لِحَامِلٍ وَلَا نَبِيَهْ . (الْعِمَارَةُ : الْقَبِيلَةُ)

قال : ما تقول في التهود ؟ قال : هو مفتاح التزهّد . (التهود :
التوبة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ .

قال : ما تقول في صبر البليّة ؟ قال : أعظمُّ بؤسٍ من خطيّة .
(الصبر : الحبس . والبليّة : الناقةُ تحبس عند قبر صاحبها ، فلا تُسقى ولا تُعلف
إلى أن تموت ، وكانت الجاهلية تزعم أن صاحبها يُحشَرُ عليها) .

قال : أيحلّ ضربُ السّفير ؟ قال : نعم ، والحملُ على المستشير .
(السّفير : ما تساقط من ورق الشجر . والمستشير : الجمل السّمين ، وهو أيضا
الجمل الذي يعرف اللّاقح من الحائل) .

والزّقيع : الأحق الذي يتخرق عليه رأيه حتى يحتاج إلى أن يرقّع ، ثم كثر
حتى صار الزّقيع الماحن القليل الحياء ، فأراد : أيرقد عاقل تحت رقيع ؟ فقال :
ما أحسن ذلك ، إذا كان في البقيع ؛ هذا معناه في الظاهر ، وما قصد به قد فسرّه .
والبقيع في الأصل : كلّ موضع فيه أصول أشجار مختلفة . التهود : الدّخول في
دين اليهوديّة . عمارة أبيه : ما كان أبوه يعمره من دار يسكنها ومال يعمره .
السّفير : الرسول . المستشير : المسترشد الذي يستشيرك في أموره والحمل عليه
إهانته وظلمه . اللّاقح : الحامل بالولد ، والحائل : ضدها .

* * *

قال : أيُعزّر الرّجلُ أباه ؟ قال : يفعلُه البرّ ولا يأباه . (التّعزير :
التّعظيم والتّصيرة والتّوقير) .

قال : ما تقول فيمن أفقر أخاه ؟ قال : حبّذا ما توخّاه .
(أفقره : أعاره ناقة يركب فقارها) .

قال : فإن أعرسى ولذته ؟ قال : يا حُسن ما اعتمدته ! (أعرّاه : أعطاه ثمرة نخلة عامّاً) .

قال : فإن أصلى مملوكه النار ؟ قال : لا إثمَ عليه ولا عار . (المملوك : العَبدُ الذي قد أُجيدَ عَجْنُهُ حتّى قوَّى) .

قال : أيجوز للمرأة أن تصرم بعلها ؟ قال : ما حَظَرَ أحدٌ فعلها . (البعل : النخل الذى يشرب بمروقه من الأرض) .

قال : فهل تؤدّب المرأة على الخجل ؟ قل : أجل . (الخجل : سوء احتمال الغنى ، ومنه قرله صلى الله وسلم للنساء : « إنسكن إذا جعنّ دَقَعَتْنِ » ، وإذا شبعنّ خجلنّ ») .

قال : ما تقول فيمن نَحَتَ أثلةَ أخيه ؟ قال : أئِمَ ولو أُذِنَ له فيه . (نَحَتَ أثلته ، إذا اغتابه وقَدَحَ فى عِرْضه) .

يعزّر : يؤدّب ، والتعزير : ضرب دون الحدّ . والبرّ : المكرم لأبيه .
توخاه : قصده ، وكذلك اعتمدته . أصلاه : جعله فيها . تصرّم : تقطع وتباعد ،
وأصل الصّرّم القطع . بعلها زوجها . حظر : منع . الخجل : الاستحياء . وأراد
بسوء احتمال الغنى ، أن تكون مبدّرةً لمالها سفيهةً ، فكان الغنى لما أتاها
لم تحمّلها فأفسدته نَحَتَ : نجَرَ . أثلة : شجرة .

* * *

قال : أيجز الحاكم على صاحب الثور ؟ قال : نعم ، ليأمن
غائلة الجور . (الثور : الجنون) .

قال: فهل له أن يضرب على يد اليتيم؟ قال: نعم، إلى أن يستقيم.
(يقال: ضرب على يده، إذا حَجَرَ عليه).

قال: فهل يجوز أن يتَّخذ له رِبْضًا؟ قال: لا، ولو كان له رِبْضًا.
(الرِّبْض: الزوجة)

قال: فتى يبيع بَدَنَ السَّفِيهِ؟ قال حينَ يَرَى له الحِظَّ فيه.
(البَدَن: الدرع القصيرة).

قال: فهل يجوز أن يبتاع له حُشًا؟ قال: نعم، إذا لم يكن مُغَشًى. (الحُش: النخل المجتمِع).

قال: أيُجوز أن يكونَ الحَاكِم ظالماً؟ قال: نعم، إذا كان مَالِماً.
(الْعَالِم: الذي يشرب اللبن قبل أن يروِّب ويخرُج زَبَدَه).

قال: أُمِيسْتَقْضَى مَنْ لَيْسَتْ له بَصِيرَةٌ؟ قال: نعم، إذا حُسِّنَتْ
منه السَّيْرَةُ. (البصيرة: التَّرس).

قال: فإن تَعَرَّى من العَقْل؟ قال: ذاك عنوان الفضل. (العَقْل:
ضرب من الوشَى).

غائِلَة: ضَرَر. الرِّبْض: بقاع من الأرض تباع وتشتري. الحُش:
الكَنيف. مَغَشًى: يَغْشاه الناس ويدخلونه. البصيرة: اليقين والنَّظَر السديد.
السَّيْرَة: العادة. عُنوان: دليل وعلامة.

* * *

قال: فإن كان له زَهُوٌّ جَبَّار؟ قال: لا إنكارَ عليه ولا إكبار.

(الزهو : البُسر المتلون . والعجبار : النخل الذى فات اليد وضده القاعد) .
 قال : أيجوز أن يكون الشاهد مريباً ؟ قال : نعم ، إذا كان أريباً .
 (المريب : الذى يكثر عنده اللبن الرائب) .

قال : فإن بان أنه لاط ؟ قال : هو كما لو خاط . (لاط الحوض ،
 إذا طينته) .

قال : فإن عُثر على أنه غرُبل ؟ قال : تُردّ شهادته ولا تُقبل .
 (غرُبل ، أى قتل ، ومنه قول الراجز * ترى الملوك حوله مغربلة *)

قال : فإن وضح أنه مائن ؟ قال : هو وصف له زائن . (المائن
 ما هنا : الذى يعمل ويكتفى المثونة ، من مان يمون ، لا من مان يمين) .

قال : ما يجب على عابد الحق ؟ قال : يحلف بإله الخلق .

(العابد ما هنا : الجاحد . والحق : الدين) .

قال : ما تقول فيمن فقاً عَيْن بلبل عامدا ؟ قال : مُفقاً عينه .
 قولاً واحداً . (البلبل : الرجل الخفيف) .

قال : فإن جرح قطاة امرأة فماتت ؟ قال : النفس بالنفس
 إذا فاتت . (القطاة : ما بين الوركين) .

والزهو : التكبر والإعجاب . الأريب : العاقل . لاط : عمل عمل قوم
 لوط . وضح : تبين . مائن : كاذب . القطاة : نوع من الحمام ، وقفاً
 العين : أخرجها . والبلبل : طائر .

قال : فإن أُلْقِيَ الحَامِلُ حَشِيشًا مِنْ ضَرْبِهِ ؟ قال : لَيْسَ كَفَرُ
بِالإِعْنَانِ عَنْ ذَنْبِهِ . (الحَشِيشُ : الجنين المُلْتَقَى ميتًا) .

قال : ما يجب على المختن في الشرع ؟ قال : القطع لإقامة الردع .
(المختن : نبَّاش القبور) .

قال : فما يصنع بمن سرق أساودَ الدار ؟ قال : يُقَطَّعُ إِنْ سَاوَيْنِ
رُبْعَ دِينَارٍ . (الأساود : الآلات المستعمله كالإِجَانَةِ وَالْقِدْرِ : الخِفْنَةُ) .

قال : فإن سَرَقَ ثَمِينًا مِنْ ذَهَبٍ ؟ قال : لَا قُطْعَ كَمَا لَوْ غَصَبَ .
(الثَمِين : الثُّنْبُ ، كما يقال في النصف : نصف ، وفي الثُدُنِ سَدِيسٌ) .

قال : فإن بَانَ عَلَى الْمَرْأَةِ السَّرَقُ ؟ قال : لَا حَرَجَ عَلَيْهَا وَلَا فَرْقَ
(السَّرَقُ : الحرير الأبيض) .

قال . أَيْنَعِدُ نِكَاحًا لَمْ يَشْهَدْهُ الْقَوَارِي ؟ قال : لَا وَالْخَالِقُ
الْبَارِي . (الْقَوَارِي : الشهود لأنهم يُقَرُّونَ الْأَشْيَاءَ ، أَيْ يَتَّبِعُونَهَا) .

قال : ما تقول في عريسٍ بَانَتْ بِلَيْلَةٍ حُرَّةً ، ثُمَّ رُدَّتْ فِي حَافِرَتِهَا
بُسْحَرَةً ؟ قال : يجب لها نصف الصَّدَاقِ ، وَلَا تَلْزُمُهَا عِدَّةُ الطَّلَاقِ .

(يقال : بَانَتْ الْعُرُوسُ بِلَيْلَةٍ حُرَّةً ، إِذَا امْتَنَعَتْ عَلَى زَوْجِهَا ؛ فَإِنْ افْتَضَّهَا
قِيلَ : بَانَتْ بِلَيْلَةٍ شَيْبَاءَ . وَالرَّدُّ فِي الْحَافِرَةِ بِمَعْنَى الرُّجُوعِ فِي الطَّرِيقِ الْأَوَّلِ ،
وَكُنِيَ بِهِ مِنْ طَلَاقِهَا قَبْلَ وِرْدِهَا إِلَى أَهْلِهَا) .

* * *

الحَشِيشُ : نبات يابس . الزَّدَعُ : الكف والمنع . الأساود : الحيات . الثَمِين :
الرفيع الثمن .

القواري : طيور خضر ، وقد بين هو أنه أراد بالقواري الشهود .
ويقال : المسلمون قواري الله في الأرض أى شهرده ، وقال جرير :

* المسلمون لما أقول قواري *

وبابت العروس بليلة شَيْبَاء ، إذا غشيها زوجها .
النفجديهي : رأيت : بخط الحريري رحمه الله تعالى :

طَيَّبوها ولم أَطَيَّب بِطَيِّبِ رَبِّ مَنَعَ الذَّمَّ مِنْ إِعْطَاءِ
بَتٍّ فِي دِرْعِهَا وَبَاتَتْ ضَجِيعِي فِي بَصِيرِ وَلِيلَةِ شَيْبَاءِ

للبصير هنا: قطعة من دم :

وقد أتينا على مافي هذه المسائل من الغريب في الظاهر ، وأما ما قصده من
المعنى فهو مفسر في الأصل ، ولقد أحسن أبو محمد في هذه الفتاوى وبلغ من
الإقتدار والاتساع فوق المراد ، وإن كان لا يوصف فيها الابتداع ، فقد أحسن
في الاتباع .

[الملاحن والمعارض]

والسابق إلى هذا المعنى أبو بكر بن دُرَيْد رحمه الله تعالى في كتاب سَمَاءِ
بالملاحن ، وهى من اللَّحْن ، وهو أن تورى بلفظ عن لفظ .

ثم تم تلك الأغراض وحسبها أحد بن عبيد الله في كتاب سَمَاءِ بالمنقذ^(١) .
وفائدة حفظ هذه الأغراض أن يخوف الرجل أو يروعه أمير ظالم أو مستلط
غاشم ، فيبتخلص منه بهذه المعارض . فأما أن يقطع بها حق مسلم فلا سبيل إليها ،
ومعتمد فيهما حديث عمران بن حصين أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال :
« إن في المعارض مندوحة عن الكذب » .

(١) في كشف الظنون : « المنقذ من الإتيان لمحمد بن أحمد البصرى ، المعروف بالمعجيج
مات سنة ٣٢٠ ، وهو يشبه الملاحن لابن دريد .

وفي حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « عَجِبْتُ لِمَنْ يُحْسِنُ الْمَعَارِضَ كَيْفَ يَكْذِبُ ، وَلِمَنْ لَاحَنَ النَّاسُ كَيْفَ لَا يَعْرِفُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ ! »

وقول النبي صلى الله عليه وسلم لطلّاع المشرّكين حين لقّوه في نفر من أصحابه ، فقالوا : تَمَنُّ أَنْتُمْ ؟ قالوا : من ماء ، فتركوه ، وأراد ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾ (١) .

وقوله صلى الله عليه وسلم في مُزَاحِهِ لِإِحْدَى عَمَاتِهِ « إِنْ الْجَنَّةُ لَا تَدْخُلُهَا عَجُوزٌ » ، فَلَمَّا جَزَعَتْ قَالَتْ لَهَا « إِنْ اللَّهُ تَعَالَى يَخْلُقُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَبْكَارًا » .
رَقَالَ لَامْرَأَةٍ : « مَا فَعَلَ زَوْجُكَ الَّذِي فِي عَيْنَيْهِ بَيَاضٌ ؟ » فَلَمَّا جَزَعَتْ قَالَتْ :
« لَهَا أَوْ لَيْسَ فِي كُلِّ عَيْنٍ بَيَاضٌ ؟ »

وَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : ائْتِنِي ، قَالَ : مَا عِنْدِي إِلَّا وَلَدُ النَّاقَةِ ، فَقَالَ : وَمَا أَصْنَعُ بَوْلَ النَّاقَةِ ؟ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « وَهَلُ الْإِبْلُ إِلَّا مِنَ النَّوْقِ ! » .
فَاسْتُجِيزَتْ الْمَعَارِضُ عَلَى هَذَا النِّحْوِ مِنَ الْمَزَاحِ أَوِ التَّحْوِيفِ .

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ بَعْضَ الْعَرَبِ أَدْخَلَ عَلَى الْوَائِقِ ، وَكَانَ يَقُولُ بِخُلُقِ الْقُرْآنِ وَيَمَاقِبُ مَنْ خَالَفَهُ ، مَا يَقُولُ فِي الْقُرْآنِ ، فَتَصَامَمَ عَلَيْهِ ، فَأَعَادَ السُّؤَالَ ، فَقَالَ : مَنْ تَعْنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ فَقَالَ : لِإِيَّاكَ أَعْنِي ، فَقَالَ : مَخْلُوقٌ - يَعْنِي نَفْسَهُ ، وَتَخَلَّصَ مِنْهُ .

وَقَالَ لِآخِرِ مِنَ الصَّالِحِينَ : مَا يَقُولُ فِي الْقُرْآنِ ؟ فَأَخْرَجَ يَدَهُ ، وَجَعَلَ يَمْدُّ أَصَابِعَهُ ، وَيَقُولُ : التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ وَالْقُرْآنُ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ مَخْلُوقَةٌ . فَعْنَى أَصَابِعِهِ ، وَتَخَلَّصَ مِنْهُ .

وتعذر على رجل لقاء المأمون في ظلامته ، فصاح على بابه : أنا أحمد النبي المبعوث . فادخل إليه ، وأعلم إنه تنبأ فقال له : ما تقول ؟ فذكر ظلامته ، فقال له : ما تقول فيما حكي عنك ؟ فقال : وما هو ؟ قال : ذكروا أنك تقول إنك نبي ، فقال : معاذ الله ، إنما قلت : أنا أحمد النبي المبعوث ، أفانت يا أمير المؤمنين ممن لا يحمد ؟ فاستظرفه ، وأمر بإضافته .

وخرج شريح القاضي من عند زياد ، وتركه يجود بنفسه ، فسأله الناس عن حاله ، فقال : تركته يأمر وينهى ، فجزعوا لسلامته ، فاراعهم إلا صياح النائمات عليه . فسئل شريح عن قوله ، فقال : تركته يأمر بالوصية ، وينهى عن البكاء .

وسئل ابن شبرمة عن رجل ليس بمعمل ، فقال : إن له شرفاً وقدماً وبيتاً . فنظروا فإذا هو ساقط سفلة ، فقيل له في ذلك ، فقال : شرفه أذناه ، وبيته الذي يأوى إليه . وقدّمه الذي يمشي عليه .

وقال صاحب المنقذ :

إذا حلفت بالأيمان اللازمة لك ، فانو بالأيمان الأيدي ، قال تعالى : ﴿ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ﴾ . فإن قلت : كل امرأة طالق فاعن الطالق من الإبل ، وهي التي يطمعها الراعي ، والطلاق التي يحمل عليها عقابها .

فإن قيل : احلف بظاهر امرأتك كظن أمك ، فاعن بالظاهر ما يركب من الخيل والبغال والحمير ، ولا جناح عليه في ركوب دواب أمه .

فإن قال : احلف بما لك على المسلمين صدقة ، فاعن ما لك على المساكين من دين ، وليس لك عليهم شيء .

فإن أحلفك بأن كل مملوك لك حر . فالمملوك : الدقيق الملتوث بالماء أو الزيت أو السمن .

فإن قال: كل غلام لك حرّ. فالحرّ: الحيّة الذّكّر، والحرّ من الرمل الذي ماوطىء، والحرّ: ذكر الحمام، قال حميد.

* دَعَتْ سَاقَ حُرٍّ تَرْحَةً وَتَرْنَمًا *^(١)

فإن أحلفك بأن كل جارية لك حرّة، فالجارية السفينة، والريح والشمس. فإن قال: احلف وإلا كل أمة لك حرّة، فالحرّة الأذن، والحرّة السحابة الغزيرة المطر.

فإن أحلفك: وإلا فمالك حبس، فحبس بلد معروف، قال ابن جِلّزة:

* لَمَنِ الدِّيارُ عَفَوْنٌ بِالْحَبْسِ *

فإن قال: وإلا فهو كافر. فالكافر الليل، أو البحر أو الزّراع للبذر، قال الله تعالى: ﴿أَعْجَبَ السَّكَاتَرُ نَبَاتَهُ﴾^(٢)، وأصله الساتر.

وتقول: كل امرأة تزوجتها فقد طلقها بقاتا. فتزوجت اتخذت زوجا من النبات أى لونا، وقال الله تعالى: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾^(٣). وقال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا﴾^(٤) من نبات شتى، وطلقها ألبسها الطلق، وهو قبة من جلود والنبات: الزاد.

وتقول: مانطيت ولا تمسكت. فتطيت أنبت الطيب، وهو بلد بين واسط والسوس، أو طيبة مدينة النبي صلى الله عليه وسلم. وتمسكت: لبست مسكا وهو الجلد، أو تنقلت من الامسك.

وتقول: ماله قبلى درهم ولا دينار. فدرهم قبيلة من ربيعة، لهم خُطّة في البصرة، ودينار اسم رجل معروف.

(١) ديوانه ٢٤، وصدره:

* وَمَا هَاجَ هَذَا الشَّوْقُ إِلَّا حَامَةً *

(٣) سورة ن ٧

(٢) سورة الحديد ٢٠

(٤) سورة طه ٣

وماله قبلى ثوب ولا شقة ولا قيص . الثوب : الرجوع ، من ثاب يثوب ،
والشقة : البعد . والقيص : غشاء القلب .

وماله قبلى شئ بوجه من الوجوه ، ولا بسبب من الأسباب . الشئ : مصدر
شويت اللحم . والوجوه صور مختلفة من التصاوير . والوجه : المقصد ، والجمع
وجوه ، والأسباب : العبال .

وما أوصيتُ إليه ، وما أوصى إلى . أوصى دخل فى الواصى ، وهو بيت
متصل ببعضه ببعض .

ولا أعلم له داراً ولا عقاراً ؛ فداراً : بلد معروف بالجزيرة ، قال الشاعر :

ولقد قلتُ لرجلي بينَ حرانٍ وداراً^(١)
اصبرى بارجلُ حقٍّ يرزُقُ اللهُ حِمَاراً

والعقار : النخل .

ولا أعرف للمرأة : بعلًا ولا وليًا . فالبعل : النخل أو الشجر ، يشرب بماء
السحاب ، والولي : بلى الوسمى .

وتقول : ما اشتريتُ لفلانة ضرتك قيصاً ، ولا إزاراً ولا رداءً ، ولا فناءً
ولا غلالةً ، ولا حلتينها خاتماً ولا خلخالاً ولا طوقاً ولا سيواراً ؛ ولا قرطها
ولا شفتيها ولا كسوتها ، ولا جلست مع قينة ولا مغنية ولا ضاربة بعود ولا بطبل
ولا رباب ، ولا سمعت زماراً ولا ذقت نبيذاً . فالقيص غشاء القلب ، والرداء
السيف أو الدين أو الفطاء ، والإزار : قُبُل المرأة أو جسم الرجل ، قال الشاعر :

• فدى لك من أخى ثقة إزار^(٢) •

والإزار : العفاف ، والقناع : جمع قنec ، وهو طبق يحمل عليه الفاكمة .

(١) داراً : بلدة فى لحف جبل بين نصيبين وماردين - ياقوت

(٢) الحان - أزر ، من آيات لعدة بن عبد الله السمرى

(• - شرح مقامات الحريرى ج ٤)

وفي الحديث : إن^(١) الربيع ابنة معوذ أتت النبي صلى الله عليه وسلم بِنِعا من رُطب وآخر من زَغَب فأكل منه ، والزَّغَب : القِثَاء . والفِلاة : مسمار من مسامير الدروع ؛ قال :

* فَنَهَّ وَضَاءً صَافِيَاتُ الْفَلَائِلِ^(٢) *

والفِلاة : الجماعة من الناس ، والخَافِمْ : شعرات بيض في قوائم الفرس . والسَّوَار مصدر ساورت الرُّجُلَ . والخلخال : الرَّمْل الجريش . والطَّوْق : المصدر من الطاقة ، وقرطها من القرط ، وهو العلف الرطب تأكله الدَّوَاب ، فإذا يبس فهو القَت . وشَفَفَتْها جعلتها مُشَفَّة أي مبغضة ، من شَفَفَت الرُّجُلَ ، إذا أبغضته . وكسوتها : ضربت كسأها ، وهو جانبها ، وجانب كَرَشِيء كسأه والجمع أكسأه ، والقَيْنَة : هزيمة بين الوركين وعُجِب الذَّئِب من الفرس ، والمُود الذي يُتَبَخَّر به ، والزَّمارَة : الفاجرة ، ومنه نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن كسب الزَّمارَة ، والزَّمارَة : الفُل ، وفي خبر الحجاج : أتى سميد بن جُبَيْر وفي عنقه الزَّمارَة ، أي ساجور ، والطبل : السَّلة التي يجعل فيها الطعام ، والطَّبل : الخراج . والمَغْنِيَة : ناقة تضرب بنابها ، والرباب : سَحَاب متراكب قريب من الأرض . والتَّبِيد : ما تَبَذَّته النعام أو الحمير بأرجلها من الحمى . وتقول : مالى مراكوب ومابعت عبداً ، وقد افتقرت حتى مافى مِلْكَى نفقة يوم مالى ، بمعنى مِلْكَى ، ومراكوب : ضُرِبَت ركبته ، وثنية بالحِجاز . وعَبْد : جبل من جبال طيء . وافتقر : اشتدَّ فقاره أو كَسَرَ فقار جَدَى أو سَحَلَ ، والمَلِك : الحجة .

وتقول : ما أضعفتُ عملي ولا أقصرتُ ولا أهملتُ ولا فرطتُ ولا ساحتُ أحداً ، ولا تركتُ واجباً ، ولا ارتفعتُ بحبه ، ولا أبقيتُ غايةً في مناصحتك ، أضعفتُ : كثُرت ضياعي . وفرطت : بعثت قارطاً ، وهو طالب الماء ،

(١) ذكرها ابن حجر في الإصابة ٢٩٣ : (٢) لقنانية ، ديوانه ٦٤ اللسان (علل) ، وصدره :

* عَلَيْنَ بِكَ دَيُونٍ وَأَبْطُنٍ كَرَّةٍ *

هَوَصَّرَتْ : بنيت قمعراً . وَأَهْمَلْتُ : كَثُرَتْ هَوَامِلِي ، وَهِيَ الْإِبِلُ السَّارِحَةُ فِي
الْمَرْهَى بِلَا رَاعٍ . وَصَاحَتْ : نَظَرْتُ أَيْتَا أَكْرَم . وَالْوَاجِبُ : السَّاقِطُ ،
وَارْتَفَقَتْ : نِمْتُ عَلَى مِرْفَقِي ، وَالنَّايَةُ : رَايَةُ الْحِمَارِ .
وَتَقُولُ : مَا شِئْتُ لَهُ أَبِي وَلَا عَمًّا وَلَا عَمَةً ، وَلَا خَالًا وَلَا خَالَه ، وَلَا صَحْبَةً ،
وَلَا شَاهِدَةً وَلَا رَاسِلَةً ، وَلَا شَارِبَةً ، وَلَا نَادِمَةً ، وَلَا رَأَيْتُهُ مِنْذَرٍ
أَنْي : دَاءٌ يَأْخُذُ الْمَرْي ، قَالَ :

• أَبْيَ لَا إِخَالَ الضَّانَ مِنْهُ نَوَاجِيًا ^(١) •

وَعَمٌ : قِطْعَةٌ مِنَ النَّاسِ ، وَقُرْبَةٌ بِالشَّامِ ، وَالْعَمَّةُ النَّخْلَةُ ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
« نِعِمَّتِ الْعَمَّةُ لَكُمْ النَّخْلَةُ » ، وَقِيلَ لَهَا عَمَّةٌ لِأَنَّهَا خُلِقَتْ مِنْ بَقِيَّةِ طِينَةِ
آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَالْعَالُ : السَّحَابُ ، وَالْخَالُ مِنَ الْبُرُودِ ، وَالْخَالُ مِنْ
الْخَيْلَانِ ، وَالْخَالَةُ : جَمْعُ خَالٍ مِنَ الْكِبَرِ . وَصَحْبَتُهُ : مَنْعَتُهُ ؛ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تُمْ
مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ ^(٢) ، أَيْ يَمْتَمُونَ . وَشَاهِدَتُهُ : أَكَلْتُ مَعَهُ الشَّهْدَ ، وَرَاسِلَتُهُ :
شَرِبْتُ مَعَهُ الرَّسْلَ ، وَهُوَ اللَّبَنُ ، وَشَارِبَتُهُ مِنَ الشَّوَارِبِ ، وَنَادِمَتُهُ مِنَ النَّدَمِ ،
وَرَأَيْتُهُ : ضَرَبْتُ رِئْتَهُ ، وَدَهْرٌ : قَبِيلَةٌ مِنْ إِيَادَ .

وَتَقُولُ : مَا كَتَبْتُ لَهُ حَرْفًا ، وَلَا خَطَطْتُ لَهُ بِقَلَمٍ ، وَلَا شِئْتُهُ وَلَا هَجَوْتُهُ ،
وَلَا افْتَرَيْتُ عَلَيْهِ ، وَلَا أَعْرِفُ عَلَيْهِ سَوْءًا . الْحَرْفُ النَّاقَةُ الْمَضْمَرَةُ ، وَالْقَلَمُ :
الْقِدْحُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِذْ يُنْفِقُونَ أَقْلَامَهُمْ ﴾ ^(٣) ، يَعْنِي قِدَاحَ الْمَيْسَرِ . وَالشَّقْمُ :
خَبِثُ الْوَجْهِ ، وَهَجَوْتُهُ : أَرَزَلْتُ نِعْمَتَهُ ، وَهُوَ الْهَجَى مَقْصُورٌ ، وَافْتَرَيْتُ : لَبَسْتُ
الْفَرْوُ ، وَالسَّوَاءُ : الْبَرَصُ .

وَتَقُولُ : رَأَيْتُهُ فِي السَّوْقِ مَتَوَفًى مَقْبُورًا ، وَمَا أَخَذَ دَوَاءً وَلَا مَجْجُونًا .

(١) اللسان - أبي ، ونسبه لابن أحر

(٢) سورة آل عمران ٤٤

(٣) سورة الأنبياء ٤٣

فالسوق : أصول الشجر وأعناقها . متوقى دائماً . مقبوراً : مبخراً بالعود .
الهندي الذي فيه قبر ، أى رخاوة . والدواء والدأوية : جلدة اللبن ، والمعجون :
المضروب على عِجانه .

وتقول : هو مجنون مُصاب ، قد غُلّ مراراً ، فما اعتذرت له ، ولا تنصّت ،
لأنه ليس من الأجواد ، ولا الشجعان الذين يُقدّح في أنسابهم . الجنون :
المستور . مصاب : مجذّر من صاب يصوب ، وغَلّ من الغلة ، واعتذر وتنصل :
اتخذ عذاراً ونَصلاً . الأجواد : المطاش . والشجعان : الحيات ، والأنساب :
أسنان اللُشط .

وتقول : رأيت الجيش بالثغر ، والفارس فى الفوارس ، فما أفضّلُ عليه
أحدًا من العرب والمعجم . الجيش : الفلّيان ، والثغر : شجرٌ له شوكة ،
والفارس : الحسن الفِرَاسة ، والفوارس : كُشبان رمل ، والعرب :
فساد المعدة ، وعَرِبَتْ معدته . والمعجم : النوى .

وما أكلت دابى شعيرا . الشعير : جمع شعيرة ، وهو مسمار من الفضة فى
قائم السيف .

وبالباب منسع وفيه تأنس لما ذكره أبو محمد .



ومن المعاريض ، أن الحجاج لما أخرج ابن القيعرى من سجنه قال له :
صممت يا غضبان ، قال : القيد والرّثمة^(١) ، والخفض والهدعة ، ومن يكن ضيف
الأمير يستمن ، قال : لأحملنك على الأدهم ، قال : مثل الأمير يحمل على الأدهم
والورد والكميت . قال : إنه حديد ، قال : لأن يكون حديداً خيرٌ من أن يكون
بليداً ، قال : اضربوا به الأرض ، قال : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾^(٢)
قال : جُرّوه ، قال : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾^(٣) ، قال : احملوه على الأيدي

(١) الرثمة : الانسلاخ فى الحبس (٢) سورة طه ٥٥ (٣) سورة هود ٤١

فَلَمَّا حِيلَ قَالَ: ﴿سَبِّحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾^(١)، فَضَحِكَ الْحِجَااجُ وَقَالَ: غَلَبْنَا هَذَا الْخَبِيثَ، خَلَوْهُ إِلَى صَفْحَى هُنَا، قَالَ: ﴿فَاَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ﴾^(٢).

وقال خالد بن الوليد لعبد المسيح بن عمرو الغساني - وهو ابن ثلثمائة وخمسين سنة - من أين أقصى أترك؟ قال: من صُلب أبي، قال: من أين خرجت؟ قال: من بطن أمي، قال: فعلام أنت؟ قال: هلى الأرض، قال: فقيم أنت؟ قال: فى ثيابى، قال: أتعقل لا عقلت؟ قال: إى والله وأقيد، قال: ابنُ كم أنت؟ قال: ابن رجل واحد، قال: فما سنُّك؟ قال: عَظُمُ، قال: ما تزيدنى مسائلتك إلا عِيًا، قال: ما أجبتك إلا عن مسائلتك.

الربيع بن عبد الرحمن، قلت لأعرابى: أتهمز إسرائيل؟ قال: إنى إذا لرجل سوء؛ أراد قوله: ﴿هَمَّازٍ مَشَاءَ بِنَمِيمٍ﴾^(٣)، قلت: أتهمز فلسطين؟ قال: إنى إذا لقوى!

خلف الأحمر: قلت لأعرابى: ألقى عليك بيتًا؟ قال: هلى نفسك فآلقه.

قيل لأعرابى: أتهمز الفأرة؟ قال: الهرّ يهمزها.

ودخل رجل من محارب قيس على عبد الله بن يزيد الهلالي عامل إرمينية، وقد بات على قربٍ من غدير فيه ضفادع، فقال عبد الله: ما تركتُنا شيوخ محارب تنام فى هذه القيلة لشدة أصواتها. فقال المحاربى: أصلح الله الأمير! إنها أصَلَّتْ برقعًا، فهى فى بُعْثَانِهِ. أراد الهلالي قول الأخطل:

تنقُ بلا شىء شيوخ محاربٍ وماخلتها كانت تریشُ ولا تَبْرِى^(٤)
ضفادعُ فى ظلماء ليلٍ تجاوبتُ فدلَّ عليها صوتُها حيَّةَ البحرِ

(٢) سورة الزخرف ٨٩

(٤) ديوانه ١٣٢

(١) سورة الزخرف ١٣

(٣) سورة القلم ١١

وأراد الحاربي قول الآخر :

لِسَكَلٍ هِلَالِيٍّ مِنَ اللُّؤْمِ بَرَقَ ولابن هلالٍ بَرَقَ وَفَيْصٌ
وهذا النحو من التعريض كثير .

وقال أبو الحسن بن سراج رحمه الله تعالى :

يا ضَرَّةَ الشمسِ التي أَشْرَقَتْ قد أَشْرَقَتْ حَبِيبَةُ مُشْتَاكِكَ
لَحْظُكَ أَوْ خَضْرُوكَ قَدْ ضَمِنَا ما ضَمِنَتْ هَهْدَةُ مِثْثَاكِكَ
كَمَأَرُ المَوَى يَطْلُبُهُ نَائِرٌ مصرعه ما بين أَحْدَاكِكَ
لا تَدْخُرِي أَنْفَسَ صَوْتٍ قَدْ يُرْغَبُ فِي أَنْفَسِ أَعْلَاكِكَ
رَفَقًا بِمَنْ مُلِكَتْهُ فِي المَوَى فَإِنَّهُ آخِرُ عُشَاكِكَ
فأنفس أعلاق المرأة معلوم ، والظرف كما في قوله : « فإنه آخر عشائك »
يمرض أنها أسنت فلا عاشق لها من بعده . والقينة : التي داعبها وما زحها تفهم
ما خوطبت به ، لأنها تليذة ولادة بنت المكتفى ، ولادة شاعرة بارعة التندير ،
فن تندرها قولها في ذى الوزارتين ابن زيدون عاشقها تعرض له بشيء
كان يُرَنِّ به :

ما لابن زيدون على فضله يفتابني ظلمًا ولا ذَنْبَ لِي^(١)
يلحظني شَرًّا إِذَا جِئْتُه كأنما جئت لأخمي علي
وعلَى صَبِيَّهِ ، وكان يمزح معه .

...

فقال له السائل : لِيهِ دَرَكٌ مِنْ بَحْرِ لَا يُفَضِّضُهُ المَاتِحُ ، وَحَبْرٌ
لَا يَبْلُغُ مَدَحَهُ المَادِحُ ؛ ثُمَّ أَطْرَقَ لِطَرَاقِ الحَيِّ ، وَأَرَمَ إِرَامَ

العيّ . فقال له أبو زيد : إيه يافتي ! فإلى متى وإلى متى !
فقال : إيه لم يبق في كِناتِي مِرْماءَ ، ولا بَندِ إِشراقِ صُبْحِكَ
مِماراةَ ؛ فبالله أئى ابنِ أرضِ أنت ؟ فما أحسن ما أُنبت !
فأنشدَ بلسانِ ذَلِيقِ ، وصوتِ صَهْصَلِيقِ :

أنا فى العالم مُثْلَة ولأهل العلم قِبْلَة
غَيْرَ أئى كُلَّ يومٍ بَيْنَ تَغْرِيسٍ وَرِخْلَةٍ
والغريب الدار لو حَلَّ بطُوبَى لم تَطْبَلْ له

ثم قال : اللهم كما جَعَلْتَنَا مِنْ هُدًى وَيَهْدَى ، فاجعلهم مِمَّنْ
يَهْتَدِ وَيُهْدَى .

فساق إليه القومُ ذُودًا مع قَيْنَةٍ ، وسألوه أن يَزُورَهم الفينة
بعد الفينة . فنهض يُمنِّيهِمُ العُودَ ، ويُزجى الأَمَّةَ والدُّودَ .

. . .

قوله : يَضْمُضُهُ : يَنْقُصُهُ . الماتِح : المستقى من أعلى البئر ، والماتِح ، بالياء
من قعرها . حَبْر : عالم . أطرق : أمال رأسه ساكتاً . وأرم : سكت . العيّ :
الذى إن كلمته لم يُحسن ردَّ جوابه . إيه : بمعنى زدنى من سؤالات .

ابن السرى : إذا قلت : «إيه يارجل» ، فإنما تأمره أن يزيدك من الحديث
المعهود بينكما ، كأنك قلت : هات الحديث ، وإن قلت إيه : بالتثوين ، فكأنك
قلت : هات حديثاً ما ، فإلى متى سكوتك ؟ مرماة : سهم يرمى به السبّاق ، وقيل :
هو سهم مدوّر الفصل . بعد إشراق صبحك ، أى بعد ظهور فضلك . وإشراق
ضوء . مِماراة : شك . أُنبت : بَيَّنت . ذَلِيق : حديد . صَهْصَلِيق : شديد .

مَثَلَةٌ : معيّر الخلق ، فهي « فَعْلَةٌ » من المثل ، ويقال المَثَلَةُ والمثل بمعنى .

* * *

[ذكر قباح الوجوه من أهل العلم وغيرهم]

ونذكر على قوله : « أنا في العالم مثلة » ، فصلاً في ذكر قباح الوجوه من العلماء وغيرهم .

فمنهم الجاحظ ، وأراد المتوكل أن يعاين بنيه الثلاثة ولاية عهده ، فأدخل عليهم ، فارتاعوا من قبح وجهه ، فأخرج عنهم بعنف .

وحكى الممودي : أن الجاحظ قال : ذُكِرْتُ للمتوكل لتعليم بعض ولده ، فلما رأى استبشع منظري ، فأمر لي بعشرة آلاف درهم ^(١) وصرفني .
وقال الحدوني :

لَوْ يَمْسُخُ الْخِنْزِيرُ مَسْخًا ثَانِيًا لِرَأْيَتِهِ فِي دُونَ قُبْحِ الْجَاحِظِ ^(٢)
رَجُلٌ يَنْوِبُ عَنِ الْجَعِيمِ بَوَاجِهِ وَهُوَ الْعَدُوُّ لِكُلِّ عَيْنٍ لَاحِظٍ
قال الأصمعي رحمه الله : دخلت يوماً على جعفر بن يحيى ، فقال لي : هل لك يا أصمعي من زوجة ؟ قلت : لا ، قال : لجارية ؟ قلت : للمهنة ، قال : فهل لك أن أهب لك جارية نظيفة ؟ ، قلت : إني لاحتاج إلى ذلك . فأمر بجارية فأخريجت وهي في غاية الحسن والجمال والهيئة والظرف ، فقال لها : قد وهبتك لهذا ، وقال لي : خذ هذه ، فشكرته ، وبكت الجارية ، وقالت : يا سيدي ، أتدفعني لهذا الشيخ مع ما أرى من سماحتك وقبح منظره ! وجزعت جزءاً شديداً ، فقال لي : يا أصمعي ، هل لك أن أهوضك منها ألف دينار ؟ قلت : ما أكره ذلك ، فأمر لي بها ، ودخلت الجارية ، فقال لي : يا أصمعي ، أنكرت عليها شيئاً ، فأردت عقوبتها بك ، ثم رحمتها منك ، قلت : أيها الأمير ، أفلا

(١) نسيهما الثعالب في ثمار القلوب ٤٠٤

أُهِلَّتَنِي قَبْلَ ذَلِكَ ، فَإِنِّي لَمْ أَتُكْ حَتَّى سَرَّحْتُ لِحَيْتِي ، وَأَصْلَحْتُ وَجْهِي
وَعَمَّتِي ، فَلَوْ عَرَفْتُ الْخَبِيرَ لَسَرْتُ عَلَى هَيْئَتِي وَخِلَّتَنِي ، فَوَاللَّهِ لَوْ رَأَيْتَنِي كَذَلِكَ
لَا عَاوَدْتُ شَيْئًا تَنْكَرُهُ أَبَدًا .

وما ضَرَّ مَنْ ذَكَرْنَا قُبْحَهُمْ مَعَ الْعِلْمِ الَّذِي زَيَّنَهُمُ اللَّهُ بِهِ ، وَكَذَا يَنْبَغِي لِمَنْ
خُلِقَ قَبِيحَ الصُّورَةِ أَنْ يَسْتَعْمَلَ لَهَا الْأَخْلَاقَ الْحَسَنَةَ ، وَالْأَفْعَالَ الْحَسَنَةَ ، ثَلَاثًا
يَجْمَعُ بَيْنَ قَبِيحَيْنِ .

كَانَ الْأَوْثَقِيُّصُ الْحَزْرَوِيُّ أَقْبَحَ النَّاسِ خِلْقَةً ، وَمَا رُويَ مِثْلُهُ فِي الْمَغَافِ
وَالزَّهْدِ . وَكَانَ قَاضِي مَكَّةَ ، فَقَالَ يَوْمًا لِحِلْسَائِهِ : قَالَتْ لِي أُمِّي : يَا بَنِي إِنْكَ
خُلِقْتَ خِلْقَةً لَا تَصْلُحُ مَعَهَا لِمَجَالَسَةِ الْفَتَيَانِ فِي بُيُوتِ الْغِيَانِ ، فَعَلَيْكَ بِالذِّينِ ،
فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَرْفَعُ بِهِ الْخُلْسِيَّةَ ، وَيَتِمُّ بِهِ النَّقِيبَةَ . فَفَعَلَ اللَّهُ بِكَلَامِهَا ،
فَوُلِّيتَ الْقَضَاءَ .

وَرَوَى أَنَّ أُمَّ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ أَوْصَتْهُ بِمِثْلِ هَذِهِ الْوَصِيَّةِ ، حِينَ أَرَادَ أَنْ يَتَعَلَّمَ
الْفَنَاءَ فِي حَدَائِثِهِ ، فَتَرَكَهُ وَتَعَلَّمَ الْعِلْمَ ، فَذَهَبَ بِهِ حَيْثُ بَلَغَ .

وَكَانَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ أَعْوَرُ أَسْوَدُ أَفْطَسُ أَشْلَى أَعْرج ، ثُمَّ عَمِيَ . وَأُمُّهُ
سَوْدَاءُ تَسْمَى بَرَكَةً ، وَقِيلَ لِأَهْلِ مَكَّةَ بِمَدْمُوتِهِ : كَيْفَ كَانَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ
فِيكُمْ ؟ قَالُوا : كَانَ مِثْلَ الْعَافِيَةِ الَّتِي لَا يُعْرَفُ فَضْلُهَا حَتَّى تُفْقَدَ .

وَكَانَ فِي خِلْقَةِ أَبَانَ بْنِ عَثْمَانَ كُلِّ عَيْبٍ ، وَكَانَ يُضْرَبُ بِمُيُوبَةِ الْمَثَلِ
فِي الْمَدِينَةِ .

كَانَ مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ أَمِيرَ الْيَمَنِ يَوْمًا جَالِسًا إِذْ أَتَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي سَهْمٍ ،
وَمَعَهَا ابْنُ صَغِيرٍ يَتَّبِعُهَا ، وَيَطَأُ أَذْيَالَهَا ، فَقَالَتْ : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ! إِنْ هَمَّتْ
زَوْجَتِي مَنْ لَيْسَ بِكَفٍّ ، فَقَالَ : مَنْ هُوَ ؟ فَقَالَتْ : ابْنُ ذِي مَنَاجِبٍ ؟ فَقَالَ :
عَلَى بِهِ ، فَدَخَلَ أَقْبَحَ مَنْ خَلَقَ اللَّهُ ، وَأَشْوَهَهُمْ خَلْقًا ، قَالَ : مَنْ هَذِهِ مِنْكَ ؟

قال : امرأتى ، قال : خلّ سييلها ، فقل ، فأطرق معن ساعة ، ثم رفع رأسه فقال :

لَعَنَرى لَقَدْ أَصْبَحْتُ غَيْرَ مُحِبِّ
فَإِ لَمْ تُهْأَلْ لَنَا تَبَيَّنَتْ وَجْهَهُ
وَأَنْفَاكَ أَنْفَ الْبَكْرِ يَقْطُرُ نَاتِئًا
أَنْتِ بِهَا مِثْلُ الْمَهَاءِ تَسُوقُهَا

وكان تزوجها بمكة وقدم بها اليمن . والصبي هو ابن جامع المغنى المشهور .

وحكى البعترى فى نوادره عن رجل سمّاه قال : مررت بامرأة من أجل
الناس ، معها رجل من أقبيعهم ، قلت لها : يا أمة الله ، مَنْ هذا منك ؟ قالت :
رجليّ ، قلت : وَمَنْ قرّنتك به ؟ قالت : أخيه ، قلت :

جَزَى الرَّحْمَنُ عَنْكَ أَخَاكَ شَرًّا
فَقَدْ أَخْزَاكَ فِي الدُّنْيَا وَزَادَا
فَمَ أَرَا مُغْزِلًا قُرْنَتْ بِكَ
وَلَا خَزَا بِطَانَتِهِ بِجَادَا

وقال آخر :

أَلَا رُبَّ بَيْضَاءَ الْحَاجِرِ طَائِلَةٍ
يَقُولُونَ جَرَّتْهَا إِلَيْكَ قَرَابَةً
تُسَاقُ إِلَى وَغْدٍ مِنَ الْقَوْمِ تَنْبَالٍ
فَوَيْحَ الْمَذَارَى مِنْ بَنَى الْعَمَّ وَالْخَالِ !

وقال آخر :

لَا بِنَ عَيْدِ النُّورِ وَجْهٌ
قَالَ قَرْدٌ إِذْ رَأَاهُ
صَارَ لِلْقُبْحِ مَلَاذًا
لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى ذَا

وقال فى بشار :

تُؤَاتِبُ أَقْمَارًا وَأَنْتَ مَشْوَةٌ
وَأَقْرَبُ خَلْقِ اللَّهِ مِنْ شَبِّهِ الْقِرْدِ

وكان بشار ضخمًا قبيح الوجه ، جاحظ الحدقتين ، أقبح الناس عَمًى ومنظرًا

قال فيه حماد مجرد :

أَلَا مَنْ مُبْلَغٌ عَنِ الْإِذَى وَاللَّهُ بُرْدٌ (١)
إِذَا مَا نُسِبَ النَّاسَ فَلَا قَبْلَ وَلَا بَعْدَ
وَأَعْمَى بِشْبَهُ الْقِرْدَا إِذَا مَا عَمِيَ الْقِرْدُ

فقال بشار عندما سمع هذا البيت : ما أخطأ ابن الزانية من حين شبّهني بقرد
وجعل يبكي ويقول : ما حيلتي ! يراني ويشبّهني ، ولا أراه فأشبّهه ! وبعده :

وَلَوْ تُفْقِئُ فِي صَدْرِي صَفَا لَا نَصَدَعَ الصَّلْدُ
هُوَ الْكَلْبُ إِذَا مَا مَا ت لَمْ يُوجَدَ لَهُ قَعْدُ

وأنشده رجل قول حماد :

دُعِيتَ إِلَى بُرْدٍ وَأَنْتَ لَنْبِيرُهُ وَهَبَكَ الْبُرْدُ نَكْتًا أَمَكُ مِنْ بُرْدٍ

فقال : هاهنا أحد ؟ قال : لا ، قال : أحسن والله ابن الزانية ، ولقد تهيّأ
له في بيت واحد على خمسة مدانٍ من المَجْوِ ، وهي : « دُعِيتَ إِلَى بُرْدٍ » معنى .
« وَأَنْتَ لَنْبِيرُهُ » معنى ثانٍ ، و « هَبَكَ لِبُرْدٍ » معنى ثالث ، « نَكْتًا أَمَكُ »
ثتم واستخفاف بمجرّد ، وهو معنى رابع ، ثم ختمها بقوله : « مِنْ بُرْدٍ » فأنه
بالطامة الكبرى .

وأوجع ما مرّة عليه من قول حماد :

لَوْ طُلِيتُ جِلْدَتُهُ عَذْبًا لَأَفْسَدَتْ جِلْدَتَهُ الْعَنْبَرُ (٢)
أَوْ طُلِيتُ مِنْسَكًا ذَكِيًّا إِذَا تَحَوَّلَ الْمَسْكُ عَلَيْهِ خَرًا

كان حفص بن أبي بردة (٣) أنفطس أعفص مقبّح الوجه ، وكان حماد صديقه ،
فغناشدوا الشعر يوما ، فطعن حفص على مرقش ، فقال حماد :

لَقَدْ كَانَ فِي عَيْنَيْكَ يَا حَفْصُ شَاغِلٌ وَأَنْفٌ كَثِيلُ الْعُوزِ عَمَّا تَقْبَعُ (٤)

(١) الشعر والخبر في الأغاني ١٤ : ٣٢٩ (٢) الأغاني ١٤ : ٣٣١

(٣) ط : « وردة » تصحيف . (٤) الأغاني ١٤ : ٣٥١ .

تَتَّبِعُ لِحْنًا فِي كَلَامٍ مَرْقَشٍ وَوَجْهَكَ مَبْنِيٌّ عَلَى الْقَحْنِ أَجْمَعِ
فَأُذْنَاكَ إِقْوَاءَ وَأَنْفِكَ مُكْفَأَ وَعَيْنَاكَ إِطْهَاءَ ، فَأَنْتَ الْمَرْقَعُ
أَخَذَ تَشْبِيهِ الْأَنْفِ بِالثَّيْلِ مِنْ قَوْلِ كَعْبٍ فِي الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ :

فَقَدَّتْ الْوَلِيدَ وَأَنْفًا لَهُ كَثِيلُ التَّبَعِيرِ أَبِي أَنْ يَبُولَا
قال أبو زيد : رأيت أعرابيًا كأن أنفه كوز من عظمه ، فرآنا نضحك ،
فقال لنا : ما يضحككم أفوالله لقد كنت في قوم يسئونني الأفتس .
وقال الشاعر :

إِذَا أَنْتَ أَقْبَلْتَ فِي حَاجَةٍ إِلَيْهِ فَكَلِمَةٍ مِنْ خَلْفِهِ
فَإِنْ أَنْتَ وَاجِهَتَهُ بِالْكَلا مَ لَمْ يُسْمَعْ الصَّوْتُ مِنْ أَنْفِهِ
وقال آخر :

إِنَّ عَيْسَى أَنْفِ أَنْفِهِ أَنْفُهُ ضِعْفٌ لِضَمْنِهِ^(١)
لَوْ تَرَاهُ رَاكِبًا وَالْأَنْفُ قَدْ جَالَ بِعِطْفِهِ
رَأَيْتَ الْأَنْفَ فِي الدَّرَجِ جَ وَعَيْسَى رَدْفُ أَنْفِهِ

وقال الحسن في جعفر بن يحيى :
ذَاكَ الْوَزِيرَ الَّذِي طَالَتْ عِلَاوَتُهُ كَأَنَّهُ نَاطِرٌ فِي السَّيْفِ بِالطُّوْلِ
وقال أبو علي الخليلي^(٢) :

حَابُورَ وَيَمْحُكُ مَا أَخَصَّكَ بَلْ أَخَصَّكَ بِالْعُيُوبِ !
وَجْهٌ قَبِيحٌ فِي التَّبَسُّمِ كَيْفَ يَحْسُنُ فِي الْقُطُوبِ !

كان جحظة البرمكي ناثي العينين جدًا ، قبيح الوجه ، فقال فيه ابن الرومي :
نَبَتْ جَحْظَةُ يَسْتَمِعُ جَعْوَهَ مِنْ فِيلٍ شِعَارَ نَجٍ وَمِنْ سَرَطَانِ^(٣)
يَا رَحْمَةً لِنَادِيهِ تَحْمَلُوا أَلَمْ الْعُمُومِ لِلْأَذَى الْأَذَانِ

(٢) هو الحسين بن الفضال ، واليبتان في ديوانه ٢٩

(١) ذيل زهر الآداب ٢٨١

(٣) ذيل زهر الآداب ١٩٨

وكان طيب الغناء ، وحضر مجلسه على بن بسام ، ففترق القوم الخاد ،
فقال جعظة : مالي لا أعطى مخدة ؟ فقال له ابن بسام : غن فالخاد كلها إليك
تصير ، وقال فيه :

يا مَنْ هَجُونَاهُ فَعَنَانَا أَنْتَ وَحَقُّ اللَّهِ أَهْ بِجَانَا
سَيَانٍ إِنْ غَنَى لَنَا جَعْظَةً أَوْ مَرَّ بِجَنُونٍ فَرَنَانَا
وله فيه أيضاً :

بلعظة الحسن ممدى يد أشكرها منه إلى الحشر
أنا رأيت رذوثة رذوثة وصانني عن وجهه المنكر

كان الخطيئة تبسح المنظر ، كثير الشر ، فالتس يوما إنسانا يهجره فلم
يهد ، فجل يقول :

أبت شفتاي اليوم إلا تسكماً بثمرٍ فما أدري لمن أنا قائله^(١)
فاطلع في ماء فرأى وجهه ، فقال :

أرأى لي وجهاً تبسح الله شخصه فقُبِّحَ من وجهٍ وقُبِّحَ حامله
نظر إلى هذا إسماعيل بن معمر الفراءطيسي فقال :

وبلي على ساكن شط العسرة من وجنتيه شمت برق الحياة^(٢)
ما تنقضي من وجب فكرتي من خصلة قرط فيها الولاة
ترك الحبيبين بلا حاكم لم يبعدوا للعاشقين القصاص
وقد أثناني خبرٌ ساءني فقلها في السرِّ واسوء تاه
أمثل هذا يبتغي وصلنا أما يرى ذا وجهه في المرآة !

وقال الأصمعي : إن القراءطيسي سأل العباس بن الأحنف فقال له :
يا أبا الفضل ، هل قلت في معنى قول هذا شيئاً ؟ فقال : قلت :

(١) ديوان الخطيئة ١٢٠ . (٢) الاغاني ٢٠ : ٨٨ ، ٨٩ — سامي

جاريةٌ أعجبها حُسنُها ومثلها في النَّاسِ لم يَخْلُقِ^(١)
 خَبَرْتُهَا أَنِّي مُحِبٌّ لَهَا فَأَقْبَلَتْ تَضَعُكَ مِنْ مَنْطِقِي
 وَالتَفَتَتْ نَحْوَ فِتْنَةٍ لَهَا كَالرَّشَاءِ الْوَسْطَانِ فِي قَرْطَقِ
 قَالَتْ لَهَا قَوْلِي لِهَذَا الْفَتَى: انْظُرْ إِلَى وَجْهِكَ ثُمَّ اعْشِقِ

وقال الصَّقَلَى في صفةِ عَذُولٍ قَبِيحٍ :

رَأَى وَجْهَ مَنْ أَهْوَى عَذُولِي فَقَالَ أَجَلَّكَ مِنْ وَجْهِ أَرَاهُ كَرِيهَا
 قُلْتُ لَهُ بَلْ وَجْهٌ حَبِيٍّ مَرَاتٍ فَأَنْتَ تَرَى تَمَثَالَ وَجْهِكَ فِيهَا
 وَلابِنِ الْقَابِلَةِ السَّبْتَى :

وَوَجْهٌ حَبِيْبٍ رَقَّ حَسَنًا أَدِيمُهُ يَرَى الْعَصْبُ فِيهِ وَجْهَهُ حِينَ يَنْظُرُ
 تَعْرِضُ لِي عِنْدَ الْإِقَاءِ بِهِ رِشَاءُ تَسْكَدُ الْمُحَيَّا مِنْ مَحْيَاهُ تَقَطُّرُ
 وَلَمْ يَتَعْرِضْ كَيْ أَرَاهُ وَإِنَّمَا أَرَادَ يُرِينِي أَنَّ وَجْهَكَ أَصْفَرُ
 وَلَبْمُضِ الْمَصْرِيِّينَ فِي غِلَامِ يَهْوَاهُ :

يَجْرَى النَّسِيمُ عَلَى غِلَالَةِ خَدِّهِ وَأَرْقَ مِنْهُ مَا يَمِرُّ عَلَيْهِ
 نَاولَتْهُ الْمَرَاةُ يَنْظُرُ وَجْهَهُ فَكَسَمَتْ فِتْنَةً نَاطِرِيَهُ إِلَيْهِ

وقال الرَّمَادِيُّ :

وَإِذَا أَرَادَ تَنْزُهَاً فِي رَوْضَةٍ أَخَذَ الْمَرَاةَ بِكَفِّهِ فَتَنَزَّهَا

كَانَ لِلْفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ وَصِيفَةٌ ظَرِيفَةٌ كَثِيرَةُ الْمُلَحِّ وَالنَّوَادِرِ ، وَكَانَتْ
 حَاقِقَتَهُ ، وَكَانَ أَبُو نَوَاسٍ يُولَعُ بِهَا وَيَمَازِحُهَا ، فَقَالَ لَهَا يَوْمًا : إِنِّي أَحْبَبْتُكَ وَتَبْغِضِينَنِي
 فَلَمْ ذَلِكَ ؟ فَقَالَتْ لَهُ : وَجْهُكَ وَالْحَرَامُ لَا يَجْتَمِعَانِ ، فَقَالَ :

مذكّرة مؤنثة ممّاة^(١) إذا برزت تشبّها غلاما^(٢)
تَعَا فُ الماء والعسل المصنّى وتشرب من فتوتها المداما
تقول للحظها^(٣) ياسيف أبشر ستروى من دم وتشقّ هامّا
وقائله لها في وجه نصعير هلام قتلت هذا المستهاما ؟
فكان جوابها في حسن مسّ :^(٤) أأجمع وجه هذا والحراما !

ومن ملح ابن لنسكك في أهاجى أبى رباش :

على القبح الفظيع أبو رباش يعاثرنا بأخلاقٍ ملاح^(٥)
يبيح أكفنا أبدا قدامه فنصفعه على وجه الزاح

وله فيه أيضاً :

قل للوضع أبى رباش لا تبلّ تيه كلّ تيه بالولاية والعمل^(٦)
ما ازددت حين وليت إلا خسة كالسكّلب أنجس ما يكون إذا اغفل

* * *

قوله : تعريس ، أى نزول آخر الليل . يهدى : الأول يرشد ، وبدل على الطريق ، ويقال : هداه يهديه هدى في الدين ، وهداه يهديه هداية في طريق . يهدي : يعطي هدية ، ويقال : أهده هدية يهديها إهداء ، إذا أعطاها . الذود : ما بين الثلاث إلى العشر من الإبل ، ولا تكون إلا إناثاً . قينة : جارية مفضية ويقال : القينة الأمة ، كانت مفضية أو غير مفضية . الفينة : الساعة والحين ، ويقال : إنى لآنيه الفينة بعد الفينة ، وفينة بعد فينة ، يستعمل بالآلف واللام وبتركهما ، أى أديم الاختلاف إليه الحين بعد الحين والوقت بعد الوقت . يزجى : يسوق . السفه : البطال المشتغل بالاهو .

(٢) الديوان : « لسيها »

(٤) اليتيمة ٢ : ٢٢٦ ، ٢٢٧

(١) ديوانه ٣٩٢ .

(٣) الديوان : « سر »

قال الحارث بن همام : فاعترضته ، وقلت له : عهدي بك
سفيها ، فتي صرت فقيها ! فظل هنيئة يحول ، ثم أنشأ يقول :

لَبِستُ لِكُلِّ زَمَانٍ لَبُوساً

ولا لبستُ صَرَفِيهِ : نَعَمي وبُوساً

وعاشرتُ كلَّ جَلِيسٍ بِمَا يُبْلِغُهُ لِأَرْوَاقِ الْجَلِيسِ

فَعِنْدَ الزَّوَاةِ أُدِيرُ الْكَلَامَ وَبَيْنَ السُّقَاةِ أُدِيرُ الْكُتُومَ

وطوراً بوغْظِي أُسِيلُ الدُّمُوعَ

وطوراً يَلْهَوِي أُسْرُ الثُّفُومِ

وأقْرِى السَّماعَ إِمَّا نَطَقْتُ يَا نَا يَقُودُ الْحُرُونَ الشُّمُومِ

وإن شئتُ أَرْعَفَ كُفِّي الْبِرَاعَ

فساقطاً دُرّاً يَحُلِّي الطُّرُومَ

وكم مشكلاتٍ حَكَّيْنِ الشُّبَا

خفاء فَعِرنَ بِكَشْفِي شُمُوسِ

وكم مُلِعَ لِي خَلْبَنَ الْعُقُولِ وَأَسَارَنَ فِي كُلِّ قَلْبٍ رَسِيدِ

وعَذراءُ فَهَتْ بِهَا فَاثْنِي عَلَيْهَا الشَّاءَ طَلِيقاً حَبِيسِ

هنيئة : سوية ، تصغير هنة ، ويقال في تصغيرها هُنَيْة وهُنَيْة ، كما تصغر سنة
سُنَيْة ، وسُنَيْة . يحول : يتصرف . لبوسا : ثوباً يشاكله ، أخذه من قول النابغة :

البس لكل حالة لبوسها إما نعيمها وإما بوسها
 لا بست : خالطت . صرّ قفيه : حالته من الخير والشر . عاشرت : صاحبت .
 يلائمه : يوافقه . أروق : أعجب ، والصّرف اسم لحادث الدهر ، لأنه يصرف
 الأشياء عن وجوها . طوراً : مرّة . أقرى السامع : أعطى الآذان ، وأجعل
 فيها البيان . إتما نطقت ، أى إن نطقت . الحرون : الذى يأبى المشى والانتقاد .
 الشّموس : الذى إذا نحس وثب ، وقيل : الذى يمنع الركاب . البراع : الأقلام :
 أرعفها : أسالها بالمداد . يحلّى : يزين . الطروس : الكتب ، تُميت بذلك لأنها
 ممحوّة ، والمطروس : المحوّة . قال رؤبة :

* كما رأيت الطلل المطروسا *

[بما قبل في وصف القلم]

وعلى ذكر البراع قال محمد بن عبد الملك بن صالح الهاشمي في قلم :
 وأهيف طاولى الكشعر أسمر ناطق
 له جَوْلَانٌ في بطون المهارق^(١)
 كأنّ اللاّلى والزَّبْرَجْد نطقه
 ونور الخُزَامَى في عيون الحدائق
 إذا استمجلته الكف أمطر خاله
 بلا صوت إرعاد ولا صوب بارق
 وقال ابن عبد ربه :

بكفه ساحرُ البيان إذا
 أداره في صحيفة سَحْرَا^(٢)
 مهفّف تزدّهى به صحف
 كأنما حلّيت به دُررا
 يكاد عنوانها لرؤعته
 يُنبئك عن سرّها الذى استترا

وقال التّهامي :

يلقى العدا من كُتبه بكتائب
 يجرّ زن من زرد الحروف ذُبُولَا^(٣)

(١) العقد ٤ : ١٩١ ، أدب الكتاب ٨١ . (٢) العقد ٤ : ١٩٣ .

(٣) ديوانه ٣١ .

فترى الصحيفة حليّةً وجيادها أقلامه وصريه من صهيل
في كفّه قلم أنتم من القنا طولاً وهن أنتم منه طولاً
وله أيضاً :

وإذا راش بالأفامل منه قلماً واستمدت ساء وسراً^(١)
قلم دبر الأقاليم حتى قال فيه أهل التناسخ إمراً
يقع الرمح أمره فابن عشرين ذراعاً بالرأى يخدم شبراً

السها : نجّم خفي . خدين : خدعن . أسارن : أبقين ، والسور . البقية .
وفي الحديث : « إذا أكلتم فأسئروا » ، وأخذت سائرته ، معناه بقيته . الرئيس : أول
برء الحصى ، يريد أن هذه الملح لعدوبتها إذا حلت في القلب أحدثت فيه حركة
وهزة ، وإذا سمع ذو الذكاء كلاماً مستظرفاً من نثر أو نظم وجدله ديباً
وقشعريرة . وأخذ « وكم مشكلات » ، من قول علي رضي الله عنه :

إذا المشكلات تصدّين لي كشفت حقائقها بالنظر^(٢)
وإن برقت في مخيل الصّواب غيباه لا يجتليها البصر
مقنعة بغيوب الأمور وضعت عليها صحيح الفكر
لساناً كيشقة الأرحب أو كالحسام اليماني الذّكر
وقلبا إذا استنطقته الغيوب أمر عليها بواهي الدرر

عذراء : قصيدة بكر ، لم يسبق إليها . فُتت : نطقت . اثني : رجع . طليقاً :
منتشراً في الناس . حبساً : موقوفاً عليها لا يتعدّاها لغيرها .

[ذكر مدح الشعراء للشعر]

ومدح الشعراء للشعر باباً شأوه بعيد ، وسند كرحيب - وهو المبرز فيه -

ولغيره ما يستحسن ويستجاد ، قال حبيب :

جاءتك من نظم اللسان قلادة^(١) سيمكان فيها اللؤلؤ للكنون^(٢)
 خذيت هذا الحضرمة أرهفت^(٣) وأجادها التخصير^(٤) والتبيين^(٥)
 إنسية وحشية كثر بها حركات أهل الأرض وهي سكون^(٦)
 أما المعاني فهي أبكار إذا فنت^(٧) ولكن التوافي هون^(٨)

وقال أيضاً :

فوالله لأنفك أهدى قصائد^(١) إليك يمينن الثناء للبحلا^(٢)
 يحاك بها برؤد عليك مجدّد^(٣) ونحسبه درأ عليك مفضلاً^(٤)
 ألد من السلوى وأطيب نفحة^(٥) من المسك مفتوقاً وأيسر محلاً^(٦)
 أخف على سمع وأقل قيمة^(٧) وأقصر في سماع الجليس وأطولاً^(٨)

وقال البحري :

تطوع التوافي فيكم فكانما^(١) يطير إليكم من علو قصيدتها^(٢)
 وكلم لي من محبوكة الوشي فيكم^(٣) إذا أنشدت قام امرؤ يستعبدتها^(٤)

وقال أيضاً :

ألت الموالى فيك نظم قصائد^(١) هي الأنجم اقتادت مع الليل أنجماً^(٢)
 ثناء تحال الروض منه منوراً^(٣) ضحى وتحال الوشي فيه مسهما^(٤)

وقال أيضاً :

إليك التوافي نازعات قواصد^(١) يسير ضاحي وشيها ويغنم^(٢)

(١) ديوانه ٣٣٠ ، ٣٣١ ط : « التحصين » وصوابه من الديوان .
 (٢) الديوان : « نصت » .
 (٣) ديوانه ٢٥٥ (٤) ديوانه ٦٥٥ (٥)
 (٦) ديوانه ١٩٨٤ (٧)
 (٨) ديوانه ١٩٣١

ومشرقة في النظم غرّاً يزيدُها بهاء وحسناً أنها لك تُنظّم
ضوامينُ للحاجات إمّا شوافعاً مشقّةً، أوحاكتِ تُحكّم

وقال علي بن الجهم :

ولكنّ إحسان الخليفة جعفرٍ دعاني إلى ما قلت فيه من الشفر^(١)
فسار مسير الشمس في كلّ بلدةٍ وهبّ هبوب الريح في البر والبحر

ولابن الرومي يهجو :

خذها إليك منيعة سيارّة في الناس من بادٍ ومن متحفّرٍ
تقدو إليك بحاصبٍ وبتاربٍ وعلى الرواة بلؤلؤ متخبرٍ

وقال السري الموصلي :

أتذكّ يحول ماء الطبع فيها مجال الماء في السيف الصّقيل^(٢)
قوافٍ إن نذت للرم عطفاً ننى الأعطاف في برود جميل
وقال أيضاً^(٣) :

شرقت بماء الطبع حتى خلّتها شرقت لرونقها^(٤) بتبر ذائبٍ
ويقول سامعها إذا ما أنشدت أعتود سخذ أم عتود كواكبٍ
وقال أيضاً :

ألفاظها كالدرّ في أصدافه لا بل تزيد عليه في لآلئه^(٥)
من كلّ رائحة الجلال كأنما جاد الشّباب لها برونق مائه
والشعر بحر حُزّت أنفَس درّه وتنافس الشعراء في حصْبائه

(٢) ديوانه ١٨٨

(١) ديوانه ١٤٧

(٤) الديوان : «لريتها» (٥) ديوانه

(٣) ديوانه ٢٣

وقال أيضاً :

لفظ صَقَلْتُ مَتُونَهُ فَكَأَنَّهُ فوِشْرِقَاتِ النَّظْمِ دُرٌّ مِخَابٍ^(١)
 وكأَنَّمَا أُجْرِيَتْ فِي صَفْحَانِهِ حَرُّ اللَّجَيْنِ وَخَالِصُ الزُّرْيَابِ
 أَغْرَبْتُ فِي تَحْيِيرِهِ فَرُؤَانَهُ فِي نَزْهَةٍ مِنْهُ وَفِي اسْتِفْرَافِ
 وَقَطَعْتُ مِنْهُ شَيْبَةً لَمْ تَسْتَفِلْ عَنْ حَسَنَةِ بَصْبَا وَلَا بِتَصَابِ
 وَإِذَا تَرَقَّرَ فِي الصَّحِيفَةِ مَازُوهُ عَبَقَ النَّسِيمِ فَذَاكَ مَاءُ شَبَابِي
 يُصْنِى اللَّيْبُ لَهُ فَيَقْسَمُ لُبُّهُ بَيْنَ التَّعْجُوبِ مِنْهُ وَالْإِعْجَابِ
 جِدٌّ يَطِيرُ شِرَارُهُ، وَفُكَاهَةٌ نَسْتَعْطِفُ الْأَحْبَابَ لِلْأَحْبَابِ

قال يحيى بن أكرم لحمد بن حازم : مافي شعرك شيء غير أنك لاتطيله، فقال :

أَبَى لِي أَنْ أَطِيلَ الشَّعْرَ قَصْدِي إِلَى الْمَعْنَى وَعَلَيَّ بِالصَّوَابِ^(٢)
 فَأَبْعَثُنَّ أَرْبَعَةً وَخَمْسًا مَثَقَفَةً بِالْفَظِّ عِذَابِ
 خَوَالِدَ مَا حَدَا لَيْلُ نَهَارًا وَمَا حَسُنَ الصَّبَا بِأَخِي الشَّبَابِ
 وَمَنْ إِذَا وَسَمْتُ بِهِنَّ قَوْمًا كَأَطَوَاقِ الْحُمَامِ فِي الرُّقَابِ
 وَمَنْ إِذَا أَقَمْتُ مَسَافِرَاتٍ نَهَادَاهَا الرُّؤَاةَ مَعَ الرُّكَّابِ

* * *

عَلَى أَتْنِي مِنْ زَمَانِي خُصِصْتُ
 بِكَيْدٍ وَلَا كَيْدَ فِرْعَوْنَ مُوسَى

يُسَّرُّ لِي كُلُّ يَوْمٍ وَغَى
 أَطَامَنُ لَهَاها وَطِيسًا وَطِيسًا

وَيَطْرُقُنِي بِالْخُطُوبِ الَّتِي
 يُبْذِنُ الْقَوَى وَيُشِينُ الرُّعُوسَا

ويذنب إلى البعيد البغيض ويبعد عني القريب الأنيب
ولولا خسامة أخلاقه لما كان حظي منه خسيباً
قللت له : خفف الأحزان ، ولا تلم الزمان ، واشكر لمن نقلك
عن مذهب إبليس ، إلى مذهب ابن إدريس .

• • •

قوله : على أنني ، أى مع أنني . وقوله : ولا كيد فرعون موسى ، أضاف
فرعون إلى موسى ، لأن الفراعنة كانوا جماعة .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن لكل أمة فرعوناً ، وفرعون هذه الأمة
أبو جهل » .

وفرعون موسى ، كان أكبر الفراعنة كيداً وأطولهم عمراً ، وأعتاهم على
الله ، وأسرهم مملكة .

ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : قال موسى عليه الصلاة والسلام :
يأربى ، أمهلت فرعون أربعائة سنة ، وهو يقول : أنا ربكم الأعلى ،
ويكذب بآياتك ويمجد رسلك ! فأوحى الله تعالى إنه كان حسن الخلق سهل
الحجاب ، فأجبت بأن أكاثته .

وأما عذابه لبني إسرائيل فقد قدمناه في الخامة .

ومما يحكى عنه أنه كان يأمر بالقص فيشق ، ويجمع أمثال الشفار ، ثم
يضيف بعضه إلى بعض ، ثم يؤتى بالحبال من بني إسرائيل فيوقن عليه ، فيجز
أقدامهن ، حتى إن المرأة لتضع ولدها فيقع بين رجلها ، فتظل تطؤه تنقي به
حد القص عن رجلها .

قال وهب بن منبه : بلغني أنه ذبح في طلب موسى تسعين ألف ولد .
ولسب الثعالبي المفسر فرعون ، فقال : هو أبو العباس الوليد بن مصعب بن الزيان

ابن أراشه بن ثروان بن عمرو بن قاذم بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام .

قوله : بُسَقَر ، أى يهتيج . وغى : حرب . لظاها : حرّها . وطيساً : شدة ، وحى الوطيس : اشتدت الحرب ، وأصله تنور من حديد يطبخ فيه ، فشبهت شدة الحرب وحرارتها به . وقيل : هو حفرة يُخْتَبَزَ فيها . والوطيس : الوطء الشديد ، والبلاء الذى يطسّ الناس ، أى يدقهم ويقتلهم .

يطرقنى : يقصدنى ليلاً . الخطوب : الأمور الشداد . خساسة : حقارة . حظى : نصيبى .

ومما قيل فى معنى قوله : ويدنى إلى البعيد البغيض . . البيت .. قول الزاهد ابن عمران :

إلى الماس كلّ ثقيل قد أضربنا نروم نقصهم والشئ يزاد
ومن يخفّ علينا لا يلمّ بنا ولثقل مع الساعات ترّداد
ويقرب منه قول الشاعر :

وكيف بودّ القلب من لا بودّه بلى قد تريد النفس من لا يريدّها
وقال عدّى بن الرقاع^(١) :

تبلى^(٢)ك أخت بى لوى إذ رميت سواها وأصاب تنبلك إذ رميت سواها
وأعارها الحدّان منك مودةً وأعار غيرك ودّها وهواها
وهذا من قول الأعشى :

عَلَّقْتُهَا عَرَصًا وَعَلَّقْتُ رَجُلًا غَيْرِي ، وَعَلَّقْتُ أُخْرَى غَيْرَهَا الرَّجُلُ^(٣)

(١) اللآلى ١٣٩ . (٢) ط : « تبلىك » ، والصواب ما أتبعته من اللآلى

(٣) ديوانه ٥٧ .

وقال مسلم بن الوليد - وهو صريع الفوائى ، وكان حاملاً فولّاه بنو سهل جرجان فشرّف - فقال :

أهلُ الصفاء نأيتُم بعد قُرْبِكُمُ فما انتفعتُ بعيش بعدكم صافي^(١)
وقد قصدتُ ندى من لا يوافقنى فكان سهمى عنه الطائش الطافي
أردتُ «عمرأ» وشاء الله «خارجة» أما كفى الدهر من خلني وإخلافي
ولهذا أشار ابن شرف بقوله :

سَلْ عن رضائِ الزَّمانِ فإنه كرضا الفَرزدقِ عن بى يَرْبوع^(٢)
فه حالٌ قد تنقلَ ههـُنا كخلافِ نَقْلِ الدهرِ حالِ صريعِ
دارتِ دراريّ الخطوبِ قواصداً حتى نظرنِ إلى من ترَبيعِ
وله أيضاً يتشكى :

مالى أجاذبُ ذى الدنيا موليةً فكلّ ثوبٍ عليها قدّمنِ دُبرِ^(٣)
أتى الزَّمانُ على يأسٍ به لبني الدنيا كبشرى بمولودٍ على كِبَرِ
وقال أيضاً :

إني وإن عزّنى نيلٌ للى لأرى حرّ من الفتى خلةً زبدت على العدمِ^(٤)
تقلدتنى الليالى وهى مدبرةٌ كأننى صارمٌ فى كفّ منهزمِ
وقال جحظة :

ضاقَت على وجوه الرأى فى نَفَرٍ يلقون بالجعد والكفران إحسانِ
أقلب الطرف تصعيداً ومنحدراً فما أقابل إنساناً بإنسانِ
وقال أيضاً :

لقد مات إخوتيّ الصالحون فالى صديقٍ ومالى عمادُ

(١) ديوانه ٣٢٧

(٢) نقله الميمنى فى التتف ١٠٤

(٣) نقله الميمنى فى التتف ١٠١

(٤) نقله الميمنى فى التتف ١١١

لَمَّا أَقْبَلَ الصَّبِيحَ وَلَّى السَّرُورُ وَإِنْ أَقْبَلَ اللَّيْلَ وَلَّى الرَّقَادُ
قوله : خَفَضَ ، أَيْ سَكَنَ .

* * *

[ترجمة الإمام الشافعي]

وابن إدريس هو الإمام الشافعي محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن
خافع بن السائب بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف ، يلتقي نسبُه
مع بني هاشم وبني أمية في عبد مناف .

وقال صلى الله عليه وسلم : « نحن وبنو المطلب كهاتين » - وأشار بإصبعيه
السبابة والوسطى مضمومتين .

وحاصرت قريش بني المطلب مع بني هاشم في الشَّعْب .

وكان الشافعي أعلم الناس وأورعهم وأعبدم ، وأجودم ، فإن أردت أن
تقف على حفظه ومبلغ علمه ، فانظر رحلته .

ووصفه بعضُ أهل العلم فقال : هو خفيق رسول الله صلى الله عليه وسلم في
نَسَبِهِ وشريكه في حَسَبِهِ .

زَوْج المطلب ابنته هاشمًا الشَّفاء بنت هاشم بن عبد مناف أخيه ، فولدت له
عبد يزيد جدّ الشافعي رضي الله عنه ، فكان يقال لعبد يزيد : الحَضُّ لاقْدَى
فيه ، فولد الشافعي رضي الله تعالى عنه هاشمان : هاشم بن المطلب وهاشم بن عبد
مناف ، فالشافعي ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم وابن عمته ، لأن الشفاء أخت
عبد المطلب ، فهي عمة النبي صلى الله عليه وسلم .

وأسلم السائب جدّه يوم بدر ، وكان صاحب راية بني هاشم بن عبد مناف

أَمِيرَ وَفَدَى نَفْسَهُ ، فَأَسْلَمَ ، قَبِيلَ لَهُ : لِمَ لَمْ تَسْلَمْ قَبْلَ أَنْ تَفْتَدِيَ ؟ قَالَ : مَا كُنْتُ أَحْرَمُ الْمُؤْمِنِينَ طَعْمًا لَهُمْ فَتَ .

قال أبو ثور : ما رأيتُ ولا رأى الراءون مثله .

وقال أحمد بن حنبل : ما صلّيت صلاة منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو الله للشافعي . وقال له ابنه : أي رجل كان الشافعي حتى تدعو له هذا الدعاء ؟ فقال : يا بني كان كالشمس للدينا ، أو كالعافية للناس .

وحدث صالح بن أحمد بن حنبل قال : مشى أبي مع بَنَلَةِ الشافعي في ركابه ، فبعث إليه يحيى بن معين فقال له : يا أبا عبد الله ، أما رضيت إلا أن تمشي مع بَنَلَتِهِ ؟ فقال : يا أبا زكرياء ، لو مشيت من الجانب الآخر لكان أنفع لك ، وما يمس أحدٌ محبرة إلا وللشافعي في عنقه مَنَّةٌ .

وقال الشافعي رضى الله عنه : ما شِيعْتُ منذ ست عشرة سنة ، لأنَّ الشَّيْعَ يَثْقُلُ البدن ، وَيَقْسِي القلب ، وَيَزِيلُ الفِطْنة ، وَيَحْلِبُ النوم ، وَيَضَعِفُ صاحبه من العبادة .

وقال : ما حَلَفْتُ بالله لأصداقاً ولا كاذباً .

وقال : ما ناظرتُ أحداً قطَ فأحببت أن يخطيء ، وما كلّمتُ أحداً إلا أحببت أن يوفق ويُسَدِّدَ ويعان ، ويكون عليه من الله رعاية وحفظ . وما كلّمتُ أحداً إلا وأنا لا أبالي أن يُبَيِّنَ الله الحقَّ على لسانه أو لساني ، وما أوردتُ الحجة على أحدٍ ، فقبل مني إلا هبته واعتقدت محبته ، ولا نابرتني على الحق أحدٌ ودافع الحجة إلا سقط من عيني ورفضته .

وكان يحتم القرآن في رمضان ستين مرة كل ذلك في الصلاة .

وقال السكراييسي : بثُّ معه غير ليلة فكان يصلي نحرًا من ثلث الليل ، فما رأته يزيد على خمسين آية ، فإذا أكثر فائتة آية . وكان لا يمر بآية فيها رحمة إلا

سأل الله لنفسه ولجميع المسلمين ، ولا بآية عذاب إلا تعوذ منها وسأل النجاة منها لنفسه ولجميع المسلمين .

وقال عمر بن عبد الله البَلَوِيّ: جلسنا يوماً نتذاكر الزّهاد والعباد والعلماء ، وما بلغ من زهدهم وفصاحتهم وعلمهم ، فبينما نحن كذلك إذ دخل علينا عمر ابن نباتة ، وقال : فيم تتحاورون ؟ فأعلمناه ، فقال عمر : والله ما رأيت رجلاً قطّ أوزع ولا أخشع ولا أصبَح ولا أسمع ، ولا أعلم ولا أكرم ولا أجمل ، ولا أجَلّ ولا أفضل ، من محمد بن إدريس الشافعيّ ، خرجت أنا وهو والحارث بن الليبد إلى الصفا ، وكان الحارث صاحب صالح المرّي ، وكان من المتّقين الخاشعين ، وكان حسن الصوت ، فقرأ ﴿ هَذَا يَوْمَ لَا يَنْطِقُونَ . وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ ^(١) فرأيت الشافعيّ رضي الله عنه قد تغيّر لونه ، واقشعرّ جلده واضطرب اضطراباً شديداً ، ثم خرّ مغشياً على وجهه ، فلما أفاق جعل يقول : أعوذ بك من مقام الكاذبين ، وأعراض الغافلين ! اللهم خضعت لك قلوبُ العارفين ، وذلت لك قلوب المشتاقين ، اللهم هب لي جُودك ، وجَلّلي بسِترك ، واهف عن تقصيري بكرم وجهك . ثم قمنا وتفرّقنا .

وقال الربيع بن سليمان ، سمعت الشافعيّ رضي الله عنه ، يقول : أتى عليّ عيد وليس عندي نفقة ، فاستسلفت سبعين ديناراً لنفقة أهلي ، فبينما أنا كذلك إذ أتاني رجل من قريش يشتكي إلى الحاجة فأخبرته خبري ، وقلت له : خذ ما تحبّ ، فقال لي : ما يقضي إلا أكثر من هذه الدنانير ، فقلت له : نخذها ، وبثّ ومامعي دينار ولا درهم ، فبينما أنا في منزلي إذ أتاني رسول جعفر بن يحيى البرمكي ، يقول : أجب الوزير ، فأجبتّه . فقال : ما شأنك في هذه الليلة ؟ يهتف بي هاتف كلما دخلت في النوم ، يقول : الشافعيّ الشافعيّ ، فأخبرته بالخبر ، فأعطاني خمسمائة دينار ، ثم قال : أزيدك . فأعطاني خمسمائة أخرى ، فلم يزلّ يزيدني حتى أعطاني ألفي دينار .

ومن جوده أن سوطه وقع من يده ، فأعطى مَنْ ناوله إياه خمسين دينار .
 وورد مكة بعشرة آلاف درهم ، فضرب خبائه خارجها ، فأناه الناس ،
 فما برح من موضعه حتى فرّقا .

وكان شاعراً مجيداً ، قال أبو القاسم بن الأزرق : دخلت عليه ، فقلت له :
 يا أبا عبد الله ، أما تنصفنا لك هذا الفقه تفوز بفوائده ، ولنا هذا الشعر ، وقد
 جئت نَدْخلنا فيه ! فإما أفردتنا أو أشركتنا في الفقه ، وقد أتيت بأبيات إن
 أجزئها بمثلها ثبت من الشعر ، وإن عجزت تب منه ، فقال لي : إيه يا هذا ،
 فأنشدته هذا الكلام :

ما همّتي إلا مقارعة العدا خلق الزمان وهمّتي لم تخاقي
 والناس أعينهم إلى سبب الغنى لا ينظرون إلى الحجا والأولقي
 لكنّ مَنْ رَزَقَ الحجا حُرِمَ الغنى ضدان مفترقان أي تفرق
 لو كان بالحيل الغنى لوجدتني بنجوم أقطار السماء تعلقي

فقال الشافعي رضي الله تعالى عنه : ألا قلت كما أقول ارتجالاً :

إن الذي رزق اليسار فلم ينل حمداً ولا أجراً لغير موفّق^(١)
 فالجدة بدني كلّ أمر شاسع والجدّة يفتح كلّ باب مغلق
 فإن سمعت بأنّ مجدوداً حوى عوداً فأتمر في يديه فحققي
 وإذا سمعت بأنّ محروماً أتى ماء ليشرّبه ففاض فصدق
 وأحقّ خلق الله بالهمّ امرؤ ذو همّة يُنبلي بعيش ضيق
 ومن الدليل على القضاء وكونه بُوس اللبيب وطيب عيش الأحمق

فقلت له : لا قلت شعراً بمدّها .

(١) ديوانه . ، ونقل جامعه عن محمد بن منصور ، قاله : قرأت في كتاب طاهر بن محمد
 النيسابوري بخط الإمام الشافعي ، وذكر الأبيات .

قال المبرّد : كان الشافعي رضي الله عنه أشعر الناس وأدب الناس ، وأعرفهم بالفقه والقراءات ، ولقد أخبرني بعض أصحابي أنه مات ولداً لعبد الرحمن ابن مهدي ، فكتب إليه الشافعي رضي الله عنه : يا أخي ، عزّ نفسك بما تُعزّي به غيرك ، واستقبح من فُلك ما تستقبحه من غيرك . واعلم أن أمض المصائب قدُ سرور ، وحرمان أجر ، فكيف إذا اجتمع مع اكتسابٍ وزر ! فتناول حظك يا أخي إذا قرب منك قبل أن تطلبه وقد نأى عنك ، ألهمك الله عند المصائب صبراً ، وأحرز لنا ولك بالصبر أجراً ، وكتب إليه :

إني أمزيك لا أني على ثقة من الحياة ولكن سُنّة الدين^(١)
فما العزّي يباقي بصد مئيتيه ولا للعزّي وإن عاشا إلى حين
وقال أيضاً :

على معي حينما يمتُ بنفعي قلبي وعاء له لا بطن صُندوق^(٢)
إن كنت في البيت كان العلم فيه معي أو كنت في السوق كان العلم في السوق
وقال أيضاً :

ومنزلة السفيه من الفقيه كنزلة الفقيه من السفيه^(٣)
فهذا زاهدٌ في قُرب هذا وهذا فيه أزهّدُ منه فيه
إذا غلب الشقاء على سفيه تقطع في مخالفة الفقيه

وناظر الشافعي محمد بن الحسن الكوفي بالرقعة قطعته الشافعي ، فبلغ ذلك هارون الرشيد ، فقال : أما علم محمد بن الحسن إذا ناظر رجلاً من قريش ، أنه يقطعه ؛ سائلاً أو مجيباً ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : « قدّموا قريشا ولا تقدّموا عليها ، وتعلّموا منها ولا تعلّموها » ، فإن علم العالم منها يسع طباق

الأرض . وكان الشافعي يعظم محمد بن الحسن له ، واستعار شيئاً من كتبه فلم يسمه بذلك ، فكتب إليه الشافعي رضي الله تعالى عنه :

قُلْ لِلَّذِي لَمْ تَرَ عِيَةً نَأْمَنُ رَأَاهُ مِثْلَهُ (١)
ومن كَأَن من رَأَى هـ قدر أرى من قَبْلِهِ
العلم ينهى أهله أن يمنعوه أهله
لعله يبذله لأهله لعله

فبعث إليه بما سأل .

وقال في النقيع ابن عبد الحكم وقد اعتلّ فعاده :

مَرِضَ الحبيبُ فعدته فرضت من حَذَرِي مَعْلِيهِ
شَفِيَّ الحبيبُ فعادني فشفيت من نظري إِلَيْهِ

وقال أبو سعيد : سمعت الشافعي رضي الله عنه يقول بينتين وهما :

إِنِّي أَرَى نَفْسِي تَتَوَقَّ إِلَى مَصْرِ وَمِنْ دُونِهَا عَرَضُ الْمَهَامَةِ وَالْقَفْرِ
فَوَاللهُ مَا أَدْرِي أَلَّاخْفَضُ وَالْفَنَى أَقَادُ إِلَيْهَا ، أَمْ أَقَادُ إِلَى الْقَبْرِ !

قال : فوالله ما كان إلا قليل حتى سيق إليهما جميعا .

ورأيته بعد وفاته ، فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال : أجلسني على كرمي

من ذهب ونثر على اللؤلؤ الرطب .

وقال المُرْزُوقُ : دخلت عليه غداة وفاته فقلت له : كيف أصبحت يا أبا عبد الله ؟ قال : أصبحتُ من الدنيا راحلاً ، وإخواني مفارقاً ، ولسكأس المنية خارباً ، ولا أدري إلى الجنة تصير نفسي فأهنيها أم إلى النار فأعزّيها ! ثم أنشأ يقول :

وَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذَاهِبِي جَمَلْتَ الرَّجَا مَعِي لَعْفُوكَ سُلْمًا^(١)
تَمَازَلَمَنِي ذَنْهِي فَلَمَّا قَرَّتْهُ يَتَعَفَّوكَ رَبِّي كَانَ عَفْوَكَ أَعْظَمًا

وكانت وفاته في رجب ليلة الجمعة سنة أربع ومائتين ، ودفن في صبيحتها وهو ابن أربع وخمسين سنة ، وصلى عليه السري بن الحكم أمير مصر ، ودفن بها نحو قبور الشهداء في مقبرة بني عبد الحكم وعند رأسه عمود من الحجر كبير ، وفيه مكتوب : « هذا قبر محمد بن إدريس الشافعي أمين الله » .

وقال الشافعي : أَظْلَمَ الظَّالِمِينَ لِنَفْسِهِ مَنْ تَوَاضَعَ لِمَنْ لَا يَكْرُمُهُ ، وَرَغِبَ فِي مَوَدَّةِ مَنْ لَا يَنْفَعُهُ ، وَقِيلَ مَدَحٌ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ .

وقال : مَنْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ شِدَّةُ الشَّهْوَةِ بِحُبِّ الدُّنْيَا لَزِمَتْهُ الْعِبُودِيَّةُ لِأَهْلِهَا ، وَمَنْ رَضِيَ بِالْقَنَعِ زَالَ عَنْهُ الْخُضُوعُ .

وقال الربيع بن سليمان : سمعت الشافعي يقول :

وَأَنْزَلَنِي طُولُ النَّوَى دَارَ غُرْبَةٍ بِجَاوَرِنِي مَنْ لَيْسَ مِثْلِي بِشَاكِهٍ^(٢)
أَخَامَقَةٍ حَتَّى يَقَالَ سَجِيَّةٌ وَلَوْ كَانَ ذَا عَقْلٍ لَكُنْتُ أَعَاقِلَهُ
قال : وسمعته يفشد :

حُسْنِ النَّفْسِ وَاحْلُهَا عَلَى مَا يَزِينُهَا تَعِشْ سَالِمًا وَالْقَوْلُ فَيْكَ جَمِيلٌ^(٣)
وَلَا تَوَلِّينَ النَّاسَ إِلَّا تَجَمَّلًا نَبَا بِكَ دَهْرٌ أَوْ جَفَاكَ خَائِلٌ
وَأِنْ ضَاقَ رِزْقُ الْيَوْمِ فَاصْبِرْ إِلَى غَدٍ عَسَى نَكَبَاتُ الدَّهْرِ عَنْكَ تَزُولُ
وَلَا خَيْرَ فِي وَدِّ امْرِئٍ مَتْلُومٍ إِذَا الرِّيحُ مَالَتْ مَالٌ حَيْثُ تَمِيلُ
وَمَا أَكْثَرَ الْإِخْوَانَ حِينَ تَعْدُهُمْ وَلَكِنَّهُمْ فِي النَّائِبَاتِ قَلِيلُ ١

قال : وسمع رجلاً يَسْفَهُ على رجل من أهل الدلم ، فقال لأصحابه : تزعموا
أسماعكم عن استماع الخنثى ، كما تزعمون ألسنتكم عن النطق به ، فإن المستمع
شريك القائل ، وإن السفية ينظر إلى أخبث شيء في وعائه ، فيعبر من على أنه
بفرغه في أوهيتكم .

نظم بعضهم هذا المعنى ، فقال :

فَسَمِعَكَ صُنَّ عَنْ سَمَاعِ الْخَنَثَى كَصَوْنِ الْأَسَانِ عَنِ النَّطْقِ بِهِ
فَإِنَّكَ عِنْدَ اسْتِمَاعِ الْخَنَثَى شَرِيكَ لِقَائِهِ فَاَنْتَبِهْ

وكان الحسن البصري رحمه الله ، إذا خطب الجمع ، وذكر السلف ،
يتكلم تشاغلاً من خطبته ، فيقول له في ذلك ، قال : إن السامع والمتكلم
شريكان ، ألم تسمع قول الشاعر :

فجاء به ناطق منهم بليغٌ ومستمعٌ صامتٌ
فكلُّ له حظه أنه أعان مع الناطق الساكتُ

وقال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود :

إِنْ كُنْتَ لَا تَرْهَبُ ذِمِّيَ لِمَا تَعْلَمُ مِنْ صَفْحِي عَنِ الْجَاهِلِ
فَاخْشِ سَكُوتِي إِذْ أَنَا مَنَعْتُ فَيْكَ لِمَسْمُوعِي خَنِي الْقَائِلِ
فَالسَّامِعُ الْقَوْلَ كَمَنْ قَالَهُ وَالْمُوكِّلُ الْمَأْكُولَ كَالْأَكْلِ

وذكر الفنجدي الشافعي ، فقال : هو إمام الأنام ، ونظام الإسلام ، أحد
الائمة الأربعة الأطواد ، الشاخعة في الدين الأجواد ، رضيع لبان النبوة ، أفضل
العلماء ، وأعلم الفضلاء ، وصدر البدور وبدر الصدور ، وهادي القعاة ، وداعي
الهداة ، إكسير العلوم ، وإكليل الرسوم . عِلْمُ العلماء شَغْلِيَّةٌ مِنْ عِلْمِهِ ، وَحِلْمُ
العلماء جَذْوَةٌ مِنْ حِلْمِهِ ، وَعَقَائِدُ الْأَصُولِ مُقْتَدَحَةٌ مِنْ زَنَادِ كَلِمَاتِهِ ، وَقَوَاعِدُ

الفروع مقترحة من عداد نعماته ، فارس هَيَّجاء المشكلات ، ومقوم عَوَجاء
المعضلات ، منبع الشَّين ، ومُتَمِّع السَّيْن ، فاز بفلبات الأقران ، وحاز قَصَبَاتِ
الزَّهَان ، بَطْهارة الأعراق ، ودمانة الأخلاق ، وفغامة شرف الأمومة ، وكرامة
طرفي الأبوة والعمومة ، دَرَّة الأصداف ، من صميم آل عبدمناف ، كشف الظلمة
عن الأمة ، وصرف عنهم المظلمة المدهمة ، بلمر كالبحر اللججى ، ورأى كالبدر
فى الليل الدججى ، مذهبه مؤيَّد بنصوص القرآن ، وفصول الفرقان ، أسس بُنيانه
على تقوى من الله ورضوانه ، فهو بين المذاهب والأديان ، كالناظر فى الأجفان
والسمع فى الآذان ، والعقل فى الإنسان ، والمدلل للسلطان ، أحله الله محل
القدُّس ، وأدلى إليه سحاب الأنس فى كلام أ كثر من هذا .

* * *

فقال : دَعِ الهِتَّار ، ولا تهتِك الأستار ، وانهض بنا لنَضْرِبَ
إلى مسجد يَثْرِب ، فمضى أن تَرَحَّضَ بالمزار ، درن الأوزار .
فقلت : هيهات أن أَمِير ، أو أَفْقَه التفسير ، فقال : تالله
لقد أوجبت ذِمًّا ، وطلبت إذ طلبت أَمَّا . فهلك ما يشفى النَّفْس ،
ويُنْفِى اللَّبْس ، قال : فلمَّا أوضح لى المعنى ، وكَشَفَ عَنى
الغنى ، شددنا الأكوار ، وسرت وسار . ولم أزل من مسامرتة ،
مدة مسأيرته ، فيما أنسانى طعم المشقة ، ووددت معه بُقْدَ
الشقة ، حتى إذا دخلنا مَدِينَةَ الرسول ، وفزنا من الزَّيَّارَةِ
بالسُّول ، أشام وأغرقت ، وغرب وشرقت .

...

قوله : **دع اهتار** : ، أى أترك تمزيق العِرض ، وفلان يهتار فلانا ، أى يسابه بالباطل من القول ، والقبیح من اللفظ ، وأصل الهتار سقط الكلام والباطل ، والمهارة : القول الذى ينقض بعضه بعضاً ، وأهتر الرجل فهو مهتر ، إذا أولع بالقول فى الشيء ، واستهتر ، فهو مستهتر : ذهب عقله فيه ، وانصرفت إليه همهته . تهتك : تحرق وتكشف ، يريد أنه لما عرض له بتقائمه قال له : دع كشف العيب ، فليس هذا موضعه . انهض : تقدم . لنضرب : لنمشى فى الأرض . نرحض : نفعل . المزار : زيارة قبر النبی صلى الله عليه وسلم . حرن الأوزار : وضع الذنوب . هيات : معناه بئد ذلك عنك . أفه : أفهم ، وذمماً : جمع ذمة ، وهى العهد . أمماً : شيئاً قريباً ، والأمم : القصد . هاك : أى خذ . المعنى : المعطى المشكى المعنى ، وأراد به شرح المائة الفتيا الملفة . ويقال لمن يطلب ما يمكن ولم يشطط : طلب أمماً قال عبيد الله بن قيس الرقيات :
كوفية نازح محلها لا أمم دارها ولا صتب^(١)

الصب : القرب . الغنى : هى الفعة التى تغطى على القهن ، والمعنى الأمر المتبس . الأكوار : ما هو للإبل كالبراذع للدواب . الشقة : السفر البعيد . والشول : المراد ، أشام وأعرت : قصد الشام وقصدت العراق .

[فصل فى زيارة قبر الرسول عليه السلام]

ونذكر هنا فصلاً فى زيارة القبر المعظم وتوديع زائره له ووصف الروضة والمسجد وذكر يثرب ، وهى مدينة النبی صلى الله عليه وسلم ومهاجرة ، سماها طنية لما كان اشتقاقها من التثريب^(٢) . وكان صلى الله عليه وسلم يغير الأسماء التى تدل على الاستقباح إلى ضدّها .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ زار قبرى وجبت له خفاعة » .

(١) ديوانه ٨ ، وفيه « ولا ستب » ، وهما سواء (٢) التثريب : الإفساد

ابن عمر رضى الله عنهما : يثرب أرض مدينة الرسول في ناحية منها .
وقال شيخنا ابن جبير في روضته صلى الله عليه وسلم : شاهدنا ^(١) الروضة
المكرّمة ، وقد وقع الأذان بوصول صدر الدين رئيس الشافعية الأصهباني الذي
ورث النباهة والوجاهة في العلم كابراً عن كابر ، المعروف برئيس العلماء ،
توارثه عن أبي قاب ، وقد غصّ الحرم بالمنتظرين ، وقد أعد له كرمى بإزاء
الروضة المقدسة ، فصعد وحضر قراؤه أمامه ، فابتدءوا بالقراءة بنغيات عجيبة ،
وتلاحين مطربة بهيجة ، وهو يلحظ الروضة المقدسة ، ويملن بالبكاء . ثم أخذ
في خطبة من إنشائه سحرية البيان ، وسلك في أساليب من الوعظ باللسان ،
وأشد أبياناً بديمة من قوله ، كان يردّد منها هذا البيت ، ويشير إلى الروضة
المعظمة المطهرة .

هانيك روضته تفوح نسيماً صلّوا عليه وسلّوا تسليماً

وتمدّى في وعظه إلى أن أطار النفوس من خشية ورقة ، هو يعتذر من
التقصير ، لهول ذلك المقام ويقول : عجباً لألكن العجم ، كيف ينطق عند
أفصح العرب . وتهافت الأعاجم عليه معلنين بالتوبة ، وقد طاشت ألبابهم ،
ودهشت عقولهم ، فيلقون نواصيهم بين يديه ، فاستدعى الجلّسين ، ويجرّهم ناصية
ناصية ، وكلّما جزّ ناصية كساها عمامة ، فتوضع عليه للحين عمامة أخرى ، ثم
ختم مجلسه ، بأن قال : معشر الحاضرين ، قد تكلمت لكم ليلة بمحرم الله ،
وهذه الليلة بمحرم رسوله ؛ ولا بد لا واعظ من كدّية ، وأنا أسألكم حاجة وإن
ضمنتها إلي أرقّت لكم ماء وجهي في ذكرها . فأعلن الناس بالإسماعاف وشبهتهم
قد علا ، فقال : حاجتي أن تكشفوا ردوسكم ، وتبسطوا أيديكم ، ضارعين لهذا
النبي الكريم في أن يرضى عني ويصترضى الله عز وجل لي . ثم أخذ في تعداد
ذنوبه ، والاعتراف بها ، فأطار الناس عمامتهم ، وبسطوا أيديهم للنبي صلى الله

(١) رحلة ابن جبير ص ١٦٨ وما بعدها مع تصرف .

عليه وسلم ، داعين له باكين متضرعين ؛ فما رأيت ليلة أكثر دموعاً ، ولا أعظم خشوعاً من تلك الليلة . ثم انفضَّ المجلس .

قال ابن جبير رحمه الله : ثم كان في اليوم التالي لهذه الليلة وداعنا للروضة المكرمة ، فياله وداعاً ، ذهلت له النفوس ارتباعاً ، حتى طارت شماعاً ، وما ظنك بمخوف بنادى بالتوديع فيه سيد المرسلين ، وخاتم النبيين ، ورسول رب العالمين ! إنه لموقف تنفطر فيه الأفئدة ، وتطيش له الألباب المتئدة ، فوا أسفاه وأسفاه ! كلُّ ييوح لديه بأشواقه ، ولا يجد بُدّاً من فراقه ، فما تستطيع إلى الصبر سبيلاً ، ولا تسمع في ذلك المقام إلا رنةً وعويلاً ، وكلُّ بلسان الحال ينشد :

مَحَبَّتِي تَقْتَضِي مَقَامِي وَحَالِي تَقْتَضِي الرَّحِيلَا

بِوَأَنَا اللَّهَ بِزِيَارَةِ هَذَا النَّبِيِّ الْكَرِيمِ مَنَزَلَ الْكَرَامَةِ ، وَجَعَلَهُ شَفِيعاً لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَأَلَمْنَا بِفَضْلِهِ فِي جَوَارِهِ الْكَرِيمِ دَارَ الْمَقَامَةِ .

ثم ذكر الروضة المقدسة مع المسجد العتيق الذي احتوى على الروضة ، فقال : المسجد المبارك مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم مُسْتَطِيلٌ ، وَتَحْفُهُ مِنْ جِهَاتِهِ الْأَرْبَعِ بِلَاطَاتٍ مُسْتَطِيلَةٍ ، وَوَسَطُهُ كَلَّةٌ مَحْنُ مَفْرُوشٌ بِالْحَقْصَى وَالرَّمْلِ ، وَفِي الصَّحْنِ خَمْسُ عَشْرَةَ نَحْلَةً ، فَالْجِهَةُ الْقِبْلِيَّةُ لَهَا خَمْسُ بِلَاطَاتٍ مُسْتَطِيلَةٍ مِنْ غَرْبٍ إِلَى شَرْقٍ ، وَالْجَنُوبِيَّةُ كَذَلِكَ ، عَلَى الصِّفَةِ الْمَذْكُورَةِ وَالشَّرْقِيَّةُ لَهَا ثَلَاثُ بِلَاطَاتٍ ، وَالْغَرْبِيَّةُ لَهَا أَرْبَعُ بِلَاطَاتٍ . وَطُولُ الْمَسْجِدِ مِائَةُ خُطْوَةٍ وَسِتٌّ وَتِسْعُونَ خُطْوَةً ، وَوَسْمَتُهُ مِائَةُ وَسِتٍّ وَعِشْرُونَ خُطْوَةً ، وَعَدَدُ سَوَارِيهِ مِائَتَانِ وَتِسْعُونَ ، وَهِيَ أَمْعَدَةٌ مُتَّصِلَةٌ بِإِسْثَمَكٍ دُونَ قِسْيٍ تَنْعَطِفُ عَلَيْهَا ، فَكَأَنَّهَا دَعَائِمُ قَوَائِمٍ ، وَهِيَ مِنْ حَجَرٍ مَنْحُوتٍ قِطْعَانًا ، مُكَلَّمَةٌ^(١) مَشْقُوبَةٌ تَوْضِعُ أَثَرًا فِي ذِكْرٍ ، وَيَفْرَغُ بَيْنَهُمَا الرِّصَاصُ لِلذَّابِ إِلَى أَنْ يَتَّصِلَ هُمُودًا قَائِمًا ، وَتُكْسَى بِثَلَالَةِ جِيدٍ ، وَيَبَالِغُ فِي سَقْلِهَا وَدَلْكِهَا ، فَتُظْهِرُ كَأَنَّهَا رِخَامٌ أَيْبَضُ ، وَتَحْفُ بِالْبِلَاطِ الْمُتَّصِلِ بِالْقِبْلَةِ مِنْ

البلاطات الخمس مقصورة تكثفها من غرب إلى شرق ، والحراب فيها ، وعلى رأس الحراب حجر مربع أصفر قدر شبر في شبر ، ظاهر البريق ، يقال : إنه كان مرآة كسرى . وفي أعلى داخل الحراب مسمار مثبت في جداره ، فيه شبه حقه صغير لا يعرف من أى شيء هو ، ويؤمنون أنه كان كأس كسرى . ونصف جدار القبلة الأسفل رخام موضوع أزاراً على إزار مختلف الصنعة واللون ، مجزّع أبدع تجزيع . والنصف الأعلى من الجدار مزين كله بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء ، قد نتج الصانع فيه نتائج غريبة من الصنعة ، تضمنت تصاوير أشجار مختلفة الصفات ، مائلة الأغصان بثمرها ، والجداران الشرقى والغربى الناظران إلى الصحن مجرّدان أبيضان مُقرّصان ، قد زُيّنا برسم يتضمن أنواعاً من الأصبغة إلى ما يطول وصفه من الاحتفال في هذا المسجد المبارك .

وفي الجهة الشرقية بيتٌ مصنوع من عُود لمبيت بعض سدّته ، وسدّته فُنيانٌ أحايش صقالبُ ظراف الهيئات ، نظاف الملابس ، والمؤذّن الرّاتب فيه أحد أولاد بلال ، وفي جوف الصّحن قبة كبيرة تُعرّف بقبة الزيت ، هي مخزن لجميع آلات المسجد .

وله تسعة عشر باباً لم يبقَ منها مفتوحاً سوى أربعة : اثنان في الغرب ، ويعرفان بباب الرحمة ، وباب الخشية ، واثنان في الشرق : باب جبريل ، وبقابه دار عثمان التي استشهد بها ، وباب الرجاء . وفي الشرق خمسة مغالقة ، وفي الغرب كذلك ، وفي الجنوب أربعة وفي القبلة واحدٌ صغير ، وله ثلاث صوامع إحداها في الركن الشرقى على هيئة الصوامع ، واثنان في ركني الجهة الجنوبية صغيرتان على هيئة بُرجين ، والرّوضة المقدّسة مع آخر الجهتين ، الجهة القبليّة تمايلي الشرق ، وقد انتظمت من بلاطاته تمايلي الصّحن في السعة اثنان وثيقت إلى البلاط الثالث بمقدار أربعة أشبار ، ولها خمسة أركان بخمس صفحات ، وشكلها شكل

عجيب لا يكاد يتأتى تصويره ولا تمثيله ، والصفحات الأربع محروقة عن القبلة تحريقاً بدعياً ، لا يتأتى لأحد معه استقبالها في صلاته ، لأنه ينحرف عن القبلة ، والذي اخترع ذلك في تدبيرها مخافة أن يتخذها الناس معاً على عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه . وأخذت من الجهة الشرقية سعة بلاطتين ، وانتظم داخلها من أعمدة الأبلطة ستة ، وسعة الصفحة القبليّة منها أربعة وأربعون شبراً ، وسعة الصفحة الشرقية ثلاثون شبراً ، ومن الركن الشرقي إلى الركن الجنوبيّ صفحة سعتها خمسة وثلاثون شبراً ، ومن الركن الجنوبيّ إلى الغربيّ صفحة سعتها تسعة وثلاثون شبراً ، ومن الركن الغربيّ إلى القبليّ صفحة سعتها أربعة وعشرون شبراً ، وفي هذه الصفحة صندوق آبنوس مختم بالصندل ، مصفح بالنضّة ، مكوكب بها طوله خمسة أشبار ، وعرضه ثلاثة أشبار ، وارتفاعه أربعة ، وهو قبالة رأس النبي صلى الله عليه وسلم ، فجميع سعة الروضة من جميع جهاتها مائة شبر ، واثنان وسبعون شبراً ، وهى مؤزّرة بالرخام البديع النحت الرائع النعت ، وينتهى الإزار منها إلى نحو الثلث أو أقلّ يسيراً ، وعليه من الجدار المسكرم ثلث آخر ، قد علاه تضيّيع المسك والطيب مقدار نصف شبر مسوّدًا متراكبًا ، متشققًا مع طول الأزمنة والأيام ، والذي يملؤه من الجدار شبابيك عُود متّصلة بالشُمك الأعلى ، لأنّ أعلى الروضة متّصل بسُمك المسجد ، وإلى حين إزار الرخام تنتهى الأسعار ، وهى لازوردية اللون ، مختمة بخواتم بيض مثمنة ومربعة ، وفي داخل الخوانيم دوائرٌ مستديرة ، ونُقْط بيض تحفّ بها ، فنظرها منظر بديع الشكل . وفي أعلاها رسم مائل إلى البياض ، وفي الصفحة القبليّة أمام وجه النبي صلى الله عليه وسلم مسار فضة ، هو قبالة الوجه المسكرم ، فيقف الناس أمامه للاستلام ، وإلى قدميه صلى الله عليه وسلم رأس أبى بكر رضى الله عنه ، ومما يلي كتفى أبى بكر رأس عمر رضى الله عنهما ، فيقف المسلم مستدير القبلة ، ومستقبل الوجه الكريم ، فيسلم ثم ينصرف يمينًا إلى وجه أبى بكر ، ثم إلى وجه عمر رضى الله تعالى عنهما .

وأمام هذه الصفة المكرمة نحو العشرين قنديلاً معلقة من القضة ، وفيها اثنتان من ذهب ، وفي جوف الروضة حوض صغير مرخّم في قبلته شكل البحر ، قيل : إنه بيت فاطمة رضي الله تعالى عنها ، ويقال : هو قبرها ، وعن يمين الروضة المكرمة المنبر الكريم ، ومنه إليها اثنتان وأربعون خطوة ، وهو في الحوض المبارك الذي طوله أربع عشرة خطوة ، وعرضه ست خطا ، وهو مرخّم كله وارتفاعه شبر ونصف ، وارتفاع المنبر نحو القامة أو أزيد وسعته خمسة أشبار ، وطوله خمس خطوات ، وأدراجة ثمانية ، وبابه على هيئة الشباك مقفل يُفتح يوم الجمعة ، وطوله أربعة أشبار ونصف شبر .

والمنبر مغطى بعود الآبنوس ، ومقعد النبي صلى الله عليه وسلم من أعلاه ظاهر ، وقد طبق عليه لوح من الآبنوس غير متصل به ، يصونه من القعود عليه ، يدخل الناس أيديهم إليه ، ويمسحونه تبركا بلمس ذلك المقعد الكريم ، وعلى رأس رجل المنبر اليمنى ، حيث يضع الخطيب يده حلقة فضة مجوفة مستطيلة تشبه حلقة الخياط ، لكنها أكبر لآلة تستدير في موضعها ، يزعمون أنها كانت لعبة للحسن والحسين في حال خطبة جدّهما ، صلوات الله عليهم أجمعين .

وفي الروضة الصغيرة التي بين القبر والمنبر ، جاء الأثر أنها روضة من رياض الجنة ، وقدرها ثمان خطا ، ويتزاحم الناس في هذه الروضة للصلاة ، وبازائها لجهة القبلة عمود ، يقال إنه مُطبق على بقية الجذع الذي حنّ للنبي صلى الله عليه وسلم وقطعة منه في وسط العمود ظاهرة ، يقبلها الناس ، ويمسحون خدودهم فيها وعلى حافتها في القبلة منها صندوق كبير للشمع والأنوار التي توقد أمام الروضة كل ليلة ، ومصلّى الإمام في الروضة الصغيرة المذكورة إلى جانب الصندوق ، وبينها وبين الروضة الكبيرة محمل كبير مدهون عليه مُصَحَف كبير في غشاء مقفل ، هو أحد المصاحف الأربعة التي وجّه بها عثمان إلى البلاد ،

ويازاء المقصورة لجهة المشرق خزانتان كبيرتان محتويتان على كتب ومصاحف موقوفة على المسجد ، ويلبها في البلاط الثانى دفّة لجهة الشرق ، ودّفّة مطبقة على وجه الأرض إلى سرداب يهبط إليه على أدراج تحت الأرض ، يُفصّل إلى خارج المسجد إلى دار أبى بكر ، وهو كان طريق عائشة رضى الله عنهما إليها . وذلك الموضع هو موضع الخوخة المُفضية لدار أبى بكر رضى الله عنه التى أمر النّبى صلى الله عليه وسلم بإبقائها ، ويازاء دار أبى بكر دار عمر وابنه عبد الله بن عمر رضى الله عنهم أجمعين .

وفىما ذكرناه كفاية ، والله تعالى أعلم .

المقامة الثالثة والثلاثون وتشرّف بالتفليسيّة

حكى الحارث بن همام ، قال : عاهدتُ الله مُذْ يَفْعْتُ ،
أَلَّا أُؤَخِّرَ الصَّلَاةَ مَا اسْتَتَطَعْتُ ؛ فَكُنْتُ مَعَ جَوْبِ الْفَلَوَاتِ ،
وَلَهُوَ الْخَلَوَاتِ ، أُرَاعِي أَوْقَاتَ الصَّلَاةِ ، وَأَحَازِرُ مِنْ مَأْنَمِ
الْفَوَاتِ . وَإِذَا رَاقَعْتُ فِي رَحْلَةٍ ، أَوْ حَلَلْتُ بِحِلَّةٍ ، مَرَحَبْتُ
بِصَوْتِ الدَّاعِي إِلَيْهَا ، وَاقْتَدَيْتُ بِمَنْ يُحَافِظُ عَلَيْهَا .

فَاتَّفَقَ حِينَ دَخَلْتُ تَفْلَيْسَ ، أَنْ صَلَّيْتُ مَعَ زَمْرَةٍ مَفَالَيْسَ
فَلَمَّا قَضَيْنَا الصَّلَاةَ ، وَأَزْمَعْنَا الْإِنْفِلَاتَ ، بَرَزَ شَيْخٌ بِأَدَى اللَّقْوَةِ ،
بِأَلِي الْكُسُوفَةِ وَالْقَوَّةِ ، فَقَالَ : عَزَمْتُ عَلَى مَنْ خُلِقَ مِنْ طِينَةِ
الْحَرِّيَّةِ ، وَتَفَوَّقَ دَرَّ الْمَصِيبَةِ ، إِلَّا مَا تَكَلَّفَ لِي لُبْشَةً ، وَاسْتَمَعَ مِنِّي
نَفْثَةً ، نِمَ لَهُ الْخِيَارُ مِنْ بَعْدِ ، وَبِيَدِهِ الْبَذْلُ وَالرَّدُّ . فَعَقَدَ لَهُ
الْقَوْمُ الْحَبَا ، وَرَسَوْا أَمْثَالَ الرُّبَا .

يفعت : شببت ولم أبلغ الحلم ، وقاربت ذلك .
ابن أبي الخيزر : يفع الغلام ويُفَع ، إِذَا كَانَ ابْنُ سَبْعِ سَنِينَ ، فَإِذَا نَاهَزَ الْحُلْمَ
قِيلَ : مُرَاهِقٌ وَكَوَكَبٌ ^(١) ، فَإِذَا أُدْرِكَ قِيلَ : فِيهِ حَزَوْرٌ .

غيره : غلامٌ يَفْعَةُ غَضُّ الشَّبَابِ ، وَجَارِيَةٌ يَفْعَةُ ، وَالْجَمْعُ أَيْفَاعٌ وَأَيْفَعٌ ، فَهُوَ
يَافِعٌ عَلَى غَيْرِ قِيَاسٍ . قَالَ ابْنُ سَيِّدِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ يَفْعُ الْغُلَامُ ،
وَلَا مُوَفِعٌ ، وَمِثْلُهُ أَقْبَلُ لِلْوَضْعِ ، وَأَوْزَسَ ، وَالْوَرَسُ : نَبْتُ أَصْفَرٍ . جَوْبُ :

(١) فِي الْقَامُوسِ : الْكَوَكَبُ : الْغُلَامُ الْمُرَاهِقُ .

قطع . الخلوات : حيث يخلو للذاته . أراعى . أحفظ . مائم : إائم . الفوات . فوت الوقت . راققت في رحلة : صاحبت في ارتحال وسفر . حَلَلْتُ : نزلت ببلدة . والحَلَّة : جماعة البيوت ، والحِلَّة : القوم الخلول والجمع حلال . مَرَّحِبْتُ : قلت مَرَّحِبًا . الدَّاعِي : هو المؤذِّن .

[ما قيل في أداء الصلاة في وقتها وما جاء في تركها]

وجاء من الأثر في تأخير الصلاة قوله صلى الله عليه وسلم : « إِنْ الرَّجُلَ لِيَصِلِيَ الصَّلَاةَ وَمَا فَاتَهُ وَقْتُهَا ، وَلَمَّا فَاتَهُ مِنْ وَقْتُهَا أَعْظَمُ أَوْ أَفْضَلُ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ » . فهذا وقد أدرك آخر الوقت سيندم على فوت أوله .

وقال عليه الصلاة والسلام : « الوقت الأول من الصلاة رضوان الله ، والثاني عفو الله » ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : رِضْوَانُ اللَّهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ عَفْوِهِ . وإنما قال ذلك لأن عفو الله لا يُتَصَوَّرُ إِلَّا عِنْدَ اكْتِسَابِ خَطِيئَةٍ .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه ذكر الصلاة يوماً فقال : « مَنْ حَافِظٌ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبِرْهَانًا وَنَجَاةٌ مِنَ النَّارِ ، وَمَنْ لَمْ يَحَافِظْ عَلَيْهَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَأُنَى بْنِ خَلْفٍ » . وقال عليه الصلاة والسلام : « إِنْ الَّذِي تَفَوُّتَهُ صَلَاةُ الْعَصْرِ ؛ فَكَأَنَّمَا وَرَّأَهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ » .

وكتب عمر رضى الله عنه إلى عماله : إِنْ أَمْرٌ أَمُورَكُمْ عِنْدَ الصَّلَاةِ ، مِنْ حِفْظِهَا وَحَافِظٍ عَلَيْهَا حَفِظَ دِينَهُ وَمَنْ ضَيَّعَهَا فَهُوَ لِمَا سِوَاهَا أَضْيَعٌ .

وجاء في القرآن : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا ﴾ ^(١) ، وفي التفسير : لم يتركوا الصلاة وإنما أضاعوا وقتها . وقال صلى الله عليه وسلم : « لا تفرط في النوم ، وإنما التفريط في الذي يؤخر الصلاة إلى وقت الأخرى » .

وسُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ، قَالَ :
« هُمُ الَّذِينَ يُؤَخِّرُونَ الصَّلَاةَ عَنْ وَقْتِهَا » .

ومِمَّا يُسْتَظَرُّ مِنْ هَذَا الْبَابِ أَنَّ الْمَنْصُورَ قِيلَ لَهُ : إِنْ أَبَا دُلَامَةَ لَا يَحْضِرُ
الصَّلَاةَ ، لِأَنَّهُ مَعْتَكِفٌ عَلَى الْخَمْرِ ، وَقَدْ أَفْسَدَ فِتْيَانُ الْعَسْكَرِ ، فَلَوْ أَمَرْتَهُ بِالصَّلَاةِ
مَعَكَ لِأَصْلَحَتِهِ وَغَيْرِهِ . فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ : أَبُو دُلَامَةَ الْمَاجِنُ ! قَالَ : يَا أَمِيرَ
الْمُؤْمِنِينَ ، مَا أَنَا وَالْجَوْنُ ، وَقَدْ سَاوَرْتُ بَابَ قَبْرِي ، فَقَالَ : عَنَى مِنْ اسْتِكَاتَكَ
وَتَضَرَّعَكَ وَإِيَّاكَ أَنْ تَفُوتَكَ صَلَاةُ الظَّهْرِ وَالْعَصْرِ فِي مَسْجِدِي ، فَإِنْ فَاتَتْكَ
لَا حَسِينَتَ أَدْبَكَ ، وَلَأَطْلُبَنَّ حَبْسَكَ . فَوَقَعَ فِي شَرِّ أَمْرٍ ، فَلَزِمَ الْمَسْجِدَ أَيَّامًا ثُمَّ
كُتِبَ رَقْعَةٌ وَدُفِنَ فِي الْمَهْدِيِّ ، فَأَوْصَلَهَا إِلَى أَبِيهِ وَفِيهَا :

أَلَمْ تَعْلَمَا أَنَّ الْخُلَافَةَ لَزَنِي	لِمَسْجِدِهِ وَانْقَضَى مَالِي وَلِلْعَصْرِ ^(١)
أَصَلَّى بِهِ الْأَوَّلَى جَمِيعًا وَعَصَرَهَا	فَوَيْلٌ مِنَ الْأَوَّلَى ، وَوَيْلٌ مِنَ الْعَصْرِ !
أَصْلِيهِمَا بِالْكَرْهِ فِي غَيْرِ مَسْجِدِي	فَالَى فِي الْأَوَّلَى وَفِي الْعَصْرِ مِنْ أَجْرِ
يَكْلَفُنِي مِنْ بَعْدِ مَا شَبَتْ تَوْبَةُ	يَحْطُ بِهَا عَنَى الثَّقِيلِ مِنَ الْوِزْرِ
وَوَاللَّهِ مَالِي نَيْسَةٌ فِي صَلَاتِهَا	وَالْأَلْبَرِ وَالْإِحْسَانِ وَالْخَيْرِ مِنْ أَمْرِي
لَقَدْ كَانَ فِي قَوْمِي مَسَاجِدُ جَحَّمَ	وَلَمْ يُلْشَرْحَ يَوْمًا لِفِشْيَانِهَا صَدْرِي
وَمَا ضَرَّهُ - وَاللَّهِ يَغْفِرُ ذَنْبَهُ -	لَوْ أَنَّ ذُنُوبَ الْعَالَمِينَ عَلَى ظَهْرِي !

فَقَالَ : صَدَقَ دَعْوُهُ يُضَلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَمَا يَضُرُّنِي ذَلِكَ ! وَاللَّهِ لَا يَفْلَحُ هَذَا
أَبْدًا ، فَدَعُوهُ يَفْعَلْ مَا يَشَاءُ .

وَكَانَ الْجَمَّازُ مُنْقَطِعًا إِلَى أَبِي جَزْءِ الْبَاهِلِيِّ ، فَتَنَاسَكَ أَبُو جَزْءٍ ، فَقَالَ
لِلْجَمَّازِ : لَا أَحِبُّ أَنْ تَحَالِطَنِي إِلَّا أَنْ تَتَنَسَّكَ فَأَظْهَرَ النَّسْكَ ، ثُمَّ كُتِبَ إِلَيْهِ :

قد جفاني الأمير كي أنقرّي فقرّيتُ مكرهاً بِلُفْأَتِهِ^(١)
والَّذي أنطوى عليه المعاصي علم الله نَيْتِي من سَمَائِهِ
ما قِرَاةً لمُكْرَمٍ بَقَرَاةٍ قد رواه الأمير عن فُقْهَائِهِ
ومن مجون أبي نواس أن الأمير لما نهاه عن الخمر وحَبَسَهُ ، فكلّمه فيه
الفضل بن الربيع ، وأخرجه كتب إليه :

أنتَ يابن الربيع علّمتني الخَيْرَ وَعَوَّدْتَنِيهِ والخَيْرُ عَادَةٌ^(٢)
فارعوى باطلِي وراجعتني الحِلْمُ فأحدثتُ رهبةً وزَهَادَةً
لو ترائي ذكرتُ بي الحسن البهـ ريتُ في حال نسكه أَوْقَتَادَةً
المسابيح في دراعِي والمُضْجِف في لَبَيِّ مَكَانَ القِلَادَةِ
فإذا شئتُ أن ترى طرفه تَنَمَّـ سَجِبَ منها مليحةٌ مستَفَادَةٌ
فادْعُ بي لا عدمتَ تقويمَ مثلي فتأملْ بعينِكَ السَّجَادَةَ
لورآها بعضُ المرائينِ يومًا لا شترَها يَمدُّها للشَّهَادَةِ
أُتِرَ لَاحَ للصَّلَاةِ بوجْهِي تُوقِنُ النَّفْسُ أَنَّهُ من عِبَادَةِ

وأذن بشار لأصحابه والمائدة بين يديه ، فأكل ولم يدعُهم طعامه ، ثم دعا
بطشتَ وكشَفَ عن سوءته فبال ، ثم حضر الظهر والعصر والعشاء الأولى
والآخرة ، فلم يُصَلِّ فقالوا له : أنت أستاذنا وقد رأينا منك أشياء أنكرناها
عليك . قال : وما هي ؟ قالوا : دخلنا والطعام بين يديك فلم تُدْعُنَا إليه ، قال :
إنما أذنت لكم لتأكلوا ، ثم ماذا ؟ قالوا : دَعَوْتُ بالطشت ونحن حضورٌ
فبُلتُ ونحن نراك ؛ فقال : أنا مكفوف وأنتم بصراء وأنتم المأمورون بَعْضَ
البصر دُونِي ، ثم ماذا ؟ قالوا : حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فلم تصل ، فقال : إن الذي
يقبلها تفارق يقبلها جملة . هذا على أنه القائل :

(١) الأماي ٣ : ٤٦ . تقرى : تنسك .

(٢) ديوانه ١٤٥ ، ذيل زهر الآداب ١٦٨ .

ألم تر أن الدهر يقدر في الصَّعَا وأن بقائى إن حيت قليل^(١)
خليلك ما قدمت من عمل التَّقَى وليس لأَيَّامِ المنون خليلُ
فَعَسْ خائفاً للموت أو غير خائفٍ^(٢)

على كلِّ نفسٍ للحِجَامِ دليلُ
وقال الحسن رحمه الله تعالى^(٣) :

وندمانٍ يرى غيباً^(٤) عليه بأن يمسى^(٥) وليس له انتشاء
إذا نبهته من نوم سُكْرِ كفاه مرّةً منك النداء
إذا ما أدركته الظهر صلي^(٦) فلا ظهرٌ عليه ولا عشاء^(٧)
يُصلي هذه في وقت هذى فكلّ صلاته أبداً قضاء

[ذكر مدينة تغليس]

تغليس : مدينة بأرمينية بينها وبين قالى قَلاً ثلاثون فرسخاً، ومن قالى قلا
ابتداء الأنهار للعظام، أولها الفرات - وقد تقدّم - يأخذ من قالى قلا فرسخين،
ثم يشقّ مغرباً إلى دَيبِل إلى وَرْثان، ثم يصبّ إلى بحر الخزر، والثاني الكبير
يخرج من مدينة قالى قَلاً، ثم يشقّ إلى مدينة تغليس مشرقاً إلى مدينة بردعة
وأرضها، ثم يقرب من بحر الخزر، فيلتقى مع الرّس ويصيران نهراً واحداً.
ويقال : إن خلف الرّس ثلثمائة مدينة خراب، وهي التي ذكرها الله تعالى،
وأصحاب الرّس بُعث إليهم حفظة بن صفوان فقتلوه، فأهلكوا. وقيل في
أصحاب الرّس غير ذلك .

(١) نقله اليازودي في مختاراته ٤ : ٤٦ (٢) المختارات : « عاتف »

(٣) مختار الأغاني ٣ : ٦٦

(٤) ط : « عيا » ، تصحيف . (٥) المختار : « يلقي » .

(٦) ط : « حيا » ، وما أثبتته من المختار .

(٧) المختار : « ولا عصر عليه ولا عشاء » .

وإرمينية مقسومة على ثلاثة أقسام ، فالقسم الأول مدينة دَبِيل ، ومدينة
قَالِي قَلَا ، ومدينة خَلَاط ، ومدينة شَمَشَاط ، ومدينة السَّوَاد ، والجزء الثاني مدينة
بَرْدَعَة ، ومدينة البَيْلُقَان ، ومدينة قَيْلَة ، ومدينة الباب والأبواب والثالث
مدينة خَزْوَان ومدينة تَفْلَيْس . والمدينة التي تعرف بمسجد ذى القرنين ،
وافتححت إرمينية في خلافة عُثْمَان ، وافتتحها سليمان بن ربيعة الباهلي في سنة
أربع وعشرين .

عُصْبَة : جماعة . مفاليس : فقراء ، وأفلس الرجل : صار صاحبُ فلوس بعد
أن كان صاحب دنائير . أَرَمْنَا الانفلات : عزمنا على الخروج . اللقوة : داء
يأخذ في الوجه ، والفواق : ما بين الحلبتين . درّ العصبية : لبن الحمية ، وهو
مَثَل . نفقة : كلمة . البذل : العطاء . والردّ : النعم . الحبا : عقد اليدين على
الركبتين . رَسَوْا : ثَبَتُوا . الزبا : الكدّ .

* * *

فَلَمَّا آنَسَ حُسْنَ إِنْصَاتِهِمْ ، وَرَزَانَةَ حَصَاتِهِمْ ، قَالَ : يَا أُولِي
الْأَبْصَارِ الرَّامِقَةِ ، وَالْبَصَائِرِ الرَّائِقَةِ ؛ أَمَا يُغْنِي عَنْ الْخَبْرِ الْعِيَانُ ،
وَيُنَبِّئُ عَنِ النَّارِ الدَّخَانُ ؛ شَيْبٌ لَا تُمِخْ ؛ وَوَهْنٌ فَادِحٌ ، وَدَاءٌ
وَاضِحٌ ، وَالْبَاطِنُ فَاضِحٌ .

ولقد كنتُ واللهِ ثَمَنَ مَلَكٍ وَمَالٍ ، وَوَلِيَّ وَآلٍ ، وَرَفَدٍ
وَأَنَالٍ ، وَوَصَلَ وَصَالٍ ؛ فَلَمْ تَزَلِ الْجَوَائِحُ تَسْحَتُ ، وَالتَّوَابُ
تَنْحَتُ ؛ حَتَّى الْوَكْرُ قَفْرٌ ، وَالْكَفُّ صِفْرٌ ، وَالشَّمَارُ ضَرْ ،
وَالْعَبْشُ مُرٌّ ؛ وَالْعَصْبِيَّةُ يَتَضَاعَوْنَ مِنَ الطَّوْرِ ، وَيَتَمَنَّقُونَ

حُصَاةُ النَّوَى وَلَمْ أَقُمْ هَذَا الْمَقَامَ الشَّائِنَ ، وَأَكْشِفُ لَكُمْ
الدَّفَائِنَ ؛ إِلَّا بَمَدِّ مَا شَقِيتُ وَلَقِيتُ ، وَشَبْتُ مِمَّا لَقِيتُ ؛
فَلَمَّيْتَنِي لَمْ أَكُنْ بَقِيتُ . ثُمَّ تَأَوَّهَ تَأَوَّهَ الْأَسِيفِ ، وَأَنشَدَ
بِصَوْتٍ ضَعِيفٍ

* * *

آنس : أبصر . إِنْصَاتِهِمْ : سَكُونُهُمْ . رِزَانَةُ حِصَاتِهِمْ : رِجَاحَةُ عَنُقِهِمْ ،
وَالْحِصَاةُ يَكْنَى بِهَا عَنِ الْعَقْلِ ، قَالَ طَرْفَةُ :

وإِنْ لِسَانُ الْمَرْءِ مَا لَمْ يَكُنْ لَهُ حِصَاةٌ عَلَى عَوْرَانِهِ لَدَلِيلٌ^(١)

الْأَبْصَارُ الرَّامِقَةُ : الْعَيُونُ النَّاطِقَةُ . الْبَصَائِرُ : جَمْعُ بَصِيرَةٍ وَهِيَ الْمَعْتَدُ .
الرَّائِقَةُ : الْمَعْجِيةُ . الْعِمَانُ : الْمَعَانِيَةُ ، يَقُولُ : مَعَانِيَتُكَ الشَّيْءُ يُعْنَى عَنْ خَبْرَتِهِ
وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَيْسَ الْخَبِيرُ
كَالْمَعَانِيَةِ » .

يَنْبِيُّ : يَخْبِرُ . لَأَمْحُ : ظَاهِرٌ . وَهَنْ : ضَعْفٌ . فَادِحٌ : مُثْقَلٌ بَيِّنٌ . فَاضِحٌ :
أَيُّ صَاحِبِهِ فِي شَهْرَةٍ وَفَضِيحَةٌ . مَلِكٌ : كَانَ مَلِكًا أَوْ مَلِكًا الْأَمْوَالِ الْعِظَامُ فَصَارَ
ذَا مَلِكٍ : مَالٌ : صَارَ ذَا مَالٍ . وَلِيٌّ : صَارُوا لِيَا . آلٌ : سَاسَ ، أَيُّ صَارِيَسُوسَ
النَّاسِ ، أَيُّ يَكُونُ عَلَيْهِمْ أَمِيرًا ، قَالَ هَرَجَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَلْنَا وَإِلِيلَ عَلَيْنَا .
رِفْدٌ : وَهَبَ الرِّفْدَ . أَنَالُ : أَعْطَى التَّيِيلَ وَالتَّنَوَالَ ، يُقَالُ : مِنْهُ نَالُهُ وَأُنَالَتْهُ .
وَصَلٌ : أَعْطَى صِلَةً ، وَالتَّرْفَدُ وَالتَّنَوَالَ : الْعِطَاءُ . وَالْإِبَالَةُ : السِّيَاسَةُ ، آلُ الْأَمِيرِ
رِعِيَّتُهُ أَحْسَنُ سِيَاسَتِهِمْ ، وَآلُ مَالِهِ يُوَلُّهُ : أَصْلَحُهُ . صَالٌ : بَطَّشَ وَهَدَّدَ ، وَصَالٌ

(١) لَمْ أَجِدْهُ فِي دِيْوَانِ طَرْفَةِ ، وَالْبَيْتُ فِي اللِّسَانِ (حَمِي) ، وَنُسِبَهُ مَعَ بَيْتِ قَبْلِهِ إِلَى
كُتُبِ بْنِ سَعْدِ الْقَنْوَى .

الفعل : هَدَرَ في قطيعه . الجوائح : المصائب . تَسَحَّت : تستأصل الأموال .
 تنحَّت : تنجر وتأخذ . النوائب : النوازل . الوكر : قعر المنزل : صِفَر : خالية
 من الدرَاهم . الشَّعَارِ : اللباس : يتضاغون : بصيغون ، والضَّغَاء صياح الذئب
 إذا جاع ، والضَّغَاء : البكاء بذلَّ وخشوع . الطَّوَى : الجوع . مصاصة : ما يمسّ
 منه . الشائن : العائب صاحبه . شَقِيت : أدركني الشقاء . لُغِيت : أصابتنى
 لقوة . تَأَوَّه : توجع ، وقال أَوْه . الأسيف : الحزین .

* * *

أشكو إلى الرَّحْمَنِ مُبْحَانَهُ تَقَلَّبَ الدَّهْرُ وَعُدْوَانُهُ
 وحادثاتٍ قَرَعَتْ مَرْوَتِي وَقَوَّصَتْ مَجْدِي وَبُنْيَانَهُ
 واهْتَصَرَتْ عُودِي وَيَأْوِيلَ مَنْ
 تَهْتَصِرُ الْأَحْدَاثُ أَغْصَانَهُ

وَأَحْمَلْتُ رَبْعِي حَتَّى جَلَّتْ مِنْ رَبْعِي الْمَجْلِ جِرْدَانَهُ
 وغادرني حائرًا بائسًا أَكْبَدُ الْفَقْرَ وَأَشْجَانَهُ
 من بَعْدِ مَا كُنْتُ أَخَاثِرُوهُ
 يَسْحَبُ فِي النُّمَةِ أُرْدَانَهُ

يَخْتَبِطُ الْعَافُونَ أَوْرَاقَهُ وَيَحْمَدُ السَّارُونَ نِيرَانَهُ
 فَأَصْبَحَ الْيَوْمَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ أَعَانَهُ الدَّهْرُ الَّذِي عَانَهُ
 وَاذْوَرَّ مَنْ كَانَ لَهُ زَائِرًا !
 وعاف عافِي المَرْفِ عِرْفَانَهُ

فهل فتى يحزنه ما يرى من ضر شيخ دهره خانه
 فيفرج الهم الذي هم — ويصلح الشأن الذي شأنه

* * *

عدوانه : ظلمه . قومت مروتى : ضربت صخرتى ، وأراد بها نفسه .
 قوتت : نفقت وهدمت . اقتصرت : كسرت وحتقت ، وهضر الفصن :
 تعطله وانحناؤه ، وضرب بالمرّة والعود أمثالا وهو يريد جسده وماله . أمحلته :
 جعلته محلاً . جلت : طردت . المدحل : الذى لا نبات فيه ولا رزق . جردانه :
 فترانه ، وقد تقدّم فائدة هذا المعنى . بأرا : هالكا . أكابد : أقامى . أشجانه :
 أحزانه . أخاثره : صاحب غنى . يسعب . يجر . أردانه : أذباله . يخبط :
 يطلب . المافون : الطالبون للرزق ، وخبطت الورق : ضربتها بالمصا ، فتسقط
 فتعلمها الإبل ، فيضرب بها المثل لمعطية الكريم ، وأنشد زهير^(١) :

وليس مانع ذى قربى وذى رحم^(٢) يوما ولا معدما من خابط ورقا

السارون : الماشون بالليل . عانه : أصابه بالعين . ازور : انقبض . عاف :
 كره . عافى العرف : طالب المعروف . عرفانه : معرفته . همته : أذابه .
 وشانه : عابه .

[من كلام الأعراب]

ومن كلام العرب فى هذا الباب، ما حكى الأصمعى رحمه الله: أن الأعراب
 أصابهم سنوات كثيرة جذبة ، فدخلت طائفة منهم البصرة وبين أيديهم
 أعرابى يقول : أيها الناس ، إخوانكم فى الدين ، وشركاؤكم فى الإسلام ،

(١) ديوانه : ٥٢ .

(٢) الديوان : « وذى نسب » .

عابرو سبيل وفلال يؤس ، وصَرَعى جَدْب ، تنابعت علينا سنون ثلاث غيَرت
النَّعم ، وأكلت النَّعم ، فأكلنا ما بقي من جلودها فوق عظامها ، فلم نزل نملأ
بذلك نفوسنا ، ونمَتَّى بالغيث قلوبنا ، حتى عاد مختاراً ، وعاد إشرافنا ظلاماً ،
فأقبلنا إليكم بصَرَعتنا الوعر ، وينشكينا السهل ، وهذه آثار مصائبنا لأئمة في
فَسْمَانِنَا . فرحم الله متصدِّقاً من كثير ، أو مواسياً من قليل ، فلقد عظُمت
الحاجة ، وكسِفَ البال ، وبلغ المجهود ، والله يجزى للمتصدِّقين .

وقف أعرابي على حلقة يونس النحوي ، قال : الحمد لله ، وأعوذ به أن
أذكَّرك به وأنساه ، إنا أناس قد قدمنا هذه المدينة : ثلاثون رجلاً ، لاندفن ميتاً ،
ولا نتحول عن منزل ، وإن كرهناه ، فرحم الله عبداً تصدَّق على ابن سبيل ،
ونصَّو طريق ، وفلَّ سنة ، فإنه لا قليل من الأجر ، ولا غنى عن الله . ولا عمل
بعد الموت ، يقول الله تعالى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ
بَعْدَ ذَلِكَ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَقْرِضُ مِنْ عَوَرٍ ، وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ أَخْبَارَ عِبَادِهِ .

قال الأصمعي رحمه الله : وقف أعرابي علينا ، فقال : تنابعت علينا سنون ، بتغيير
وانتقاص ، فما تركت لنا ضيماً ولا رَيْماً^(١) ، ولا نافطة ولا عافطة^(٢) ، ولا ناغية
ولا راغية^(٣) ، فأمانت الغرر وأفنت الزرع ، وعندكم من فضل الله نعمة فأعينوا
مِنْ عطية الله إياكم ، وارحموا أبا أيتام ، وأنضاء زمان ، فلقد خلَّفت أبقوا
لا يمرضون مريضهم ، ولا يكفون ميتهم ، ولا ينتقلون من المنزل وإن كرهوه ،
ولقد مشيت إليكم حتى انتعلت القدماء ، وجُعت حتى أكلت النوى المحرقة .

وقفت أعرابية على عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فقالت :

(١) الضيع جمع ضيعة ، وهي المقار . والريح : سبيل الوادي من كل مكان مرتفع .

(٢) العافطة : النجعة ، وكذلك النافطة .

(٣) النغاء : صوت الغنم ، والرغاء : صوت البعير أو الذقة .

إِنِّي أَتَيْتُ مِنْ أَرْضِ شَاسِعَةٍ ، تَهْبِطُ هَابِطَةً ، وَتَرْفَعُ رَافِعَةً ، فِي مَلَحَاتٍ مِنْ
الْبِلَالِيَا ، بَرَيْنَ لَحْيٍ ، وَهَضْنٍ عَظْمِي ، وَتَرْكَنِي وَالْمَةَ ، وَقَدْ ضَاقَ بِي الْبَلَدُ ،
بَعْدَ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ ، وَكَثْرَةِ الْعَدَدِ ، لَا قَرَابَةَ تَوْوِينِي ، وَلَا عَشِيرَةَ تَحْمِينِي .
فَسَأَلْتُ أَحْيَاءَ الْعَرَبِ : مَنْ الرَّتْجِيُّ سَيِّبُهُ ، لِلْأُمُونِ عَيْبُهُ ، السَّكْثِيرُ نَائِلُهُ ، لِلْكَفَى
سَائِلُهُ ، فَذَلَّلْتُ عَلَيْكَ ، وَأَنَا امْرَأَةٌ مِنْ هَوَازَنَ ، فَقَدْتُ الْوَالِدَ وَالرَّافِدَ ، فَاصْنَعْ
فِي أَمْرِي وَاحِدَةً مِنْ ثَلَاثٍ : إِمَّا أَنْ تَحْسِنَ صَفْدِي ، وَإِمَّا أَنْ تَقِيمَ أُودِي^(١) ،
وَإِمَّا أَنْ تَرُدَّنِي إِلَى بَلَدِي ، فَقَالَ : بَلْ أَجْمَعَنَّ لَكَ فَعْلًا بِهَا ذَلِكَ .

خَرَجَ الْمُهَدِّيُّ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ بَعْدَ هَذِهِ مِنَ اللَّيْلِ ، فَسَمِعَ أَصْرَابِيَّةً مِنْ جَانِبِ
الْمَسْجِدِ ، وَهِيَ تَقُولُ : قَوْمٌ مَتَّظِلَمُونَ ، نَبَتْ عَنْهُمْ الْعِيُونَ ، وَفَدَحَتْهُمْ الدُّبُونُ ،
وَهَضَّتْهُمْ السُّتُونُ ، بَادَتْ رِجَالُهُمْ ، وَذَهَبَتْ أَمْوَالُهُمْ ، أَبْنَاءُ سَبِيلٍ ، وَأَنْصَاءُ
طَرِيقٍ ، وَصِيَّةُ اللَّهِ وَوَصِيَّةُ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَهَلْ مِنْ أَمْرٍ بِخَيْرٍ كَلَامُهُ
اللَّهُ فِي سَفَرِهِ ، وَخَلَّفَهُ فِي أَهْلِهِ فَأَمَرَ لَهَا مِخْسَمَاتَهُ دَرَاهِمَ .

وَمَا جَاءَ فِي ذِمِّ السُّؤَالِ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَأَنْ يَأْخُذَ
أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَحْتَطِبَ فِيهِ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ دَجَلًا أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ،
فَيَسْأَلُهُ ؛ أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ » .

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ فَتَحَ عَلَى نَفْسِهِ بَابًا مِنَ السُّؤَالِ ، فَتَحَ اللَّهُ
عَلَيْهِ سَبْعِينَ بَابًا مِنَ الْفَقْرِ » .

وَقَالَ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِي : كُلُّ سُّؤَالٍ وَإِنْ قَلَّ أَكْثَرُ مِنْ كُلِّ نَوَالٍ
وَإِنْ جَلَّ .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : الْمَسَاكِينُ لَا يَعُودُونَ مَرِيضًا ، وَلَا يَشْهَدُونَ
جَنَازَةً ، وَلَا يَحْضُرُونَ جُمُعَةً ، وَإِذَا اجْتَمَعَ النَّاسُ فِي أَعْيَادِهِمْ وَمَسَاجِدِهِمْ يَسْأَلُونَ

(١) الصَّدَقَةُ : الْإِعْطَاءُ . وَالْأُودَى : الْإِهْوَاجُ .

الله من فضله ، اجتمعوا يسألون الناس ما بأيديهم .

سأل سائل بمسجد الكوفة فلم يُعْطَ شيئاً ، فقال : اللهم إنك بحاجة عالم لا تعلم ، أنت الذي لا يعوزك نائل ، ولا يلحقك سائل ، ولا يبلغ مدحك قائل ؛ أسألك صبراً جميلاً ، وفرجاً قريباً ، وبصراً بالهدى ، وقوة فيما تحب وترضى . فتبادروا إليه بالعطية ، فقال : لا والله لا أرزؤكم الليلة شيئاً ، ثم خرج وهو يقول :

ما نال باذلٌ وجهه بسؤاله عوضاً ولو نال الغنى بسؤال
وإذا القوال مع السؤال وزنته رجح السؤال ، وخف كل نوال
وإذا بليت يبذل وجهك سائلاً فابذله للمسكرم المفضل
وقال بعض الأدباء : الخذول من كان له إلى اللثام حاجة .

وأنشد الجاحظ في نواره لأهرابي :

سير الأنواع بالقيمة في الضحى يمشى الدليل بها على بلبال
خير من الطمع الذي ومجلس بفناء لا طلق ولا مفضل
فأبئت حوائجك لليلك فإنه يفنيك قبل تخشع بسؤال

* * *

قال الراوى : فصبت الجماعة إلى إن تستثبته ، لتستنجش خبائثه ، وتستنفض حقيقته ، فقالت له : قد عرفنا قدر رببتك ، ورأينا در مزنيتك ؛ فعرّفنا دوحه شعبتك ، واخسر اللثام عن نسبتيك . فأعرض إغراض من مني بالإغنائ ، أو بشر بالبنات ، وجعل يلعن الغرورات ، ويتأفف من تغيض المروءات . ثم أنشد بلفظ صادع ، وجرس خادع :

لَعَمْرُكَ مَا كُلَّ فَرْعٍ يَدُلُّ جَنَاهُ اللَّذِيذِ عَلَى أَصْلِهِ
فَكُلَّ مَا حَلَاحِينَ تَوَاتَى بِهِ وَلَا تَسْأَلِ الشَّهْدَ عَنْ نَحْلِهِ
وَمِيزَ إِذَا مَا اعْتَصَرْتَ الْكَرُومَ
سُلَافَةَ عَصْرِكَ مِنْ خَلِّهِ
لِتُغْلِي وَتُرْخِصَ مِنْ خَبْرَةٍ وَتَشْتَرِيَ كَلًّا شِرًّا مِثْلَهُ
فَعَارُهُ عَلَى الْقَطَنِ اللَّوْذَعَى دُخُولُ الْغَمِيزَةِ فِي عَقْلِهِ

* * *

قوله : تَسْتَنْبِئُهُ : تَحْقُقُ مَنْ هُوَ . تَسْتَنْجِشُ ، تَسْتَخْرِجُ ، وَالتَّجَشُّسُ :
استخراج الشيء المجهول المستور . وقيل : تنفير الوحش ، وهو من الأول ، لأنَّ
تنفير المطمئن كإظهار السكامن . خُبَاتُهُ : سِرُّهُ الَّذِي أَخْبَرَهُمْ بِظَاهِرِهِ حَيْثُ
قَالَ : كَيْتُ وَكَيْتُ .

الحقيمية : وعاء يعلِّقُهُ الرَّجُلُ خَلْفَ رِجْلِهِ ، يجعل فيه ما يميز عليه بما يحتاج
أن يتناوله متى شاء ، وأراد بها هنا موضع سِرِّهِ . تَسْتَنْفِضُ : تَنْتَرُ مَا فِيهَا .
رَبْتِكَ : قَدْرُكَ وَمَنْزِلَتُكَ . دَرَمُزُتُكَ : مَا سَعَابَكَ ، وَأَرَادَ مَا أَبْدَى لَهُمْ
مِنَ الْبَلَاغَةِ . دَوْحَةٌ : شَجَرَةٌ . شَعْبَتُكَ : فَرْعُكَ وَغَصْنُكَ . أَخِيرَ : أَزَلِ
وَإِكْشَفَ . اللَّثَامُ : مَا يُجْعَلُ عَلَى الْأَنْفِ وَالْقَمِّ ، يَرِيدُ هَرَفْنَا أَصْلَكَ ، وَمَنْ أَيْنَ
أَنْتَ . مُنَى : بُلَى . الْإِعْنَاتُ : الْمَشَقَّةُ ، وَعَنْتُهُ وَأَعْنَتُهُ : كَلَفَتُهُ مَا يَشُقُّ عَلَيْهِ .
وَبُشِّرَ بِالْبَنَاتِ : أَخْبِرَ بَوْلَادَتِهِنَّ ، وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ مَنْ بُشِّرَ بِالْأُنثَى
خَلَّ وَجْهُهُ مَسْوُودًا وَهُوَ كَظِيمٌ ، يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ . وَقَدْ
تَقَدَّمَ وَأَدَّ الْبَنَاتِ وَهُوَ دَسْتَنٌ فِي التَّرَابِ .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم من طريق عقبة بن عامر : « لا تَكْرَهُوا البنات فإنهنّ المؤمنات الغاليات » . وقال عليه الصلاة والسلام « أَحَبُّوا البنات ، فَإِنِّي أَنَا أَبُو البنات » ، وَإِنَّ الرجلَ إِذَا وَلَدَتْ لَهُ ابْنَةً هَبَطَ إِلَيْهَا مَلَكٌ فَمَسَحَ عَلَى ظَهْرِهَا ، وَقَالَ : ضَعِيفَةٌ خَرَجَتْ مِنْ ضَعِيفٍ ، مَنْ أَعَانَ عَلَيْكَ لَمْ يَزَلْ يَصَابُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

قوله : يتأفف ، يقول : أب أف ، وهو من فعل المهموم الملهوف . تنقيض المروءات : ذهاب الأفعال الحسان . صاعد : شديد يشقّ الأذن . جرس : صوت . جنّاه : ما يجتنى منه . الشهد : العسل ، أى كل العسل ، ولا تسلم من الفعل التى صنعته ، ولا من أين هو ، ضربه مثلاً لترك سؤالهم عنه ، إِذَا أَقَادِمَ . سُلَافَةٌ : فخر لم تُعَصِّرَ . عصرك : تعصيرك . خبيرة : معرفة وتجربة . الْوُذَاعِيّ : الذى كُنِيَ . التّغْمِيزَةُ : ضعف التدبير والنظر ، لأنّ الذى لا يحسن التدبير ، والنظر إِذَا سَقَطَ غَرَزَهُ النَّاسُ وَهَابُوهُ .

* * *

قال : فَازْدَهَى الْقَوْمَ بِذَكَائِهِ ، وَاخْتَلَبَهُمْ بِمُحْسِنِ أَدَائِهِ مَعَ دَائِهِ ، حَتَّى جَمَعُوا لَهُ خَبَايَا الْخَلِيقِ ، وَخَفَايَا الثُّبَنِ ، وَقَالُوا لَهُ : يَا هَذَا ، إِنَّكَ مُنَحْتَمٍ عَلَى رَكِيئَةٍ بَكِيئَةٍ ، وَتَعَرَّضْتَ إِخْلِيئَةٍ خَلِيئَةٍ . فَخَذَ هَذِهِ الصَّبَابَةَ ، وَهَبَهَا لَا خَطَأَ وَلَا إِصَابَةَ .

فَنَزَلَ قَلَمُهُمْ مَنَزَلَةَ الْكَثْرِ ، وَوَصَلَ قَبُولُهُ بِالشُّكْرِ . ثُمَّ تَوَلَّى يَجْرُ شِقُّهُ ، وَيَنْهَبُ بِالْخَبِطِ طُرُقَهُ .

قال المخبرُ بهذه الحكاية : فَصُوِّرَ لِي أَنَّهُ مُحْمِلٌ لِعَلِّيَّتِهِ .

مَتَصَنِّعٌ فِي مِشِيَّتِهِ . فَهَضْتُ أَنَهْجُ مِنْهَاجِهِ ، وَأَقْفُو أَذْرَاجَهُ ؛
وَهُوَ يَلْحَظُنِي شَرْزًا ، وَيَوْسِعُنِي هَجْرًا ؛ حَتَّى إِذَا خَلَا الطَّرِيقَ ،
وَأَمَّ بَكْنَ التَّحْقِيقِ ، نَظَرَ إِلَى نَظَرٍ مِنْ هَشٍّ وَبَشٍّ ، وَمَا حُضَّ
بَعْدَ مَا غَشَّ ، وَقَالَ : إِنِّي لِإِخَالِكَ أَخَا غُرْبَةٍ ، وَرَائِدَ صُحْبَةٍ ؛
فَهَلْ لَكَ فِي رَفِيقٍ يَرْفُقُ بِكَ وَيُرْفِقُ ، وَيَنْفُقُ عَلَيْكَ وَيُنْفِقُ ؟
فَقُلْتُ لَهُ : لَوْ أَتَانِي هَذَا الرَّفِيقُ لَوَاتَانِي التَّوْفِيقُ . فَقَالَ لِي :
قَدْ وَجَدْتَ فَاغْتَبِطْ ، وَاسْتَكَرَّمْتَ فَارْتَبِطْ .

* * *

ازدحمي : دعام إلى الزهو والإعجاب به . ذكائه : حدة ذهنه . اختل بهم :
خدعهم . الخنن : أطراف الثوب ، كالكم وغيره ، والثُّبْنُ : أطراف الرداء
وشبهه ، والْخُبْنَةُ في الثوب الخيط ، وقد خبفته عطفته وكففته بالخياطة ، وقيل :
الْخُننُ القبض ، والْخُبْنَةُ لما يلي من حُجْزَةِ السراويل والإزار ، والجمع خُبْنٌ ،
والتُّبْنَةُ ما يلي الظهر من السراويل والإزار . نُحِتَ : حُلِقَتْ . رَكِيَّةٌ : بئر . بكية :
قليلة الماء . خلية : جَبِيع النحل حيث كان من حجر أو شجر ، وقيل الخلية
الخشب المنقورة لها خاصة ، والخلية في غير هذا السفينة ، فشَبَّتْ خلية النحل بها .
خلية : فارغة ، العُبابَة : الشيء القليل إذا أخذ منه بكثرة . الخبط : أراد به أخذ
الأموال بالسؤال ، يقال : خبطت الشجرة خبطاً ، نفضت ورقها ، أراد أنه كان
يحرث جانبه الممل ، فكل من مرة به وسأله رحمه . محيل : مغير . حليته : خلقته
وصفاته . نهضت : تقدمت للمشي . أنهج منهاجه : أمشي في طريقه . أقفو
أدراجه : أتبع آثاره . يلحظني : ينظرني .

شزرًا ، أي في جهة بمؤخر عينه . قال ابن الأنباري : نظر إلى شزرًا ، أي
نظر إلى من جانب عينه من شدة العداوة والبغضاء ، يقال : شزر يشزر ، إذا نظر

من جانب ميمنه من العداوة أو من الفرق . ويوسعني هجرأ ، أى يكثر تجنبني ومباعدتي . هش : خف واهتز . بش : حسن اللقاء ، ويقال : بش فلان بفلان ، إذا سر به وفرح وانبطأ إليه ؛ ويقال : تبشش به بمعنى بش به ، والبشاشة والمشاشة العਲاقة والتبشش . ماحض : أخلص ودّه . غش : ضد أخلص ، ويقال : غشه ، أى عمل فيما يحبه شيئاً قليلاً وخلطه بما يسوءه ، أخذ من النشش ، وهو الشراب السكر . إخالك : أحسبك . رائد : طالب . يرفق بك : يلاطفك ويكون بك رفيقاً . يرفق : يوليكَ مراقبة ، أى يمينك بماله حتى يجد معها الرفق . لوانانى : لواقفنى . اغتبط ، أى كن به مقتبطاً أى محبباً في بقائه ، والغبطة : حسن الحال . استكرمت فارتبط ، أى اتخذت كريماً ، وجاء هذا اللفظ في حكاية ذكرها أبو على ، وهى أن فتى من العرب جاء إلى أمه ، وقد عميت فقال لها : يا أمه ، إني اشتريت فرساً ، فقالت : صفه لى ، قال : إذا استقبل فظني ناصب ، وإذا استدبر فمقل^(١) . هاضب ، وإذا استعرض فسيد^(٢) . قارب ، موالى المسمعين ، طامح الناطرين ، مدعاق الأطباء ، قالت : أجدت إن كنت أعربت ، قال : إنه مشرف التليل ، سبط الخصيل ، وهواه الصهيل ، قالت : أكرمت فارتبط^(٣) .

...

ثم ضحك ملياً ، وتمثل لى بشراً سويّاً ؛ فإذا هو شيخنا السروجى ، لا قلمبة بجسمه ، ولا شبهة فى وسمه ؛ ففرحت بلقائه ، وكذب لقوته ، وهممت بعلامته ، على سوء مقامته ، فشحا فاه ، وأنشد قبل أن الحاه :

ظَهَرْتُ بِرَثٍ كَيْمًا يَقَالُ فَقِيرٌ يُزَجِّى الزَّمَانَ الْمَزَجِّى

(١) الهقل : الفتى من النعام ، والهضب : نوم من السير .

(٢) السيد : الذئب ، والقرب : نوم من السير .

(٣) بجم الأمثال ٢ : ١٤١

وَأُظْهِرْتُ لِلنَّاسِ أَنْ قَدْ فُلِحْتُ

فَكَمَّ نَالَ قَلْبِي بِهِ مَا تَرَجَّى

وَلَوْلَا الرِّمَانَةُ لَمْ يُرْتَلَى وَلَوْلَا التَّفَالُجُ لَمْ أَلْقَ فُلْجًا

نَمَّ قَالَ : إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ لِي فِي هَذِهِ الْأَرْضِ مَرْتَعٌ ، وَلَا فِي أَهْلِهَا
مَطْمَعٌ ؛ فَإِنْ كُنْتَ الرَّفِيقُ ، فَالطَّرِيقَ الطَّرِيقَ . فَسِرْنَا مِنْهَا
مُتَجَرِّدِينَ ، وَرَافِقَتُهُ عَامِنِينَ أَجْرَدِينَ . وَكُنْتُ عَلَى أَنْ أَصْحَبَهُ
مَا عِشْتُ ، فَأَبَى الدَّهْرُ الْمُسْتِ .

قوله : مَلِيًّا ، أى طويلاً . قُلْبَةً : مِثْلَةً . قَالَ الْكِسَائِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : مَا بِهِ قُلْبَةٌ ،
أَى شَيْءٌ يَقْلَعُهُ فَيَنْقَلِبُ مِنْ أَجَلِهِ عَلَى فِرَاشِهِ لِنَفْسِهِ . وَقَالَ الْفَرَّاءُ رَحِمَهُ اللَّهُ : مَا بِهِ
مِنْ وَجَعٍ يُخَافُ عَلَيْهِ مِنْهُ ، مِنْ قَوْلِهِمْ : قُلْبَةُ الرَّجُلِ إِذَا أَصَابَهُ وَجَعٌ فِي قَلْبِهِ ،
فَلَا يَكَادِ يَنْقَلِبُ مِنْهُ . قَالَ الْأَصْمَعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : مَعْنَاهُ مَا بِهِ دَاءٌ ، مَا خُوِذَ مِنَ الْقُلُوبِ ،
وَهُوَ دَاءٌ يَصِيبُ الْإِبِلَ فِي رِمْسِهَا فَيَقْلَعُهَا إِلَى فَوْقِ . شَبْهَةٌ : التَّبَاسُ وَتَغْيِيرُ . وَسَمَهُ :
صِفَاتِهِ . اللَّفْقِيَّةُ : الْمَرَّةُ الْوَاحِدَةُ مِنَ الْقَاءِ . وَقَالَ فِي الدَّرَّةِ (١) : الْعَرَبُ يَقُولُ :
لَقِيَّةٌ وَلِقَاءَةٌ وَلِقَايَةٌ ، إِذَا أَرَادُوا لِلْمَرَّةِ الْوَاحِدَةِ ، فَإِنْ أَرَادُوا الْمَصْدَرَ ، قَالُوا : لَقِيَّتَهُ لِقَاءً
وَلَقَى وَلَقِيًّا ، هَذَا وَأُنْشِدُ :

وَأِنْ لِقَاهَا فِي الْمَنَامِ وَغَيْرِهِ وَإِنْ لَمْ تَجِدْ بِالْبَدَلِ عِنْدِي لِرَاجِحٍ

وَحُطَّاءُ مَنْ يَقُولُ : لَقِيَّتَهُ لِقَاءَةً وَاحِدَةً ، وَأَغْفَلُ أَنْ سَبَّوْهُ قَالُوا فِي كِتَابِهِ :
أَنْبَيْتُهُ إِنْ بَانَتْ ، وَلَقِيَّتَهُ لِقَاءَةً وَاحِدَةً .

والقوة : استرخاء القوى وهَوَجِه . مقامته : مجلسه القى كدى به
شَحَافَه : فتحة قال جرير :

وَضَعَ الخَزِيرَ قَيْلَ أَيْنَ مجامع فشعا جعافِلَه جُرَافَ هَبْلَع^(١)
الخزير ، ينقطع الخاء ثم زاي : دقيق يلبك بشغف ، وجراف الشيء سخونة .
أَلْهَاءُ : ألومه . يَزْجِي : يسوق . المزجي : اللليل الخير ، وهذا كما قال : لبست
الخميصه أبني الخبيصة . فُلَجْتُ : أصبت بفالج . الرثانة : سوء الحال . التفالج : استعمال
الفالج ، وهو خَدَرٌ يصيب الجلد . فُلَجًا : فوزا وظفرا . مَرْتَعٌ : موضع يرعى فيه .
مُنَجَّرِدَيْنِ : مُشْرَعَيْنِ ، وانجرد الرجلُ في سيره ، إذا جَدَّ في الذهاب . أجردين :
تامين كاملين ، وسرتُ يوما وشرأ وحولا أجرد ، وجريداً أى تاما ، قال
سويد بن كراع :

وَجَشَمَنِي خَوْفُ ابْنِ عَفَانَ رَدَّمَا فَنَقَقْتُهَا حَوْلَا جَرِيدَا وَمَرَبَمَا^(٢)
للشت : المفرق .

المقامة الرابعة والثلاثون وتعرف بالزبيدية

أخبر الحارث بن همام ، قال : لما جبتُ البيدَ إلى زبيد ،
صحبتني غلامٌ قد كنت ربيته إلى أن بلغ أشده ، وثقفته حتى
أكمل رُشدَه .

وكان قد أنسَ بأخلاقى ، وخبرَ مجالِبَ وفَاقى ؛ فلم يكن
يتخطى مرامى ، ولا يُخطئُ في المرامى ؛ لا جرم أن قُربَه
التأطت بصفري ، وأخلصته لخصري وسفري ، فالوى به الدهرُ
المبيدُ ، حين ضُمَّتْنا زبيد .

* * *

جُبت : قطعت . البيد : الصحارى .

زبيد : بلدة باليمن بينها وبين صنعاء أربعون فرسخا ، وليس في اليمن بعد
صنعاء أكبر منها ، ولا أغنى من أهلها ، ولا أكثر خيرا ، واسعة البساتين ،
كثيرة المياه والقواكه من الموز وغيره ، وهى برية لا ساحلية .
وبلغ أشده : أى بلغ الحلم ، وقيل ثلاثين سنة . قال الأزهري رحمه الله تعالى :
الأشد في كتاب الله تعالى على ثلاث معان : أما قوله تعالى في قصة يوسف عليه
السلام ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾^(١) فبلوغه مبلغ الرجال ، وكذا
في اليتيم ، حكمه أن يحفظ عليه ماله حتى يبلغ أشده ، وبلوغه أشده أن يؤنس
الرشد منه مع أن يكون بالغا .

وأما قوله تعالى في قصة موسى عليه الصلاة والسلام ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾^(١) فقرن بلوغ الأشد بالاستواء وهو أن تجتمع قوته ، ويكتمل وذلك من ثمان وعشرين إلى ثلاث وثلاثين سنة ، وذلك منتهى الشباب . وأما قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾^(٢) فهي نهاية بلوغ الأشد ، وعندها بعث محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد اجتمعت حكمته وتمام عقله ، فبلوغ الأشد محصور البداية محصور النهاية ما بين ذلك .

تفقه : قوته وحذقته . خير : أى جرب وعرف . مجالب وفاق : أى عرف من أين يجلب ما يوافقنى . يتخطى : يتجاوز . مراعى : مرادى ومقصدى . لاجرم ، أى لا محالة ولا بد ، ثم صارت بمعنى حقاً . قُرْبَةً : ما يُتَقَرَّبُ به إلى من الميزة . التاطت : لصقت . بصفري : بنفسى وقلبى ، والصَفَرُ دود فى البطن ، إذا جاع الإنسان عَضَّتْ شراسيفه ، وهى رقيق البطن ، قال أعشى باهلة :

* وَلَا يَمُضُّ عَلَى شُرُوفِهِ الصَّفَرُ *^(٣)

فيريد أن هذا الغلام مهذب يأتى بمحاولاته على الوفاق ، ويقرب الطعام من مولاه وقت الحاجة ، ومن حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « نِعْمًا لِّلْمَمْلُوكِ أَنْ يَتَوَفَّاهُ اللَّهُ ، بِحَسَنِ عِبَادَةِ رَبِّهِ ، وَطَاعَةِ سَيِّدِهِ نِعْمًا لَهُ » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إِذَا نَصَحَ الْعَبْدُ لِسَيِّدِهِ وَأَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ فَلَهُ أَجْرَانِ » .

أخلصته : أفردته . ألقى : ذهب به وأهلكه . المبيد : المهلك . ونشد هنا أبياتا لابن الحضرى فى غلام هلك للمتوكل ببطليوس :

غالته أيدي المنايا وكنّ فى مقتلته

(١) سورة القصص ١٤ (٢) الأحقاف ١٥ (٣) الكامل ٤ : ٦٥ ، وصدره :

* لَا يَنْفَعُ السَّانَ مِنْ أَيْنٍ وَلَا وَهَبٍ *

وكان يَسْقِي الندامى بطرفه وَيَدِيَه
غُصْن دَوَى وهلالٌ جاء الكسوفُ عليه

وَيُسْتَحْسَن لابن همام أن ينشد في وصف هذا الغلام :

حين نَمَتْ آدَابُهُ وتردَّى برداه من الشَّبَابِ جَدِيدِ
وسقاه ماء الشَّبِيبة فاهْتَزَّ اهْتِزَازَ الغصنِ التَّدِيءِ الْأَمْلُودِ
وسمى نحوه العيون وما كَانَ عَلَيْهِ لَزَائِدٍ من مَزِيدِ
وكأَنِّي أدعوه وهو قَرِيبٌ حين أدعوه من مكان بعيدِ
وأنشد بعضهم :

نأى آخر الأيام عنك حبيبٌ فللمعين سَحَّ دائمٌ وغروب^(١)
كأن لم يكن كالغصنِ في مَيْعَةِ الضُّحَى

سقاه الندى فاهْتَزَّ وهو رطوبٌ
وريمان صدرى كان حين أَشْمُهُ ومونس قَصْرِى كان حين أُغِيبُ
وكانت يدي ملآنة ثم أصبحتُ بِحَمْدِ إلهى وهى منه سَلِيبُ

* * *

فَلَمَّا شَالَتْ نَعَامَتُهُ ، وَسَكَنْتْ نَأْمُتُهُ ، بَقِيَتْ عَامًا ،
لَا أَسِيغَ طَعَامًا ، وَلَا أُرِيغُ غُلَامًا ، حَتَّى أَجْلَأَتْنِي شَوَائِبُ الْوَحْدَةِ ،
وَمَتَاعِبُ الْقَوْمَةِ وَالْقَعْدَةِ ؛ إِلَى أَنْ أَعْتَاضَ عَنِ الدُّرِّ الْخُرْزَ ،
وَارْتَادَ مَنْ هُوَ سِدَادٌ مِنْ عَوَزٍ ؛ فَقَصَدْتُ مَنْ يَبِيعُ الْعَبِيدَ ،
بِسُوقِ زَيْدٍ ، فَقُلْتُ : أُرِيدُ غُلَامًا يُعْجِبُ إِذَا قُلِّبَ ، وَيُحْمَدُ

(١) لإبراهيم بن المهدي يرثى ابنه ، وهى قصيدة وردت فى الكامل ٤ : ٢٣ - ٢٥ ،
ومنها هذه الأبيات .

إِذَا جُرَّبَ ؛ وَلِيَكُنْ يَمُنْ خَرَجَهُ الْكَيَّاسُ ، وَأَخْرَجَهُ إِلَى
السُّوقِ الْإِفْلَاسِ ؛ فَاهْتَزَّ كُلُّ مِنْهُمْ لِمِطْلَبِي وَوَتَبَ ، وَبَذَلَ
تَحْصِيلَهُ عَنْ كَشَبَ . ثُمَّ دَارَتْ الْأَهْلَةُ دَوْرَهَا ، وَتَقَلَّبَتْ
حَوَازِهَا وَكَوْزَهَا ، وَمَا نَجَزَ مِنْ وَعُودِهِمْ وَعَدُّ ، وَلَا سَحَّ لَهَا
رَعْدُ .

فَلَمَّا رَأَيْتُ النَّخَاسِينَ ، نَاسِينَ أَوْ مُتَنَاسِينَ ، عَلِمْتُ
أَنْ لَيْسَ كُلُّ مَنْ خَلَقَ يَفْرِي ، وَأَنْ لَنْ يَحْمُكَ جِلْدِي مِثْلُ
ظُفْرِي . فَرَفَضْتُ مَذْهَبَ التَّفْوِيضِ ، وَبَرَزْتُ إِلَى السُّوقِ
بِالصُّفْرِ وَالْبَيْضِ .

• • •

شالت نعماته ، أى ارتفع نمشه . ويقال فى المصلوب : شالت نعماته ، أى
ارتفعت خشبته ، وشالت نعمة القوم ، أى ولّوا منهزمين ، وهو مِثْلُ يُفْرَبُ
لِلْإِهْزَامِ وَلِلْهَلَاكِ وَلِتَفَرُّقٍ . وَأَنْشَدَ الشَّاعِرُ :

تَلَقَى خِصَامَةً بَيْنَنَا أُرْمَاخُنَا شَالَتْ نِعْمَةً أَبْنَا لَمْ يَفْعَلْ

بِمُخَاطَبِ أَعْدَاءِهِ وَقَدْ وَافَقَهُمْ ، يَقُولُ : هَلَمْ تَلَقَى فِي الْفُرْجَةِ الَّتِي بَيْنَنَا أُرْمَاخُنَا ،
وَنَضْرِبُ بِالسُّيُوفِ ، هَلَكَ وَانْهَزَمَ مَنْ لَمْ يَفْعَلْ ، يَدْعُو عَلَيْهِ وَيَنْسِبُ ذَلِكَ لِلنِّعْمَةِ ،
لَأَنَّ النِّعَامَ مَوْصُوفٌ بِالشُّغْفِ وَالرُّقِّ وَالشَّرَادِ . فَإِذَا قَالُوا : شَالَتْ نِعَمَتُهُمْ ،
وَحُشَّتْ نِعَمَتُهُمْ ، وَرَقَّ رَأْيُهُمْ ، فَمَعْنَاهُ إِذَا تَرَكُوا مَوَاضِعَهُمْ بِجَلَاءٍ أَوْ بِمَوْتٍ .
وَيُقَالُ : أَحَقُّ مِنْ نِعْمَةٍ ، لِأَنَّهَا تَنْشُرُ لِلطَّعَامِ ، فَرُبَّمَا رَأَتْ بَيْضَةً نِعْمَةٍ أُخْرَى
وَحَدَّثَهَا فَحَفَفَتْهَا ، وَتَنْسَى بَيْضَتَهَا ، ثُمَّ تَجِيءُ الْأُخْرَى فَتَرَى عَلَى بَيْضَتِهَا غَيْرَهَا ،
فَتَضِي لُوجُهَا ، وَإِيَّاهَا عَنِ ابْنِ مَرْزُوقٍ :

كمتاركة بيضها بالمرء وملبسة بيض أخرى جَنَاحاً^(١)

قوله الجاحظ :

وأما أبو عبيدة فقال : عَنَى الحمامة . وقال ابن الأعرابي ، بيضة الجبلد التي سار بها المثل هي بيضة النمامة التي تتركها فلا تهتدي إليها فتفسد فلا يقربها شيء . قال الراعي :

لو كنت من أحد يُهَجِّي هجوتكم
يا بنَ الرِّقَاع ولكن لست من أحدٍ^(٢)
تأبى قضاة أن ترضى لكم نسباً^(٣)
وابنا نزار فأنتم بيضة البلبل

قوله : تأمته ، أي حركته التي تنمو بحياته . وزعموا أنه القامة بوزن القامة ، عِرْقُ اليافوخ . أَسِيحُ طعاماً : اسْقَمِلُ بَلْعَهُ . أَرِيغُ غلاماً : أطلبه . السَّدَاد : اسم ما يسد به الشيء ، مثل سدّاد القارورة وهو صمامها ، وسدّاد الفقر ما يذهب ويكتفى به من المال ، وسدّاد الثغر ما يذهب خوفه من الخيل والرجال ، والسدّاد بالفتح : الإصابة في المنطق ، وقال يعقوب : السدّاد والسدّاد بمعنى واحد ، وسنعميد ذكره في أخبار العرجي .

والعوز : فقد الشيء فإنه أراد عبداً يسدّ به فقد غلامه الميت . إذا قُلبَ أي إذا قلبت خلقته وجدت كلّ جزء منها حسناً . خرّجه : حدّقه وربّاه . الأكياس : أهل الفطنة والحذق . والإفلاس : الفقر . وثب : قفز وعجل إلى

(١) ديوانه ٨٧ ، قال في شرحه : « يضرب مثلاً لمن ترك ما يجب عليه الاهتمام به والجِد فيه ، واعتقل بما لا يلزمه » .

(٢) اللسان - بيض ، والبيت الثاني في المضاف والمضروب ٤٩٦ .

(٣) اللسان : « تأبى قضاة لم تعرف لكم لباً » .

المشي . بذل : أعطى ، تَحْصِيلُهُ : وجوده وحصوله . كَثَبَ : قرب يريد أنه أعطى من نفسه القدرة على حصوله في أقرب مدة . دارت الأهلة دورها ، أى كملت الستة وكملت الأهلة فيها بالطلوع . كَوَّرَها وَحَوَّرَها : زيادتها ونقصانها ، وقد تقدم الكَوَّر والحَوَّر . نجمز : حضر . سَحَّ : أمطر .
 الفَنَاسِين : الدالّين للعبيد والدواب . ثَلَبَ : أخذ من الفَنَاس وهو الدفع ، فعنى الفَنَاسِين الذين يشترون العبيد لهدموم إلى غيرهم . ليس كلُّ مَنْ خَلَقَ يَفْرِى ، مثل ، وخالق قدّر ، يقال : خالق الصانع الجلد ، إذا قدر مايقطع منه ، وقيل : اَخْلَقَ : القَطْع ، والْفَرْى : القَطْع أيضاً ، ولكن تقديره ، فعنى المثل : ليس كلُّ من قطع شيئاً قدر مايقطع به ، ويفرّى أيضاً : يُحَسِّنُ القَطْع على جهة الإصلاح . قال زهير :

وَلَأَنْتَ تَفْرِى مَاخَلَقْتَ وَبِمَنْضُ النُّومِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِى ^(١)
 ويقال أيضاً : خالق الشيء صَنَفَهُ ، وفَرَّاه : أفسده ، وأراد ليس كلُّ الناس يحسن شراء العبيد .

قوله : لَا يَحْكُ جِلْدِي مِثْلَ ظَفْرِى هو مثل يضربُ في ترك الانتكال على الناس ، قال الإمام الشافعى رضى الله عنه :

مَاحِكٌ جِلْدَكَ مِثْلَ ظَفْرِكَ فَتَوَلَّ أَنْتَ جَمِيعَ أَمْرِكَ
 وَإِذَا قَصَدْتَ لِحَاجَةٍ فَاقْصِدْ لِمَعْرِفِ بَقَدْرِكَ
 رفضت : تركت . التفويض : أن يتكفل الرجل على غيره ويسلم أمره إليه . الصَفَرُ والبَيْضُ : الدَّانِئِدِ والْدَرَامِ .

فَإِنِّى لَأَسْتَعْرِضُ الْعِلْمَانَ ، وَأَسْتَعْرِفُ الْأَنْثَانَ ، إِذْ عَارَضَنِى
 رَجُلٌ قَدْ اخْتَطَمَ بِلِثَامِهِ ، وَقَبَضَ عَلَى زَنْدِ غُلَامٍ ، وَقَالَ :

مَنْ يَشْتَرِي مِنِّي غُلَامًا صَنِعًا
 فِي خَلْقِهِ وَخَلْقِهِ قَدْ بَرَعَا
 بِكُلِّ مَا نَطَقَ بِهِ مُضْطَلِعَا
 يَشْفِيكَ إِنْ قَالَ وَإِنْ قَلْتَ وَعَى
 وَإِنْ تُصِيبَكَ عَثْرَةٌ يَقُولُ لَهَا
 وَإِنْ تَسْنُهُ السَّعَى فِي النَّارِ سَعَى
 وَإِنْ تُصَاحِبُهُ وَلَوْ يَوْمَ رَعَى
 وَإِنْ تُقْنَعُهُ بِظُلْفٍ قَنِعًا
 وَهُوَ عَلَى الْكَيْسِ الَّذِي قَدْ جَمَا
 مَا فَاهُ قَطُّ كَاذِبًا وَلَا ادْعَى
 وَلَا أَجَابَ مَطْمَاحِينَ دَعَا
 وَلَا اسْتَجَازَنَتْ سِرًّا أَوْ دَعَا
 وَطَالَمَا أَبْدَعَ فِيمَا صَنَعَا
 وَفَاقَ فِي النَّشْرِ فِي النَّظْمِ مَعَا
 وَاللَّهِ لَوْضَنُكَ عَيْشٍ صَدَعَا
 وَصِيبَةُ أَضْحَوْا عُرَاةَ جُوعَا
 * مَا بَعَثُهُ بِمُلْكٍ كَسَرَى أَنْجَمَا *

قال: فَلَمَّا تَأَمَّلْتُ خَلْقَهُ الْقَوِيمَ ، وَحُسْنَهُ الصِّمِيمَ ، خَلَقْتُهُ
 مِنْ وَلَدَانِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ، وَقُلْتُ : مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا
 مَلَكٌ كَرِيمٌ .

• • •

استعرض: أطلب أن يُعرض على ، وعارضني: قابلني . استعريف: أطلب
 معرفة . اختطم: جعل اللثام على طرف الأنف - وهو الخُطْمُ والخُرطوم للسمكة -
 واللثام: ما كان على الأنف من النقاب . والزَّند: طرف عظم الساعد المتصل
 (٩ - شرح مقامات الحريري ج ٤)

بالكف ، فهو قد قبض على أرق موضع في الذراع . الصنَّع . الحاذق بالصناعة ،
والمرأة صَنَاع . برع : فَضَّل وفاق غيره . نُطَّت : عَلِمَتْ . مضطاماً : مكتفياً
قوياً عليه . وعى : حفظ . لماً ، كلمة تقال للماثر - يعنى : أقال الله عثرتك ، وسلمك
الله - تَسَمَّه السَّعَى : تكلفه المشى . رعى : حَفِظَ الصحبة . الظَّلَفَ لاشاة بمنزلة
الحافر للدابة . الكَيْس الحاذق . فاه : تكلم .

ثم قال : لم يدعه الظمع قط فأجابه . استجاز : استحل . نث : نشر ،
أبدع : أغرب وأنى بما لم يُسَبِّق إليه . ضنك : ضيق . صدع : كسر ، وأنشدوا
في هذا المعنى :

وقد تُخْرِجُ الحاجاتُ يا أُمَّ مالِكٍ علائقَ من ربِّ بهنٍ ضنَّينِ

خلقه التويم : المعتدل القائمة . الصميم : الخالص ، وهو فعيل ، من صم الشيء .
إذا لم يكن فيه فُرْجة ولا خلل . خِلْمته : حسبته .

[ذكر الغلمان وأخبار عشاقهم]

وننشد في هذه المقامة في الغلمان ماله سبب وتعلّق بذكر يوسف عاينه
السلام ، أو يكون الغلام مملوكاً حتى يوافق غرض المقامة .

كان شَفِيعَ غلامٍ المتوكل أحسنَ الفتيان وأظرفهم ، وكان المتوكل - يُجَنِّ -
به جنونا ، فأحبّ يوماً أن ينادم حسين بن الضحّاك ، وأزى يرى ما بقي من شهوته -
وكان قد أسن - فأحضره وسقاه حتى سَكِرَ ، وقال لشفيع : اسقه ، فسقاه وحيّاه
بوردة ، وكانت على شفيع ثياب موروثة . فدّ حسين يده إلى ذراع شفيع ، فقال
المتوكل : أتمشٍ أخصّ خديّ بمحضرتي ، فكيف لو خلوت به ! ما أحوجك
إلى الأدب ! وكان قد غمز شفيعاً على العبث به ، فدعا بدواة فكتب :

وكالوردة الحمراء حيّاً بوردةٍ من الورد يمشى في قراطق كالورد^(١)

(١) ديوانه ٤٣ ، والأغاني ٧ : ١٧١ ، وفيه : « وكالوردة البيضاء حيا بعنبر » .

له هَبْثَاتٍ عِنْدَ كُلِّ تَحِيَّةٍ بِكَفِّهِ تَسْتَدْعِي الْحَلِيمَ إِلَى الْوَجْدِ^(١)
تَمَنَيْتُ أَنْ أُسْقَى بِعَيْنَيْهِ شَرْبَةً تَذَكَّرَنِي مَا قَدْ نَسِيتُ مِنَ الْعَهْدِ
سَقَى اللَّهُ دَهْرًا لَمْ أَبْتَ فِيهِ لَيْلَةً خَلِيًّا وَلَكِنْ مِنْ حَبِيبٍ عَلَى وَعْدِ

ثم دفعها لشفيع فأعطاهما المتوكل : فاستملاهما وقال : أحسنت والله
يا حسنين ! ولو كان شفيع ممن تجوز هبته لوهبته لك ؛ ولكن بحيايتي يا شفيع
إلا كنت ساقية بقية يومنا . وأمر له بمال كثير .

وكان لأمير الدولة غلام تركي ، وكان وضىء الوجه ، منهمكا في الشراب ،
ولقرط ميل . مولاه إليه جملة رئيس سرية جردها الحرب بنى حمدان ، وكان
المهلب^(٢) يستظرفه ويستحسنه ، فقال :

ظَلِمْتُ يَرْوُقُ الْمَسَاءُ فِي وَجَنَانِهِ وَيَرْوُقُ عَوْدُهُ^(٣)
وَبِكَادُ مَنْ شَبَّهَ الْعَذَا رَى فِيهِ أَنْ تَبْدُو نَهْوُهُ
نَاطَلُوا بِمَقْعِدِ خَضْرَاهُ سَيْفًا وَمِنْطَقَةً تَقْوُدُهُ^(٤)
جَسَلُوهُ قَائِدَ عَسْكَرٍ ضَاعَ الزَّعِيلُ وَمَنْ يَقْوُدُهُ^(٥)

فسكانت الدائرة على جيش الغلام ، كما أشار إليه ، ولوغزاهم بالسلاح الذي
أمر به البغواء غلاما غازيا وهو :

يَا غَازِيَا أَنْتَ الْأَحْزَانُ غَازِيَةٌ إِلَى فُؤَادِي وَالْأَحْشَاءُ حِينَ غَزَا^(٦)
إِنْ بَارَزْتُكَ رِمَاةُ الرُّومِ فَارْمِهِمْ بِسَهْمِ عَيْنَيْكَ تَقْتُلُ كُلَّ مَنْ بَرَزَا
لَكَانَ الظَّافِرُ الْغَالِبُ .

وكان^(٧) بديع غلام عمير^(٨) للأموري أحسن خلق الله وجها ، وكان

(١) الديوان : « بعينه تستدعي الخلى » .

(٢) هو الحسن بن محمد ، من ولد قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة . له ترجمة في اليعقبة ١٠٢ : ٢

(٣) اليعقبة ٢ : ٢٠٣ ، وفيها : « يرق » (٤) يشوده أى يتقله .

(٥) الرعيل : الحيش (٦) يقيمة الدهر ١ : ٢٢٤ .

(٧) الخبر والشعر في الأغاني ٢٠ : ٥٦ - ساسى ، ومختار الأغاني ٧ : ٢٨٧ .

(٨) في المختار : « همر » .

الوزير ابن الزيات مفتوناً به ، فاجتاز عليه راكباً بألة الحرب ، فقال فيه :

راحَ علينا راكباً طِرْفَهُ أغيدُ مثل الرثا الآنسِ
قد لبسَ القرطوقَ واستمسكتُ كفاء من ذى بدنٍ مائسِ
وقلَّدَ السيفَ على غُنَجِهِ كأنه فى وقعة الداحسِ
أقولُ لما أن بدا مقبلاً : ياليتنى فارسُ ذا الفارسِ !

وقال ابن الزقاق :

ومهندٍ عَضْبٍ براحةٍ أغيدٍ فى جفنه عَضْبٌ يَقْدُ مفاصلي^(١)
يسطو بذاك وذا فيمدو قرْنَهُ بهما صريعَ لواحظٍ ومناصِلِ
ماضٍ كلا السَّيفينِ لكنْ لحظه أمضى وإلا فاسألنْ مَقَاتِلِي

وكان لأبى عيسى بن الرشيد غلام اسمه يُسر^(٢) ، وكان آيةً فى الجمال ، وكان صالح أخوه يتعشقه ، فبلغت لأبى عيسى قصةٌ جرت بينهما ، فحجبه ومنعه أن يخرج من داره إلا بحافظ ، وكاد حسين بن الضحاك يموت فيه عشقاً ، فقال فيه :

ظنَّ من لا كان ظنّاً بحبيبي فحمأه^(٣)
أرصد البابَ رقيبى ن له فاكتفأه
فاذا ما اشتاق قربي ولقائي منعاه
جعل الله رقيبى من السوء فداءه

وقال فيه :

إنَّ مَنْ لا يرى وليس لا يرانى نُصِبَ عيني ممثلاً بالأمانى^(٤)

(١) ملحق ديوانه : ٢٩٧ .

(٢) الخبر والشعر فى الأغاني ٧ : ٢٢٠ ، وديوانه ١٢١ ، وفى ط : د بشر .

(٣) الأغاني ٧ : ١٨٧ ، ديوانه ١١٢ .

(٤) الأغاني ٧ : ١٩٢ ، ديوانه ١٢٢ .

يَأْبَى مَنْ ضَمِيرُهُ وَضَمِيرِي أَبْدَا بِالْمَغِيبِ يَنْتَحِيَاتِ
نَحْنُ شَخْصَانِ إِنْ نَظَرْتَ وَرَوَّحَا نَ إِذَا مَا اخْتَبَرْتَ مُمْتَزَجَانِ
فَإِذَا مَا هَمَمْتَ بِالْأَمْرِ أَوْ هَمَّ بِشَيْءٍ بَدَأْتُهُ وَبَدَأَنِي
كَانَ وَقَفًا مَا كَانَ مِنْهُ وَمَنِّي فَكَأَنِّي حَكِيمُهُ وَحَكَايِي
خَطَرَاتُ النَّفُوسِ مَتَا سَوَاءٍ وَسَوَاءٍ تَحْرُكُ الْأُبْدَانِ

وجاءه يوماً فتحدث معه ، فأشار لتقبيله ، فقال له بشير : إياك والتعرض
لي وانجُ بنفسك ، وكانت فيه عَرَبِيَّةٌ ، فقال فيه حسين :

أَيُّهَا التَّفَاثُ فِي الْعَمَدِ أَنَا مَطَوِيُّ عَلَى السَّكَنِدِ
إِنَّمَا زَخَرَفْتُ لِي خُدَعًا قَدَحْتُ فِي الرُّوحِ وَالْجَسَدِ
مَا لِلْأَنْسِ كَانَ مَبْتَدَلًا مِنْكَ لِي بِالْأَمْسِ لَمْ يَمُدْ^(١)
يَوْمَ تَعْطِينِي وَتَأْخُذْهَا دُونَ نَدْمَانِي يَدًا بِيَدِ
ذَاكَ يَوْمٌ كَانَ حَاسِدُنَا فِيهِ مَعْدُورًا عَلَى الْحَسَدِ

* * *

نَمْ اسْتَطَقْتُهُ عَنْ أَسْمِهِ ، لَا لِرَغْبَةٍ فِي عِلْمِهِ ؛ بَلْ لَأَنْظُرُ
أَنْ فَمَاحَتِهِ مِنْ صَبَاحَتِهِ ، وَكَيْفَ أَهْجَتُهُ مِنْ بَهْجَتِهِ ؛ فَلَمْ يَنْطِقْ
بِخُلُوةٍ وَلَا مُرَّةٍ ، وَلَا فَاهَ فَوْهَةَ ابْنِ أَمَةٍ وَلَا حُرَّةٍ . فَضَرَبْتُ
عَنْهُ صَفْحًا ، وَقُلْتُ لَهُ : قُبْحًا لِعَيْكَ وَشَقًّا ، فَعَارَ فِي الضَّحْكَ

(١) ديوانه ٤٨ الأغاني ٧ : ١٩٢ ، وبعده في الأغاني والديوان :

هَاتِ بِأَخْدَاعٍ وَاحِدَةً مِنْ كَثِيرٍ قُلْتَهُ وَقَدِيدِي
لَيْتَ شِعْرِي بَعْدَ حَلَقِكَ لِي بِوَفَاءِ الْعَهْدِ بَعْدَ غَدِ
مَا الَّذِي بِاللَّهِ صَيَّرَهُ بَعْدَ قُرْبٍ فِي مَدَى الْأَبَدِ

وأنجد ، ثم أنفض رأسه إلى وأنشد :
 يا مَنْ تَلَهَّبَ غِيظُهُ إِذْ لَمْ أَبْجِ
 بَأْسِي لَهُ ، مَا هَكَذَا مَنْ يُنْصِفُ
 إِنْ كَانَ لَا يُرْضِيكَ إِلَّا كَشْفُهُ
 فَأَصْبَحْ لَهُ ، أَنَا يَوْسُفُ أَنَا يَوْسُفُ
 وَلَقَدْ كَشَفْتُ لَكَ الْغِطَاءَ فَإِنْ تَكُنْ
 فَطَنًا عَرَفْتَ وَمَا إِخَالُكَ تَعْرِفُ
 قال : فَسَرَّيْ عَنِّي بِشِمْرِهِ ، وَاسْتَبَى لِي بِسُجْرِهِ ؛ حَتَّى
 شُدَّ هَتْ عَنْ التَّحْقِيقِ ، وَأُنْسِيْتُ قِصَّةَ يَوْسُفَ الصَّدِّيقِ ؛ وَلَمْ
 يَكُنْ لِي هَمٌّ إِلَّا مَسَاوِمَةَ مَوْلَاهُ فِيهِ ، وَاسْتِطْلَاعَ طَلْعِ الشَّمْسِ
 لِأَوْفِيهِ ، وَكُنْتُ أَحْسِبُ أَنَّهُ سَيَنْظُرُ شَرًّا إِلَى ، وَيُنْزِلِي السَّيِّئَةَ
 عَلَيَّ ؛ فَأَخْلَقَ إِلَى حَيْثُ خَلَقْتُ ، وَلَا اعْتَلَقَ بِمَا بِهِ اعْتَلَقْتُ ؛
 بَلْ قَالَ : إِنَّ الْغَلَامَ إِذَا نَزَرَ ثَمَنَهُ ، وَخَفَّتْ مُؤَنُهُ ، تَبَرُّكَ بِهِ
 مَوْلَاهُ ، وَالتَّحَفَ عَلَيْهِ هَوَاهُ ، وَإِنِّي لِأَوْثَرُ تَحْيِيبَ هَذَا الْغَلَامِ
 إِلَيْكَ ، بَأَنْ أَخَفَّفَ ثَمَنَهُ عَلَيْكَ ، فَرَنْ مَائِي دَرَاهِمَ إِنْ شِئْتَ ،
 وَاشْكُرْ لِي مَا حَيَّيْتُ . فَتَقَدَّتُهُ الْمُبْلَغُ فِي الْحَالِ ، كَمَا يُنْقَدُّ فِي
 الرَّخِيسِ الْحَلَالِ ، وَلَمْ يَخْطُرْ لِي يِيَالٍ ، أَنَّ كُلَّ مُرْخَصٍ غَالٍ .

* * *

قوله : استنطقته ، أى سأله أن ينطق . صباحته : حسنه . لهجته : لفظه ،
 وأصلها طرف اللسان ، فكفى بها عن حلاوته . بهجته : حسنه وانضارته ،

وأصلها حسن اللون . لم ينطق بحلوة ولا مرة ، أى بكلمة جيدة ولا رديئة .
 فاه : نطق . ضربتُ عنه : أعرضت عنه . صفحا ، أى أوليته صفحة وجهي ، وهي
 جانبه . شقعا ، إتباع لقبح ، وقيل : هى من شَقَحَ البُشر ، إذا تغيّرت خضرته
 بحمرة أو صفرة ، وهو أقبح ما يكون فى رأى العين ، وقيل : هو من شَفَحْتُ
 العود إذا كسرتَه ، وقال : هو من أشقاح الكلاب ، وهى أدبارها ، ويقال :
 قُبِحا وشَقِحا بضم أولهما وفتح هـ . غارَ : أتى الغور ، وهو المنخفض من الأرض .
 أنجد : أتى نجداً ، ومعناه بالغ فى الضحك وذهب فى جهاته . أنفض رأسه ، أى
 حرّكه ؛ كأنه يهدّد ويستغفّ به . تلتب : اشتعل . أبُح : أنكلم . أصيخ :
 استمع . أنا يوسف ، أى أنا حرّمتل يوسف صلوات الله عليه ، إذ باعَه إخوته .
 سرّى عَنِّي : أزال لومى استبى لئى : أى تملك عقلت بسِخره وحلاوة كلامه .
 شدّدت : تحيَّرت ، وهو مقلوب دهشت . التحقيق : التمييز ، وهذا كما قال الشاعر :

والله ما فتنتُ نفسي بحاسنُه إلا وقد سحرتُ ألفاظُه أذني
 ما تُصدِرُ العينُ عنه لحظةً مالا كأنه كلُّ شيءٍ مرتَقى حَسَنٍ

استطلاع طلع : استخبار خبره ، والسؤال عَنْ قدره . لأَوْفِيَه : لأعطيه
 كاملاً وافياً . شرزراً : نظر فيه إعراض . التسمية : السَّوْم ، وهو السؤال عن
 الثمن . ما حَلَقَ إِلَى حيثُ حَلَقْتُ ، أى ما دار إِلَى حيثُ دُرْتُ ، أى ما كان
 عنده شيء مما ظننتُ به من طلبه سوماً غالياً . نَزُرُ : قل . مَوْنَه : لوازمه وما يحتاج
 إليه . تبرّك : رآه مباركاً ، والبركة : الكثرة والسعة . التحف : انضم . هواه :
 حبّه . أوتر : أفضّل .

* * *

فَلَمَّا تَحَقَّقَتِ الصَّفَقَةُ ، وَحَقَّتِ الْفُرْقَةُ ، هَمَلَتْ عَيْنَا الْغَلَامِ ،
 وَلَا هُمُولَ دَمْعِ الْغَلَامِ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى صَاحِبِهِ وَقَالَ :

لَحَاكَ اللَّهُ هَلْ مِثْلِي يَبَاعُ لَكَيْمًا تَشْبَعُ الْكَرِشُ الْجِيَاعُ
 وَهَلْ فِي شِرْعَةِ الْإِنصَافِ أَنِّي أَكُلَّفُ خَطَّةً لَا تُسْتَطَاعُ
 وَأَنْ أَبْلَى بِرَوْعٍ بَعْدَ رَوْعٍ وَمِثْلِي حِينَ يُبْلَى لَا يُرَاعُ
 أَمَا جَرَّبَتْنِي فَخَبَّرْتَ مِنِّي نَصَائِحَ لَمْ يَمَازِجْهَا خِدَاعُ
 وَكَمْ أَرَصَدْتُ نِيَّ شَرِّكََا لَصِيدٍ فَعَدْتُ وَفَى حَبَائِلِي السَّبَّاعُ
 وَنُطْتُ بِنِ الْمَصَاعِبِ فَاسْتَقَادْتُ
 مَطَاوِعَةً وَكَانَ بِهَا امْتِنَاعُ

* * *

نَحَقَّتِ الصَّفَقَةُ : تَمَّ الْبَيْعُ . هَمَلَتْ : سَالَتْ . الْفَمَامُ : السَّحَابُ لِحَاةُ اللَّهِ :
 لَمْنُهُ وَأَبْعَدُهُ ، وَلَحِيَتِ الرَّجُلُ : لَمْتُهُ ، وَأَصْلُهُ مِنْ لَحَوْتُ الْعُودَ الْحَوَهُ وَلَحِيَتُهُ أُلْحَاهُ ،
 إِذَا قَشَرْتَهُ ، وَأَنْشَدَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ فِي نَوَادِرِهِ :

لَحَوْتُ تُشْمَسًا كَمَا تُلْحَى الْعَصَا سَبَا لَوْ أَنَّ السَّبَّ يُدْمِي لَدَيْمِي^(١)
 وَيُقَالُ : لِأَحَاةٍ مَلَا حَاةً وَلَحَا ، أَصْلُهَا الْمُبَالَغَةُ ، ثُمَّ كَثُرَتْ حَتَّى جُمِلَتْ كُلُّ
 مَمَانَةٍ وَمَذَافَعَةٍ مَلَا حَاةً . الْكَرِشُ : الْعِيَالُ ، وَكَرِشُ الرَّجُلِ عِيَالُهُ وَصَفَارُ وَلَدِهِ ،
 وَيُقَالُ فِي الْمَعِيلِ : عَلَيْهِ كَرِشٌ مَنْثُورَةٌ ، وَإِذَا أَكْثَرَتِ الْمَرْأَةُ أَوْلَادَهَا قِيلَ : نَثَرَتْ
 كَرِشَهَا ، وَقَدْ قَدَّمَ أَنْ صَبِيغَةُ جَوْعٍ . الشَّرْعَةُ : الطَّرِيقُ . وَالْخَطَّةُ ، مِثْلُ الْقِصَّةِ :
 الْأَمْرُ يَقَعُ بَيْنَ الْقَوْمِ . أَبْلَى : أُمْتَحَنَ . الزَّرْعُ : الْفَزَعُ ، لِأَنَّهُ يَصِيبُ الزَّرْعَ وَهُوَ
 الْقَلْبُ . يَمَازِجُهَا : يَخَالِطُهَا . أَرَصَدْتُني : جَمَلْتُني رَصْدًا ، وَالرَّصْدُ : مَنْ يَرْقُبُكَ
 وَأَنْتَ لَا تَعْلَمُ فَإِذَا جِئْتَهُ هَجَمَ عَلَيْكَ . وَالشَّرْكُ : آلَةُ الصَّيْدِ . حَبَائِلِي : شَبَابِي
 نَطْتُ : عَلَّقْتُ . الْمَصَاعِبُ : الْأُمُورُ الشَّاقَّةُ . اسْتَقَادْتُ : انْقَادْتُ .

(١) الْبَيْتُ فِي السَّنَنِ - لَحَا . وَفِي ط : لَحِيَتٌ ، وَمَا أَنْبَتَهُ مِنَ السَّنَنِ .

وَأَيُّ كَرِيهَةٍ لَمْ أَبْلِ فِيهَا وَغُثْمٍ لَمْ يَكُنْ لِي فِيهِ بَاعُ
 وَمَا أَبَدْتُ لِي الْأَيَّامُ جُرْماً فَيُكْشَفُ فِي مَصَارِمَتِي الْقِنَاعُ
 وَلَمْ تَعْرِ - بِحَمْدِ اللَّهِ - مِنِّي عَلَى عَيْبٍ يُكْتَمُ أَوْ يُذَاعُ
 فَأَتَى سَاغَ عِنْدِكَ نَبْذُ عَهْدِي كَمَا نَبَذْتُ بُرَايَتَهَا الصَّنَاعُ
 وَلَمْ سَمَعْتَ قَرَوْنُكَ بَامْتِهَانِي
 وَأَنْ أُشْرَى كَمَا يُشْرَى الْمَتَاعُ

وَهَلَّا صُنْتُ عَرِضِي عَنْهُ صَوْنِي
 حَدِيثُكَ يَوْمَ جَدِّ بَنَّا الْوَدَاعُ
 وَقُلْتُ كَمَنْ يُسَاوِمَ فِي هَذَا سَكَابٍ فَايُمَارُ وَلَا يِبَاعُ
 فَمَا أَنَا دُونَ ذَلِكَ الطَّرْفَ لِيَكُنْ
 طِبَاعُكَ فَوْقَهَا تِلْكَ الطَّبَّاعُ
 عَلَى أَتَى مَا نَشِدُ حِينَ يَبْعِي أَضَاعُونِي وَأَيَّ فَتَى أَضَاعُوا

* * *

أَبْلٍ: أَبَالَعُ وَأَجْهَدُ نَفْسِي فِيهِ. غُثْمٌ: غَنِيمَةٌ. جُرْمٌ: ذَنْبٌ. مَصَارِمَتِي: مَقَاطِعِي، وَكُشِفَتْ فِي الْأَمْرِ الْقِنَاعُ، إِذَا جَاهَدْتَ فِيهِ وَبَالَغْتَ. تَعَرَّى: تَطْلَعُ: يَكْتُمُ: يَسْتُرُ. يَذَاعُ: يَفْشَى وَ«بِحَمْدِ اللَّهِ» فِي الْبَيْتِ، وَقَعْتَ اعْتِرَاضًا بَيْنَ الْعَامِلِ وَالْمَعْمُولِ، كَمَا وَقَعْتَ فِي التَّاسِعَةِ وَالْأَرْبَعِينَ اعْتِرَاضًا بَيْنَ الْمُبْتَدَأِ وَخَبْرِهِ فِي قَوْلِهِ: «وَأَنْتَ - بِحَمْدِ اللَّهِ - وَلِيٌّ عَهْدِي» وَتَعَلَّقَ بِهَا بِحَذُوفِ تَقْدِيرِهِ: أَبْتَدَى بِحَمْدِ اللَّهِ، أَوْ أَفْتَتَحُ بِحَمْدِ اللَّهِ الَّذِي خَلَصَنِي مِنْ عَيْبٍ يُغْتَرَّلِي عَلَيْهِ، أَوْ الَّذِي جَعَلَكَ وَلِيَّ عَهْدِي، وَمِنْهُ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، مَعْنَاهُ أَنْزَلَ اللَّهُ وَابْتَدَى بِحَمْدِهِ، أَوْ أَفْتَتَحُ بِحَمْدِهِ، وَدَخَلْتُ الْوَاوَ هُنَا لَفْظٍ مَعْنَى الْمُطْفِ، أَلَا تَرَى أَنَّكَ لَوْ قُلْتَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَحَمْدُهُ، لَكَانَ الْمَعْنَى:

أَسْبَحَهُ تَسْبِيحًا وَأَحْمَدَهُ حَمْدًا ، هَكَذَا يَتَقَضَى مَا جَاءَ مِنَ الْمَصَادِرِ مَنْصُوبًا فِي هَذَا
البَابِ ، وَفِي قَوْلِنَا : وَبِحَمْدِهِ لَا يَكُونُ الْمَعْنَى مَا تَقَدَّمَ فِي الْمَنْصُوبِ ، وَلَكِنْ الْبَاءُ
أَذْنَتْ بِمَعْنَى ابْتَدَأَتْ ، أَوْ أَبْدَأَ بِحَمْدِ اللَّهِ ، كَمَا نَكَتْ : حَدَّثَ اللَّهُ عَلَى إِمَامِهِ
إِبْرَاهِيمَ تَسْبِيحَهُ ، وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ .

قَوْلُهُ صَاغَ : أَيْ سَهَلَ . نَبَذَ : تَرَكَ . الْبُرَايَةُ : مَا يَتَسَاقَطُ مِنَ الْعُودِ إِذَا نُجِرَ ،
وَمِنَ الْقَلَمِ إِذَا بُرِيَ ، وَكَذَا يَأْتِي فِي مِثْلِ الْبُرَادَةِ وَالنُّجَاتَةِ وَنَحْوِهَا . الصَّنَاعُ :
الْحَافِظَةُ بِالصَّنْعَةِ ، وَالرَّجُلُ صَنَعَ بَغَيْرِ أَلْفٍ . قَرَوْنَكَ : نَفْسُهُ . سَمِعْتُ : جَاءَتْ .
أُشْرَى : أَبَاعَ . عَنْهُ ، أَيْ عَنِ الْبَيْعِ . صَوْنِي حَدِيثُكَ ، أَيْ صِيَانَتِي لِلْحَدِيثِ
الَّذِي أَحَدَّثْتُ مِنْ بَيْعِي وَأَنَا حَرٌّ . يَوْمَ جَدَّ بَنَّا الْوَدَاعَ ، أَيْ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ الَّتِي
تَرِيدُ أَنْ تُوَدِّعَنِي فِيهَا . سَكَّابٌ : اسْمُ فَرَسٍ لِرَجُلٍ مِنَ الْعَرَبِ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ ،
سَأَلَهُ بَعْضُ الْمُلُوكِ أَنْ يَبِيْعَهَا مِنْهُ ، فَأَبَى عَلَيْهِ وَقَالَ :

أَيَّتَ الْأَمْنِ إِنْ سَكَّابٍ عِلْقُ كَرِيمٍ لَا يُعَارُ وَلَا يَبَاعُ^(١)
مَقْدَاةَ مَكْرَمَةٍ عَلَيْنَا يُجَاعُ لَهَا الْعِيَالُ وَلَا تَنجَا

الطَّرَفُ : الْفَرَسُ الْكَرِيمُ ، يَقُولُ : لَسْتُ أَنَا دُونَ الْفَرَسِ ، لَكِنْ طَبَاعُ
مَالِكِهِ أَفْضَلُ مِنْ طَبَاعِكَ ، حَيْثُ كَانَ يَجْمَعُ عِيَالَهُ وَيَشْبِعُهُ ، وَلَمْ يَهْنَهُ بِالْبَيْعِ
كَأَنَّهُنَّتْنِي بِهِ .

[ذَكَرَ الْعَرُجِيُّ وَإِيرادَ بَعْضِ شَعْرِهِ]

وَعَجَزُ الْبَيْتِ الْآخِرِ صَدْرُ بَيْتٍ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ عَثْمَانَ بْنِ عَفَانَ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمْ ، وَهُوَ الْعَرُجِيُّ ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ وُلِدَ بِالْقَرْجِ^(٢) مِنْ مَكَّةَ ، وَقِيلَ : بَلْ كَانَ
لَهُ بِهَا مَالٌ ، وَكَانَ يُكْثِرُ الْاِخْتِلَافَ إِلَيْهِ ، فَتُنَسَبُ إِلَيْهِ . يَكْنَى أَبَاعَرُو ، وَهُوَ شَاعِرٌ

(١) الْبَيْتُ الْأَوَّلُ فِي اللِّسَانِ ، وَالصَّحاحُ وَتَاجُ الْعُرُوسِ - مَكْتُوبٌ .

(٢) يَاقُوتُ : الْعَرَجُ : قَرْيَةٌ جَامِعَةٌ فِي وَادٍ مِنْ نَوَاحِي الطَّائِفِ .

مطبوع بالفضل مجيد ويشبهه في غزله ومقصده بامر بن أبي ربيعة ، وكان يهوى
جنداء أم إبراهيم بن هشام الخزومي ، ولها يقول :

أبصرت وجهاً لها في جيده نلَمَ تحتَ العقود وفي القرطين شَهْرٌ^(١)
وجهٌ تحير فيه الماء في بشرٍ صافٍ له حين أبدته لنا نورُ
ولها يقول :

إلى جنداء قد بعثوا رسولاً ليخبرها فلا صَحِبَ الرسولُ^(٢)
كأنَّ العام ليس بعام حجٍّ تغيَّرت المواسمُ والشُّكُلُ
ولها يقول :

عوجى علينا ربةً المودجِ إنك إن لا تفعلَى تخرجي^(٣)
فالجج إن حَجَّتْ وماذا مني وأهله إن هي لم تخرج !
فما استطاعت غير أن أومات نحوى بعينى شادنٍ أدعجِ
وقال أيضاً :

باناً بأنعم ليلَةٍ حتى بدا صبح يلوح كالأغرَّ الأشقرِ^(٤)
فتلازماً عند الفراق صبايةً أخذَ الغريم بفضل ثوب الميسرِ

فلما شاع نسيبه بها قبض عليه ابنها محمد عند ولايته الحجاز ، بسبب طلبه
عليه ، ففرضه بالسياط وألقى الزيت على رأسه ، وأوقفه للناس في الشمس ، حتى
غشي عليه ، وسجنه بضع سنين حتى مات في سجنه ، فقال في السجن :

أضاعوني وأى نَتَى أضاعُوا ليوم كريمةٍ وسِدادِ نَفَرِ^(٥)

(١) ديوانه ١٠٥ ، وفيه : « شَمِر » .

(٢) ديوانه ١٩٠ ، الأغاني ١ : ٣٩٧ . وفيه : « ليحزنها »

(٣) ديوانه ١٧ ، الأغاني ١ : ٤٠٧ .

(٤) الأغاني ١ : ٣٩٧ ، الديوان ١٧٨

(٥) الأغاني ١ : ٤١٣ ، ديوانه ٣٤٥

وخلّوني ومعتّرك النّايا وقد شرعت أسنتهم لنعري
 كائن لم أكن فيهم وسيطاً ولم تك نسبتى في آل عمرو
 أجرّ في الجامع كلّ يوم فيالله مظلمتى وقسرى
 عسى الملك الحبيب لمن دعاه ينجّينى ويعلم كيف شكرى
 فأجزى بالكرامة أهل ودّى وأجزى بالعداوة أهل وترى

فلما أفضت الخلافة إلى الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، قبض على محمد بن هشام وأخيه إبراهيم ودعا لهما بالسّياط ، فقال له محمد : أسألك بالقرابة ! قال : وأى قرابة بينى وبينك ؟ قال : فأسألك بصهر عبد الملك ! فقال : لم تحفظه ، فقال : يا أمير المؤمنين إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يضرب قرشيّ إلا في حدّ ، فقال : ففي حدّ أضربك وقود ، قال : وما ذاك ؟ قال : أنت أول من سنّ ذلك على العرّجى وهو ابن عمى وابن أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، فما رعيت [حق] ^(١) جدّه ولا نسبّه بهشام من قبل أمّه ، اضربهما ^(٢) يا غلام ، فضربهما ضرباً مبرّحاً ، وأنقلا بالحديد ووجهيهما إلى يوسف بن عمر ، وأمره بتعذيبهما ، فضربهما حتى ماتا .

وغنى إسحاق الموصلى الرشيد قوله :

* أضاعونى وأى فتى أضاعوا *

فسأل عن سبب هذا الشعر ، فأخبره بحديث العرّجى ، قال إسحاق : فرائقه يتغيّظ ، فلما أخبرته بما فعل بابنى هشام ، جعل وجهه يُسفر وغيظه يسكن ، ثم قال : يا إسحاق ، لولا ما حدثتني به من فعل الوليد ، لما تركت أحداً من أمثال ^(٣) بنى مخزوم إلا قتلته بالعرّجى .

ومن جيدة شعر العرّجى :

فهل أنت آتٍ أهل ليلى فناظرٌ لذنب جفونى ، أم جفونى تجمّما ^(٤)

(١) من الأغاني (٢) الأغاني : « اضرب يا غلام »

(٣) كذا في الأغاني ، وفي ط : « أمثال » (٤) ديوانه ٣٦ ، وفيه : « نمر » .

فإن يكُ من ذنبٍ ^(١) ففي ذلك حكمهم وحسب امرئٍ في حقهِ ^(٢) أن يُجسَّ كما
 كمثل شهاب النار في كفِّ قابسٍ ^(٣) إذا الريح هبَّت وهو كابٍ أضرمَا

ومن جيله :

أخبرتُ أنك قلتَ تقتله لا تفعلين ، فدنسكمُ نفسي ^(٤)
 والله لا آتي لكم سخطًا حتى أغيب في ثرى رمسى
 والله لا أنسى تطوفاً تهتز بين كواعب خمس تهتز
 كالبدر صورتها إذا انتقبت وإذا سقرت فأنت كالشمس

ومنه :

حورٌ بمثنٍ رسولاً في ملاطفة تبتنا إذا أسقط النساءُ الوهم ^(٥)
 فجئت أمشى على هول أجسمه تجشمُ المرء هولاً في الهوى كرمُ
 أمشى كما حرَّكت ربيعٌ يمانية غصنا من البانِ رطباً طاهُ الرهم ^(٦)
 حتى جلست إزاء البئيت مكتئماً ^(٧) وطالبُ الحاج تحت الليل يكتنم
 فبت أسقى بأكواسٍ أعلَّ بها من باردٍ طاب منه الطعم والنسم

وفي معنى قوله : أمشى كما حرَّكت . البيت يقول ابن دعلج :

قالتُ لقد أعييتنا حُجةً فأنت إذا ما هجع السامر ^(٨)

(١) الديوان : « في ذنبي » .

(٢) الديوان : في « حقنا » .

(٣) كذا في الديوان ، وفي ط : « فارس » (٤) ديوانه ١٤٨ وفيه : قلت : نهجره .

(٥) ديوانه ٢ ، وفيه : « ثقنا » .

(٦) الديوان : « طلة الرهم » . والرم . المطر الخفيف .

(٧) الديوان :

• لما بلغتُ إزاء الباب مكتئماً •

(٨) كذا في الأصول ، والبيت الثاني ينسب إلى عمر بن أبي ربيعة ، ملحق ديوانه ٤٩٠

واستقطعلينا كسقوط الندى ليلة لانا ولا أمر

وقال الواقى :

قالت إذا الليل دجا فأننا فحشها حين دجا الليل
خففى وطء الرجل من حارس ولو دنا حل به الويل
ومن ظرف العرجى ، أنه وعد هوى له أن تزوره في منزله ، فجاءته على أتان
ومعها جارية لها ، وجاء العرجى على غير ومعه غلام ، فواقمها العرجى ، ثم
خرج فرأى الغلام يواقع الجارية والغير على الأتان ، فلما نظر الحال قال : هذا يوم
غاب هذاله .

* * *

[فصل فى التضمين]

ويسمى أخذ الحريرى شطر بيت العرجى التضمين ، وليس بسرقة .
والتضمين يكون فى بيت وفى شطر بيت ، والشعراء تتولع به كثيراً ، وهو من
صنعة البديع ، فن الثانى قول الأخطل :

واتد سما للخرمى فلم تقل بعد الوفى لكن تضايق مقدمى^(١)
ومثله قول الآخر :

وجزت على باب الأمير كأنى
قفائبك من ذكرى حبيب ومنزل

ومن تضمين بيت بكالمه قول الحسن بن هانى :

إنى عجنبت وفى الأيام معتبر والدهر يأتى بألوان الأعاجيب

(١) البيت فى المدة ٢٥ : ٧٨ والبديع لابن المعتز ١١٤ ، ونسبه إلى الأخطل ، ولم
أجده فى ديوان الأخطل .

من صاحبٍ كان دنياي وآخرتي عدّا على جَهَارًا عَدُوَّةَ الذِّبِ
قد كان لي مثلٌ لو كنتُ أُعَقِّلُهُ من رأى غالبَ أمرٍ غيرِ مغلوبِ
لا تَمْدَحَنَّ امرأً حتى تَجْرُبَهُ ولا تَذَمَّنَّهُ من غيرِ تَجْرِبِ
فَضَمَّنَ هذا البيتَ .

قال ابن حجاج :

قد قلت لما أن رجعتُ مُوَلِّيًّا ومعِيَ مَدَائِيرُ من السَّكَّابِ^(١)
نحن الذين لهم يقال وكلنا فَلَّ الصَّا وطريدة الحجاب
قومٌ إذا قصدوا الملوک لطلب نَتِفَتْ شواربُهُمْ على الأبواب
وقال ابن رشيقي : سألتُ بعضَ أصحابي أن أضَمَّنَ له قول الشاعر :
فإن فخرتَ بآباءٍ لهم شرفٌ قلنا صدقت، ولكن بئسَ ما وُلِدُوا^(٢)
ولا أزيد على بيت واحد ، قلت :
أصبحت من جملة الأشراف إن ذُكِرُوا
كواحد الآس لا يزكو له عَدَدُ
والتضمين كثير .

* * *

[خبر للنضر بن شميل مع المأمون]

وعلى بيت العرجي :

* أضاعوني وأتى فتى أضاعوا *

حديث النضر بن شميل، قال: ^(٣) كنتُ أدخل على المأمون في سمره فدخلتُ

(١) بئمة الدهر ٣ : ٧٩ . (٢) التنف ٢٤

(٣) نزهة الألباء ٨٥ - ٨٧ ، درة القواسم ٦٤ معجم الأدباء ١٩ : ٢٣٩

ذات ليلة وعلى أطمار أخلاق ، فقال : يا نَضْر ، ما هذا التَّقَشُّف ! تدخل على أمير المؤمنين في هذه الخُلُفان ؟ قلت : أنا شَيْخٌ ضَعِيفٌ ، وَحَرٌّ مَرَوْ شَدِيدٌ ، فَأَتَبَرَّدُ بهذه الخُلُفان ، قال : لا ، ولكنك قَشِفٌ ، فَيَحْمَلُ مِنْكَ هَذَا عَلَى التَّقَشْف . ثم أجرينا الحديث ، فقال : حَدَّثَنَا هَشِيمٌ ، عَنْ مُجَاهِدٍ ، عَنْ الشَّعْبِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِذَا تَزَوَّجَ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ لَدِينَهَا وَلِجَاهِهَا وَكَأَلَهَا ، كَانَ فِيهَا سِدَادٌ مِنْ عَوَزٍ » فَأُورِدَهُ بِفَتْحِ السَّيْنِ ، قُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، حَدَّثَنَا عَوْفُ بْنُ أَبِي جَمِيلَةَ الْأَعْرَابِيُّ ، عَنْ الْحُسَيْنِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِذَا تَزَوَّجَ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ لَدِينَهَا وَلِجَاهِهَا وَكَأَلَهَا كَانَ فِيهَا سِدَادٌ مِنْ عَوَزٍ » ، وَكَانَ الْمَأْمُونُ مَتَسَكِنًا فَاسْتَوَى جَالِسًا ، وَقَالَ : كَيْفَ قُلْتَ يَا نَضْر « سِدَادٌ » ؟ قُلْتُ : سِدَادٌ لِأَنَّ « السَّدَادَ » هُنَالِحن ، قَالَ : أَوْ تَلَحَّضْنِي ! قُلْتُ : إِنَّمَا لَحَنَ هَشِيمٌ - وَكَانَ لِحَانَةً - فَتَبِعَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَفْظَهُ ، فَقَالَ : فَمَا الْفَرْقُ بَيْنَ السَّدَادِ وَالسَّدَادِ ؟ قُلْتُ : السَّدَادُ التَّمَصُّدُ فِي الدِّينِ وَالسَّبِيلِ وَالسَّدَادُ بِالْكَسْرِ الْبُلْغَةُ فِي الشَّيْءِ ، وَكُلٌّ مَاسَدَدَتْ بِهِ شَيْئًا فَهُوَ سِدَادٌ ، قَالَ : أَوْ نَعْرِفُ الْعَرَبُ ذَلِكَ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ هَذَا الْعَرَبِيُّ مِنْ وَلَدِ عُثْمَانَ ، يَقُولُ :

أَضَاعُونِي وَأَيُّ فِتْنٍ أَضَاعُوا لِيَوْمَ كَرِهِيهِ وَسِدَادِ نَفَرٍ

ثم أطرق مليًا ، وقال : قَبِحَ اللَّهُ مِنْ لَا أَدَبَ لَهُ ! ثم تَجَارَيْنَا الْحَدِيثَ ، فَقَالَ : كَيْفَ رَوَيْتَكَ لِلشَّعْرِ ؟ قُلْتُ : قَدْ رَوَيْتُ الْكَثِيرَ مِنْهُ ، قَالَ : فَأَنْشِدْنِي أَحْسَنَ مَا قَالَهُ الْعَرَبُ فِي الْحِلْمِ فَأَنْشِدْتَهُ :

إِذَا كَانَ دُونِي مَنْ يُبْلِغُ بِجَهْلِهِ
أَيُّتُ لِنَفْسِي أَنْ أَقَابِلَ بِالْجَهْلِ

وإن كان مثلي في محلٍ من العلا هويت إذا حلماً وصفحاً عن المنل

وإن كنت أدنى منه في الفضل والحجاء رأيت له حقّ التقدّم والفضل
 قال : ما أحسن ما قال ! فأنشدني أحسن ما قالته للعرب في الحزم ،
 فأنشدته :

على كلّ حالٍ فاجعل الحزم عُدّةً لِمَا أنت باغيه وعودنا على الدهرِ
 فإن نلتَ أمراً نلتَهُ عن عزيمةٍ وإن قصرت عنه الحقوق فن عذرِ
 قال : فما أحسن ما قال ! فأنشدني أحسن ما قالته للعرب في إصلاح العدوِّ
 حتى يكون صديقاً ، فأنشدته :

وذِي غيلةٍ ساءلته قهرته فأوقرته متى بمبه التحليلِ
 ومَنْ لا يدافع سيئات عدوّه بإحسانه لم يأخذ الطّول من علِ
 ولم أَر في الأشياءِ أسرعَ مهلكاً لضغنه قديمٍ مِن ودادٍ معجلِ
 قال : ما أحسن ما قال ! فأنشدني أحسن ما قالته للعرب في السّكوت
 فأنشدته :

إني ليهجرُني الصديقُ تحنباً فأريه أن لهجره أسبابا
 وأراه إن هانته أفرئته فيكون تركي للكتاب عتابا
 وإذا بليتُ بجاهلٍ متحكّم يمدّ الحال من الأمور صوابا
 أوليته متى السكوتَ وربّما كان السكوت عن الجواب جوابا

قال : ما أحسن ما قال ! ثم قال : ما مالك يا نضر ؟ قلت : أريضةٌ بمرورِ الرّودِ
 أنصابتها^(١) وأتمزّزها ، قال : أفلا نفيدك مالا معها ؟ قلت : إن رأى ذلك
 أمير المؤمنين ، فإني لذلك لاحتاج .

فأخذ القُرطاس وكتب وأنا لا أدري ما يكتب ، ثم قال : كيف تأمر إذا

(١) انصابتها ، أي أشرب مهابتها .

أردت أن تُترب الكتاب، قلت : يا غلام أترَب الكتاب ، قال : فهو ماذا ؟
قلت : مترَب ، قال : فمن السَّحاة ، قلت : يا غلام اسحُ الكتاب ، قال : فهو
ماذا ؟ قلت : مسحَى ^(١) ، قال : فمن الطين ، قلت : يا غلام طين الكتاب ، قال :
فهو ماذا ؟ قلت : مطين ومُطان ، فقال : هذه أحسن من الأولى ، ثم قال : يا غلام
أتر به واسحه وطنه . ثم صلى بنا العشاء ، ثم قال لغلامه : امض معي إلى الفضل بن
سهل بهذا الكتاب ، فلما قرأه قال : بيم استأهلت أن يأمر لك أمير المؤمنين
بمخمسين ألف درهم ؟ وما سبب ذلك ؟ فأخبرته الحديث على جهته ، فقال : لحنت
أمير المؤمنين ، فقلت : كلاً إنما لحن هشيم — وكان لجانة — فتبع أمير المؤمنين
الفاظه ، وقد تتبع الفاظه الفقهاء ورواة الأخبار . فبجل لي ما في الكتاب ، وأمر
لي من عنده بأربعين ألف درهم ، فانصرفت بتسعين ألف درهم بحرف
استفاده مني .

وهذا الخبر جاء في أخبار النحويين . وذكره الحريري في درة الفواص
بأخصر مما ذكرناه ، ثم قال ياتر الخبر : وقد أذكرني هذا المثل أبياناً أنشدنيها
أحد أشهاخي رحمه الله لأبي الهيثم :

لي صديق هو عندي عَوَزٌ	من سداد لا سداد من عَوَزٌ
وجبه يذكّرني دار البلى	كلماً أقبل نحوى وضمز ^(٢)
وإذا جالسى جرّعتني	غصص الموت بكربٍ وعلّز ^(٣)
بصف الودّ إذا شاهدني	وإذا غاب وثى بي وهمز
كحمار الشوّ يبدى مرحاً	فإذا سيق إلى الحمل غمز
ليتني أعطيتُ منه بدلاً	بنصبي شرّ أولاد المعز

(١) مجالس العلماء : و « مسحوه » .

(٢) ضمز : سكت ولم يتكلم .

(٣) العاز : محرّكة : التلق والمعلم .

قد رَضِينَا بِيَضَةَ فَاسِدَةٍ عَوَضًا مِنْهُ إِذَا الْبَيْعُ نَجَزُ

• • •

[حكاية أبي حنيفة والإسكاف]

وكان لأبي حنيفة رحمه الله جَارٌ إسكاف بالكوفة ، يعمل نهاره أجمع ، فإذا أجنّه الليل رجع إلى منزله بالخمر ولحم أو سمك ، فيطبخ اللحم أو يشوى السمك ، حتى إذا دبّ الشراب فيه رفع عقيرته يُنشد :

أضاعوني وأنى فتى أضاعوا ليوم كريبه وسداد ثغري

فلا يزال يشرب ويردد هذا البيت ، حتى يفلّبه النوم .

وكان أبو حنيفة رحمه الله يصليّ الليل كله ، وبسمع جلبته وإنشاده ، ففقد صوته ليالي ، فسأل عنه فقيل له : أخذه العسس منذ ثلاث ليال ، وهو محبوس ، فصلّى الفجر وركب بغلته ، ومشى فاستأذن على الأمير ، فقال : ائذّنوا له ، وأقبلوا به راكبًا ، ولا تدعوه ينزل حتى يطأ البساط ، ففعل به ذلك ، فوسّع له الأمير مجامسه ، وقال له : ما حاجتك ؟ فقال : لي جَارٌ إسكاف أخذه العسس منذ ثلاث ليال ، فتأمر بتخليّتيه ؟ فقال : نعم ، وكلّ مَنْ أَخَذَ مِنْ تِلْكَ اللَّيْلَةِ إِلَيَّ يَوْمَنَا هَذَا ، ثُمَّ أَمْرٌ بِتَخْلِيَّتِهِمْ أَجْمَعِينَ . فركب أبو حنيفة وتبعه جاره الإسكاف ، فلما أوصله داره ، قال له أبو حنيفة : أترانا يا فتى أضعناك ؟ قال : لا بل حفظت ورعيت جزاك الله خيرًا عن محبة الجوار ورعاية الحق ، والله علىّ ألاّ أشرب الخمر أبدًا ، فتاب ولم يعد إلى ما كان عليه ^(١) .

[من حكايات الجوارى والغلمان]

ومما يوافق هذا الموضع في المقامات من ظرف الحكايات التي تضمنت بيع

المالِك عند الضرورات ، وما للأجواد من جزيل الهبات ، مما ذكروا من أحسن أخبار القلمان أن جعفر بن يحيى عرض عليه في بعض متوجّهاته مملوك من ممالك رجل جفاه للسلطان ، فقَبَضَ ماله ، وأمر ببيع ممالكه ، فعرض عليه من جملتهم غلام كاطر شارب ، أجل الناس ، يدير بين فكّيه لسانا أبين من الصبح . قال جعفر : فقلت له : ما اسمك ؟ قال : ماهر ، فقلت له : وما صنعتك ؟ قال : الأدب والفناء والشعر وما شئت من بعد ، فسألت عن ثمنه ، فقال : خمسمائة دينار للضرورة ، قال : فأدبت ثمنه ، وسألت أن يُسَمِّعَنِي شيئاً من غنائه ، فأخذ العود وغنى :

حلتهم جبال الحب فوق ولاتي لأعجز عن حمل التقيص وأضمت
ظفرتهم بكمان اللسان فن لكم بكمان عين دمعها الدهر يذرف
فاطربني غناؤه ، وشجاني فأجزته ، ووهبت له وخامت عليه ، وأمرته بمادتي . فلما اجتزت منزل مولاه بمقدار ميل ، أنشأ يقول :

وما كنت أخشى معبدا أن يبيعتني بشيء ولو أضحت أنامله صفرا
أخوم ومولاهم وحامل مرهم ومن قد نوى فيهم وعاشرم دهر
أشوقا ولنا تمض لي غير ساعة فكيف إذا خب المطى بناشرا

فقلت : يا غلام ، أتعرف منزل مولاك من ها هنا ؟ فقال : هيات ، وهل تخفى معالم الصب ! فقلت : اذهب فانت حرّ لوجه الله تعالى ، ووهبت له ألف دينار ، فقال لي زميلي : أمثل هذا يُتَقَى ؟ فقلت : أوَمِثْهُ يَمَلِك ! فوالى وهو يقول :

لا يوجد الخبر إلا في معادته والشر حيث طلبت الشر موجود
وحدث ابن عائشة قال : كان لرجل من قيس عيلان جارية ، وكان

بها معجبا ، ولها مكرما فأصابته حاجة وجهد ، فقالت له : لو بعثني فإن نلت طائلا عدت به عليك ، فعرضها للبيع ، فعرضت على عمر بن عبد الله بن معمر المذحجي ، فأعجبته فاشتراها بمائة ألف درهم ، فلما مضت لتدخل القصر ودعت مولاهما وأنشدته :

هنيئا لك المال الذي قد أصبته ولم يبق في كفي إلا تفكري
أقول لنفسي وهي في كرب غشية أفتلى فقد بان الحبيب أو اكثري
إذا لم يكن لاوصل عندك حيلة ولم نجدى بدا من الصبر فاصبري
فأجابها مولاهما :

فلولا تعود الدهر بي عنك لم يكن لفرقتنا شيء سوى الموت فاعذري
أهوب بحزن من فراقك موجع أناجي به قلبا طويل التفكير
عليك سلام لا زيارة بيننا ولا وصل إلا أن يشاء ابن معمر

فقال ابن معمر : قد شئت ، خذ بيدها فهي لك ونمناها .



قال : فلما وهي الشيخ أيساته ، وعقل مُنَاغَاةُ ، تنفس الصعداء ، وبكى حتى أبكى البعداء ؛ ثم قال لي : إني أحل هذا الغلام حل ولدي ، ولا أميرته عن أفلاذ كبدي ؛ ولولا خلو مراحي ، وخبو مضاحي ؛ لما درج عن عشي ، إلى أن يشيع نعشي ، وقد رأيت ما نزل به من لوعة البين ، والمؤمن هين لين ، فهل لك في تسليته قلبه ، وتسريته كربيه ؛ بأن تعاهدني على الإفالة فيه متى استقلت ؛ وألا تستقلني إذا ثقلت ؛ ففي الآوار

الْمُسْتَقَاةُ ، المَرْوِيَّةُ عَنِ الثَّقَاةِ : مَنْ أَقَالَ نَادِمًا يَبِيعُهُ ، أَقَالَهُ اللَّهُ عَشْرَتَهُ .

قال الحارثُ بن همام : فَوَعَدْتُهِ وَعَدًا أَبْرَزَهُ الْحَيَاءُ ، وَفِي
الْقَلْبِ أَشْيَاءُ ، فَاسْتَدْنِي حِينَئِذٍ الْغَلَامَ إِلَيْهِ ، وَقَبَلَ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ ،
وَأَنشَدَ وَالْدُمْعُ يَرْفُضُ مِنْ جَفْنَيْهِ :

خَفَضُ . فَدَتِكَ النَّفْسُ مَا تَلَا فِي

مِنْ بُرْحَاءِ الْوَجْدِ وَالْإِشْفَاقِ

فَمَا تَطَاوَلَ مَدَّةُ الْفِرَاقِ وَلَاتِنِي رِكَائِبُ التَّلَاقِ

• بِحَسْنِ عَوْنِ الْقَادِرِ الْخَلَّاقِ •

• • •

قوله : هفل مناغاته ، أى فهم كلامه ، والمناغة تكليم الطفل بما يهوى
ويفرح به ، فإذا ردّد الصبي كلامك أو حاكك فقد ناغاك . الضمّاء : ارتفاع نفس
المهموم . أفلاذ : قطع ، يريد أولاده ، والفلذة : قطعة من الكبد ، ولقرط
الإشفاق به والحبة فى الولد ، يخاطبه أبواه بقاى وكبدى . وقالوا : أولادنا
أكبادنا ، وقال الشاعر :

وإِنَّمَا أَوْلَادُنَا يَبْتَنَّا أَكْبَادُنَا تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ

مُراعى : موضع إلى ودوائى ، وكنى يخلو المراح عن الفقر وذهاب المال .
درج : مشى . لوعة البين : حُرقة الفراق . هين لين ، هما مع الازدواج مخفقتان ،

فإن أفرِدنا شَدَدنا . قوله : لَمَّا دَرَجَ عَنْ عُشَى ، يقول : لولا الفقر ما بعته ما دمتُ
حيًا . وتدرية كربه : لإزالة همه . المتقاة : المختارة . المدونة : المكتوبة المجموعة ،
والحديث معروف من طريق أبي هريرة رضى الله تعالى عنه ، عن النبي صلى الله
عليه وسلم أنه قال : « مَنْ أَقَالَ نَادِمًا يَبِيعُهُ أَقَالَه الله عَثْرَتَهُ » ، أى عفا من زلته .
أبرزه : أظهره ، ويريد بقوله : وفى القلب أشياء : أنه أضمر ألا يقيله أبدا .
يرفض : يسقط متفردًا . خَفَضَ : سَكَنَ . بُرَحَاء : شَدَّة . الوجد : الحزن .
الإشفاق : الخوف . تَنَيَّ : تَفَتَّرَ .



ثم قال له : أَسْتَوْدِعُكَ مَنْ هُوَ نِعَمُ المولى . وشمَّرَ ذَيْلَهُ
وَوَلَّى . فَلَبِثَ السَّلَامُ فِي زَفِيرٍ وَعَوِيلٍ ، رَيْشِمًا يَقْطَعُ مَدَى
مِيلٍ . فلما استَفَاقَ ، وكفكَفَ دَمْعُهُ المَهْرَاقَ ، قال : أَتَدْرِي لِمَ أَعَوَّلْتُ
وَعَلَامَ عَوَّلْتُ ؟ فقلتُ : أَظُنُّ فِرَاقَ مَوْلَاكَ ، هو الذى أَبْكَاكَ .
فقال : إِنَّكَ لَنِي وَاِدٍ ، وَأَنَا فِي وَاِدٍ ، وَلَكُمْ بَيْنَ مُرِيدٍ وَمُرَادٍ ،
ثم أنشد :

لَمْ أَبْكِ وَاللهِ عَلَى إِلْفٍ تَزَحْ

وَلَا عَلَى فَوْتٍ نَعِيمٍ وَفَرَحٍ

وإنما مَدَمَعُ أَجْفَانِي سَفَعَحَ عَلَى غَبِيٍّ لِحْظُهُ حِينَ طَمَعَحَ

وَرَطَّهُ حَتَّى تَعْنَى وَافْتَضَّحَ

وضيَّعَ المَنْقُوشَةَ البَيْضَ الوَضَحَ

وَيْتِكَ أَمَا نَاجَتْكَ هَاتِيكَ الْمَلَحْ
بَأَنْتِي حُرٌّ وَيَعِي لَمْ يُبْسَحْ
• إِذْ كَانَ فِي يُوسُفَ مَعْنَى قَدْ وَضَحَ •

• • •

زَفِير: أنفاس مرتفعة . عويل: بكاء . ريث: قَذَر . مَدَى: غاية . والمِيل:
تَقْدَر مَدَّ البَصَر من الأرض ، ويقال إنه ألف خطوة من خُطَا البعير ، والقرسخ:
ثلاثة أميال ، والبريد أربعة فراسخ . استفاق: استراح وخف ما يجده . كفسف:
رَدَّ وأذهب . المَهْرَاق : المصبوب . أعولت : بكيت بصوت هالي ، وأعول
لأعوالاً : صاح ، ورفق صوته ، وعولت على كذا اتسكت عليه ، وعلى الله
معولاً اتسكالى ، وقال الشاعر :

• وَلَيْسَ عَلَى رَبِّبِ الزَّمَانِ مَعُولُ •

كم بين مُريد ومُراد ، يريد أنهما متقاربان في اللفظ ، متباعدان في المعنى ،
لأن المرید في الشيء المحب فيه ، والمراد الشيء المطلوب ، وهو المحبوب ، فانت
قد تُريد الشيء فتمنعه ، وغيرك قد يراد له فيأباه ولا يريد ، فاللفظان متضادان ،
فيقول : التبس عليك سرّ بكأني فظننت أنه على فراق مولاي . فتفطن الآن أنه
على سُخْف عقلك ، كما التبس اللفظان على غير ناقد ، فإذا تفطن لهما تباعدا عليه ،
والمرید عند أهل الإرادة المبتدى ، والمراد المنتهى ، فالمرید هو الذي نُصب للتعجب
والمقاساة ، والمراد الذي لقي الأمر من غير مشقة ، فهو مرفوق به مرفقة ، وقيل :
للمريد متحمّل والمراد : محمول .

الجنيد: المرید تتولاه سياسة المعلم ، والمراد تتولاه رعاية الحق ، لأن المرید يسهر ،
والمراد يطير ، فحق يلحق السائر الطائر !

القشيري : كل مرید في الحقيقة مُراد، لأنه إذا أراد الحق للخصوصية ، وفقه للإرادة ، ولكنهم فرقوا بينهما .

قوله : إلف ، أى صاحب . نَزَح : بَعُد . سَفَح : جرى . غَبَى : جاهل .
لَحَظَه : نظره . طَمَح : ارتفع . وَرَطَه : أنشبه ، والوَرَطَه : أهوية تكون في رأس
الجبل يشق على مَنْ وقع فيها الخروج منها . وتورطت للماشية : وقعت في الورطه ،
قال طُفيل :

تهابُ طريقِ الحقِ نحسبُ أنه وُعُورٌ ورِاطٌ وهو بَيْدَاهُ بُلُغٌ^(١)
وقيل : الورطة : الوحل تقع فيه الغنم ، فلا يمكنها التخلص ، ثم ضرب مثلاً
في كل شدة يقع فيها الإنسان ، وأورطت فلانا فتورط هو ، أى وقع فيما بمسر
التخلص منه .

أبو عمرو : الورطة الملسكة ، قال الزجاج :

إن تأت يوماً مثلَ هذى الخَطَّة نلاقٍ من ضَرْبِ نَمِيرٍ وَرَطَه^(٢)
قوله : نَعَتَى ، أى نعب . افتضح : اشتهر ، والوضَّح : الشديدة البياض النقية ،
أى ضيَّع الدراهم المنتوشة البيض ، والوضُّح : البيان والضوء والغرة والفضة
والدرهم الصحيح ، وقيل : إنه وصف الدراهم بالمصدر ، كما يقال : امرأة زُورٌ
وكرم . وبك : عَجَباً لك . وقوله : هاتيك ، يقال للمذكَّر : ذا ، وهو القريب ، وذاك
لما هو أبعد ، وذلك لأبعد الثلاثة ، وللمؤنث ذه وذى وبلايا ، وتأتى وهى
للقريبة ، وتيك التى هى أبعد منه ، وتلك وتالك لأبعدهن ، وتدخل ها التنبية على
كل ما ليس فيه لام ، لأن اللام موضوعة للبعيد ، وها موضوعة للقريب ، فلا يجمع

(١) البيت في السان - ورط .

(٢) السان (ورط) وق ط م نيمز ، وصوابه من السان .

بينهما ، نحو هذا وهذاك وهاتا ، وشاهده :

• وليست دارنا هاتا بدار •

وهذه وهذى وهذ وهاتيك ، وشاهده قولُ ذى الرُّمة :

قد احتملتُ مئىً فهاتيك دارُها بها السَّحْمُ تَرْدَى والحَمَامُ المَطْوُوقُ^(١)

قوله : لم يبيع ، أى لم يحمل مباحاً .

أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة أنا خصمهم ، ومن كنت خصمه خصمته : رجل عاهد ثم غدر ، ورجل باع حرّاً ، ورجل استأجر أجيراً فلم يوفّه أجره » . وَضَحَ : تبيّن .

• • •

قال : فتمثّلتُ مقالَهُ في مِرآةِ المَدَاعِبِ ، ومعرِضِ المَلَاعِبِ ، فتصَلَّبَ تَصَلَّبَ المُحِقِّ ، وتبرأً مِنْ طِينَةِ الرِّقِّ . فجَلُنَا في مُخَاصِمَةٍ ، واتَّصَلَتْ بِمَلَائِكَةٍ ، وأَفَضْتُ إِلَى مُحَاكَمَةٍ : فَلَمَّا أَوْضَحْنَا لِلْقَاضِي الصُّورَةَ ، وتَلَوْنَا عَلَيْهِ السُّورَةَ ، قال : أَلَا إِنَّ مَنْ أَنْذَرَ ، فَقَدْ أَعْذَرَ ، وَمَنْ حَذَرَ كَمَنْ بَشَّرَ . وَمَنْ بَصَّرَ فَمَا قَصَّرَ ؛ وَإِنْ فِيمَا شَرَحْتُمَاهُ لَدَلِيلًا عَلَى أَفْءِ هَذَا الْغَلَامِ قَدْ نَبَّهَكَ فَمَا ارْعَوَيْتَ ، وَنَصَحَ لَكَ فَمَا وَعَيْتَ . فَاسْتَرْتُ دَاءَ بَلَهِكَ وَاکْتُمْتُهُ ، وَلَمْ تَفْسِكَ وَلَا تَلْمُهُ ، وَحَذَارٍ مِنْ اغْتِلَافِهِ ، وَالطَّمَعِ فِي اسْتِرْفَاقِهِ ، فَإِنَّهُ حُسْرُ الْأَدِيمِ ، غَيْرُ مَعْرُوضٍ لِلتَّقْوِيمِ .

(١) ديوانه ٣٩٠ . قال في شرحه : « السَّحْمُ : السود ، يعنى الغريبان . تردى ، أى تذهب .

والغراب لا يستطيع المشى . ويروى : « بها السَّحْمُ فَوْضَى » .

وقد كان أبوه أخضره أمس ، فَبَيَّلَ أَفُولِ الشَّمْسِ ، واعْتَرَفَ
بأنه فرعه الذي أنشأه ، والآ وارث سواه ، فقلت للقاضي :
أوتعرفُ أباه ، أخزاه الله ! ، فقال : وهل يُجْهِلُ أبو زيد الذي
جُرْحُهُ جُبَّار ، وعند كلِّ قاضٍ له أخبارٌ وإخبار ، فتحرقتُ حينئذٍ
وحولقتُ ، وأفقتُ ولسكنَ حينَ فاتَ الوقتُ ، وأيقنتُ أنَّ
لِثَامَهُ كَانَ شَرَكَ مَكِيدَتِهِ ، وبيتَ قَصِيدَتِهِ . فنكسَ طرفي ما أقيتُ ،
وآليتُ ألا أعملَ ملثماً ما بقيتُ .



تمثلت : تصورت . المداعب : المازح . والمعرض بفتح الميم : الموضع الذي
تعرض فيه الأشياء ، والمعرض الثوب تعرض فيه الجارية . تصلَّت : تقوى ، وهو
« تَقَلَّ » من الصَّلابة وهي الشدة . والأرض الضَّلْبَة : القوية . ولا أعلم أحداً خالف
في هذه الرواية إلا ابن ظفر فإنه رواه : « تصلَّت » بالناء بنقطتين ، وفسره بتجرد
وجدت ، وكل جاد مجاهد مسرع في أمره : فهو مُتَصَلَّت فيه ، فذكروا أنه تصحف
عليه اللفظ ، فشرحه على تصحيفه . المحق : صاحب الحق . الرق : العبودية : وذكر
الطينة لأنها أصل الخلق . وتبرأ منها ، تباعد . جُلْنَا : تضرعنا . ملاكمة : مدافعة
ومُضاربة ، والاسم : الضرب بمُجْمَع الكف . أفضت : انصلت . أوضحنا :
بيَّنا . الصورة : القصة . تَلَوْنَا : قرأنا . وذكرواها له . أنذر : أعلم . أعذر : أنى
بعذر ، ويقال : قد أعذر من أنذر ، أى قد بلغ أقصى العذر من أنذك ، وهذا
الرجل فهو معذر ، إذا اعتذر ولم يأت ببذر . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ
مِنَ الْأَعْرَابِ ﴾ . ارعويت : رجعت عن جهلك وانكففت . بلهك ، غفلتك
وجهلك . حَذَار ، أى احذر أن تتعلق به . استرقاقه : تملكه وتمعبده ، ومنه

قولهم : سوق الرقيق ، ومنه سُمِّيَ العبد رقيقاً ، لأنهم يرقون لئلا يملكهم ويخضعون له ويذلون : والأديم : الجلد . للتقويم : لمعرفة قيمته . أقول : غروب . أنشأه : أحدثه وولده . جُبَّار : باطل . إخبار : إعلام . وأخبار : جمع خبر ، وأخبره : أعلمه . تحرقت : عضضت أسناني حتى صوتت من شدة الغيظ . حَوَلْتُ : قلتُ : لاحول ولا قوة إلا بالله . أفت : انتبهت ، وأنشد للفنجدية في معنى هذا :

بفتضحُ الجاهلُ لكنَّهُ من بعد ما غرَّبه الناصحُ
وبصلح ابنُ السوء لكنَّهُ من بعد مامات الأبُ الصالحُ

قوله : وأيقنت أن لثامه كان شَرَكْ مكيدته ، أى شبكة حيلته . وبيت القصيدة : أحسن بيت فيها ، فأراد أن حيلته كانت لثامه ، فكس طرفي : أى كسر عيني ، وأمال نظري .

• • •

وَلَمْ أَزَلْ أَتَاوَهُ لُحْسِرِ صَفَقَتِي ، واقتضاحي بين رَفَقَتِي . فقال لي القاضي ، حينَ رأى امتناعي ، وتبينَ حرَّ ارتِمَاضِي : يا هذا ، ما ذهب من مالك ما وعظك ، ولا أجرمَ إِلَيْكَ مَنْ أَيْقَظَكَ . فاتعظ بما نابك ، وكاتِمَ أَصْحَابِكَ ما أصابك ؛ وتذكرْ أبدأ ما دهمك . لتقيَ الذِّكْرَى دَرَاهِمَكَ ، وتخلِّقَ بتخلُّقِ مَنْ ابْتُلِيَ فَصَبَرَ ، وتجلَّتْ له العِبر فاعتبر .

قال الحارث بن كهمام : فودعته لابسا ثوبَ الخجل والحزن ، صاحباً ذيلِي الغَبْنِ والغَبْنِ ، ونويتُ مكاشفةَ أبي زيدٍ بالهَجْرِ ، ومصارمته يدَ الدهر . فجعلتُ أتسكَّبُ عَنْ ذَرَاهِ ، وأتَجَنَّبُ أَنْ

أَرَاهُ ؛ إِلَى أَنْ غَشَيْتَنِي فِي طَرِيقِ ضَيْقٍ ، فَجِئَانِي تَحِيَّةَ شَيْقٍ ، فَأَزَدْتُ عَلَى أَنْ عَبَسْتُ وَمَا نَبَسْتُ ، فَقَالَ لِي : مَا بِالْكَ شَمَخْتَ بِأَنْفِكَ عَلَى الْفِكَ ! فَقُلْتُ : أُنْسَيْتَ أَنَّكَ اخْتَلْتَ وَخَتَلْتَ ، وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ ! فَأَضْرَطُّ بِي مُتَهَارِياً ، ثُمَّ أَنْشُدُ مُتَلَفِياً :



أَنَاوَهُ : أَنْوَجَعَ . رَفَقَتِي : أَحْبَابِي . امْتَعَاظِي : تَوَجَّعِي . ارْتِمَاضِي : حَرَقَةٌ قَلْبِي مِنْ شِدَّةِ الْهَمِّ ، وَلَا يَكُونُ الْمَتَمِضُ كَاطْطًا ، فَلَا يَدُ مِنْ ظُهُورِ الْكَرْبِ عَلَيْهِ ، وَأَمْرٌ بِمِعِضٍ وَمَاعِضٍ ، أَيْ عَمَضَ كَارِبٌ .

قوله : مَا ذَهَبَ مِنْ مَالِكَ مَا وَعْظُكَ ، هُوَ مِثْلُ ، وَمَعْنَاهُ إِذَا ذَهَبَ مِنْ مَالِكَ شَيْءٌ حَذَرُكَ أَنْ يَحِلَّ بِكَ مِثْلُهُ ، فَتَأْدِيبُهُ إِيَّاكَ عَوَظٌ مِنْ ذَهَابِهِ . أَجْرَمَ : أَذْنَبَ . نَابَكَ : نَزَلَ بِكَ . دَهَمَكَ غَشِيَتِكَ . تَجَلَّتْ : ظَهَرَتْ . الْعَبْرُ : الْعَلَامَاتُ الْخَوْفَةِ ، وَاعْتَبَرْتَ بِالشَّيْءِ إِذَا انْتَمَعْتَ بِهِ . الْحُجْلُ : الْحَيَاءُ . سَاحِبَا : جَارَا . الْغُبْنُ : بَسْكَوْنُ الْبَاءِ فِي الْبَيْعِ ، وَبِفَتْحِهَا فِي الرَّأْيِ ، يَرِيدُ أَنَّهُ غُبْنٌ فِي رَأْيِهِ وَيُبِيعُهُ ، قَالَ فِي الدَّرَةِ : الْغُبْنُ بِإِسْكَانِ الْبَاءِ فِي الْمَالِ ، وَبِفَتْحِهَا فِي الرَّأْيِ وَالْعَقْلِ . نَوَيْتَ : أَضْمَرْتُ . مَصَارِمَتُهُ : مَقَاطَعَتُهُ ، وَصَرَمْتُ فَلَانًا : قَطَعْتُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ مِنَ الْمَوَدَّةِ . وَالْعَرَمُ : الْقَطْعُ ، وَقِيلَ لِلَّيْلِ صَرِيمٌ ، لِانْقِطَاعِهِ عَنِ النَّهَارِ ، وَهُوَ فِي تَأْوِيلِ مَنَصْرُومٍ أَيْ مَقْطُوعٍ ، وَكَذَلِكَ الصَّرِيمُ مِنَ الرَّمْلِ ، وَهُوَ الَّذِي انْقَطَعَ مِنْ مَعْظَمِهِ .

يَدُ الدَّهْرِ : أَيْ أَبَدَ الدَّهْرِ .

أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَا يَجْلِسُ لِلْمَسْلَمِ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ وَالسَّابِقُ السَّابِقُ إِلَى الْجَنَّةِ » .

دَرَاه :جهته . غَشِيَنِي : قصدنى وأنانى على غفلة . شَتِيق : شديد الحب ،
 هَانَبَسْتُ : مانسكمت . شَمَخْتُ : رفعت أنفك كبرا ، وشمخ : تكبر . خَنَت :
 خدعت ، وخانل فى معنى خَنَل ، وأصل الخائلة المشى للصيد قليلا قليلا خفية لئلا
 يُسَمِع حَسَك ، ثم جُمِلت مثلا لكل شئ وُرِى به وَسَّتَر على صاحبه . مثلافيا :
 مقدار كما للألفة .



يَا مَنْ نَدَا مِنْهُ صُدُو دُ مُوَحِشُ وَتَجْهِمُ
 وَغَدَا يَرِيشُ مَلَاوِمَا مِنْ دُونِ الْأَسْهَمِ
 وَيَقُولُ : هَلْ حُرُّ يُبَا عُ كَمَا يُبَاعُ الْأَدَمُ
 أَقْصِرْ فَا أَنَا فِيهِ بِذِ عَا مِثْلُ مَا تَتَوَّهُمُ
 قَدْ بَاعْتَ الْأَسْبَاطُ قَبْلِي يَوْسُفَا وَهَمُ هُمُ
 هَذَا وَأَقْسِمُ بِالنَّبِيِّ يَسْرِي إِلَيْهَا الْمُتَّهَمُ
 وَالطَّائِفِينَ بِهَا وَهُمْ شَعْتُ النُّوَاصِي سَمُّهُمْ
 مَا قَتُ ذَاكَ الْمَوْقِفَ الـ مُخْزِي وَعِنْدِي دِرْهَمُ
 فَاَعْذِرْ أَخَاكَ وَكَفَّ عَنْهُ مَلَامَ مَنْ لَا يَفْهَمُ



تَجْهَمُ : عُبُوس . مَلَاوِمَا : جمع مَلَام أو ملاومة ، وهى اللوم والعتاب ،
 يريد أن لومه أنفذ من السهام . الْأَدَمُ : قيل : أراد به الفرس وقصد لونه للقفاية ،
 وقيل : أراد العبد الأسود . بِذِ عَا ، أى أوْلا أى ماأنا أوْل من فعل ذلك . الْأَسْبَاطُ :

إخوة يوسف عليه السلام . وهم هم : أى وهم أنبياء لم يتغيروا عن مراتبهم ، ويقال : هو هو ، أى هو كما عهدته لم يتغير .

[قصة يوسف عليه السلام]

وقد جرى ذكرُ يعقوب والأسباط في المقامات في مواضع، وبقي هذه المقامة على ذكر يوسف وجهاله وبيع إخوته لإياه . ونريد أن نلم بطرف من أخبارهم على شرط الكتاب .

ذكر أهلُ الأخبار أن يعقوب - وهو إسرائيل عليه السلام - تزوج بنت خاله ليا بنت لئان بن بتويل، فولدت له رؤوبيل وشمعون ولاوى ويهوذا وغيرهم، ثم توفيت وخلف على أخيها راحيل، فولدت له يوسف وبنيامين . وكان يوسف وأمه قد قُسم لهما من الحسن شطره، فكفلت يوسف عمته . وكانت أكبر ولد إسحاق، وكانت عندها منطقة لإسحاق يتوارثونها على قدر أسنانهم. فلما ترعرع يوسف أراد يعقوب أخذه منها، وقال لها : والله لأقدر على الصبر عنه، فقالت له : والله لا أقدر على صبري إليك . فلما رأت عزمه على أخذه، حزمت للمنطقة تحت ثياب يوسف وهو نائم، ثم ادعت فقدّها فطلب فوجدت عنده، وكان من سذنتهم أن من سرق شيئاً أخذه فيه، فتركه لها حتى ماتت . فلما رجع إلى أبيه شغل به عن سائر بنيهِ، فحسدوه، فسألوا أباهم إرساله معهم للنزعة، بعد أن ضمنوا حفظه، فأخرجوه إلى البرية، وأخذوا يضربونه، وكلما ضربه واحد استغاث بآخر، فيضربه الآخر . فلما كادوا يقتلونه منعهم يهوذا، وذكّرهم بما ضمنوا لأبيه من حفظه، فانطلقوا فأدّوه في الجب، وهو يقول : يا أباه لو تعلم ما يصنع بابنك بنو الآباء ! وكان بعض إخوته لأمه، فجعل يتعلق بشفير الجب، فربطوا يديه، وألقوه فيه، فقالوا له : ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكبا يتجّوك . ثم أرادوا أن يرّضخوه بصخرة، فمنعهم يهوذا، وكان يأتيه بالطعام خفية منهم .

ثم مرت سيارة فأدلى واردٌهم دلوّه فتعلق به ، فلما رآه بشر به السيّارة .
وقال السّدى: إنّ الذى أخرجه إنّما دعا صاحباً له اسمه بشرى ، فأتى إخوته الذين
أخرجوه وقالوا: إنه عبد لنا ، فباهوه منهم بعشرين درهماً على أن يُخرجوه من
أرض الشام ، فشرطوا لإخوته أن يفرّبوّه ، ويذهبوا به إلى مصر ، فحينئذ رجعوا
إلى أبيهم عشاء يبيكون .

فهذه قصة بيع الأسباط يوسف على اختصار .

ثم إنّّه لما بلغ مصرَ من العزيز ، وكان فرعون - وهو الريّان بن الوليد -
قد ولّاه خزائنها ، فكان من قصّته مع امرأة العزيز ومن حبّها فيه ومن دعاها
إياه لنفسها ، ومن تأبّيه من ذلك واستنزالها إياه ؛ حتى همّ بها ، ورؤيته برهان
ربه - وهو رؤيته صورة يعقوب يمضّ على إصبعه ، وقيل : إنه رأى في الحائط
مكتوباً : « ولا تقربوا الزنا - ومبادرته الباب فاراً منها ، وقدّها قيصه من دُبر ،
وجوده العزيز على باب الدّار جالساً مع ابن عمّ له ، وهو الشاهد من أهلها - وقيل :
إنّه كان صبيّاً في المهد - واشتجار أمرهما بمصر ، حتى تحدّثت به نسوة في المدينة ،
وقلن : امرأة العزيز تُرّاد فتنها عن نفسه ، وإحضارها لمن وإعدادها لمن ما يتكهن
عليه - وقيل : المتكسّماً الأترج - وأمرها له أن يخرج عليهنّ ، وإعظامهنّ إياه حتى
شغلن به عن أنفسهنّ ، وقطنن أيديهنّ وقلن : حاش لله ما هذا بشراً ، نزيهاً له
عن أن يأتى - مثله ربيّة ، فكان من هذا الخبر ما قص الله في القرآن ونطقت به
التّفاسير والأخبار .

ثم إنّ امرأة العزيز قالت للعزيز: إنّ عبدك فضّحنى فى النَّاسِ فإمّا سجنّته ،
وإمّا برزت للناس أعتذر عن نفسى ، فحبسه ، فدخل معه رجلان أحدهما خبّاز
الملك والآخر نديمه . وكان لما بلغ الحلم آتاه الله حُكماً وعلماً من العبارة ، فكان

في السَّجَن يفسر الرؤيا للسجّونين ، ويمرض مرضاهم ، ويوسع على من ضاق عليه مكانه ، قال أحد الفتّيين لصاحبه : هلمَّ نُجرب هذا العبد . فسألاه من غير أن يربا شيئاً ، وقال له : إنا نراك من المحسنين في معاشرتكَ أهل السّجن ، قال لهما : أمّا أحدكما فينادم الملك ، وأمّا الآخر فيصلب ، فقال له : مارأينا شيئاً ، قال لهما : قضي الأمر فيكما . ثم قال للذي ظن أنه ناجٍ منهما : اذكُرني عند ربك ، وأخبره أني محبوس ظلمًا . فأوحى الله تعالى إليه : إن اتخذت من دوني وكيلًا لأطيلن سجنك ، فعوقب بالسّجن حيث همّ بامرأة العزيز ، وبإطالته حيث انكسل في أمره هل غير ربه .

ثم كان من رؤيا الملك وجنّاه أهل دولته وتفسير يوسف لهما ، وقول الملك : انثوني به وتأبّيه الخروج حتى يسأل النسوة عن شأنه وشهادتهن عند الملك بتبرئته واعتراف امرأة العزيز بأنها راودته ، وقوله في العزيز : ﴿ لَيْعَلْ أَنَّى لَمْ أَخُذْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ .

ويقال إن جبريل قال له عند ذلك : ولا يوم هممت بما هممت به ! فقال : ﴿ وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالشوء إلا مارجم ربى .. ﴾ الآية . واستخلاص الملك لإياه لنفسه ، وجعله على خزان أرضه ؛ ما اشتهر قرآنًا وتفسيرًا .

ويقال إن العزيز مات في تلك المدة ، وإن يوسف تزوجها ، وقال لها : أليسَ هذا خيرًا ؟ فقالت : لا تلهي ، كنت امرأة حسناء في مُلكٍ ودُنْيا ، وكان صاحبي لا يأتني النساء ، وكنت كما جعلك الله في حُسنك ، فغلبتني نفسي على ما رأيت . فیزعمون أنه وجدها عذراء ، وأنها ولدت له ابنتين .

ثم أجذبت الأرض ، فأناه إخوته منتجمين ، فكان من أمره معهم ، وإحسانه إليهم في الكيل ، وطلبه لهم أن يأتوه بشقيقه بنيامين ، ورجوعهم موقرين ، ورغبته إليهم في إرساله معهم ، وأخذه بسرقة الصّواع وتأذيتهم بذلك ، ورجوعهم إليهم (١١ - شرح مقامات الحريري ج ١)

أبيهم وتوالى الحزن على يعقوب بفقد ابنيه ، وأمره لبنيه أن يرجعوا مطالبين ليوسف وأخيه ، ودخلهم على يوسف أذلاء صاغرين ، وتمريفه إياهم بمكانه ، وبعثه بالقميص إلى أبيه ، وجمع شملهم بعد طول مدة الفراق ما نص الله تعالى أنه عبرة لأولى الألباب . ولولا أن الأمر في كتب التفسير أشهر من أن يحتمل ، لفسرناه فصلاً فصلاً .

قوله : وأقسم بالتي بَسْرِي إليها الْمُتَمِّم - بمعنى مكة - والمُتَمِّم الآتي سِهامة ، وسِهامة اسم مكة ، قال الأصمعي : سمعت العرب تقول : إذا انحدرت من ذات عِرْق فقد أتممت . شئتُ سُهُم : أى متغيرة ألوانهم وشعورهم .

قوله : اهذر أخاك ، قال زيد بن علي : ثلاثة لا يجتمعن إلا في كريم : حُسن الحضر ، واحتمال زلات الإخوان ، وقلة الملاة للصديق .

ثم قال : أمّا مَنذَرِي فَقَدْ لاحت ، وأمّا دراهمُكَ فَقَدْ طاحت ؛ فإن كان أَشْعَرَاكَ مِنِّي ، وازورارك عَنِّي ، لَفَرَطِ شَفَةِكَ عَلَى غُبْرِ نَفَقَتِكَ ، فَلَسْتُ بِمَنْ يَلْسَعُ مَرَّتَيْنِ ، وَيُوْطِي عَلَى جَهْرَتَيْنِ . وإن كنت طويت كَشْحَكَ ، وَأَطَمْتَ شَحْكَ ، لَتَسْتَنْقِذَ مَا عَلِقَ بِأَشْرَاكِ ، فَلَتَبِكَ عَلَى هَقْلِكَ الْبَوَاكِ .

قال الحارث بن همام : فاضطررتني بلفظه الخالب ، وسبحره الغالب ، إلى أن عدت له صفياً ، وبه حَفِيًّا ، ونبذت فعلته ظَهْرِيًّا ، وإن كانت شيئاً فَرِيًّا

لاحت : ظهرت . طاحت : هلكت اقشعرارك : انقباضك .
والقشعريرة : رعدة وانقباض . ازورارك : انقباضك وميلك . لفرط شفتك ،
لكثرة خوفك . غير نفقتك : أى تخاف على ما يبقى من نفقتك وإن أخذها .
يوطىء ، أى يجعل غيره يطاء الجمر ، أى لأضر مرتين . والكشع : الخضر ،
وقيل : الجنب ، وقيل : هواسم للآيين الأضلاع ، ورأس الورك ، وكلها مقاربة ،
وطوى كشحه على أمر ، استمر عليه ، وطوى كشحه ، مثل يضرب للجانبية
والكائمة ، قال الشاعر :

طوى كشعاً خليلك والجناحا لبين منك ثم غداً وراحاً^(١)
والشع : البخل مع الحرص ، واضطرنى : ألجأنى ، الخالب : الخادم .
صفيًا : صاحباً مخاصماً . حفيًا : معيناً . كريماً : مكرماً ، نبذت : رميت . وطرح
ظهيراً ، أى خلف ظهري ، واتخذ ظهرياً ، أى عُدّة يستظهر بها ، أى يجعلها
خاف ظهري حتى متى احتاجها استعملها فرياً : عجباً ومذكراً ، والفرى :
الأمر العظيم ، والفرى الكذب .

ومما جاء في الشعر على أخبار يوسف عليه السلام

قال ابن الزقاق :

بأبى وغير أبى أغنُّ مَهْمَهفٌ مهضوم ماخلف الوشاح تخيصة^(٢)
لبس الفؤاد فرقة جفونه فأنى كيوسف حين ودَّ قيصه

وقال أيضاً :

وسافر عن قرٍ مبسم عن درر^(٣)

(٢) ديوانه ١٩٦ ، والخيصة : الضامر البطني .

(١) اللسان (كشع)

(٣) ملحق ديوانه ٢٩٣

لولا حور وقد سل حُسام الحور
لنذ منه شفقاً قميصه من دُبر

ومن الملح في ذلك قول ابن حجاج في مختيار :

فديت وجه الأمير من قمرٍ
إن زلخا لو أبصرتك لما
بل وحياتي لو كنت يوسفها
فإنني عالم بأنك لو
سبقها وانذلت تقبها
ولم تزل بالكدين تنقرها^(١)
طبعك كالماء في سهولته
إن الملوك الشباب ما خلّقوا
يجلو القذى نوره عن البصر^(٢)
ملت إلى الحشر لذة النّفار
لم تك من تهمة العزيز برى
شممت ربّا نسيمها العطير
من بين تلك البيوت والحجر
من قبل وقت العشا إلى السّحر
لكن أبو الزُّرقان من حَجَرٍ
إلا صلاب الفياش والكمَرِ

وقال آخر :

قميص يوسف لما قد من دُبرٍ
وفي قميصك لما قد من دُبرٍ
كانت براءته فيه من الكذب
تما يدلّ على الفحشاء والريب

وقال آخر في الحسن بن وهب :

إذا لقيت بني وهب بمنزلة
مؤدّبون على الفحشاء من صغري
قيص أنشاهم ينشق من قبل
معنكون ولم تقطع سرارهم
لم تدر أيهما الأنقى من الذّكر
مدربون على النّكراء من كبر
وقص ذكرائهم تنفذ من دُبرٍ
بين الحواضين والدايات بالكمَرِ

(٢) البنية : « تقصرها » .

(١) البنية ٣ : ٤٠ .

المقامة الثالثة والثلاثون وتعرف بالتقليسية

حكى الحارث بن همام قال : مَرَرْتُ فِي تَطَوٍّ فِي بَشِيرَاز ، عَلَى نَادٍ
يَسْتَوْقِفُ الْمُجْتَازَ ، وَلَوْ كَانَ عَلَى أَوْفَازٍ ؛ فَلَمْ أَسْتَطِعْ تَعَدِّيهِ ،
وَلَا خَطَّتْ قَدَمِي فِي تَخَطُّيهِ ؛ فَمَجَّتْ إِلَيْهِ لِأَمْسُكَ سِرَّ جَوْهَرِهِ ؛
وَأَنْظَرُ كَيْفَ ثَمَرُهُ مِنْ زَهْرِهِ ، فَإِذَا أَهْلُهُ أَفْرَادٌ ، وَالْمَانِجُ إِلَيْهِمْ مُفَادٌ .
وَيَنْمَانُحُنُ فِي فَكَاهَةِ أَطْرَبَ مِنَ الْأَغَارِيدِ ، وَأَطْيَبَ مِنْ حَلَبِ
الْعَنَاقِيدِ ؛ إِذَا احْتَفَّ بِنَاذِرِ طَمَرَيْنِ ، قَدْ كَادَ يُنَازِلُ الْعُمَرَيْنِ ، فَحَيًّا
بِلِسَانِ طَلِيقٍ ، وَأَبَانَ لِإِبَانَةِ مِنْطِيقٍ ، ثُمَّ احْتَبَى حُبُورَةَ الْمُتَتِدِينَ ،
وَقَالَ : اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ . فَازْدَرَاهُ الْقَوْمُ لِطُمَرِيهِ ، وَنَسُوا
أَنَّ الْمَرْءَ بِأَصْفَرِيهِ



القطواف : مصدر طوّفت حول الشيء ، إِذَا أَكْثَرْتَ الْمَشْيَ حَوْلَهُ ،
وَقَدْ طَفَّتْ بِهِ وَأَطَفْتُ ، وَإِذَا دَرْتَ وَأُكْثِرْتَ ذَلِكَ قُلْتَ : طَوَّفْتُ .

وشيراز : مدينة فارس العظمى ، وهى مدينة جليلة عظيمة ، ينزلها الولاة ،
ولها سمعة حتى إنه ليس فيها منزل ، إِلَّا وفيه لصاحبه بُسْتَانٌ فِيهِ جَمِيعُ الثَّمَارِ
وَالرِّيَاحِينَ وَالْبُتُولِ ، وَكُلُّ مَا يَكُونُ فِي الْبُسَانِينَ . وَشُرْبُ أَهْلِهَا مِنْ عِيُونِ
تَجْرَى فِي أَنْهَارٍ تَأْتِي مِنْ جِبَالٍ يَسْقُطُ عَلَيْهَا الثَّلَجُ .

قوله : ناد : مجلس . يَسْتَوْقِفُ : يَحْبِسُ وَيَجْعَلُهُ يَقِفُ . الْمُجْتَازُ : خَاطِرُ الطَّرِيقِ
الْمَارِّ عَلَيْهِ .

أوفاز : انخفاز وعجلة ، ومنه قولهم : قعد مستوفزاً ، معناه قعد على وفز من الأرض ، والأوفاز : جمع وفز وهو ألا يطمئن في قعوده . قال الجوهري رحمه الله تعالى : تقول نحن على أوفاز ، ولاتقول على وفز ، ومعناه ألا تلقاه مُعَدّاً . الأزهري : الوفزة : الوثبة بعجلة ، وقعد مستوفزاً ، إذا رفع اليدين ووضع رُكبتيه ولم يطمئن .

نعتيه : تحطيه وجوازه . وخَطَّتْ : مشت . عَجَّتْ : مِلَتْ . أَسْبُكْ . أُجْرَبَ سرّ جوهره : أراد باطن أهله إذ كانوا في الظاهر ذوي مناظر ، فأراد أن يعرف : هل هم أهل علوم وآداب ، حتى يكملوا في الظاهر والباطن ، أم أمرهم على خلاف ذلك . وبين ذلك بقوله : كيف ثمره من زهره ، فكشى بالزهر عن ظاهرهم ، وبالثمر عن سرهم الباطن ، وسرّ كل شيء : باطنه وخاله ، وقال المعري :

فلا يفرّئك بشرّ من سواه بدا ولو أنار ، فكم نورٌ بلا ثمر^(١) .

قوله : أفراد ، أي كبراء لانظير لهم ، فن مال إليهم استفاد ، وأفراد : نجوم الدّراري . والمائج : المائل . فكاهة : حديث مطرب . الأغاريد : أصوات الطير ، ويطلقون على ما كان فيه حنان ورقة منها اسم التّغريد والغناء ، إلا الحمام فإنهم يسمّون أصواتها غناء وتغريدا وبكاء ونياحاً ، يأخذونه من حال السامع لها . وقرئ على أبي الحسن بن السراج قول سُويد بن الأعم :

لقد تركت فؤادك مستجناً مطوّقةً على قنّ تَغَيّ
يميل بها وتركبه بلحنٍ إذا ما عنّ للـحـزون أنا

(١) سقط الزند ١٣٩ ، وفي ط : « سر » موضع : « بشر » .

قَالَ : إِنَّمَا تَكُونُ أَصْوَاتُ الْحَمَامِ عَلَى مَا فِي نَفْسِ الْمُسْتَمِعِ ، فَإِذَا سَمِعَهَا مَنْ
يَطْرِبُ سَمَاهَا غَنَاءً ، وَإِذَا سَمِعَهَا مَنْ يَحْزَنُ سَمَاهَا بَكَاءً .

وَقَالَ ابْنُ قَاضِي مِيلَةَ مَعْدًا لَمَّا قَالَ ابْنُ التَّرَاجِ :

لَقَدْ قَرَّضَ الْحَمَامُ لَنَا بِسَجْعٍ إِذَا أَصْنَى لَهُ رَكْبٌ تَلَاخِي
شَجَا قَلْبَ الْخَلْقِ قَالَتْ غَنَى وَبَرَحَ بِالشَّجْوَى قَالَتْ نَاحَا^(١)

وَسَهَقَ الْمَعْرَى بِقَوْلِهِ :

بَارِضٍ لِلْحَمَامَةِ أُنْ تَغْنَى بِهَا وَلَنْ تَأْسَفَ أَنْ تَفُوحَا^(٢)

وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي شَرْحِ الْمَصْدَرِ فَصْلًا لِلْحَمَامِ . وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ الْبَحْتَرِيِّ :

حَيَّتْكَ عَنَّا كَيْمَالُ طَائِفِ طَائِفُهَا فِي جَنَّةٍ نَفَعَتْ رَوْحًا وَرِيحَانًا
غَنَّتْ سَعِيرًا فَنَاجَى الْفَصْنَ صَاحِبَهُ سِرًّا بِهَا ، وَتَدَاعَى الطَّيْرُ إِعْلَافًا
وُورَقٌ تَغْنَى عَلَى غُصْنٍ مَهْدَلَةٍ تَسْمُو بِهَا وَتَمْسُ الْأَرْضُ أَحْيَانًا
تَحَالُ طَائِرُهَا نَشْوَانٌ مِنْ طَرَبٍ وَالْفَصْنُ مِنْ هَزَقٍ عِظْفَيْهِ نَشْوَانَا

وَهَذِهِ دِيبَاجَةُ أَبِي عِبَادَةَ . وَحَلَبُ الْعِنَاقِيدِ : الْحُمْرُ . احْتَفَتْ : انْتَقَطَ .
طَائِرِينَ ، أَيْ تَوْبِينَ خَلَقَيْنِ . يَنَاهِزُ : يَقَارِبُ . الثَّمَانِينَ : ثَمَانِينَ سَنَةً ، وَذَلِكَ
أَنَّ الْإِنْسَانَ مِنَ الشَّبِيهِ إِلَى الْأَرْبَعِينَ فِي نَمَاءٍ وَزِيَادَةٍ وَقُوَّةٍ ، وَمِنَ الْأَرْبَعِينَ إِلَى
الثَّمَانِينَ فِي نَقْصٍ ، فَالْبَالِغُ الثَّمَانِينَ قَدْ اسْتَوْفَى عُمرَ الزِّيَادَةِ وَالنَّقْصِ . وَسُئِلَ
ذُو الرُّمَّةُ عَنْ سَنَةِ ، فَقَالَ : بَلَغْتُ نِصْفَ عُمُرِ الْهَرَمِ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، وَقِيلَ : الْعُمُرُ
سَعُونَ سَنَةً ، لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ السِّتِينَ إِلَى السَّبْعِينَ » .

(٢) سقط الزند ٢٤٥ .

(١) نثار الأزهار ٧٩ ، ونسبه للمنازى .

(٣) من زيادات ديوانه .

ومن حديث أبي هريرة رضى الله تعالى عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَتَى عَلَيْهِ سِتُونَ سَنَةً فَقَدْ أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَيْهِ » ، فالعمران على هذا مائة وعشرون سنة . والحكماء يزعمون أنه منتهى ما يبلغ عمر ابن آدم ، والأظهر من سباق المقامة أنه أراد الأول ، لأن مَنْ قارب مائة وعشرين سنة لا يلتذ بخمر ولا بغيره وهو يزعم في المقامة أنه يحاول شربها لغناه وغير ذلك .

قوله : أَبَانَ : بَيَّن . مِنْطِيق : فَصِيح . احْتَبَى حَبَوْتَهُمْ ، أى جلس مثل جلوسهم المنتدين : أهل المجلس . ازدراه : احتقره .

أصغريه : قلبه ولسانه ، وقيل لهما الأصفران لصغر حجمهما مِنْ بَيْنِ الأَعْضَاءِ لِفَضْلِهِمَا وَشَرَفِهِمَا عَلَى الأَعْضَاءِ ، قال على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه : ولكنى مدرب الأصفرين ، ولجلبهما القيام والكمال ، كأنه قال : المرء يقوم أموره بلسانه وقلبه ، ويكمل المرء بهما ، قال الأصمعى رحمه الله تعالى : كان ضمرة بن أبى ضمرة قصيرا ، وكان يقول : للرم بأصغريه ، بقلبه ولسانه .



وأخذوا يتداعون فَضَلَ الخطاب ، وَيَعْتَدُونَ عُدَّةً مِنَ الأخطاب ، وهو لَا يُفِيضُ بِكَلِمَةٍ ، وَلَا يُبَيِّنُ عَنْ سِمَةٍ ، إِلَى أَنْ سَبَرَ قَرَائِحَهُمْ ، وَخَبَرَ شَائِلَهُمْ وَرَاجِحَهُمْ . فحين استخرج دَفَائِنَهُمْ ، واستنْثَلَ كُنَائِثَهُمْ ، قال : يا قوم لو عَلِمْتُمْ أَنَّ وراءَ القِدَامِ ، صَفْوَ المُدَامِ ، لَمَا احْتَقَرْتُمْ ذَا أَخْلَاقٍ ، وَقُلْتُمْ مَا لَهُ مِنْ خَلَاقٍ . ثُمَّ قَجَّرَ مِنْ يَنَائِعِ الأدبِ ، وَالتَّكْتِ الثُّخْبِ ، مَا جَلَبَ بِهِ بَدَائِعَ العَجَبِ ،

واستوجب أن يكتبَ بذوب الذهب . فلما خلَّب كلَّ خلْبٍ ،
 وقلَّب إليه كلَّ قلب ، تحلَّل ، ليرحلَّ ، وتأهَّب ، ليذهب ،
 فعلقت الجماعةُ بذيله ، وعاشتْ مسرَّب سَيْلِه ، وقالت له : قدْ
 أرينَّا ونسمَ قدْحِك ، فخبِّرنا عن قَيْضِك ومُحْك . فصمتَ صُوت
 من أفحِم ، ثم أعولَ حتَّى رُحِم .

قال الراوى : فلما رأيتُ شوبَ أبى زيدٍ ورؤبُه ، وأسلوبه
 المؤلفَ وصوبه ، تأملتُ الشيخَ على سُومَةِ مُحْيَاه ، ومُهوِكِهِ رَبَاه ،
 فإذا هو إِيَاه .



بداعون : يدعو بعضهم بعضاً إلى ذكر الفصاحة ، والأشبه أن يكون من
 الأدعية ؛ وهى الأحجية والأغلوطه ، كأنهم يتحاجون . وفصل الخطاب ، كناية
 من الفصاحة . يعتقدون : يحسبون ، الأخطاب : جمع خطب ، ولا يقال للعود
 حطب حتى يحفّ ماؤه ويببس ، فأراد أنهم حسبوا أبا زيد من جنس الخطب
 لا نصارة فيه ، كأنه لا علم عنده . وقال الشاعر :

إذا العود لم يثمر وإن كان شعبةً من المثرات اعتدّه الناسُ للخطبِ

بُغيض : يتكلم ويندفع فى القول ، وفاض لسانه وأفاض ، أى أبان . يبين :
 يبين . سمة : علامة . سبر : قاس وجرب . قرأهم : أذهانهم . خبر : جرب .
 شائلهم : ناقصهم . راجعهم : وافهم ، والشائل من الدراهم : الناقص الذى يشول
 به الميزان ، أى يرتفع ، والراجع ضده . وقال فى البقرة : الشائل : المرتفع ، وأنشد :

ياقومر مَنْ يَمْدُر في عَجْرٍ القائل المرء على الدائق^(١)
لما رأى ميزانه شائلاً وجاء بين الأذن والعائق

استنزل كنفائهم : استخرج ما عندهم ، والكفانة : جعبة السهام . الفِدام :
خرقة تُجمل على فم الإبريق ليصفو الخمر بها . أخلاق : ثياب بالية . خَلَّاق :
نصيب وافر من الخير . يتابع : يخرج الماء من العيون . التفتت : المعاني
الغامضة ، والنكته : نقطة في شيء تخالف لونه ، فإذا كانت في الكلام فهي عيونه .
الْفُخْب : المختارة . بدائع : غرائب . ذوب الذهب : ما ذاب منه ، ولو أنشدهم
شعراً يوافق مجلسهم لم يكن إلا أبيات الناشئ :

كأنهم في صدور الناس أفئدةٌ تحس ما أخطروا فيها وما اعتمدوا
يُبْدُونَ للناس ما تخفي ضمائرهم كأنهم وجدوا منها الذي وجدوا
دلّوا على باطن الدنيا بظواهرها وعلم ما غاب عنهم بالذي شهدوا
مطالع الحق ما من شبهة غسقت إلا ومنهم لديها كوكب يقدُّ

أو أبيات ابن شهيد حيث قال :

وفتية كالتجوم حسنا كلهم شاعرٌ نبيل^(٢)
مقعد الجانبين ماضٍ كأنه الصارم الصقييل
راموا انصرامي^(٣) عن العالي والقرب من دونها كليل
فاشدّ في إثرها مسحٌ كلٌّ كثير به قليل

(١) درة القواس ٨٥ ، ٧٦ .

(٢) ديوانه ١٣٩ .

(٣) الديوان « انصرام » .

في مجلس شانه القصافي تطيش في وصفه العقبول^(١)

قوله : خَلَبَ ، أى خدع . والخَلَبُ : الحجاب الذى بين سواد القلب وسواد البطن . تَحَلَّحَل : تحرك ، وأصله للبعير إذا حرَّكته للقيام تقول له : حل حل . هَاقَتْ : منعت وحَبَسَتْ . مَسْرَب : طريق مَسِيل الماء ، وسرب يسْرُب سروباً : مضى على وجهه في سفر بعيد ، وسرب الماء يَسْرُب مَرَباً ومسرَباً فهو سَرِب : سال ، والمعنى منعته المشى . وَمَنْ قَدَحِكَ : علامة سهمك ، والقِدْح السهم قبل أن يُرَاش ويركَّب نصله . وأرُوْبَتْنَا من نضحك ، أى أسقينا من بَلَمِكَ ، والنضح : الرش الخفيف : قَيْضُك ومُحْك ، أى ظاهرك وباطنك ، لأن القَيْض قشرة البيضة العليا وقلبها الأصفر هو المح ، بحاء غير منقوطة .

الفنجديهى : عن قَيْضِكَ ومُحْك أى عن نسبك وبلدك . صُنْتُ : سكت . أنعم : غلب وقطع عن الكلام . أعول : بكى . وشَوْب أبى زيد وَرْوِيه ، أى تخليطه في حَيْلِه ، والشَوْب : الخلط ، تقول : شُبْتُ الماء باللبن ، أى خلطتهما والرَّوْب : اتخاذ الرائب ، والشَّوْب : اللبن المذزوج بالماء هنا ، والرَّوْب : الخالص . ويقال : ما عنده شوب ولا روب ، أى لا مرق ولا لبن ، وقيل : الشوب العسل ، والرَّوْب اللبن : وفلان يَشُوب ويرُوب ، أى يخلط ويصنِّى ، وأصله يَرِيب ، قلبت « يروب » طلباً للازدواج ، يضرب مثلاً لمن يخلط في القول والعمل والشَّوْب والرَّوْب جميعاً : الخلط ، وراب الرجل رَوْباً : اختلط عقله ورأيه . أسلوبه : طريقه . المؤلف الملتزم . صَوْبُه : قصده وجانبه وصوابه . سهومة محيَّاه : تغير وجهه . سهُوكه رِيَّاه : نتن رائحته من النحر وغيره . وقوله : فإذا هو إياه :

(١) البيت في الديوان :

في مجلس شابه الصابى وطاردت وصفه العقبول

استعمل إياه ، وهو ضمير منصوب في موضع الرفع ، وهو غير جائز عند سيبويه ، وجوزته الكسائي في مسألة مشهورة جرت بينهما :

[ذكر مسألة نحوية]

قال الفنجدية: سألت شيخنا العلامة إمام النحاة جمال العلماء ، أبا محمد عبد الوهاب بن برّي بن عبد الجبار المقدسي عن شرحها ، فقال أيده الله : سألت شرح الله صدرك ، وأعلى في منازل الشرف قدرك ، عن المسألة التي جرت بين سيبويه والكسائي ، وهي قوله : « كنت أظن أن القرب أشد لسمعة من الزبور فإذا هو إياها » ، وسألت عن وجه النصب في « إياها » عند من أجاز ذلك . فاعلم أن مذهب النحويين البصريين في مثل هذه المسألة أن يكون ما بعد إذا مرفوعاً بالابتداء والخبر ، فيقال : فإذا هو هي ، على حد ما في الكتاب العزيز : ﴿ فإذا هي بيضاء للناظرين ﴾ ^(١) وقوله : ﴿ فإذا هي ثعبان مبين ﴾ ^(٢) ، فإذا هنا ظرف مكان وليست كالزمانية ، وسأفرق بينهما . وتقديرها في نحو : خرجت فإذا زيد قائم : خرجت فبالخفة زيد قائم ، والعامل في إذا ، قائم ، وإن شئت نصبت قائماً على الحال ، وجعلت الخبر في إذا ، كما تقول : خرجت فإذا زيد قائم فالقائم بالرفع على الخبر والنصب على الحال ، ومذهب الكوفيين في الحال أن تكون نكرة ومعرفة ، ومن هنا منع سيبويه من إياه في المسألة ، لأن المضمر لا يقع حالاً لتعريفه وعدم الاشتقاق فيه ، والحال تكون نكرة مشتقة ، والكوفيون يميزون النصب على معنى : خرجت فإذا زيد قائماً . والأقرب عندي أن يريدوا فإذا هو موجود إياها ، فحذف الخبر وهو موجود لدلالة الكلام عليه ، ومثل هذا عندهم : لئن ضربته ليضربته السيد الشريف ، فينصبون السيد بإضمار ، فإذا حملته على هذا تخرج .

(٢) سورة الضحراء ٣٢ ، الأعراف ١٠٧ .

(١) سورة الأعراف ١٠٨ .

وحكى عن أبي زيد أنه سمع هذه المسألة من العرب ، بنصب «إياها» ، فإن صح أنه سمعها فهذا وجه ، ويجوز في قياس قولهم : أن يكون على إسقاط الكاف ، وم يروون في الخبر : « ذكاة الجنين ذكاة أمه ^(١) » ، بنصب « ذكاة » يقدرون كذكاة أمه ، فتقديرها فإذا هو كذا ، أى فإذا الزنبور كالعقرب ، وهم يميزون إدخال الكاف على الضمير ، وسيبويه يمنعه إلا في الشعر كقول العجاج :

« وأم أوعالٍ كها أو أقربا »

وقال رؤبة :

فلا أرى بعلاً ولا حلاً ^(٢) كهم ولا كهن إلا حافظاً

وأجاز بعض النحويين أن يكون «إياها» كناية عن الجملة ، التقدير : فإذا هو لسمته كسمتها ، فكفى عن الجملة بقوله : «إياها» وينصب على الحال ، لأنها كناية عن الجملة ، وهي نكرة فتصير في حكم النكرة ، كما صارت الماء في : ربه رجلاً نكرة في المعنى ، لكونها كناية عن نكرة ، ولذا دخلت «رُب» هايتها ، وهي لا تدخل إلا على نكرة ، فهذا ما يقتضيه وجه النصب في «إياها» على ما ذكره الكوفيون ، والفرق بين إذا الزمانية والمكانية من أوجه :

أحدها أن الزمانية تقتضى الجملة الفعلية لما فيها من معنى الشرط ، والمكانية تقع بعدها الجملة الابتدائية أو المبتدأ وحده .

والثاني : أن الزمانية تقتضى جواباً والمكانية لا تقتضيه .

والثالث : أن الزمانية مضافة إلى الجملة التى بعدها ، والمكانية ليست مضافة إلى ما بعدها ، بدليل خرجت فإذا زيد ، فزيد مبتدأ وإذا خبره .

(١) الخبر في النهاية لابن الأثير ٢ : ١٦٤ . قال : والتذكية الذبح والنحر . . .

(٢) ديوانه ١٢٨ .

والرابع : أن الزمانية تكون في صدر الكلام ، نحو إذا جاء زيد فأكرمه ،
والمكانية لا يُبَدَأُ بها إلا أن تكون جواباً للشرط ، كالفاء في قوله : ﴿ وإن
نُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون ﴾ .

والخامس : أن الزمانية تقتضي الاستقبال والمكانية تقتضي معنى الحضور ،
لأنها للمفاجأة ، والمفاجأة للحاضر دون المستقبل .
انقضى الكلام عليهما على جهة الاختصار .



فكتمتُ سِرَّهُ كما يُكْتَمُ الدَّاءُ الدخيل ، وسترتُ مكره وإن
لم يكن يُخِيل ؛ حتى إذا نَزَعَ عن إغواله ، وقد عَرَفَ عُثُورِي
على حاله ، رمقني بعين مضحاك ، ثم طفق يُثَشِّدُ بِلِسَانِ
مُتَبَاكِ .

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَعُوذُ لَهُ مِنْ فَرَطَاتِ أَثَقَلَتْ ظَهْرِيَّةِ
بِأَيِّ قَوْمٍ كَمْ مِنْ عَاتِقِ عَانِسِ

تمدوحة الأوصاف في الأندلية
قَتَلَهَا لَا أَتَقِي وَارْتَأَى يَطْلُبُ مِنِّي قَوْدًا أَوْدِيَّةِ
وَكُلَّ مَا اسْتَذْنَبْتُ فِي قَتْلِهَا أَحَلَّتْ بِالذَّنْبِ عَلَى الْأَقْصِيَّةِ
وَلَمْ تَزَلْ تَقْمِي فِي غِيَّهَا وَقَتْلَهَا الْأَبْكَارَ مُسْتَشْرِئَةً

قوله : الداء الدخيل ، هو الذي لا يُتَكَلَّمُ به استباحاً له أو لحله . يُخِيل :
يشبهه وبشكل ، وخال يُخِيل : اشْتَبَهَ . نزع : كفت ، إغواله : بكائه . عُثُورِي :
اطلاعي . رمقني : نظر إلي . بعين مضحاك ، أي كثير الضحك . مُتَبَاكِ :

مستعمل للبكاء بتكلف . أعنو : أذل . فرطات : سقطات وزلات . عاتق : شابة قد أدركت ولم يبين بها زوجها ، بل هي بكر ، ويريد بها الخمر التي لم يفض أحد خاتمها . وعانس : طالت إقامتها في بيت أبيها . الأندية : المجالس . القود : قتل النفس بالنفس . استذنبت : نسبت إلى الذنب : الأفضية : جمع قضاء ، أي كلما قيل لي : فعات هذا الذنب ؟ قلت : إنما هو قضاء الله وقدره ، وأخذ هذا المعنى من قول الحسين بن الضعك :

واتركي التذلل على مَنْ قاله^(١) وانسي جوري إلى حكم القضاء^(٢)

ولهذا البيت حكاية أدبية ، قال الحسين : كانت لي نوبة في دار الوائق ، فبينما أنا نائم ذات ليلة ، إذ جاءني خادم من خدام الحرم ، فقال لي : إن أمه المؤمنين يدعوك ، فقلت له : وما الخبر ؟ قال : إنه كان نائما إلى جنب حظيته فقام وهو بظنّها قائمة ، فألمّ بجارية أخرى ، وعاد إلى فراشه ، ففضبت حظيته وتركته حتى نام ، ثم قامت ، ودخلت حجرتها فانقبه وهو بظنّها عنده ، فطلبها فلم يجدها ، فقال : مَنْ اختلس كريمتي ، ونحكم أين هي ! فأخبرناه أنها قامت ففضبتني ومضت إلي حجرتها . فدعا بك ، قال : فضيت مع الرسول ورويت أيماناً في طريقي ، فلما جئته خبرني القصة ، وقال لي : قل في هذا شيئاً ، فقكرت هنيهة كأنني أقول شعراً ، ثم أنشدته الأبيات :

غَضِيتُ أَنْ زَرْتُ أُخْرَى غَضِبَةً فَلَهَا الْعُتْبَى عَلَيْنَا وَالرُّضَا^(١)
يَا فَدَتْكَ النَّفْسُ كَانَتْ هَفْوَةً فَاعْفِرِيهَا وَاصْفَحِي مَعَا مَعَى
وَاتَرَكِي التَّذَلُّ عَلَى مَنْ قَالَه وَانْسِي جَوْرِي إِلَى حِكْمِ التَّقْضَا
فَلَقَدْ نَبَّهْتَنِي مِنْ رَقْدَتِي وَعَلَى قَلْبِي كَثِيرَاتُ الْغَضَا

قال : أحسنتِ بحياتي ، أعددها عليّ يا حسين ، فأعدتها عليه حتى حفظها .
وأمر لي بخمسمائة درهم . فقام ومضى إلى الجارية فأنشدتها الأبيات فتراضيا ، فكان
بعدُ إذا رآني تبسّم لموقع الأبيات ونجحها عند الجارية ، والإحالة على القضاء
بالذنب هو مذهب الجبزية فمن فعل منهم ذنبا قال : لا ذنب لي ، إنما قُدر
عليّ ومذهب التقديرية خلافه ، قال الشاعر في رده :

إذا أذنبوا قالوا مقاديرُ قُدرتُ وما العار إلا ما تجرهُ المقاديرُ

وقوله : غيها ، أي فسادها . مستشرية : لاحتية مصممة ، واستشرى الشيء :
انتشر ، واستشرى في أمره : لجّ فيه .

[وأد البنات]

والقتل الذي ذكره للبنات هو الواد الذي كانت تفعله الجاهلية ، قال الله
سبعائه وتعالى : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾

والموءودة : التي تُدفن حية ، فتقتل بالتراب ، والواد : القتل .

وورد قيس بن عاصم المِقدريّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له :
بعض الأنصار عن وأده البنات ، فقال قيس : ما ولدت لي بنتٌ إلا وأدتها ،
وما رحمت منهنّ إلا واحدة ولدتها أمها ، وأنا في سقرٍ ، فدفعتها إلى أخوالها ،
وقدمت فسألت عن الحمل ، فأخبرت أنها ولدت ميتا . ومضت سنون ، حتى
ترعرعت ، فزارت أمها ذات يوم ، فدخلتُ فرأيتها قد ضفرت شعرها ، وجعلت
في قرونها شيئا من الخلق ، ونظمت عليها ودعا ، وألبستها قلادة ، وجعلت في
عنقها خنفة ، فقلت : من هذه الصبية فقد أعجبتني حسنُها ؟ فبكت ثم قالت : هذه
ابنتك ، كنت خبرتك أنّي ولدت ميتا ، وهذه التي ولدت ، فجعلتها عند خالها ،
وبلغت لهذا البالغ . فأمسكتُ عنها حتى اشتفتُ أمها ، ثم أخرجتها يوما ، فحُفرتُ

حفرة فجعلتها فيها ، وهى تقول : يا أبت أنفطئنى بالتراب ا حتى واريتها وانقطع صوتها ، فاراحت واحدة منهم ممن وأدت غيرها . فدمعت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « إِنْ مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يَرْحَمُ ^(١) » .

وذكر ^(٢) أن قيساً وأد بيده بضع عشرة ابنة ، وكان السبب فى وأد البنات أن المشرج ^(٣) اليشكرى أغار على قوم قيس ، فسبى نساء فيهن ابنته وابنة أخيه ، فدخل قيس إليهم فسألهم أن يهبوها له ، فوجد المشرج قد اصطفاها لنفسه ، فسأله إياها ، فقال : قد جعلت أمرهما إليهما ، فإن اختارتاك فخذها ، فاخترتا المشرج ، فانصرف فوآد كل ابنة له خوفاً من القضيعة ، فاقترنت به العرب فى ذلك .

قال الهيثم : إن الوأد كان مستعملاً فى قبائل العرب قاطبة ، وكان يستعمله واحد ويتركه عشرة ، فجاء الإسلام ، وقد قلّ إلا فى تميم .

وقيل : كان الوأد فى تميم وقيس وبكر وهوازن وأسد ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم اشد وطأتك على مُضَر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » ، فأجذبوا سبع سنين حتى أكلوا الوبر بالدم ، ولهذا جاء تحريم الدم ، وهذا خبر بين أن الوأد كان للحاجة لا للأنف ، وبه نزل القرآن ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ۖ ﴾ ، وقال : ﴿ وَلَا يَتْلُنَ أَوْلَادَهُمْ ۖ ﴾ .

ومن ذكر أنه كان أنفة وأنه كان فى تميم ، ومن جاورهم فيحتاج بحديث أبى عبيدة ، أن تميما منعت النعمان الإتاوة ، فوجه إليهم أخاه الريان ، وجُل من معه من بكر بن وائل ، فاستاق النعم وسبى الدّرارى . وفى ذلك يقول للمشرج اليشكرى :

(١) الخبر فى الأغاني ١٤ : ٦٩ ، ٧٠ (٢) الخبر فى الكامل ٢ : ٨٢

(٣) ط : « المستخرج ، تصحيف ، وفى الأغاني ونهاية الأرب ٤ : ١٢٧ » « عمرو بن المشرج » .

(١٢ — شرح مقامات الحريرى ج ٤)

لَمَّا رَأَوْا رَايَةَ النِّعْمَانِ مُتَقَبِّلَةً قَالُوا أَلَا لَيْتَ أَذَى دَارِنَا عَدَنُ
يَالَيْتَ أُمَّ تَمِيمٍ لَمْ تَكُنْ عَرَفْتَ مُرًّا^(١) وَكَانَتْ كَمَنْ أَوْدَى بِهِ الزَّمَنُ
وَقَالَ النِّعْمَانُ فِي جَوَابِهِ :

لِللَّهِ بِكَرٍّ غَدَاةَ الرَّوْعِ لَوْ بِهِمْ يُرْمَى ذُرَا حَضَنٍ زَالَتْ بِهِمْ حَضَنُ
إِذَا أَرَى أَحَدًا فِي النَّاسِ يُشَبِّهِهُمْ^(٢) إِلَّا فَوَارِسَ خَامَتِ عَنْهُمْ الْيَمِينُ
فَوَدِدْتُ إِلَيْهِ تَمِيمٌ ، فَأَنَابَ إِلَيْهِمْ ، وَأَحْبَبَ الْبَيْتِيَا . وَقَالَ :

مَا كَانَ ضَرًّا تَمِيمًا لَوْ تَعَمَّدَهَا مِنْ فَضْلِنَا مَا عَلَيْهِ قَيْسُ عَيْلَانٍ

فَسَأَلُوهُ النِّسَاءَ ، فَقَالَ : كُلَّ امْرَأَةٍ اخْتَارَتْ أَبَاهَا رُدَّتْ إِلَيْهِ ، وَإِنْ اخْتَارَتْ
صَاحِبَهَا تُرِكَتْ عِنْدَهُ فَكُلَّمَنْ اخْتَرَنَ آبَاءَهُنَّ إِلَّا ابْنَةَ قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ ،
اخْتَارَتْ صَاحِبَهَا عَمْرُو بْنُ الْمَشْرِجِ ، فَتَنَذَرَ قَيْسٌ : أَلَا تَوَلَدَ لَهُ ابْنَةٌ إِلَّا قَتَلَهَا .
فَهَذَا شَيْءٌ يَغْتَلِّ بِه مِنْ وَأَدِ الْبَنَاتِ ، وَيَقُولُ : فَعَلَنَاهُ أَفْئَةً ، وَقَدْ كَذَّبَ بِمَا
أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ . وَأَيْنَ فَعَلَ قَيْسٌ فِي الْوَادِ وَقِسَاوَةَ قَلْبِهِ مِنْ فَعَلَ
صُعُصَّةُ بْنُ نَاجِيَةَ بْنِ عَقَالِ بْنِ جَدَّةِ الْفَرَزْدَقِ ! فَإِنَّهُ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،
فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّي كُنْتُ أَعْمَلُ عَمَلًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ لِنَفْسِي ، أَيْتَنَعُنِي ذَلِكَ
الْيَوْمَ ؟ قَالَ : وَمَا عَمَلُكَ ؟ قَالَ . أَضَلَّ نَاقَتَيْنِ عَشْرًا وَبَيْنَ^(٣) ، فَرَكِبْتُ جَمَلًا
وَمَضَيْتُ فِي بُغَايَاهُمَا ، فَرُفِعَ لِي بَيْتٌ فَقَصَدْتُهُ ، فَإِذَا شَيْخٌ جَالِسٌ بِقِنَاءِ الدَّارِ ،
فَسَأَلْتُهُ عَنْهُمَا ، فَقَالَ : هُمَا عِنْدِي ، وَقَدْ أَحْيَا اللَّهُ تَعَالَى بِهِمَا قَوْمًا مِنْ أَهْلِكَ مُنْخَرِ ،
فَجَلَسْتُ عِنْدَهُ لِيَخْرَجَا إِلَيَّ ، فَإِذَا عَجُوزٌ قَدْ خَرَجَ مِنْ كِسْرِ الْبَيْتِ ، فَقَالَ لَهَا :
مَا وَضَعْتَ ؟ فَإِنْ كَانَ ذَكَرًا شَارَكْنَاهُ فِي أُمُورِ النَّسَاءِ ، وَإِنْ كَانَ أُنْثَى وَأَدْنَاهَا !

(١) ط : « مروا » تصحيف . (٢) الكامل : « أشبههم » .

(٣) المشراء : الناقة التي أتى عليها مذحلت عشرة أشهر .

قالت : وضعتُ أنتى ، فقلت : أتبيعنيها ؟ فقال : وهل تباع العرب أولادها !
قال : فقلت : إنما أشتري حياتها لارقيها ، فقال : بكم ؟ فقلت : احتكم ،
قال : الناقتين والجل ، قلت : ذلك لك ، على أن يبلغنى وإياها الجل ، ففعل .
فأمّنتُ بك يا رسول الله ، وقد صارت لى سنة فى العرب ، أشتري كلَّ
موودة بناقيتين وجرل ، فمئدى إلى هذه الغاية ثمانون ومائة موودة ،
قد أعتقتها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا ينفعك ذلك ، لأنك لم
تبخر وجه الله ، وإن تعمل فى إسلامك عملا صالحا تُدب عليه » .

وقال الفرزدق يفتخر بفعل جده على جرير :

ألم تر أنا بنودارم زُرارة منّا أبو مَعْبِدٍ^(١)
ومنّا الذى منع الوائداتِ وأحيا الوئيد فلم تُؤادِ
أيطاب مجدّ بنى دارم عطية كالجمل الأسودِ
قرّنى بحكّ قفا مُقرِفٍ لثيمٍ مآثره فُقدُ
ومجدّ بنى دارمِ دونه^(٢) مكان السماكين والفرقدِ

وعطية هو أبو جرير ، ويأتى فى الأربعين .

وجاء فى الحديث الترغيب فى إكرام البنات ، قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم . « مَنْ ابْتُلَى بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ ، فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ كُنَّ لَهُ بِئَرًا مِنْ
النَّارِ » . وفى طريق آخر « مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ ، وَثَلَاثُ أَخَوَاتٍ أَوْ بَنَاتٍ ،
أَوْ أَخْتَانِ ، فَأَحْسَنَ صَحْبَتَهُنَّ وَاللَّهُ انْتَمَى فِيهِنَّ ، فَلَهُ الْجَنَّةُ » .

ولبعضهم تهنئة بمولودة : اتصل بى خبر المولودة ، كرم الله عزّها ، وأنبأها
غبائنا حسنا ؛ وقد علمتُ أنهن أقربُ إلى القلوب ، وإن الله عز وجل قد بدأ بهنَّ

(١) ديوانه : ٢٠٥

(٢) الديوان : « فوقه » .

في الترتيب، فقال سبحانه: ﴿يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَّا نَفْعُ يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ اللَّهُ كُور﴾^(١)
وما سماء الله تعالى هبة فهو بالشكر أولى، وبحسن التقبل أخرى.

وقال بعض الشعراء:

أَحَبُّ الْبَنَاتِ وَحُبُّ الْبَنَاتِ فَرَضٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ كَرِيمَةٍ
فَإِنْ شَعِبَا مِنْ أَجْلِ ابْنَتَيْهِ أَخَذَهُ اللَّهُ مَوْتَى كَلِمَةٍ
وفي الحديث: «دَفَنُ الْبَنَاتِ مِنَ الْمَكْرُمَاتِ».

مزى رجلٌ يحيى بن خالد في حُرْمَةِ له، قال: أيها الوزير دَفَنُ الْحُرَمِ مِنَ
النِّعَمِ، ثم قال:

تَمَزَّ إِذَا رُزِنْتَ فَخَيْرُ دَرْعٍ بِسَرَبَلٍ لِلْمَصَائِبِ دِرْعُ صَبْرٍ
فَلَمْ أَرْ نَمَّةً شَمَلَتْ كَرِيمًا كَمُورَةٍ مَسْلَمٍ سُمِرَتْ بِقَبْرِ
وقال عمر بن أبي علقمة للمري:

إِنِّي وَإِنْ سَيِّقَ إِلَى الْمَهْرِ أَلْفٌ وَعَبْدَانِ وَذَوْدٌ عَشْرُ
• أَحَبُّ أَصْهَارِي إِلَى الْقَبْرِ •

وقال إسحاق بن جَلَف:

لَوْلَا أُمِيمَةٌ لَمْ أَجْزَعْ مِنَ الْقَدَمِ وَلَمْ أَجُبْ فِي اللَّيَالِي حِنْدَسَ الظُّلَمِ^(١)
نَهَوَى حَيَاتِي وَأَهْوَى مَوْتَهَا شَفَقًا وَالْمَوْتُ أَكْرَمُ نَزَالٍ عَلَى الْحَرَمِ^(٢)

(١) ط: «أبو إسحاق»، وهو خطأ.

(٢) ديوان الحماسة بشرح التبريزي ١: ٢٧٤، ويعدده هناك:

وزادني رغبة في العيش معرفتي ذلَّ أُمِيمَةٍ يَجْفُوها ذُوو الرِّجَمِ
أَحَازِرُ الْفَقْرَ بَوْمًا أَنْ يُيْلِمَ بِهَا فِيمَنْكَ السُّتْرُ عَنْ لَحْمٍ عَلَى وَصَمٍ

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

لكلّ أبى بنتٍ يراعى شئونها ثلاثة أصدارٍ إذا ذُكرَ الصَّهرُ
فبتّ يغطّيها وبعلّ بصونها وقَبْرٌ يُوارِيها وخيرُهم القَبْرُ

وقال آخر :

لا تَؤمِّنُ منها فقد زوجتها كفوا وضمّنت الصّدّاقَ مِلِكًا

• • •

حَتَّى نَهَايَ الشَّيْبُ لَمَّا بَدَا فِي مَفَرِّقِي عَنْ تِلْكَ كُمُ الْمُغْصِيَةِ
فَلَمْ أَرِقْ مَذْ شَابَ فَوْدِي دَمًا مِنْ عَاتِقِي يَوْمًا وَلَا مُضْيِيَةِ
وَهَآنَذَا الْآنَ عَلَى مَا يُرَى مَنِّي وَمِنْ حِرْفَتِي الْمَكْدِيَةِ
أَرُبُّ بِكَرًا طَالَ تَغْنِيْسُهَا وَحَجَبُهَا حَتَّى عَنْ الْأَهْوِيَةِ
وَهِيَ عَلَى التَّغْنِيْسِ مَخْطُوبَةٌ كَخِطْبَةِ الْغَانِيَةِ الْمُغْنِيَةِ
وَلَيْسَ يَكْفِيْنِي لِتَجْهِيزِهَا عَلَى الرِّضَا بِالْذُّوْنِ إِلَّا مِيَّةُ
وَالْيَدُ لَا تُوَكِّي عَلَى دِرْهَمٍ وَالْأَرْضُ قَفْرٌ وَالسَّمَاءُ مُصْنَعِيَّةُ
فَهَلْ مَعِيْنٌ لِي عَلَى ثَقْلِهَا مَصْحُوبَةٌ بِالْقَيْنَةِ الْمُلْهِيَةِ
فِيغْسِلُ الْهَمُّ بَصَابُونَهُ وَالْقَلْبُ مِنْ أَفْكَارِهِ الْمُضْنِيَةِ
وَيَقْتَنِي مَنِّي الشَّاءُ الَّذِي تَضُوعُ رِيَاءُهُ مَعَ الْأَدْعِيَةِ

• • •

قوله : فَوْدِي ، أى ناحية رأسى . مُضْيِيَةِ : لها صَبُوة ، أو يصبو إليها
مَنْ رَأَاهَا ، وجعل الحمر مُضْيِيَةِ ، لأنها تغلب شرابها فتصيرهم سكارى ، عقولهم

مَقُولُ الْعَصِيَّانِ ، فَهِيَ تَلْعَبُ بِهِمْ كَمَا تَلْعَبُ الْأُمُّ بِصَبِيَّانِهَا . حِرٌّ فَتَى : صَنَعَى
 الْمَكْدِيَّةُ : الصَّعْبَةُ ، وَأَكْدَى الْحَافِرُ : بَلَغَ كَدِيَّةً ، فَرَفَعَ عَنِ الْحَفْرِ آيَسًا مِنَ الْمَاءِ .
 ثُمَّ اسْتَعْمَرَ لِنَبِيرِ ذَلِكَ أَرْبَ : أَصْلَحَ . تَغْنَيْسَهَا : إِقَامَتَهَا بِغَيْرِ زَوْجٍ .

قَالَ عَمْرٌو رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَكْدُوبٌ
 فِي الْقَوْرَةِ : مَنْ بَلَغَتْ ابْنَتُهُ اثْنَتَى عَشْرَةَ سَنَةً ، فَلَمْ يَزُوجْهَا فَأَصَابَتْ إِثْمًا فَإِثْمٌ
 ذَلِكَ عَلَيْهِ » .

وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « مَنْ بَلَغَ لَهُ وَلَدُ النِّكَاحِ وَعِنْدَهُ مَا يَنْكِحُ بِهِ فَلَمْ
 يَنْكِحْهُ ، فَأَصَابَ إِثْمًا فَإِثْمًا فَإِثْمٌ بَيْنَهُمَا » . وَيَعْنِي بِهَا خَيْرًا قَدِيمَةً حَبَّيْهَا عَنِ الْأَهْوِيَةِ ، لِثَلَاثِ
 يُفْسِدُهَا الْهَوَاءُ .

قَوْلُهُ : مَخْطُوبَةٌ : مَطْلُوبَةٌ . الْغَانِيَّةُ : الْبَارِعَةُ الْجَمَالَ الَّتِي غَنِيَتْ بِحُسْنِهَا عَنِ
 الزَّيْنَةِ ، قَالَ الرَّسْتُمِيُّ : أَصْلُهَا فِي ذَاتِ الزَّوْجِ الَّتِي اسْتَغْنَتْ بِزَوْجِهَا ، ثُمَّ قِيلَ
 فِي غَيْرِ ذَاتِ الزَّوْجِ . قَالَ عِمَارَةُ : هِيَ الشَّابَّةُ الَّتِي تَعْجِبُ الرِّجَالَ وَيَعْجِبُونَهَا . الْمُغْنِيَّةُ :
 الَّتِي نَشَأَتْ فِي النَّبِيِّ ، وَأَغْنَى بِمَعْنَى اسْتَغْنَى ، وَالْمَغْنِيَّةُ أَيْضًا : الَّتِي تَغْنِي زَوْجَهَا عَنْ
 غَيْرِهَا لِكَمَالِ خَصَالِهَا . تَوَكَّأَ : تَشَدَّدَ وَتَرَبَّطَ ، وَالْوِكَاءُ : التَّخَطُّطُ بِشِدَّةٍ بِهِ فَمِ الْوَعَاءُ .
 وَرَاوَدَ عَبْدًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ابْنَةَ سَيِّدِهِ عَنْ نَفْسِهَا ، فَأَمَكَّنَتْهُ حَتَّى بَلَغَ أَرْبَةَ
 مِنْهَا ، ثُمَّ عَمِدَتْ إِلَيْهِ لِحَبِيبَتِهِ . فَقَالَ لَهَا أَبُوهَا فِي ذَلِكَ ، فَقَالَتْ : مَنْ وَرَدَ غَيْرَ مَائِهِ ،
 صَدَرَ بِمَثَلِ حَالِهِ ، إِنَّ الْعَبْدَ لَمَنْ نَوَكَهَ قَدْ ابْتَذَلَ إِنْاءَ لَمْ يُوَكِّهِ ، فَقَالَ أَبُوهَا : يَا بَنِيَّةُ
 لَا شَالَا وَلَا هَمِي .

وَمِثْلُهُ : مَحْذُوفَةُ اللَّامِ ، وَلَا يَدْرِي أَوَاوَ لَأُمِّهَا أَمْ يَاءُ ، قَالَ صَاحِبُ الْعَيْنِ .
 وَقَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ : ائْتَيْتِ الْقَوْمَ ، وَأَمَّا يَتُّهُمْ : صَارُوا بِي مَائَةٍ ، فَنَفِي مَائَتٍ
 دَلِيلٌ قَاطِعٌ عَلَى أَنَّ اللَّامَ بَاءٌ .

وَقَالَ الْفَرَّاءُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَكُرَاعَ : أَصْلُهَا مِثْلِيَّةٌ ، وَأَنْشَدَ :

قلتُ والرَّكبُ قد تُخَطِّيه منيَّتُهُ أوفى عطياتِ آبائي ميثاتُ
قوله : قَفَرٌ : غير عامر . مُصْحِيَةٌ : زال سحابها ، ضربه مثلاً للخُلُقِ من المال ،
فلا في أرضه خصب فتعمر من أجله ، ولا في سماءه سحاب فيرجى خيرُها . وقوله
تقدّم لفيبي مطر .

الفَيْئَةُ للملهية : الجارية المغنّية ، وهى فى كلام العرب الأُمّة ، مغنّية كانت أو
غير مغنّية ، قال زهير :

• ردّ الثّيانِ جمالَ القومِ ناحتملوا^(١) •

واشتقاقها من قُنْتُ الشيءَ أَقِينَهُ قَيْنًا ؛ إذا لمته ، قال الشاعر :

ولى كَيْدٌ مجروحةٌ قد بدا بها صدُوعُ الهوى لو أن قَيْنًا يَقِينُهَا^(٢)
ولهذا سُمِّيَ الصّواعُ والحداد قَيْنًا ، والماشطة قَيْنَةً .

قوله : فيفسل الهمّ بصابونه : يعنى فينفي همّى بالخمر لأنها تنفى الهمّ والحزن
والغم كما يفسل الصابون وسخ الثوب . المضنية : الممرضة . يقتنى : يكتسب .
نضوع رياه : تتحرك راحته ، يريد أنه يكتسب منه السامع الدماء فيثنى عليه
ثناء حسنًا فى الدنيا ويدعوه بالآخرة ، ويقال : ضاع المسك بضوع ، أى انتشرت
رائحته ، وقال الشاعر :

وما هو إلّا المسكُ عند ذوى الحجبى

يَضُوعٌ وعند الجاهلين يغيبُ

(١) ديوانه ١٦٤ ، وبلقيته :

• إلى الظهيرة أمرٌ بينهم كِبِكُ •

(٢) اللسان - قين

قال الراوى : فلم يَبْقَ فى الجماعة إِلاَّ مَنْ نَدَيْتَ له كُفُّه ،
وانباعَ إِليه عُرْفُه فَمَّا نَجَحَتْ بُغْيَتُه ، وَكُمَلَتْ مِئَّتُه ، أَخَذَ يُدْنِي
عليهم بِصَاحِ ، وَيُسَمِّرُ عن ساقِ سَارِح ؛ فَتَبَعَتْهُ لَأَسْتَعْرِفَ رَبِيبَةَ
خَدْرِه ، وَمَنْ قَتَلَ فى حَدَثَانِ أَمْرُه ، فَكَأَنَّ وَشَكَ قِيَامِي ، مِثْلَ له
سَرَامِي . فازدلفَ مِنِّي ، وقال : اْفْتَحْ عَنِّي :

قَتَلَ مِثْلِي يَا صَاحِ مَزْجِ الْمَدَامِ لَيْسَ قَتَلِي بَلَمْذَمٍ أَوْ حُسَامِ
وَالَّتِي تُنْسَتُ هِيَ الْبِكْرُ بِنْتُ الْكَرَمِ لَا الْبِكْرُ بِنْتُ الْكِرَامِ
ولتجهِزها إِلى الكَأْسِ والطَّاءِ سِ قِيَامِي الَّذِي تَرَى وَمُقَامِي
فَتَقَهُمْ مَا فَتَنَهُ وَتَحَكَّمْ فى التَّغَاضَى إِن شِئْتَ أَوْ فى الْمَلَامِ

ثم قال : أَنَا عَرِيدٌ ، وَأَنْتَ رِغْدِيدٌ ، وَبَيْنَنَا بَوْنٌ بَعِيدٌ . ثم
وَدَّعْنِي وَأَنْطَلَقَ ، وَزَوَّدَنِي نَظْرَةً مِنْ ذِي عَمَقٍ .

نَدَيْتَ : كَرَمْتَ . انباعَ : سَالَ . عُرْفُه : مَعْرُوفُه . نَجَحَتْ : انْفَضَّتْ وَتَمَّتْ ،
بُغْيَتُه : طَلِبَتُه . طَفِقَ : أَخَذَ وَجَعَلَ . سَارِحَ : ذَاهِبٌ ، يَرِيدُ أَنَّهُ شِمْرٌ لِّلْسِيرِ ،
وَأَضَافَ سَاقًا لِّلسَارِحِ ، وَهُوَ يَرِيدُ : عَنْ سَاقِ رَجُلٍ سَارِحَ ، أَيْ ذَاهِبٌ . رَبِيبَةُ
خَدْرِه ، أَيْ أَلَّتِي رَبَاهَا فى بَيْتِه ، وَرَبِيبَةُ الرَّجُلِ بِنْتُ أَمْرَأَتِهِ مِنْ غَيْرِهِ ، قِيلَ لَهَا
ذَلِكَ لِأَنَّهُ يَرْبِّيْهَا فَهِيَ « فَعِيلَةٌ » بِمَعْنَى مَفْعُولَةٌ ، فَأَصْلُهَا مَرْبُوبَةٌ ، وَيُقَالُ : رَبَّى فُلَانٌ
فُلَانًا وَرَبَّاهُ وَرَبَّيَّاهُ وَتَرْبِيَّتُهُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ . حَدَثَانٌ : أَوَّلٌ . وَشَكَ : سَرْعَةٌ .
سَرَامِي : مَرَادِي وَمَطْلَبِي . اَزْدَلَفَ : قَرَّبَ ، وَيُقَالُ : قَتَلْتُ الْخَمْرَ ، إِذَا مَزَجْتَهَا ،
وَقَدْ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ : مَزْجِ الْمَدَامِ .

[حكايات وأشعار حول الحجر]

قال الأخطل :

فقلت اقتلوها عنكم بِمَزَاجِهَا وَأُخِيبَ بِهَا مَقْتُولَةٌ حِينَ تُقْتَلُ^(١)

وكان الأخطل خليماً ، فأثى هنا على الممزوجة . وقال في التي لم تمزج :

وَكَأْسٍ مِثْلَ عَيْنِ الدَّبِكِ صَرَفٍ تُنْسَى الشَّارِبِينَ لَهَا الْعُقُولَا^(٢)

إِذَا شَرِبَ الْفَقِي مِنْهَا ثَلَاثًا بَغِيرِ الْمَاءِ حَاوِلَ أَنْ يَطُولَا

حَتَّى قَرَشِيَّةً لَشَكَّ فِيهَا وَأَرْخَى مِنْ مَآزِرِهِ الْفُضُولَا

• • •

وأصبح عبد الملك يوماً في غداةٍ باردة ، فأنشد هذه الأبيات ، ثم قال :
كَأَنَّ الْأَخْطَلَ الْآنَ فِي حَانُوتِ خَارِ مَحَلِّ الْإِزَارِ ، مُسْتَقْبِلَ الشَّمْسِ . ثُمَّ بَعَثَ
مَنْ يَطْلُبُهُ بِدِمَشْقَ ، فَوَجَدَهُ كَمَا وَصَفَ .

وقال له يوماً : أَلَا تُسَلِّمُ فَنَفَرٍ ضَلَّكَ فِي الْفَيْءِ وَنَعَطِيكَ عَشْرَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ ؟
قال : فَكَيْفَ بِالْحَجْرِ ؟ فقال له عبد الملك : وَمَا تَصْنَعُ بِهَا ، وَإِنْ أَوَّلَهَا مَرَّةً وَآخِرُهَا
مُسْكِرًا قَالَ الْأَخْطَلُ : وَفِيَا بَيْنَ هَاتَيْنِ مَنْزِلَةُ مَا يَسِرُّنِي لَكُنْتُ بِهَا .

وقال حسان بن ثابت رضى الله عنه وقد أُعْطِيَ كَأْسُ خمر ممزوجة :
إِنَّ الَّتِي نَاوَلْتَنِي فَرَدَدْتُهَا قُتِلَتْ - قُتِلَتْ - فَهَاتَهَا لِمُتَقَتِّلِ^(٣)
كِلْتَاهَا حَكَبَ الْعَصِيرَ فَعَاطَنِي بِرُجَاجَةٍ أَرْخَاهَا لِلْمُسْفَصِلِ
فَدَعَا بِالْقَتْلِ عَلَى الَّذِي أَعْطَاهَا لِمِمزُوجَةٍ .

(١) ديوانه ٤ ، وروايته : « فاطميت بها » .

(٢) ديوانه ٣١١

(٣) ديوانه ٣٧١

وذكر الحريزي في الدرّة^(١) البيتين ، وقال في قوله : « أرخاها » القياس :
أشدّها إرخاءً للفصل ، لأنّ أصل هذا الفعل أرخى ، فبناؤه ليس مقيداً كما قالوا :
« ما أحوجه إلى كذا فبنؤه من حوج ، وإن كان قياسه : ما أشدّ حاجته .

ولهذين البيتين حكاية يحسن أن نعيّنها بروايتها ، ونضوع نشرها بنشر
مُعلِّمها ، وهي ما رواه أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري عن أبيه ، قال : حدّثنا
الحسن بن عبد الرحمن الرّبعي قال : حدّثنا أحمد بن عبد الملك بن السّمّاك السّعديّ
قال : حدّثنا أحمد بن ظبيان الحائز ، قال : اجتمع قوم على شراب لهم ، فغناهم
مغنيهم بشعر حسان : « إن التي » البيتين . فقل بمضمّنهم : اسرّاني طالق إن
لم أسأل الليلة عبيد الله بن الحسن القاضي عن علّة هذا الشعر ، لم قال : « إن
التي » ، فوحّد ، ثم قال : كلتاها ، فثنى ؟ فأنشقوا على صاحبهم وتركوا
ما كانوا عليه ، ومضوا يتخطّون أنهاراً ، حتى انتهوا إلى بني شُقرة وعُبيد الله
ابن الحسن بصليّ ، فلما فرغ من صلاته قالوا : قد جئناك في أمرٍ قد دعّشنا إليه
ضرورة ، وشرحوها له خبّرهم ، وسألوه الجواب ، فقال :

• إن التي ناولتني فرددتها •

هَنَى بها المزوجة بالماء ، ثم قال : من بعد : كلتاها حلب العصير ، يريد الخمر
المحتلبة من العنب ، والماء المتحلب من السحاب ، المكتنى عنها بالمعصّرات في
قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَبَّاجًا ﴾ ، قال الشيخ الإمام الأجلّ الأوحد
العالم أبو محمد أدام الله سمادته : فهذا ما فسرّه به عبيد الله بن الحسن .

وقد بقي في الشعر ما يحتاج إلى كشف سرّه ، وتبيان نُكّته ، أما قوله :

إن التي ناولتني فرددتها قتل قتل . . .

فإنه خاطب به الساقى الذي كان ناوله كأساً مزوجة ، لأنه يقال : قتل الخمر
إذ امزجتها ، فكأنه أراد أن يعلمه أنه قد فطن لما قدّ فعله ثم ما اقتنع منه بذلك

حتى دعا عليه بالقتل في مقابلة المزوج . وقد أحسن كل الإحسان في تجنيس اللفظ ،
ثم إنه عقب الدعاء عليه بأن استعطي منه ما لم تقتل . يعنى الصَّرف - لتي لم تمزج .

وقوله : أرخاها للفصل ، يعنى اللسان ، ومُسمًى مِفْصَلًا بكسر الميم ، لأنه به
يفصل بين الحق والباطل ، وليس فيما اعتمده عبيد الله بن الحسن من الإسماع
وخفض الجناح ، ما يقذف في نزاهته أو بغض من نُبله وبراعته .

وبضارع هذه الحكاية في وطأة النقضاء المتقشقين للمستفتين وتلايئهم في
مواطن الآين ، ما يحكى أن حامد بن العباس ، سأل على بن عيسى في ديوان
الوزارة عن داء الخمار ، وعن دوائه ، فأعرض من كلامه ، وقال : ما أنا وهذا
للسألة ! انخجل حامد منه ، ثم التفت إلى قاضى القضاة أبى عمرو ، فسأله عن ذلك
فتنحنتح القاضى لإصلاح صوته ، ثم قال : قال الله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ
فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ ^(١) ، وقال النبي عليه الصلاة والسلام :
« استمعينوا على الصناعات بأهلها » . والأعشى هو للشهور في الجاهلية بهذه
الصناعة ، قال :

وكأسٍ شَرِبْتُ على لَذَّةٍ وأخرى تَدَوَيْتُ مِنْهَا بِهَا ^(٢)
لكى يعلم الناسُ أنى امرؤ أتيت المروءة من بابها

ثم تلاه أبو نواس في الإسلام ، فقال :

دعْ هناك لومى فإنَّ القومَ إغراه ودأوني بالتي كانت هي الداء ^(٣)

فأسفر حينئذ وجه حامد ، وقال لعلى بن عيسى : ما ضرك يا بارد أن تهجَّبَ

(١) سورة المائدة ٤١

(٢) دايونه ١٧٣

(٣) ديوانه ٢٣٤

بعض ما أجاب به قاضي القضاة ؛ وقد استظهر في جواب المسألة بقوله سبحانه
أولاً ، ثم بقول الرسول عليه الصلاة والسلام ثانياً ، وبين الفتيا وأدى المعنى ،
ونفقتي من المهدة . فكان خجل علي بن عيسى من حامد بهذا الكلام
أكثر من خجل حامد منه ، لما ابتداء بالمسألة وتبع حسان مسلم بن الوليد ،
فقال وأحسن :

إذا شئنا أن نسقياني مُدَامَةً فلا تقتلها كل ميتٍ محرمٍ^(١)
خُلْطًا دماً من كَرَمَةٍ بدمايُنَا فأظهر في الألوان منا الدمَ الدمُ
وقال أبو نواس في الصَّرف :

وكميتٍ أرقها وهجُ الشمسِ وصيفٌ يفتي بها وشتاءُ
لم يشنّها الطاهي بطبخ ولا غيـرها عن طبيعة الكرم ماءُ
وقال فيه أيضاً :

نوارت عن الأبصار من عهد آدمٍ حذاراً لكون الماء يوماً قرينها^(٢)
فصنّها عن الماء الفراح وأسقيي فإنك إن لم تسقي متدونها
على أنه القائل :

ألا دارها بالماء حتى نلينها فلن نكرم الضمباء حتى نهينها
وقال أبو نواس لإخوانه في مرض موته : إياكم والخمر صرّاً فإنها أعرت
كبدى ، قال ابن رشيقي :

قَدَرُ المُدَامَةِ فوق قَدَرِ الماءِ فأرغَبَ بكأسك عن سِوَى الأَكْفَاءِ^(٣)

(١) ديوانه ١٧٩ .

(٢) ديوانه ٣٤٩ .

(٣) التتف .

مالي ومَزَجَ الرّاحَ إلّا في في بالرّيق من قم غادة حساه
ذاك المزاج وإن تعدّاني الذي في لُزْنٍ من ذى رَقَّةٍ وصفاه
أشهره وأبلغ في الفؤاد مَسَرَّةَ من غيره وأدب في الأعضاء
لي الصّرفُ إن مَزَجَ القديم ولم أكنُ مستأثراً فيها عن النَّدَامِ

وقال أيضاً :

قلت لمن ناوآني مُرَقِّ ما بِي حُبِّ الفَيْدِ بل حُبِّها^(١)
لا نسقى راحكَ ممزوجة واشرب فما يمكنني شربها
ما راحتي في الرّاح إن غُيِّرَتْ دعها كما جاء بها ربُّها

ونصل بهذا النّقط ، ما قيل في نبيذ الزبيب ، قال أبو الأسود الدؤلي :

دع الخمر يشربها الفسّاةُ فإنّي رأيتُ أخاها مغنياً بمسكاتها
فإن لا يكنّها أو تكنه فإنّه أخوها غَذَتْهُ أُمُّهُ بلبانها

يقول : إن لا يكن الزبيب الخمر أو الخمر الزبيب ، فإنهما أخوان غديا باين واحد
وهي الحبّة التي هي أصل العنب والزبيب ؛ فأحدهما ينوب مناب الآخر ،
وأنشد الحامضي :

تركتُ الحميا لستُ أختار شربها وما حاجتي في أن أمرّ الأعادبا
ولكنّ أخرى من نبيذٍ معقٍ بمَنِّيك إن أكرّث منه الأمانيا
أخو الخمر من عنقودها غير أنهم إذا قطعوها جَفَّقُوهُ لياليا

قال المأمون : نقلت هذا المعنى بأبيات ملوكية لا تحضر السوق بمثلهما :

صَلَّى التَّذْمَانِ يَوْمَ الْمَهْرَجَانِ بَكَأَسٍ مِنْ مَعْتَقَةِ الدُّنَانِ
 بِكَأَسٍ خَمْرٍ وَإِنِّي عَتِيقٌ فَإِنَّ الْعَبْدَ عَبْدٌ خَمْرَوَانِي
 وَجَنَّبَنِي الزَّيْبِيْنَ طَرَا فَشَانَ ذَوِي الزَّيْبِ خِلَافَ شَانِي
 فَأَثَرِبُهَا وَأَزْعَمُهَا حَرَامًا وَأَرْجُو عَفْوَ رَبِّ ذِي اسْتِغْنَانِ
 وَيُشْرِبُهَا وَيَزْعُمُهَا حَلَالًا وَتِلْكَ عَلَى الشَّقِيقِ حَسَارَتَانِ

سأل رجل شريحاً القاضي : هل النبيذ حلال أم حرام؟ فقال : حلال، فقال :
 قليله خير أم كثيره؟ قال : قليله ، قال الرجل : مارأيت حلالاً وقليله خير من
 كثيره إلا هذا .

وقال فتية بن مسلم لقاضي مرو : بلغني أنك شربت النبيذ ، قال : نعم
 أصلحك الله ! أشربُ منه ما يسلي العقل ويطيب النفس ، ويُغني عن الماء، ويهضم
 الطعام ، قال : فما بقيت؟ قال : أبقيت أخبثه وأردأه ، الاتكاه على الشمال ،
 ومنادمة الرجال ، والاختلاف إلى المبال .

وترك رجل النبيذ فقليل له : لِمَ تركته وهو رسول السرور إلى القلب؟ فقال :
 ولكنه يئس الرسول ! يُبْعَثُ إلى الجوف فيذهب إلى الرأس .

• • •

قوله لَمْ تَزَمْ : هو سِنَانُ الرُّمَحِ . بنت الكرم : الخمر ، ونجّهمزها :
 حملها . والطاس : إناء الخمر كالإبريق يصب منه الشراب في الكأس ،
 وجمعه طاسات ، قال النابثي :

وَكَأَنَّمَا الطَّاسَاتُ تَمَّا حَوَّلَهَا مِنْ نُورِهَا يَسْبَحْنَ فِي ضَحَضَاحِ
 لَوُبَّتْ فِي غَدَقِ الظَّلَامِ ضِيَاؤُهَا طَلَعَ الْمَسَاءُ بَقُرَّةَ الْإِصْبَاحِ

[مما قيل في ذم الفناء ومدحه]

وقدّم في المقامة أنه لا يجهّزها إلا مصحوبة بالقينة، أي لا يشربها إلا بالفناء .

وقد ذموا الفناء ومدحوه ، فأما ذمه ، فقال السكندى : الفناء برسام حاد ، لأن المرء يسمع فيطرب ، فيسمح فيفتقر ، فيغمّ فيمرض فيموت .

وقال يزيد بن الوليد : إياكم والفناء فإنه يسقط المروءة ، وينقص الحياء ، ويبدى العورة ، ويزيد في الشهوة ، وإنه لينوب عن الخمر ، ويصنع بالعقل ما يصنع به السكر وإن كان ولا بد فجنّبوه النساء ، فإن الفناء داعية الزنا .

وأما مدحه فقال ربعة بن عبد الرحمن : السماع مطربة ، وهو من نتيجة العقل ، فمن كره السماع ، دلّ بذلك على قلة عقله .

وقال بعض الفلاسفة ، جعلت الذات خمسا في خمس ، فجعل اللمس لليدين ، والشمّ للمنخرين ، والسمع للأذنين ، والذوق للسان ، واللون للعينين ، وعلى كل جارحة تعب من الذات إلا النعمة ، فإنه لا تعب على الأذنين فيها ، ولذلك صار الناس كلهم عربهم وعجميتهم ، صغيرهم وكبيرهم مشتركين في الإصاغة إلى النعمة الحسنة ، والصوت المستمتع ، متباينين في غير ذلك . وقد يوجد أكثرها في أكثر الحيوان كالخيل يصفر لها عند الشرب ، فتشرب والإبل يحدّى لها فتفاد ، قال الشاعر :

فليس الشراب إلا بالملاهسي وبالحرّكات في بتم وزير
فلا تشرب بلا طرب فإني رأيت الخيل تشرب بالصغير
وقال آخر :

فانظر إلى الإبل التي هي - وبك - أغلظ منك طبعاً

تُصْنِى إِلَى صَوْتِ الْحَدَاةِ فَتَقْطَعُ الْقَلَوَاتِ قَطْعًا

قوله : التفاضى أى التغافل . عِرْيِد : سبي . الأخلاق عند سُكْرِهِ ، وهو الذى يُوْذِي بيده ولسانه أصحابه . رِعْدِيد : جَبَان فزاع . بَوْن : فضل ومزبة من ذى عَلَقٍ ، أى من صاحب محبة ؛ هو مثل يضرب لمن ينظر بؤد ومحبة ابن طريف : العَلَق : الحب ، وعلِق فلانٌ فلانةً ، أى أحبها . والله الوفاق .

المقامة السادسة والثلاثون المملطية

أخبر الحارث بن همام قال : أَنَحْتُ بِمَلَطِيَّةٍ مَطِيَّةَ الْبَيْنِ ،
وَحَقِيقَتِي مَلَأَى مِنْ أَلْمَنِ ؛ جَعَلْتُ هَجِيرَايَ ، مُذْ أَلْقَيْتُ بِهَا عَصَايَ ؛
أَنْ أَتَوَرَّدَ مَوَارِدَ الْمَرْحِ ، وَأَتَصَيَّدَ شَوَارِدَ الْمِلْحِ ؛ فَلَمْ يَفْتِنِي بِهَا
مَنْظَرٌ وَلَا مَسْمَعٌ ؛ وَلَا خَلَا مِنِّي مَلْعَبٌ وَلَا مَرْتَعٌ ؛ حَتَّى إِذَا لَمْ
يَبْقَ لِي فِيهَا مَأْرَبٌ ، وَلَا فِي الثَّوَاءِ بِهَا مَرْغَبٌ ، عَمَدْتُ لِإِنْفَاقِ
الذَّهَبِ فِي ابْتِيَاعِ الْأَهَبِ . فَلَمَّا أَكْمَلْتُ الْأَعْدَادَ ، وَتَهَيَّأَ الظَّمْنُ
فِيهَا أَوْكَادَ ، وَجَدْتُ بِهَا تِسْعَةَ رَهْطٍ قَدْ سَبَّحُوا قَهْوَةَ ، وَارْتَبَّحُوا
رَبْوَةَ ، وَدَمَّائَتْهُمْ قَيْدُ الْأَلْحَاطِ ، وَفُكَّاهَتْهُمْ خُلُوءُ الْأَلْفَافِ ،
فَنَحَوْتَهُمْ طَلَبًا لِمُنَادَمَتِهِمْ لَا لِمُدَامَتِهِمْ ، وَشَفَقًا بِمَازَجَتِهِمْ
لَا بِزُجَاجَتِهِمْ .

• • •

أَنَحْتُ الْمَطِيَّةَ : صَيَّرْتُهَا بَارَكَةً بِالْأَرْضِ .

[ذَكَرَ مَلَطِيَّةَ]

مَلَطِيَّةٌ : بَلَدٌ بِالْجَزِيرَةِ ذَاتِ أَنْظَارٍ وَقُرَى ، بَيْنَهَا وَبَيْنَ الرَّقَّةِ خَمْسُونَ
فَرَسَخًا ، وَالرَّقَّةُ : أُمُّ قُرَى الْجَزِيرَةِ ، وَذَكَرَهَا الْمَسْعُودِيُّ فِي شِعْرِهِ فَقَالَ :

وَلَمْ يَحْلُبُوهَا مِنْ وَرَاءِ مَلَطِيَّةٍ نَصَدَّعَ أَجْبَالُهَا وَأَكَامُ

(١) ضَبَطَهَا يَاقُوتُ : « بَفَتْحِ أَوَّلِهِ وَثَانِيهِ وَتَخْفِيفِ الْيَاءِ » قَالَ : وَالْعَامَّةُ تَقُولُ بِتَشْدِيدِ
الْيَاءِ وَكَسْرِ الطَّاءِ .

(١٣ - شرح مقامات الحريري ج ٤)

وقيل : مَلَطِيَّةٌ في ثغر الشام .

قال اليمقوي : ملطية هي المدينة العظمى ، وكانت قديمة فأخربها الروم ،
خبناها المنصور سنة تسع وثلاثين ومائة ، وجعل عليها سوراً واحداً ، ونقل إليها
عدة قبائل من العرب ، قال : وهي في مستو من الأرض يحيط بها جبال الروم ،
وماؤها من عيون وأودية من الفرات ، وخففها المتنبى ضرورة فقال :
وكرت فدرت في دماء مَلَطِيَّةٍ مَلَطِيَّةُ أُمِّ لَبْنين تَكُولُ^(١)

قوله : ملطية البين ، يريد ناقة السفر ، أي أقام بها وترك السفر . الحقيبة :
وعاء الرحل . والتمين : الذهب . هَجِيرَانِي : عَادَتِي . وألقى بها عصاه ، أي أقام
بها وترك السفر . أنورد : أطلب وأدخل ، وتوردت الإبل الماء : دخلته قطعة
قطعة . والمرح : النشاط . شوارد : نوافر ، وأراد أنه أتبع نفسه جميع الهذات
بملطية وشاهدتها . مرتع : موضع خصب كثير الطعام . مأرب : حاجة .
الثواء : الإقامة . عمدت : قصدت . ابقياح الالهَب : اشتراء العُدَد للسفر .
الظعن : الارتحال . الرَهْط : الجماعة من ثلاثة إلى عشرة . سَبَّئُوا قهوة : اشتروا .
ارتبثوا زبوة : طامعوا كذبة ، وقال الحسن :

وفتيانِ صِدْقٍ قد صرفتُ مطيهم إلى بَيْتِ خَمَارٍ نزلنا به طُهرًا^(٢)
أَتِينَا يهوديا تجمل ظاهراً

وَيُضْمِرُ في المكنون من مِرَّة الشَّرَا
فجاء بها زَيْنِيَّةٌ ذهبية فلم نستطع دون السُّجود لها صَبْرًا
خَرَجْنَا على أَنَّ الْقَامَ ثلاثة فطابت لنا حتى أقنأ بها شهرًا

(١) ديوانه ٣ : ١٠٢ .

(٢) ديوانه ٢٧٢ مع اختلاف في الرواية وترتيب الأبيات .

وقال في شراء الخمر بثيابه :

نَجوتَ من اللص المغيرِ بسيفهِ إذا مارماه بالتَّجارِ سَبيلُ^(١)
حواسلتُ^(٢) خارا على بخمرة فراح بأثوابي^(٣) ورُحْتُ أَميل

وقال الأمير تميم بن العز :

شَرَبنا على نَوَحِ المطوَّقةِ الزُرقي وأرَديةِ الرِّوضِ المَلْفَقَةِ البِلقي^(٤)
مَعْتَقَةً أفى الزمانِ وجودَها فجاءت كفوتَ اللَّحْظِ أورقةَ العِشْقِ
كَانَ السحابُ الغرَّ أصْبَحْنَ أكوُسا

لنا وكانَ الرِّاحَ فيها سَنًا البرق
فبَقنا نَحْتِ الكأسِ حَنًا وإِنا لنشربُها بالْحَثِ صِرْفًا ونَسْتَسْقَى
إلى أن رأيتَ النَجْمَ وهو مغرَّبُ

وإقبال^(٥) رايات الصَّباحِ من الشَّرقي

كَانَ سوادَ اللَّيْلِ والفجرِ طالعُ

بقية لَطَخِ الكُحْلِ في الأعينِ الزُرقي^(٦)

وأحسن في هذا المعنى ما شاء ، إلا أنه جعل شربنا في الروض على نوح الحمام ،
حولوهوض من لفظ « النوح » لفظ الغناء أو الغريد لسكان أتمَّ للذَّته ، كما
قال ابن الرومي :

وأذكي نسيم الروض ريمانَ ظِلِّهِ وغنى مغنى الطَّيرِ فيه فَرَجَمًا^(٧)

(١) ديوانه ٣٢٣ (٢) ديوانه : « وسلطت »

(٣) الديوان : « بأسلاحي »

(٤) ديوانه ٢٩٦ وفيه : « الملقفة » .

(٥) الديوان : « وأقبل »

(٦) الديوان : « بقايا مجال الكحل في الأعين الزرق » .

(٧) نقله البارودي في مختاراته ٤ : ٧٥ .

وكانت أهازيج الذباب هناكم على شذوات الطير صوتاً موقماً
وقال آخر :

وكأسٍ كريق الإلف شَغَشَعَهَا به

وعيشي من هذا الشراب المُشَغَم
إذا ما شربنا كأسها صبّ فضلها على رَوْضِنَا للمُسمِعِ المُتَخَلِّعِ
المسمِع : المُنْعَى ، بمعنى به الذباب الذي ذكره عنتره في قوله :

فترى الذباب بها يُنْعَى وحده هَزِجًا كفعل الشارب المترنم^(١)

وإنما ذكر الحريري الربوة ، لأن الثبات فيها أحسن وأسلم من نبات
الانخفاض ، لأن نبات الانخفاض وَخِم ، قال الله تعالى : ﴿ كَثَلْ جَنَّةٍ
بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضَعْفَيْنِ ﴾^(٢) . وقال المتنبي^(٣) :

• نحنُ نَبْتُ الرُّبَا وأنت الغمام •

قوله : دمائهم قيد الأخطاظ ، أي سهولة أخلاقهم تنيّد عيون الناظرين إليهم ؛
حتى لا ينظروا إلى غيرهم ، قال ابن المعتز :

مَنْظَرُهُ قَيْدُ عُيُونِ الْوَرَى فليس خَلَقَ يَتَلَقَاهُ

نحوتهم : قصدتهم . شفا : حُبًّا .

* * *

(١) من المعلقة ص ١٨١ - بشرح التبريزي ، ورواية البيت هناك .

وَحَلَا الذَّبَابُ بِهَا فَلَيْسَ بِبَارِحٍ غَرِدِ كِفْعَلِ الشَّارِبِ الْمَتَرْنِمِ

(٢) سورة البقرة ٢٦٥ (٣) ديوانه ٣ : ٣٤٣ ، صدره :

أَيْنَ أَرْمَعْتَ أَيُّهَذَا الْمَهَامُ

(٤) ديوانه

فَلَمَّا انْتَضَمَتْ عَاشِرُهُمْ ، وَأَضْحَيْتُ مَعَاشِرَهُمْ ، أَلْفَيْتُهُمْ أَبْنَاءَ
عَلَاتٍ ، وَقَذَائِفَ فَلَوَاتٍ ؛ إِلَّا أَنَّ لُحْمَةَ الْأَدَبِ ، قَدْ أَلَفَتْ شَمْلَهُمْ
أَلْفَةَ النَّسَبِ ؛ وَسَاوَتْ بَيْنَهُمْ فِي الرُّتَبِ ؛ حَتَّى لَا حُجُومًا مِثْلَ كَوَاكِبِ
الْجُوزَاءِ ، وَبَدَّوْا كَالْجَلَّةِ الْمُنَاسِبَةِ الْأَجْزَاءِ ، فَأَبْهَجَنِي الْإِهْتِدَاءُ إِلَيْهِمْ ،
وَأَتَّخَذْتُ الطَّالِعَ الَّذِي أَظْلَمَنِي عَلَيْهِمْ ، وَطَفِئْتُ أُفَيْضُ بِقِدْحِي مَعَ
قِدَاحِهِمْ ، وَأَسْتَشْفِي بِرِيَا حِيهِمْ لِأَبْرَاحِيهِمْ ، حَتَّى أَذْثَنَّا شُجُونَ الْمُنَافَؤِصَةِ ،
إِلَى التَّحَاجِي بِأَنَّهُمْ قَايِضَةٌ ، كَقَوْلِكَ إِذَا عَنَيْتَ بِهِ الْكَرَامَاتِ : مَامِثْلُ
النُّومِ فَاتٍ ؛ فَأَنْشَأْنَا نَجْلُو السَّهَاءَ وَالْقَمَرَ ، وَنَجْنِي الشَّوْكَ وَالشَّمْرَ .

• • •

انضمت : مرت معهم في نظام واحد ، والنظام الجوهر . معاشرهم :
مصحابهم . ألفتهم : وجدتهم . أبناء علاتٍ ، أى غرباء من بلاد مختلفة ،
وبنو العلات : الذين أبوم واحد وأمهاتهم شتى . قذائف فلوات ، أى قد رمت
بهم القنار ، والطرق المختلفة واحدها قذيفة ، وهى التى يُقذف أى يرمى بها .
لحمة ، أى قرابة . ألفت شملهم : أى جمعت متفرقهم ، وجعل للأدب لحمة مجازاً ،
وجعل الأدب يجمعهم كما يجمع بنى العلات الأب ، والبلاد تفرقهم ، كما تفرق
بنى العلات الأمهات .

[مما قيل فى المودة بين الشعراء]

وهذا نحو ما يحكى^(١) أَنَّ دِعْبِلًا ذُكِرَ عِنْدَ عَلِيِّ بْنِ الْجَهْمِ فَكَفَّرَهُ وَلَعَنَهُ ،
وَقَالَ : كَانَ يَظْهَرُ عَلَى أَبِي تَمَامٍ وَهُوَ خَيْرٌ مِنْهُ ، دِينًا وَشِعْرًا ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ
مَنْ حَضَرَ : لَوْ أَنَّ أَبَا تَمَامٍ أَخُوكَ مَارَدَتْ عَلَى مَدْحِكَ لَهُ ، فَقَالَ : إِنْ لَمْ يَكُنْ

(١) الخبر فى أخبار أبي تمام للمولى ٦١ ، ٦٢ .

أخى في النسب ، فهو أخى في المودة والأدب ، أما سمعت ما خاطبني به «
وأنشد لأبي تمام :

إن كان يجمعنا الإخاء فإننا تفدو وتشرى في إخاء تاليد^(١)
أو يفترق نسبٌ يؤلف بيننا أدب أقمناه مقام الوالد
وكرر أبو تمام هذا المعنى ، فأحسن بقوله :

ذو الود معي وذو القربى بمنزلة وإخوتي أسوة عندي وخلائي^(٢)
عصابة جاورت آدابهم أدبي فهم وإن فرقوا في الأرض جيران^(٣)
أرواحنا في مكان واحد وغدت أجسامنا في عرق أو خرأسان
وأنشد إسحاق الموصلي :

يقولون لي هل من أخٍ أو قرابة قلت لهم إن الشكول أقارب
تسبي في رأبي وعزى ومذهبي وإن باعدتنا في الولاء المناسب
وليس أخى إلا الصحيح وداؤه ومن هو في وصلي وقرني راغب
وكان لسليمان بن وهب نديم يأنس به ، فمر بدعائه ليلة فاطرحه وجفاه
فوقف له بالطريق ، فلما مر به وثب إليه ، ثم قال : أيها الوزير ، لانيك في
أمرى إلا كما قال علي بن الجهم :

القوم أخذان صديق بينهم نسب من المودة لم يعدل به نسب^(٤)
تراضعوا دزة الصهباء بينهم فأوجبوا الرضيع الكأس ما يحب
لا يحفظون على السكران زلته ولا يربك من أخلاقهم ريب
فقال : قد رضيت عنك رضا صحيحا ، فعد لنا نك .

(١) ديوانه ٨٦ ، وبعدة :

أو يختلف ما الوصال فإونا عذب تحذر من غمام واحد

(٢) وفيه : « وإخواني » . (٣) الديوان : « بشام أو خرسان ،

(٤) ديوانه ١٠٥ ، ١٠٦ ، الأعماني ١٠ : ٢٤٣ .

قوله الرنب : أى للنازل الرفيعة . مثل كواكب الجوزاء ، أى فى الإضاءة والرفعة . والجملة المتناسبة الأجزاء ، أى المتفقة ، يعنى مقاديرهم فى الفضل وغيره . متساوية لانفاضل بينهم ، كالجملة التى لامتزية لبعضها على بعض ، وأقل جملة حسابية أجزاؤها متناسبة لا كسر فى بعضها ولها النصف والثالث والرابع والخمس والسادس والسبع والثمن والتسع والعشر هى ألفان وخمسمائة وعشرون ، نصفها ألف ومائتان وستون وثلاثمائة وأربعون ، وربها ستمائة وثلاثون ، وخمسها خمسمائة وأربعة ، وسدسها أربعمائة وعشرون وسبعها ثلثمائة وستون ، وثمانها ثلثمائة وخمسة عشر ، وتسعها مائتان وثمانون وعشرها مائتان واثنان وخمسون .

قوله : أبهجنى ، أى أفرحنى أخذت : وجدته عمودا . الطالع : النجم الذى يسعد به صاحبه ويفتح على زعمهم . طفقت : أخذت . أفيض بقدحى : أضرب بسهمى ، وهذا من فعل الميسر : وأراد أنه يمشى كلامه مع كلامهم ويدخل مداخلهم . أدتنا : أوصلتنا . شجون المفاضة . طرق المراجعة فى الكلام ، والشجون فى الكلام ، تداخله ، واختلاط بعضه ببعض ، والتفاوض : الاندفاع فى الحديث ، وفى المثل : الحديث ذو شجون ، أى ذو فنون وأصله من الشجر المشجون ، وهو الشجر الذى التف به بعضه ببعض . التجاجى : التفاوض . المفاضة : المعاوضة والمقارضة . الكرى : النوم . فات ، بمعنى مات ، وأراد أن هذا النوع من الألفاظ هو أن يؤتى بلفظ عوضا من لفظ آخر يتوارد معه على معنى واحد ، والمائلة التى بينهما إنما هى موافقة المعنى . نجلو : نكشف . السها : نجم خفى ، وقرن السها فى خفائه مع القمر فى ظهوره ، وإنما يشير إلى قولهم فى المثل : أريها السها وترينى القمر ، وأراد أنهم يأنون باقطة ظاهرة المعنى ، وأخرى خفية ، فلا يتم لهم شئ .

وبينا نحن نُنشُرُ القَشِيبَ والرَّثَّ ، ونُنشُلُ السِّمِينَ والنَّثَّ ،
وعَلَّ عَلَيْنَا شَيْخٌ فَذَهَبَ حَبْرُهُ وَسَبْرُهُ ، وَبَقِيَ خُبْرُهُ وَسَبْرُهُ ؛ فَنَلَّ
مُثُولَ مَنْ يَسْمَعُ وَيَنْظُرُ ، وَيَلْتَقِطُ مَا تَنْثُرُ ، إِلَى أَنْ نَفِضَتْ
الْأَكْيَاسُ ، وَحَصَّصَ الْيَاسُ .

فَلَمَّا رَأَى إِجْبَالَ الْقَرَائِحِ ، وَإِكْدَاءَ الْمَاتِحِ وَالْمَائِحِ ، جَمَعَ
أَذْيَالَهُ ، وَوَلَّانَا قَذَالَهُ ، وَقَالَ : مَا كُلُّ سَوْدَاءٍ تَمْرَةٍ ، وَلَا كُلُّ
صَهْبَاءٍ خَمْرَةٍ ، فَاعْتَلَقْنَا بِهِ اغْتِلَاقَ الْحِرْبَاءِ بِالْأَغْوَادِ ، وَضَرَبْنَا دُونَ
وِجْهَتِهِ بِالْأَسْدَادِ ، وَقُلْنَا لَهُ : إِنَّ دَاءَ الشَّقِّ أَنْ يُحَاصَّ ، وَإِلَّا
فَالْقِصَاصُ الْقِصَاصُ ؛ فَلَا تَطْمَعُ أَنْ تَجْرَحَ وَتَطْرَحَ ، وَتُنْهَرَ الْفَقُّ
وَتُسْرَحَ . فَلَوَى عِنَانَهُ رَاجِعًا ، ثُمَّ جَثَمَ بِمَكَانِهِ رَاصِعًا ، وَقَالَ :
أَمَّا إِذَا اسْتَرْثَمُونِي بِالْبَحْثِ ، فَلَا حُكْمَ حُكْمِ سُلَيْمَانَ فِي الْحَرِثِ .

* * *

القشيب : الثوب الجديد. الرث : الخلق . نشل : نخرج النشيل ، وهو
لحم يطبخ بلا قائل ثم يُنشَل ، أى يُخرج بالمدشَل ، وهو حديدة معقفة . ذهب
حبره وسبزه : هبته ولونه ، قال القراء : من قولهم : جاءت الإبل حسنة الإخبار
والإسبار ، قال الأصمعي رحمه الله : هى الجمال والبهاء وآثار النعمة ، يقال : فلان حسن
الحَبْر والسَّبْر ، إِذَا كَانَ جَمِيلًا حَسَنَ الْهَيْئَةِ ، وَفِي الْحَدِيثِ : يُخْرَجُ مِنَ النَّارِ رَجُلٌ
قَدْ ذَهَبَ حَبْرُهُ وَسَبْرُهُ ، أَيْ قَدْ ذَهَبَ جَمَالُهُ وَبَهَائُهُ ، وَمَعْنَى الْحَبْرِ حَبْرًا لِأَنَّهُ يَزِينُ
الْكِتَابَ ، وَيَحْسَنُ الْقُرْطَاسَ ، وَحَبَّرْتُ الشَّيْءَ زَيَّنْتُهُ ، وَقِيلَ لَهُ إِنَّهُ سُمِّيَ حَبْرًا لِأَنَّهُ
يُؤَثِّرُ فِي الْقُرْطَاسِ ، فَيَكُونُ عَلَامَةً فِيمَا يَقَعُ فِيهِ ، وَيُقَالُ لِلْأَثَرِ : حَبْرَةٌ وَحُبَارٌ ،

السَّيْر: الأصل واللون والهيئة والمنظر، والسَّيْر ما يدلُّ به على لون الدابة وكرمها، ويروي حَبْرهُ وسَيْرُهُ، بكسر أو لمها وفتح، فإذا كسرا كانا اسمين، وإذا فتحا كانا مصدرين، وحَبْرهُ علمه، وسَيْرهُ قياسه. مثل: تمثَّل قائماً. الأكياس: أوعية الدرام، ونفضت: ألقي ما فيها، وأراد فراغ كلامهم. وحَصَص: تبين، اليأس: ضد الرجاء. إجبال القرائح: انقطاعها عن الكلام. إكداء: صعوبة، وأصل هذا في البئر، فأول ما يرشَّح من ماؤها هو القريحة، ثم نقل إلى الطبيعة والذهن، وأجبال الحافر: إذا حال بينه وبين الماء جبل، وأكْدَى: حال بينه وبينه كُدْيَة، والجبل والسكدية حجارة وصلابة تفرِّض في البئر، لا يمكن حفرها معها، ثم يقال: أكدى أى قل خَبْرُهُ وأجبل الشاعر، أى انقطع شعره. وأكدى فلان عطائى، أى قطعه وقال خيره، ومنه قوله تعالى ﴿وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى﴾^(١). والماتح: المستسقى على فم البئر. والماتح: النازل إلى قعرها ليملاً الدلاء ويفرِّق بينهما بنقطتي الحرف الذى قبل آخرهما، فتى كانتا فوق الحرف، فالمستسقى فوق البئر لكثرة الماء، ومتى كانتا تحته فالمستسقى في قعر البئر ليملاً الدلو بيده، وذلك لقلة الماء، وإذا تسكَّرت الدلاء عليه، وكثُر صياح الناس عليه من رأس البئر، وكل يرغب ليملاً دلوهُ، فيأخذ دلوً من لأمال له فيضرب به رجا البئر، أى جانبه ليرتدع الناس عنه، ثم يضرب مثلاً للمهان، قال الشاعر:

فلا يُرَمَى بى الرَّجَوَانِ إِنِّى أَقْلُ الْقَوْمِ مَنْ يُفْنِى مَكَانِى^(٢)

وقالت جارية من العرب تستعطفه:

بِأَيْهَا الْمَاتِحُ دَلْوِى دُونَكَ إِنِّى رَأَيْتُ النَّاسَ يَحْمَدُونَكَ^(٣)

(١) سورة النجم ٣٤.

(٢) اللسان - مبيح.

(٣) اللسان - رجا.

ومن أمثالهم : أبصر من المائع ياست للمائع .

وأنشد الفنجدية :

يا مائع العين عُدِمَتْ الرَّدَى

من حوض هذى العين كم تَسْتَقِي

مِنْ شِمَةِ الْمَاءِ انْحِدَارٌ فَمِنْ مَاءِ جَفُونِي أَبَدًا يَرْتَقِي

قوله : جمع أذْياله : شمر ثيابه للقيام . قذاله : قناه .

ما كلَّ سوداء تمر ، مَثَل . والسوداء تستعمل للتمر والقمح فيقول :
ما كلَّ الكلام سهل فتعاطونه وما كلَّ ما جئتم به بفائق فيدخل في باب المقايضة ،
وهو مَثَلٌ يضرب في موضع التهمة .

والصهباء : من أسماء الحجر ، والصبية أن تعلو الحجرة شجرة وأصوله سود .

[الحرباء وما ورد فيها من الشعر]

الحرباء : دويبة تستقبل الشمس بوجهها إذا استوت في كبد السماء ،
وإن لم يأت لها الفرصة بوجهها تملكت وتقلبت ، ولم تزل في قلق حتى تميل
الشمس ، فتستقبلها - أعنى قُرَصَهَا - بوجهها حتى تغرب وهي في طول يومها ،
لأنها كل شيئاً ، فإذا جاء الليل ذهب تبغى ماناً كل ، والأنثى منها حرباء .

وقال أبو عبيدة : الحرباء تستقبل الشمس برأسها أبداً ، يقال : إنما تفعل
ذلك لتقَى جَسَدَهَا برأسها ، وقيل : الحرباء ذكر أم حُبَيْن ، وفي صدره استرخاء
وقُرب من الأرض ، فإذا حيت الأرض بالشمس خاف على صدره أن تحرقه
الأرض لازوقه بها ، فيصعد على عود شجرة ، فليتزمه بهديه ، ويجعله بينه وبين
الشمس ، ويضرب به المثل في التشبث بما تعلق به ، وذلك أنه إذا تعلق بعود
التزمه ، وقبض عليه فلا يفارقه ، حتى يستوثق من آخر ، فيضرب المثل به ،
فيقال : أحزم من الحرباء . وقال قيس بن الحداية :

بانت سعادُ فأَمسى القلبُ مشتاقاً وأفلقتها نوى الإجماع إقلاقاً^(١)
واحتمتْ حادِيهمُ بزلاً مخيصةً كُوم الذِّرا مدد الأعضاء أفيافاً
أنى أنيَح لها حرباء تنضُّبُ لا يرسل الساق إلا مُمسكا ساقاً

والساق : ساق الشجرة ، والتنضُّب : شجر يتعلق بأعواده الحرباء ،
فيقال حرباء تنضبه ، كما يقال : ذئب غَضَى . وقال الأزهرى رحمه الله تعالى :
الحرباء دويبة على خِلقةٍ سام أبرص ، ذات أربع قوائم دقيقة الرأس مخططة
الظهر ، وأكثر الشعراء من ذكر الحرباء وتشبيهها ، ومن جَيّد ذلك قول
ذى الرِّمّة :

ودويبة جرداء جبداء خيمت

بها هفوات الصيف من كل جانب^(٢)
كأنّ يدي حربائها مقشّماً يدا مذنب يستغفر الله نائب
وقال آخر :

وقد جعل الحرباء يصفراً لونه ويخضراً من لفح الهجير غباغبه^(٣)
وبشبح بالكفّين حتى كأنه أخو نخوة عالى به الجذع صالبه^(٤)
وقال أيضاً :

يظلّ بها الحرباء للشمس مائللاً على الجذل إلا أنه لا يُكَبَّرُ^(٥)
إذا حول الظلّ العشي رأيتُه حنيفاً وفي قرن الضحى ينتصرُ

(١) البيت الثالث ، من أبيات ثلاثة في ديوان أبي دواد الإيادى ٣٢٦ .

(٢) ديوانه ٧٨ .

(٣) ديوانه ٤٧ ، وفي ط : « غباغبه » ، وصوابه : « الديوان » ، والغباغب : الجلد ، واحده غبغب .

(٤) يشيح : يمد كفيه ، كأنه مصلوب .

(٥) ديوانه ٢٢٥ ، وحجاسة ابن الشجرى ٢٢٦ ، وفي ط : « الجذع » ، ربما أنبتته .

من الديوان .

غدا أكلب الأعلى وراح كأنه

من الضحّ واستقبله الشمس أخضر^(١)

أخبر أنه يدور مع الشمس في وقت الزوال ، حتى تكون الشمس في
هذاء القبلة ، فكانت باستقباله لها في ذلك الوقت مُسَلِّمٌ يعالَى لها ، وفي الضحى
تكون في وجه المشرق ، فكانت نصرانيّ فيستقبلها بصلاته .

قال ابن الرومي :

ما بالها قد حَسَنْتُ ورقيها أبداً قبيحٌ قبح الرُقباء

ماذا لك إلا أنها شمسُ الضحى أبداً يكون رقيها الحرباء

قوله : وجهته ، أى جهته . والسدّ : الحاجز بين الشيئين . يخاص : يخالط ،
ويقال : خاص ثوبه وعين صفره وشقوق رجله حوصاً وحياسة : خاطها ،
وقيل : الخوص : الخياطة بعد رقمة ، ولا يكون إلا في جلد ، وأنشد يعقوب :

ترى برجله شقوقاً في كلِّغ من بارى حيص ودام مُنسلِم^(٢)

الكلِّغ : الوسخ ، ومنسلِم : متشقق . القصاص : أخذ الحق في الجنايات .

وتنهر : توسّع فترده كالنهر . الفتق : الخرق . وتسرح : تذهب . لوى
هنا : أماله وعطفه . جثم : برك . راصعاً : لاصقاً بالأرض والرصع : تباعد
ما بين الركبتين ، ورصع بالشئ يرصع رُصوعاً إذا لازمه . استترتموني :
حلبتموني واستخرَجْتُم ماعندي . والبحث : المناقشة في السؤال ، وأصله العتيد
تقول : استترت العتيد ؛ إذا بحثت عليه حتى تقيمه من مرّقه .

[قصة سليمان في الحرث]

قوله : حكم سليمان في الحرث . كان سليمان عليه السلام ، فيما ذكروا

(١) أكلب : أغبر إلى السواد . والضح : الشمس ، وقيل الضح : ما طلعت عليه الشمس

(٢) الأسان - كلِّغ ، ونسبه وآخر إلى حكيم بن معية الربمي .

أبيض ، وضيئاً ، جسيماً كثير الشعر ، يلبس من الثياب البياض . فلما بلغ مبلغ الرجال ، كان أبوه في أيام مُلكه يشاوره في أموره ، وكان هذا الحكم - فيما ذكر من ابن عباس رضى الله عنهما - أن رجلين دخلاً على داود عليه السلام ، أحدهما صاحب حرث ، والآخر صاحب غنم ، فقال صاحب الحرث : يا نبي الله ، انفلتت غنم هذا في زرع ليلا ، فرثمت في حرثي ، فلم تستبق منه شيئاً ، فقال له داود : اذهب ، فإن الغنم لك ، فلك رقابها بما أكلت من حرثه ، فلما خرجا من عنده خطرا على سليمان عليه السلام ، فأخبراه بقضاء أبيه ، فقال : لو وليتُ أمركا لفضيت بغير هذا . فأخبر داود عليه السلام ، فدعاه وقال له : كيف كنت تقضى بينهما ؟ فقال : أدفع الغنم إلى صاحب الحرث ، فيسكون له رسلها ونسلها وصوفها ، ويبذر صاحبها لصاحب الحرث مثل حرثه ، فإذا صار الزرع كهيئته يوم أكل ، أخذ غنمه . فقال داود : القضاء ما قضيت به ، وحكم بقضاء سليمان عليهما السلام .

وقال ابن مسعود وشريح ومقاتل : أراد بالحرث الكرم ، وأن الغنم أكلت قضبانته ، فأفسدته ، فحكم بها داود لصاحب الكرم ، ولم يكن بين الغنم والكرم تفاوت ، فرثوا بسليمان عليه السلام ، وهو ابن إحدى عشرة سنة ، فقال : يعمل الراعى في إصلاح الكرم حتى يعود كهيئته ، ثم يأخذ غنمه .

ومن عجائب حكم سليمان عليه السلام ما رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : بينا امرأتان معهما ابناهما ، إذ جاء القذّب ، فذهب بأحدهما ، فقالت : هذه إمامذهب بابنك ، وقالت الأخرى : إنما ذهب بابنك ، فاختصما إلى داود عليه السلام ، فقضى به للكبرى فرثا على سليمان ، فأخبرناه ، فقال عليه السلام : « اثنياني بسكين أشقه بينكما ، فقالت الصغرى :

لا ويرحمك الله ، هو ابنها ، قضى به للشفري » قال أبو هريرة رضى الله عنه :
والله إن كنت سمعت بالسكين قبل ذلك ، ما كنت أقول إلا المدنية .

قوله : الشماثل : الخلائق والطباع . والشمول القهية : الخمر الجراء .

[من وصف الشعراء للخمر]

وذكر في هذه المقامة أنهم سبثوا قهوة ، وذكر هاهنا أنها في لونها حمراء ،
والعرب تتمدح بشرب الخمر السبيطة ، ونصفها بالحمرة ، كقول الأعشى ، وهو في
أوصافها في الجاهليتين ، كالحسن في الإسلاميين ، وحبها فيها صدّه عن الإسلام :

وَسَيْبِيَّةٌ مَّا تَعْتَقُ بَابِلُ كَدَمِ الدِّيْبِجِ سَابِثُهَا جِرْيَالُهَا^(١)
وقوله :

فَقَمْنَا وَلَمَّا يَصْنَعُ دِيكُنَا إِلَى خَمْرَةٍ عِنْدَ حَدَّادِهَا^(٢)
فَقُلْتُ لَهُ : هَذِهِ هَاتِيهَا بِأَدْمَاءٍ فِي حَبْلِ مُقْتَادِهَا^(٣)
فَقَامَ فَصَبَّ لَنَا قَهْوَةً تَسْكُنُنَا يَمْدَ إِرْعَادِهَا
كُمَيْتٌ تَكْشِفُ عَنْ خُمْرَةٍ إِذَا ضَرَجَتْ بَعْدَ إِزْبَادِهَا^(٤)
فَجَالَ عَلَيْنَا بِإِرْبِقِهِ مَخْضَبُ كَفِّ بِفِرْصَادِهَا^(٥)

(١) ديوانه ٢٧ . والجريال : صبغ أحمر .

(٢) ديوانه ٦٩ ، ٧١ وفيه : « إلى جونة » ، وهي خابية الخمر . والحداد صاحب الخمر ،
يحد الناس عنها لنفاستها .

(٣) الأدماء : مائدة البياض .

(٤) كميته : تضرب إلى السواد ، فإذا مزجت ذهب سوادها وصارت حمراء . صرحت :
ذهب زبدتها .

(٥) الفرصاد : التوت ؛ إذا كان أحمر اللون .

خَفَرُحْنًا تَفْعَمْنَا نَشْوَةً تَجُورُ بِنَا بَعْدَ إِفْصَادِهَا^(١)

وقال أبو ذؤيب :

ولا الراح راحُ الشامِ جاءتْ سَبِيَّةً لها غَايَةُ تَهْدِي الكَرِيمَ عُمَاقُهَا^(٢)
عَفَارُهَا كَمَا التُّبْرُ لَيْسَتْ بِخَمَطَةٍ ولا خَلَّةٌ يَكْوِي الشَّرِوبَ شَهَابُهَا^(٣)

وقال الحسن :

وَتَحَارٍ أَمَحْتُ عَلَيْهِ لَيْلًا قَلَانِصَ قَدْ تَعَيْنَ مِنَ السَّفَارِ^(٤)
فَجِجَمَ وَالْكَرَى فِي مُقَلَّتَيْنِ كَمَعْمُورٍ شَكَا أَلَمَ الْحُجَارِ
أَبْنَى لِي كَيْفَ بَرَزْتَ إِلَى حَرَمِي وَثُوبُ اللَّيْلِ مَصْبُوغٌ بِقَارِ
فَقُلْتُ لَهُ تَرْفُقْ بِي فَإِنِّي رَأَيْتُ الصُّبْحَ مِنْ خَلَلِ الدِّيَارِ
فَكَانَ جَوَابُهُ أَنْ قَالَ كَلَّا وَمَا صُبِّحَ سِوَى صُبْحِ الْعَفَارِ
وَقَامَ إِلَى الدَّنَانِ فَسَدَّ فَاها فَعَادَ اللَّيْلُ مَسْدُولَ الْإِزَارِ

وقال عبد الصمد :

وَحِيمةٌ نَاطُورٌ تَحْفُ بِرَوْحَةٍ يُحْيِيكَ مِنْهَا وَرَدُّهَا وَالْبَنَفْسُجُ
وَأَشْمَطُ أَعْلَى وَسَطِهَا بِمَدْهَجَةٍ تَرَاهُ بِهَا مِنْ قَرَرِهِ يَنْشَبُجُ
دَعْوَتُ فُلْبَى وَهُوَ بِالصَّوْتِ عَارِفٌ وَأَقْبَلَ نَحْوَ الْبَابِ يَزْهُو وَيَهْرَجُ

(١) تجور : تميل . وفي ط : « قصادها » تحريف ، والصواب ما أثبتته من الديوان .
(٢) ديوان المقللين ٧٢ والقاب : الراية . وفي الديوان : « تهدي الكرام » .
(٣) في الديوان : « جاء النى » ، قال في شرحه : أراد في صفائها ، وهو ما قطر من الهم .
والخطة : التي أخذت ريمًا ولم تترك . وفي ط : « ليست بمخضة » ، تصحيف ، والخلة : الحامضة .
وقوله : يكوي الشروب ، أي لها ومنى شديد مثل النار . والشروب : الندى .

(٤) ديوانه ٢٧٥

قلت له الصباح إن كنت مسرّجاً فقال: قفوا فالجر في الكأس تُسرجُ

اعلموا يا ذوى السّمائلِ الأدبيّة، والشّعُوعِ الذهبيّة، أن وضعَ
الأُخبيّة، لامتحانِ الأُلمعيّة، واستخراجِ الخبيّة الخفيّة، وشرطُها
أن تكونَ ذاتَ مُماثِلَةٍ حَقِيقِيّةٍ، وألفاظٍ معنويّةٍ، ولطيفةٍ أدبيّةٍ؛
فتى نافَتِ هَذَا النَّمطِ، ضاهتِ السَّقَطَ، ولم تَدْخُلِ السَّفَطَ؛ ولم
أركُم حَافِظَتُم عَلَى هَذِهِ الحُدُودِ، ولا مِزْتَم بينَ المَقْبُولِ والمَرْدُودِ،
فقلنا له: صَدَقْتَ، وبالْحَقِّ نَعَلَقْتَ؛ فَكِلَ لَنَا مِنْ لُبَابِكَ،
وَأَفِضْ عَلَيْنَا مِنْ عُبَابِكَ؛ فقال: أَفَعُلْ لِّثَلَايِرِ تَابِ المَبِطُلُونِ،
وَيُظَنُّوا بِي الظُّنُونِ.

قوله: «لامتحانِ الأُلمعيّة»، أى لاختبارِ الفطنة. نافَتِ: باعدت. النَّمطُ:
النوع، يقال: الزم هذا النَّمطَ، أى هذا المذهبَ والفنَّ والطريقَ. ضاهت:
شابهت. السَّقَطُ: ردىءُ المتاعِ ومالاً يُعبأ به. والسَّفَطُ: وعاءُ لجميعِ الثيابِ
الرفيعة، وسفَطُ العلوم: الكتُب، أى لم تكتب ولم تدوّن في الكتُب. مِزْتَم:
فرّقتم. لُبَابِكَ: خالص ما عندك. أَفِضْ: صَبَّ. عُبَابِكَ: بحرك، وعَبَّ البحرُ
عُبَاباً هَاجَ واضطرب: يرتاب: يَشْكُ.

ثم قَابِلَ ناظورةَ القوم ، وقال :

يا مَنْ سَمَاءَ بِذِكَاءٍ في الفضلِ وارى الزنادِ
ماذا يَمائِلُ قولى : جُوعٌ أَمِـدٌّ بَرادِ
ثم ضحك إلى الثانى وأنشد :

يا ذا الَّذِى فَاقَ فَضْلاً ولم يُدَنَّسْهُ شَيْنُ
ما مِثْلُ قولِ المحاجِى : ظَهَرَ أَصَابَتْهُ عَيْنُ

ثم لَظَ الثالث وأنشأ يقول :

يا مَنْ نَتائِجَ فِكْرِهِ مثل النقودِ الجائِزةِ
ما مِثْلُ قولِكَ لِلَّذِى حاجِيتُ صادفَ جائِزةِ

ثم أَتَلَعَ إلى الرابع وقال :

أَيَا مُسْتَنْبِطَ الغامِضِ مِنْ لُغْزٍ وإِضْمارِ
أَلَا اكشِفْ لى ما مِثْلُ : تناوَلْ أَلْفَ دِينارِ

ثم رَمَى إلى الخامس ببصره ، وقال :

يَا هَذَا الأَلَمِىَّ أَخُو الدِّكَاةِ المنجِى
ما مِثْلُ أَهْمَلِ حِلْيَةٍ بَيْنَ هُدَيْتَ وَعَجَلِ

ناظورة القوم : كبيرهم الذى ينظرون إليه . سما : ارتفع . ذكاء : جودة
الذهن . وارى : مبدى النار ، أى زنده متى ضرب أوزى نارا . فاق : فضل
غيره . النتائج : ما يولده الفكر من الكلام . النقود : الدراهم . أتلع : مهتد
(١٤ - شرح مقامات الحريري ج ٤)

عنفه ونصبه ، وتلع الرجل بطلع تلما : أخرج رأسه من شيء كان فيه . مستنبط : مستخرج . الفامض : الخفي ، وغض غموضا : دق وأحوج إلى النظر ، والألمى : هو الذكي ، أى صاحب الفطنة .



ثم التفت لفت السادس وقال :

يا مَنْ تَقْصُرُ عن مدا هُ خطاُ مجاريه وتضعف
ما مثل قولك للذي

أَضْحَى يَحَاجِيكَ : اكْفُفِ اكْفُفِ

ثم خَلَجَ السابعَ بحاجبه وقال :

يا مَنْ له فِطْنَةٌ تَجَلَّتْ ورُتْبَةٌ في الذَّكَاءِ جَلَّتْ

بَيْنَ فما زِلْتَ ذا بِيان مامثل قولي : الشَّقِيقُ أَفْلَتْ

ثم اسْتَنْصَتَ الثَّامِنَ وَأَشْد :

يا مَنْ حدائق فضله مَطْلُوءَةُ الأزهارِ غَضَّة

ما مِثْلُ قولِكَ لِلْمُحَاجِي ذِي الْحِجَبِي : ما اخْتَارَ فِضَّة

ثم حَدَجَ التاسعَ ببصره ، وقال :

يا مَنْ يشارُ إِلَيْهِ في القَلْبِ الذِّكْرُ وفي البراعة

أَوْضِحْ لَنَا ما مِثْلُ قَوْلِكَ لِلْمُحَاجِي : دُسْ جِماءَه

قال الراوى : فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى ، هَزَّ مَنِكَبِي ، وقال :

يا مَنْ له النُّكْتُ التي يُشْجِي الخصوم وينكُتُ

أَنْتَ المَبِينُ فَقُلْ لَنَا مامثل قولي : خَالِي اسْكُتْ

الفتِ لفت ، أى قصد قصده بالنظر ، ولفت عنقه إلى ، أى لواها ناظرًا إلى .
مداه : غايته . خالج : غمز ، وقال الراجز .

* قد خلجتُ بحاجِبِ وعينِ *

تجلت : ظهرت . جلّت : عظمت . واستنصت : سكت . حدائق : بساطين .
مطلولة : أصحابها الطال . غضة : ناعمة . الحجا : العقل . حدّج : رمى . البراعة :
الفصاحة ووفور العقل . يشجى : يفصّ ، والغصص : الاختناق . ينكت : يقدِّمُهم
على رؤوسهم ، وطمنه فذكّته : ألقاه على رأسه ، وعند القضاء يشجى ، وينكت ،
أى يسكت على ذلك .

* * *

ثم قال : قد أنهلتكم وأمهلتكم ، وإن شئتم أن أعلكم
عللتكم .

قال : فألجأنا لهبُ الغلّ ، إلى استنقأ الغلّ ؛ فقال : لستُ
كمن يستأثر على نديع ، ولا ممن سمنه في أديع . ثم كرّ على
الأول وقال :

يا مَنْ إذا أشكل المعنى جلّته أفكاره الدقيقة
إن قال يوماً لك المحاجي : خذ تلك ما مثله حقيقة

ثم فنى جيده إلى الثانى ، وقال :

يا مَنْ بدأ بيانه عن فضله مبيتاً
ماذا مثال قولهم : حمار الوحش زيناً

ثم أوحى إلى الثالث بِلَحْظِهِ ، وقال :

يَا مَنْ غدا في فضله وذكائه كالأصمعي

ما مثل قواك الذي حاجاك : أنفق تقمّع

ثم خلق إلى الرابع وأنشد :

يا من إذا ما عويص دجا أنار ظلامه

ماذا يسائل قولي : استنش ریح مُدامه

ثم أوهض إلى الخامس ، وقال :

يَا مَنْ تنزه فهمه عن أن يروى أو يشكا

ما مثل قواك الذي

أضحى يحاجي : غط هلكي

أنهلتكم : أستهيكم ، والنهل : الشرب الأول ، والعمل : الشرب الثاني
أعلكم : أستهيكم عللاً . لبُ الفأل ، أى حرّ العطش . يستأثر ، أى يخصّ
نفسه بشيء دون أصحابه . سمّته في أديمه : أى خيّره موقوف عليه ، والأديم
هنا : زق السم ، وأصل المثل : سمّكم هريق في أديمكم ، أى خيركم موقوف
عليكم ؛ قاله أبو عبيدة . وخطأ البكري في تفسير الأديم بالزق ، وقال :
إنما الأديم هنا طعامكم المأدوم ، فعيل بمعنى مفعول ، أى خيرهم راجع إليهم ،
وهو قول الأزهري رحمه الله ولم ينكر الأول ، وهو مثل يضرب للبخيل ولن
لا يتعداه خيره ، وينفق على نفسه دون غيره . وقعه يقهّمه : ضربه بالمقعة ،
أى قهره وكفه ، وقع الشراب وأقع : مرّ في الحلق مرّاً بنير جرع . كرّ :

عطف . جیده : عنقه . أوحى : أشار . حلق : أحدَ النظر . عویص : صعب .
دَجَا : اسودَّ . أنار : جعل فيه النور . نَزَّه : تباعد . يروى : يفكر ، وقد روت
الحديث ، إذا دَبَّرْتَهُ وهَيَّأْتَهُ .

* * *

ثم أقبل إلى السادس ، وأنشد :

يا أخا الفِطْنَةِ الَّتِي بَانَ فِيهِ كَلَامُهُ
سار بالليلِ مُدَّةً أَيَّ شَيْءٍ مِثَالُهُ

ثم نحأ بصره إلى السابع ، وقال :

يا مَنْ تَحَلَّى بِفَهْمٍ أَقَامَ فِي النَّاسِ سَوْقَهُ
لك البيان فبين مامثلُ : أَحْبَبَ فِرْوَقَهُ

ثم قصَدَ قصَدَ الثامن ، وأنشد :

يا مَنْ تَبَوَّأَ ذِرْوَةَ فِي الْمَجْدِ فَاقَتْ كُلَّ ذِرْوَةٍ
مامثل قولك : أَعْطَى رِيقًا يُلَوِّحُ بِغَيْرِ عُرْوَةٍ

ثم ابتسم إلى التاسع ، وقال :

يا مَنْ حَوَى حَسْنَ الدَّرَا يَهُ وَالْبَيَانَ بِغَيْرِ شَكٍّ
ما مثل قولك للمحس جى ذى الذكاء : الثورُ مِلْكِي

ثم قبض بجمعه على رُذْيِي ، وقال :

يا مَنْ سَمَا بِثَقُوبِ فِطْنَتِهِ فِي الْمَشْكِلَاتِ وَنُورِ كَوْكَبِهِ
ماذا مثال صَفِيرِ جَحْفَلَةٍ يَبْنُو تَبْيَانًا يَنْمُ بِهِ

* * *

بان : تبين . تحلى : تزين . تبوأ : نزل . والدَّروة : أعلى الشئ .
ثُغوب : نفوذ .

* * *

قال الحارثُ بن هَمَّام : فَلَمَّا أَطَرَبْنَا بِمَاءٍ سَمِعْنَاهُ ، وَطَالَبْنَا مَكَاشِفَةَ
مَمْنَاهُ . قلنا له : اسنا من خيلِ هذا الميدان ، ولا لنا بحلِّ هذه المُقَدِّ
يَدَانِ ، فَإِنْ أَبْنَتْ مَمْنَتْ ، وَإِنْ كَتَمَتْ غَمَمَتْ . فَظَلَّ يُشَاوِرُ
نَفْسِيهِ ، وَيُقَابِلُ قِدْحِيهِ ، حَتَّى هَانَ بِذَلِّ الْمَاعُونِ عَلَيْهِ .

فَأَقْبَلَ حِينَئِذٍ عَلَى الْجَمَاعَةِ وَقَالَ : يَا أَهْلَ الْبَلَاغَةِ وَالْبَرَاةِ ،
مَسْأَلَةُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ، وَلَا ظَنَنْتُمْ أَنَّكُمْ تُعْلَمُونَ .
فَأَوْكُوا عَلَيْهِ الْأَوْعِيَةَ ، وَرَوِّضُوا بِهِ الْأَنْدِيَةَ . ثُمَّ أَخَذَ فِي تَفْسِيرِ
مَقَلِّ بِهِ الْأَذْهَانَ ، وَاسْتَفْرَغَ مَعَهُ الْأُرْدَانَ ، حَتَّى آصَتْ الْأَفْهَامُ
أَنْوَرِ مِنَ الشَّمْسِ ، وَالْأَكْلامُ كَأَنَّ لَمْ تَتَغَنَّ بِالْأَمْسِ .

* * *

أَبْنَتْ : بَيَّنَّتْ . مَمْنَتْ : أَفْضَاكَ عَلَيْنَا . نَفْسِيهِ : أَرَادَ أَنَّهُ يَرُدُّ
رَأْيَهُ : هَلْ يَفْعَلُ أَوْ لَا يَفْعَلُ ؟ فَكَأَنَّ لَهُ نَفْسَيْنِ ، يَرُدُّ الْمَشُورَةَ عَلَيْهِمَا حَتَّى يَظَاهِرَ
لَهَا الرَّأْيَ الْأَرْجَحَ فِيهِمَا فَيَبْنِي عَلَيْهِ . وَقَالَ حَوِثُ الْعَبْدِيِّ :

لِكُلِّ أَمْرٍ نَفْسَانِ نَفْسٌ كَرِيمَةٌ وَنَفْسٌ فَبَعْضُهَا الْفَتَى أَوْ يَطْمَعُهَا

وَقَدْ تَقَدَّمَ مَعْنَى يَقْلِبُ قَدْحِيهِ . الْمَاعُونُ : الْمَعْرُوفُ ، وَقَالَ يُونُسُ :

الماعون في الجاهلية : كل عطية ومنفعة ، وفي الإسلام الزكاة والطاعة . وقال ابن عباس : الماعون المعروف كله حتى ذكر القدر والقصة والفأس .

وحكى الفنجدية عن ابن عباس : الماعون العارية ، وقال الماعون : اسم جامع لمنافع البيت ، كالقدر والفأس والماء والملح ونحوها ، وقال الأعشى :

بأجود منه بماعونه إذا ما سماؤهم لم تنم^(١)

والأظهر فيه ، أنه من العون ، وأصله معون بوزن « مفعول » ، فقدمت الواو التي بعد العين ، فصار موعون ، ثم قلبت ألفا كافيل : يا جل^(٢) . وحكى الفراء عن بعض العرب : الماعون الماء ، فيكون على هذا مفعولاً من العين ، ويُقْل كاعل من العون ، أو يكون فاعولاً ، من مَعْن الماء ، إذا سال . وهو أيضاً قول من اشتقه من قولهم : نَمِنَ هرباً ، أو من قولهم : عين مَعِين . قال قطرب : ماعون فاعول من المعن ، وهو الشيء اليسير ، ومنهم من قال : أصله معونة ، والألف بدل الهاء .

قوله : أذكوا : أى شدوا . روضوا : زينوا ، واجعلوها مثل الرياض . الأردن : الأكام . آخت : رجعت أذهانهم مضبئة بالفهم وزال عنها الالتباس . تغن بالأمس ، يريد أن أكامهم كانت بالأمس معتللة بالدرام ، فتفرغت اليوم إذ وهبوا له ما فيها .

ولما تم بال فقر ، سئل : أين المفر ؟ فتنفس كما تنفس الشكول ، ثم أنشأ يقول :

(٢) ياجل ، أصله يوجل .

(١) دبوته ٣٩ .

كُلَّ شِعْبٍ لِي شِعْبٌ وَبِهِ رَبِّي رَحْبٌ
 غَيْرَ أَنِّي بِسُرُوجٍ مُسْتَهَامُ الْقَلْبِ صَبٌ
 هِيَ أَرْضِي الْبِكْرُ وَالْجَوْ الَّذِي مِنْهُ الْمَهْ
 وَإِلَى رَوْضَتِهَا الْفَنَّا دُونَ الرُّوضِ أَصْبُو
 مَا حَلَا لِي بِمَدَّهَا حُلُوٌّ وَلَا اعْدُوذِبَ عَذْبٌ

قال الراوى : فقلت لأصحابي : هذا أبو زيد السَّروجى ، الذى
 أَذْنَى مُلْعِهِ الْأَحَابِجِ ، وَأَخَذْتُ أَصِفُ لَهُمْ حُسْنَ تَوْشِيَّتِهِ . ثُمَّ
 التفتُ فَإِذَا بِهِ قَدْ ظَمِرَ ، وَنَاءَ بِمَا قَمَرَ ؛ فَمَجِئْنَا مِمَّا صَنَعَ إِذْ وَقَعَ ، وَلَمْ
 نَذَرِ أَيْنَ سَكَعَ وَصَقَعَ .

* * *

المقرّ : المهرب . المقرّ : المنزل والبلد . الشكول : المرأة الشكلى
 الفائدة لأحبائها . شعب ، أى طريق ، أى كل بلد لى بلد . ربى رَحْبُ ،
 أى منزلى متسع . المستهام : الذى غلب الحب على قلبه فخرج هائما على وجهه
 لا يدرى أين يتوجه ، وهام يهيم : ذهب عقله فخرج فى غير الطريق ، وقيل :
 الهائم : العليل القلب ، الذى يحد فى قلبه هياما ، وهو وجعٌ يجده البعير ،
 فلا يروى من شرب الماء : قال عروة بن حزام :

بِى الْيَأْسُ أَوْ دَاءُ الْهُيَامِ أَصَابَنِى فَأَيَّاكَ عَنَى لَا يَكُنْ بِكَ مَابِيَا^(١)

أو يكون من التهويم ، وهو هجوم النوم ، وهو في الأوجه الثلاثة اسم مفعول ، وكان قياسه مستهيمًا إلا أنه لما كان كأنه مغلوب على ذلك ، جاء على هذا وحذف « به » لدلالة المعنى . والعصب : العاشق . اليكر : التي ولدت بها . الجؤ : اسم لنواحي السماء . مهبّ الريح : موضع هبوبها من الجؤ ، وأراد بلمته التي يجيء منها ويخرج عنها للبلاد . الفناء : الكثيرة الأشجار ، وتقدمت علتها . أصبو : أمول . أدنى : أقل . توشيته : تزيينه كلامه . مشيته : إرادته . طمر : وثب ، وهو من الأضداد يقال : طمرتُ الشيء : سترته ، وطمر الجرح سقّل وعلاً أيضاً ، ومنه قيل لبرغوث طامر ، لنزوه وارتفاعه . ناء : نهض . قمر : حازه بالقمار . سكم : مشى مشى المتعسف . صقع : ذهب ، وقيل : لم يدر أين ذهب . والسكع : الذهاب على غير هداية ، والضقع : الناحية من الأرض ، وما أدرى أين صقع ، أى أى ناحية قصد من الأرض .



[فصل في تفسير الأوامر]

إذا أردت أن تعرف المائلة في هذه الأحاجي فننظر « جوعٌ أمدٌ بزاد » فتقابل بطوامير ، فتقسم هذه اللفظة ، فتقابل القسم الأول وهو « طوا » بقولك : « جوع » فتجده مثله في المعنى ، وتقابل بالقسم الثاني ، وهو « مير » بقولك : « أمد بزاد » ، فتجده مثله في المعنى ، والمير الإمداد بالزاد ، ومير الرجل : أعطى نفقة وقوتاً لعياله ، فهذه المائلة الحقيقية التي قدّم ، وكذلك تقابل « ظهر أصابته عين » بقولك : « مطاعين » ، فتجد المطأ الظهر ، وعين الرجل : أصيب بالعين ، وكذلك صادف جائزة ، هي ألفى صلة ، وألفى هي : صادف ، والجائزة هي الصلة ، تصل

بها مَنْ قصدك . وإن تركت الألفاظ منظومة بغير تقسيم ، ينتج منها معنى آخر فيقال لك : ما الطوامير ؟ فتقول : الكتب ، الواحد طُومار ، والمطاعم : جمع مِطْطَان ، وهو الكثير القطن ، والفاصلة ، التي تقع بين شيئين فتفصل هذا من هذا والفاصلة في العروض : توالى أربعة أحرف أو ثلاثة متحركة بعدها ساكن ، وهكذا هي المقايضة في هذه المقامة ، تصل اللفظة فيكون لها معنى ، وتفصلها فيكون لها معنى آخر .

وأنا أفسر معنى المتصلة إذ المنفصلة قد وقع تفسيرها في المقامة . قوله : هادية ، أى مرشدة ، تقول : هدّني الطريق فهى هادية . والفاشية : ما يفسى القلب ، أى يغطيه من الهمم والستّم ، والفاشية أيضاً القوم يَفْشُونَكَ ، أى يقصدونك ويُزورونك ، والفاشية : القيامة ، والفاشية : المرأة تفشاك وتزورك ، والفاشية غشاء القلب ، والفاشية : غشاء السّرج .

والمهمه : القفر ، والأخطار : جمع خَطر ، وهو الفَرَر ، والأخطار : المنازل الشريفة . والأبارقة : جمع إبريق ، وهو إناء معروف ، والأبارقة أيضاً : الشُّيُوف الصقيلة ، واحدها إبريق ، والطافية : الجيفة تطفو على وجه الماء ، أى تطلع عليه .

الفرازين : وزراء القُرس الواحد فرزان ، ومنه فرزان الشطرنج ، القى تسميته العامه « فرزا » ، لأنه وزير الشاه ، والشاه في كلام القُرس المَلِك . وقمت : معناه كفت .

والمنتقم : القرح بمصيبة غيره . والرخّاح من الأواني : الواسع القصير الحديد ، ورخّاح : موضع معروف . والصنّبور : النخلة الطويلة العنق القليلة الحمل ، والصنّبور أيضاً : الغاص الذي يجعله السقاء في فم القربة ، ويشدّ

عليه ويفرغ منه الماء ، والصُنْبُور أيضاً : اللّثيم ، والصُنْبُور من الناس مَنْ
ليس له نسل .

والمَرَّاحِين : الذنّاب الواحد مَرَّحَان . الأسْكُوب : المطر الكثير الصبّ
والأسْكُوب والأسْكَاب : قطعة خشب فيها قرص يُجْمَل في خرق الزق .
والمقلاع : آلة يُقْلَع بها الشيء . والله اعرف .

تفسير الأحاجي المودعة هذه المقامة

أما جوعٌ أمدٌ بزادٍ ، فثله طوامير ، وأما ظَهْرٌ أصابته عين ، فثله مطاعين ، وأما صادف جائزة فثله الفاصلة . وأما تناول ألف دينار ، فثله هادية . وأما أهمل حلية فثله العاشية .

وأما اكفف اكفف ، فثله مَهْمَه ، وأما الشقيق أفلت فثله أخطار .

وأما ما اختار فضة فثله أبارقة ؛ لأن الرقة من أسماء الفضة ، وقد نطق بها النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : « الرقة ربع العشر » .

وأما دس جماعة فثله طافية . وأما خالى اسكت فثله خالصة ؛ لأنك إذا ناديت مضافاً إلى نفسك جاز لك حذف الياء ، وإثباتها ساكنة ومتحرّكة ؛ وقد حُذِفَ هاهنا حرف النداء ، كما حذفه في أصل الأجنبيّة . وصَهْ بمعنى اسكت ، وأما خُذْ تلك فثله هاتيك .

وأما حمار وحش زينا ، فثله قرازين ، لأن الفراء حمار الوحش ، ومنه الحديث : « كلّ الصيد في جوف القرا » .

وأما قوله : « أنفق تقمع ، فثله منتقم ؛ لأن الأمر من مان يمون من . ومضارع وقمت تقم .

وأما استنش ربح مدامه ، فثله رَحْراح ؛ لأن الأمر من استدعاء الرائحة رُحْ . وأما غط هلكي فثله صنبور ؛ لأن البورم الهلكي ، وفي القرآن ﴿ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ .

وأما سار بالليل مدة ؛ فثله سَراحين .

وأما أجب فرؤفة ؛ فثله مقلّاع ، لأن الأمر من ومق يبق مق . واللاع :
الجان ؛ يقال : فلان هاعّ لاعّ ؛ إذا كان جباناً جزوعاً .

وأما أعط أبريقاً يلوح بغير عروة ، فثله أسكوب ؛ لأن الأوس الإطواء
والأمر منه أس . والسكراب : الأبريق بغير عروة .

وأما الثور ملكي ، فثله اللآلى ؛ لأن اللآلى على وزن القنا هو نور الوحش .

وأما صفيح جحفلة ، فثله مكاشفة ؛ لأن المكاء الصفيح ؛ قال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً ﴾ ، والأصل في المكاء

المد ؛ ولكنه قعّره في هذه الأحجية ، كما حذف همزة الفراء في أحجيته ، وكلا
الأمريين من قصر المدود ، وحذف همزة المهموز جائز .

المقامة السابعة والثلاثون وتعرف بالصَّعْدِيَّة

حكى الحارثُ بن همام قال: أَصْعَدْتُ إِلَى صَعْدَةٍ ، وَأَنَا ذُو شَطَاظٍ
يُحْكِي الصَّعْدَةَ ، وَاشْتِدَادِ يَبْدُرُ بَنَاتِ صَعْدَةٍ ؛ فَلَمَّا رَأَيْتُ نُضْرَتَهَا ،
وَرَعَيْتُ خُضْرَتَهَا ، سَأَلْتُ نَحَارِيرَ الرُّوَاةِ ، عَمَّا تَحْوِيهِ مِنَ السَّرَاةِ ،
وَمَعَادِنِ الْخَيْرَاتِ ؛ لِأَتَّخِذَهُ جَذْوَةً فِي الظُّلُمَاتِ ، وَنَجْدَةً فِي
الظُّلَامَاتِ . فَنُصِمْتُ لِي قَاضٍ بِهَا رَحِيبُ الْبَاعِ ، خَصِيبُ الرَّبَاعِ ،
تَمِيْمِي النَّسَبِ وَالطَّبَاعِ ؛ فَلَمْ أَزَلْ أَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ بِالْإِلْمَامِ ، وَأَتَنَفَّقُ
عَلَيْهِ بِالْإِجْمَامِ ؛ حَتَّى صَرْتُ صَدَى صَوْتِهِ ، وَسَلَامَانَ يَدَيْهِ .



أصعدت : طلعتُ وارتفعتُ ، قال يعقوب : الإصعاد إلى نجد واليمن
والحجاز ، والانحدار إلى العراق والشام وعمان . وقال الأخفش : أصعد في
البلاد : سار فيها ومضى ، وأصله الذهاب في الصعود وهو الارتقاء ، ثم توسعوا
في ذلك . قال الفراء رحمه الله في ابتداء الأسفار والحارج ، تقول : أصعدنا من
مكة إلى بغداد ، وأصعدنا من بغداد إلى خراسان ، فأما في السلم فتقول : صعدت
فيه لا أصعدت . قال يعقوب رحمه الله : صعد في الجبل وأصعد في البلاد : انحدَر
فيها ، وصعد : ارتقى .

وصعدت : مدينة عظيمة باليمن ، بينها وبين صنعاء ستون فرسخاً ، وتحكمُ

فيها صنعةُ الجلود ، والجلد الصمديّ في غاية الجودة ، ويضرب المثل بحسن نساها .

الشُّطاط : طول القامة . والصَّعْدَة : الرمح . اشتداد : جرى . يبْدُر : يسبق . بنات صَعْدَة : حمر الوحش . نُضِرَتْهَا : خصبها ونعمتها ، والنضرة : صفاء اللون وبريقه . نحارير : علماء ، والنَّحْزِير ، الماهر ، والحاذاق الَّذِي جَرَّبَ الأمور وعرفها ، وهو اسم يجمع وجوها من المدح ، فيصنّف النحزير بالعالم والمفلق والحاذاق والماهر والعاقل . والسَّرَّاء : السادة ، وهو جمع سَرِيّ ، وهو السيد الشريف ، وجمع فَمِيل على قَمَلَة عزيز لا يُعرف غير هذا . الجذوة : الجرة الغليظة العظيمة ، وجيها بثلاث حركات ، ويجمع ثلاثها ، نحو جَذَا وجُذَا وجِذَا نجمدة : قوّة وعونا . الظُّلُمَات : جمع ظُلامَة ، وهو ما يشكّيه المظلوم ، رَحِيب الباع : واسع العطاء ، فكُنِيَ بالبائع عن ذلك . والعرب إذا وصفت الرجل بالسَّخاء ، قالوا : هو رَحِيب الباع ، وطويل الباع ، وكريم الباع ، والباع والبوع بَسْط اليد المعروف ، وقد باع يبيع منه ، ويقال للبخیل : قصير الباع . خَصِيب الرُّبَاع ، أي هو كثير المال فجمع له كرمه كثرة ماله ، فالتناس يحدون في كَنَفِهِ الخَصْب وقد يراد بخصيب الرباع نافق سوق الأحكام فالمتعلق به يجد الخصب .

تسمى النسب ، أي من بني تميم وشرك الطباع مع النسب ، وهو يريد أنه كامل تام في خلقه ، فنسب قبيلته لتميّم ، وطباعه للتمام والكمال فقلّب أحدهما ، وشرك بينهما للتقرب . قال ابن شرف : فيما يلمّ بهذا التشريك ، ويحسن أن يمدح قاضي المقامة به لجوده :

جاورَ عليّا ولا تحفيلَ بحادثيّةٍ إذا أدّعتَ فلانسانَ عن الأسَلِ^(١)

اسم حكاة المُسَمَّى في الفَعَال فَقَدْ حاز العَلَيْنَيْنِ من قولٍ ومن مَعْلٍ
فالمَاجِد السَّيِّد الحَرَّ الكَرِيمَ لَهُ كَالْتَمَعَتِ والعَطْفَ والتَّوَكُّيدَ والبَدَلِ
زَانَ العُلا وسَوَاهُ شَاهَاً ، وكَذَا تَمَيَّزَ الشَّمْسُ في المِيزَانِ والحَمَلِ
وَرَبَّهَا عَابَهُ مَا يَفْخَرُونَ بِهِ

يُسْتَمَا من الخَصْرِ مَا يَهْوَى من السَّكْفِ
سَلَّ عَنْهُ وَانْطَقَ بِهِ وَانْظُرْ إِلَيْهِ تَجِدُ مَلَأَ السَّمْعَ ، والأَفْوَاهِ وَالْمَقَلَّ

فإنه أراد بقوله : « حاز العَلَيْنَيْنِ » ، أى حاز عليًا بالاسمية ، والعلو بالفعلية ،
وهذا مثل ما تقدم للحريرى :

جَادَ بِالْمِينِ حِينَ أَهْمَى هَوَاهُ عَيْنَهُ فَاثْنَى بِلَا عَيْنَيْنِ

فقد أوقع التشبيه على شيتين ، يتفقان في اللفظ ، ويختلفان في المعنى . وقد
أشدنا فيما تقدم لبعض المتأخرين :

فَكَيْفَ أَصْبَرَ عَنْهَا الْيَوْمَ إِذْ جَمَعَتْ

طَلِبَ الْهَوَاءِ مِنْ مَمْدُودٍ وَمَقْصُورٍ

فالمقصود هوى النفس ، والممدود الهواء الذى بين السماء والأرض ، وقد
قدّمنا في تفسير قول الحريرى ، وحيا المسجد بالتسليمتين ، أن السلام الواحد
على مَنْ في المسجد عند دخوله ، والثاني تحليل الصلاة .

وقوله : هنا تيمى النسب والطباع من هذا القبيل ، وأكثره في كلام
المولدين ، وهو مستعمل في كلام العرب ، ولا يبعد أن يكون من هذا قولهم :
التقى الثريان ، فإنهم يريدون بذلك كثرة المطر ، وأنه يبلغ في الأرض إلى التراب
الندى ، فالثرى الواحد المطر ، والثاني التراب الندى ، على أنه يحتمل أن يريد

بذلك أن الثراب اليابس لمَّا بَلَهُ المطر ، حتى لحق بالثراب الندى ، صار اليابس منهما يستقى « ثرى » ، فقيل : التقى الثريان ، وقال النابغة :

وقد أَبَقْتُ صُرُوفَ الدَّهْرِ مَنَى كَمَا أَبَقْتُ مِنَ السَّيْفِ الْيَمَانِي^(١)
بَصْمٌ وَهُوَ مَأْنُورٌ جُرَازٌ إِذَا نَجَمَتْ بِقَائِمِهِ الْيَسَدَانِ

فسره أبو عبيد البكري^(٢) وغيره : بأنه أراد بذلك الجارحة ، والأيد الذي هو القوة ، فجمع على الأخف ، فهذا من قبيل ما قدمناه ، ولا يحضرني الآن غير هذا من كلام العرب .

قوله : الإلام ، أى تخفيف الزيارة . أنفق ، أنخرج ، والخفاق ضد السكاد . الإجمام : الزيارة . صدى صوته ، أى متى دعاه وجده حاضراً مجيباً له ، والصدى : صوت الجبل الذى يرد عليك إذا صحت .

وابن همام فى هذا المقامة شُرْطِيّ القاضى .

[ذكر مناقب سلمان الفارسى]

وسَلَمَانَ الذى ذكره ، هو سلمان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وخادمه ، ويعرف بسلمان الخير ، قالت عائشة رضى الله عنها : كان لسلمان رضى الله عنه مجلس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفرد به فى الليل ، حتى كاد يظلمنا عليه .

وقال عليه الصلاة والسلام : « أمرنى ربى بحُبِّ أُرْبة ، وأعلمنى أنه يحبُّهم : على ، وأبو ذر ، والمقداد ، وسَلَمَان » ، رضى الله تعالى عنهم .

وأنى أبو سفيان على سلمان وصهيب وبلال ، فقالوا : ما أخذت سيوفُ الله من عُنُقِ عدوّ الله مأخذها ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : أتقولون هذا لشَيْخِ قَرِيش

(١) هو النابغة الجعفى والبيتان فى أمالى القاتى ١ : ٧١ . والآتى ٢٤٦ والحزاة ١ : ٥١٣ . والمأنور : الباقي أثره ، والجراز : الماضى النافذ .

(٢) فصل المقال ١٤٨ .

وسيدهم ! وأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال : يا أبا بكر ، لعنك
أغضبتهم ، لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك فأتاهم أبو بكر رضى الله عنه
فقال : يا أخوتاه ، أأغضبتكم ؟ فقالوا : لا ، ويفر الله لك .

وكان من أبناء أساورة فارس ، وأصله من رأمهرمز ، وقيل : كان من
أصهبان ، وكان يطلب دين الله ويتبع من يرجو ذلك عنده ، فدان بالنصرانية
وغيرها ، وقرأ الكتب ، وصبر في ذلك على مشقات نالته ، وكلها مذكورة في
إسلامه في كتب السير .

وقول : تداوله في ذلك بضمة عشر رباً ، حتى أنفضى إلى النبي صلى الله عليه
وسلم فاشتراه من قوم من اليهود .

وأول مشاهد الخندق ، وهو الذي أشار بحفره ، فقال أبو سفيان وأصحابه :
هذه مكيدة ما كانت العرب تكيدوها .

وسئل على أنه فقال : علم العلم^(١) الأول ، بحر لا ينزف ، هو منا أهل البيت ،
وفي رواية : هو مثل لقمان الحكيم ، وكان فاضلاً حزيناً زاهداً عالماً متقشفاً .

ونعم حمل الخوص ، فقيل له : لم نعمل هذا وأنت أميراً وقد أجرى عليك
رزق ، فقال : إني أحببت أن آكل من عمل يدي . وكان يتصدق بما يرزق من
بيت المال ، وكانت له عبادة يفرش بعضها ويلبس بعضها .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لو كان الدين في الثريا لنال سلمان » .

أبو هريرة رضى الله عنه ، كنا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
فقرأ سورة الجمعة ، فلما قرأ : ﴿ وَآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْعَقُوا بِهِمْ ﴾^(٢) - وفينا سلمان -
وضع يده على سلمان ، ثم قال : « لو كان الإيمان عند الثريا لنال رجل من هؤلاء » .

(١) ط : « علم » وما أثبتته من الاستيعاب ص ٦٣٧ .

(٢) سورة الجمعة ٣

ونوفى في آخر خلافة عثمان رضى الله عنه ، ومات ترك شيئا يورث عنه .
وفضائله كثيرة .

وعلى قولهم لأبى بكر « لا ، ويفقر الله لك » . قال أبو محمد فى الدرة :
وربما أجاب المستخبر بلا النافية ، ثم عقبها بالدعاء له ، فيستحيل الكلام إلى
الدعاء عليه ، كما روى أن أبا بكر رضى الله عنه رأى رجلا ، بيده ثوب ، فقال :
أتبيع هذا ؟ فقال لا عافاك الله ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : لقد علمتم لو تعلمون !
فها قلت : لا وعافاك الله !

قال أبو محمد : والمستحسن ما قال يحيى بن أكرم للمأمون ، وقد سأله عن أمره ،
فقال : لا ؛ وأبد الله أمر أمير المؤمنين .

وحكى أن الصاحب بن عباد لما سمع هذه الحكاية ، قال : والله لهذه
الواو أحسن من واوت الأصداغ ، فى حدود المزد الملاح .

• • •

وكننت مع اشتيار شهيد ، وانتشاق رنديه ، أشهد مشاجر
الخصوم ، وأسفير بين المعصوم منهم والموضوم . فبينما القاضى
جالس للإسجال ، فى يوم المحفل والاختفال ؛ إذ دخل شيخ
بالى الرياش ، بادى الارتعاش ؛ فتبصر الحفل تبصر نقاد ،
ثم زعم أن له خصما غير منقاد ؛ فلم يكن إلا كضوء شرارة ،
أو وحن إشارة ؛ حتى أخضر غلام ، كأنه ضرغام فقال الشيخ :
أهد الله القاضى ، وعصمه من التفاضى ؛ إن ابنى هذا كالقلم
الزدي ، والسيف الصدى ، يجهل أوصاف الإنصاف ، ويرضع
أخلاف الخلاف ، إن أقدمت أحجم ، وإذا أغربت أعجم ،

وإن أذكيتُ أحمَدَ ، ومَتى شَويت رَمَدَ ؛ مع أنى كَفَلْتَهُ مَذْ
 دَبَّ ، إلى أنْ شَبَّ ، وكُنْتُ له أَلْفَ مَنْ رَبَّى وَرَبَّ .
 فأكبر القاضى ما شكَا إليه ، وأطرف بهِ مَنْ حَوَّالِيهِ ، ثم قال :
 أَشْهَدُ أَنَّ الْعُقُوقَ أَحَدُ الشُّكْلَيْنِ ، وَارُبَّ عُقْمٍ أَقْرُ لِلْعَيْنِ .

* * *

قوله : اشديار شهده ؛ أى استخراج عسله ، وأراد اجتناء منفعته . انشاق :
 شَمَّ ، يقال : نشق الرياح الطيبة نشقا وانتشق : وتذشق : شَمَّهَا . الرند : شجر طيب
 الرائحة ، قال ابن دريد رحمه الله : هو الآس ، وقال الجوهري رحمه الله : ربما
 سُمِّيَ المودُرُندا . مشاجر المصوم : مواضع الخصاص التى يتشاجر فيها الخصمان ؛
 أى يمتزج كلام هذا بكلام هذا ، من الشجر ، واحدها مَشَجَرٌ ، وقد يراد بها
 المصدر ، ويُجمع لاختلاف أنواعه . أسفر : أمشى بينهم بالصلح المصوم : المحفوظ
 من الوقوع فيما يحذر ، وأصل العصمة فى كلامهم المنع ، وعصمته من كذا ،
 إذا منعه . ﴿وَاللَّهُ يَفَصِّمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ ^(١) ، أى يملك . الموصوم : ذو الوضم ،
 وهو العيب ، فأراد أنه يصلح بين أهل الخير والشر . للإسجال : للحكم ،
 وأسجل القاضى على نفسه بالحكم ، وسجل ، إذا كتب على نفسه ، فأراد أنه جلس
 للحكم فى العقود والسجلات . ومحفل القوم : مجتمعهم . والاحتفال : كثرة الناس
 واجتماعهم ، ومعنى احتفل الرجل : جمع ، وأراد : يكثر من الشيء الذى قصد ،
 وجمع الحفل محافل ، ومنه الشاة الحفلة ، وهى التى يحبس لبفها أياما فى ضرعها
 لا تحلب . الرياش : الثياب . تبصر الحفل : نظر الجمع وشخص فيهم . نقاد :
 مفقش ، كأنه يتقد ببصره الرجال ، ويريد أنه نظر من شرط القاضى أهل الحزم

والجراءة، فأخبرهم بقصة ابنه، فأنطلقوا فأتوا به، ونقاد الدرام: الذي يُمنع النظر فيها والتقلب لها، ليميزَ جيدها من رديتها. وحى إشارة، يريد إشارة العين، إذا غمزت مَنْ تريد أن يفهم إشارتك دون غيره، والوحى: الإيماء الخفى. ضرغام: أسد فى عِظَم خلقته وشِدته. التفاضى: التغافل والسكوت عن الظلم. الصدى: الذى علاه الصدا، وهو وسخ السيف. والأخلاف جمع خِلف، وهو ما يجلب منه اللبن ويقيض عليه الحالب. قال ابن دريد: وقيل: الخلف للنافقة كالضَّرْع للبقرة. أحجم: تأخر. أمربت: أوضعت. أعجم: أبهم وأبس. أذكيت: أوقدت. أحمد: أطفأ، وخمدت النار: طُفي لهبها. كفلته: رببته. دب: مشى مشى صغير على يديه ورجليه. شب: صار شاباً اللطيف: أشفق وأرق. رب: أصلح، يريد أنه أصلح أحواله، وأحسن تربيته تمرؤاً من أن ينسبه الفاضى إلى تقصير. أكبر: رآه كبيراً. أطرف: أعجب، وجملهم يستطرفون خبره. الشكلىن: الفقدين، يريد أن الرجل إذا عمه ولده ولم يبره فسكانه قد فقده.

[ذمّ العتوق]

ومما جاء فى العتوق: كان جرير الشاعر أعقّ الناس بأبيه، وكان بلال ابنه كذلك، فراجع جرير بلالاً فى الكلام، فقال له بلال: الكاذب بينى وبينك ناك أمه، فأقبلت أمه عليه، وقالت: يا عدوّ الله، تقول هذا لأبيك! فقال جرير: دعيه، فسكانه سمعها منى وأنا أقولها لأبى.

ومن شُهر عنه العتوق بوالديه الخطيئة الشاعر، قل يهجو أباه:

لحَاكَ اللهُ نَمَ لَحَاكَ حَقًّا أَبَا وَلَحَاكَ مِنْ عَمِّ وَخَالٍ^(١)

فبئس الشيخ أنت لدى الخازي وبئس الشيخ أنت لدى المعالي
 جمعت اللؤم لاحتباك ربي وأبواب السماء والضلال
 وقد تأنتم هجو أنفسكم وأمه .

ومن هجا أباه وغيره علي بن بسام ، وماسلم من هجائه أمير ولا وزير ،
 ولا كبير ولا صغير ، ومما قال في أبيه :

هبك عُحِرَتْ عُحْرَ عَشْرِينَ نَسْرًا أرى أنني أموت ونبقى^(١)
 فأن عشتُ بعد موتك يوما لأشقن جيب مالك شقا
 وقال فيه أيضا :

بعثتُ لأستهديك عيِّزا ولم أكن عَلِمْتُ بأن الأمير صار لنا صيِّرا
 فوجَّه به نكي نشترك في ركوبه فتركبه بطننا وأركبُه ظهرا
 وقال فيه أيضا :

شدتُ دارا خلقها مكرمة ساط الله عليها الفرقا
 وأرانيك صريحا وسطها وأرانيها صميحا زلقا
 وقال فيه أيضا :

بنى أبو جعفر دارا فشيدَها ومثله تلحيسار الدور بناء
 فالجوع داخلها والذل خارجها وفي جوانبها بؤس وضراء
 ما ينفع الدار من تشييد حائطها وليس داخلها خبز ولا ماء

وكذب ، كان أبو جعفر محمد بن نصر بن منصور بن بسام في نهاية
 السودد والرودة والنظافة ، رجل مترف نبيل المركب ، ماهج الملابس ، طريف
 الغلمان ، له همة في تشييد البنيان ، ومارثاه ابن الرومي به يدل على كذب ابنه ،
 قال ابن الرومي فيه :

أَوْدَى مُحَمَّدُ بْنُ نَصْرِ بَعْدَمَا ضُرِبَتْ بِهِ فِي جُودِهِ الْأُمُثَالُ^(١)
 مَلِكٌ تَنَافَسَتْ الْعِلَا فِي عَمْرِهِ وَتَنَافَسَتْ فِي مَوْتِهِ الْأَجَالُ
 مَنْ لَمْ يَبْعَيْنِ صَبِيرَ نَفْسٍ تَحْمَدٍ لَمْ يَدْرِ كَيْفَ تُسِيرُ الْأَجْبَالُ
 وَدَخَرْتَهُ لِادَّهْرِ أَعْلَمَ أَنَّهُ كَالْحِصْنِ فِيهِ لَنْ يَثُولُ مَالُ
 وَتَمَتَّتْ نَفْسِي بِرُوحِ رَجَائِهِ زَمَنًا طَوِيلًا وَالتَّمَتُّعُ مَالُ
 وَرَأَيْتُهُ كَالشَّمْسِ إِنْ هِيَ لَمْ تُنْزَلْ فَالرَّفَقُ مِنْهَا وَالضُّيَاءُ يَنْالُ
 إِيَّاهُ لَفَقْدِكَ بِأَحْمَدٍ إِنَّهُ فَقِدْتُ بِكَ النِّفْعَاتِ وَالْأَنْفَالُ
 بِاللَّهِ أَقْسَمُ إِنْ هَمَّكَ مَا انْقَضَى حَتَّى انْقَضَى الْإِحْسَانُ وَالْإِجْمَالُ

وَلَا بِنِ بَسَامٍ يَمْزِي أَبَا الْقَاسِمِ بْنِ وَهْبٍ فِي ابْنِ مَاتَ هـ :

قُلْ لِأَبِي الْقَاسِمِ بْنِ وَهْبٍ أَنِّي بِكَ الدَّهْرُ لِلْمَجَائِبِ^(٢)
 مَاتَ لَكَ ابْنٌ وَكَانَ زِينًا وَعَاشَ ذُو الشَّيْنِ وَالْمَعَائِبِ
 حُوسَاءُ هَذَا كَمُوتِ هَذَا فَلَيْسَ تَخْلُو مِنْ الْمَصَائِبِ

وَقَدْ تَقَدَّمَ هَجْوُهُ فِي أَخِيهِ .

وَمِنْ حَسَنِ التَّمَتُّطِ عَلَى الْإِبْنِ الْعَاقِ ، قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ الصَّابِيِّ ، وَكَانَ
 ابْنُهُ يَقَعُّهُ :

أَرْضَنِي عَنْ أَبِي إِذَا مَا عَقَنِي حَذَرًا عَلَيْهِ أَنْ يَفْضَبَ الرَّحْمَنُ مِنْ غَمِّي
 وَلَسْتُ أَدْرِي بِمِ اسْتَحَقَّقْتُ مِنْ وَلَدِي إِسْخَانًا عَيْنِي وَقَدْ أَقْرَرْتُ عَيْنَ أَبِي !

• • •

قَوْلُهُ : وَلَرَبُّ عُمْمٍ ، الْعُمْمُ الْأَنْثَى الْمُرَاةُ .

(١) مختارات البارودي ٣ : ٣٢٤

(٢) خاص الخامس ١٠٩

فقال الغلام ؛ وقد أمتعه هذا الكلام : والذي نصب
القضاة للمدّل ، وملاكهم أعنة الفضل والفضل ، إنه مادعاً قط
إلا أمنت ، ولا ادعى إلا آمنت ، ولا لبي إلا وأخرمت ،
ولا أوزى إلا وأضرمت ؛ بيد أنه كمن ينبغي يئس الأثوق ،
ويطلب الطيران من الثوق . فقال له القاضي : وبم أغتتكَ ،
وامتحن طاعتك ؟ قال : إنه مذ صفر من المال ، ومني
بالإنحال ، يسومني أن أتلمظ بالسؤال ، وأستمطر سحْب
التوال ؛ ليفيض شربه الذي غاض ، وينجبر من حاله ما انهاض ،
وقد كان حين أخذني بالدرس ، وعلمني أدب النفس ،
أشرب قلبي أن الحرص متعبة ، والطمع مغتبة ، والشره متخمة ،
والمسألة ملامة .



أمنعه : أوجعه وأغضبه ، وأمنض من ذلك وامتنع : غضب وشق عليه
وأوجمه . ادعى : نسب لنفسه ما شاء ، وفلان مدّع وفعله الدعوى . آمنت :
صدقت ما ادّعاء . لبي : من تلبية الحاج إذا صاح : لبّيك لبّيك . أحرمت : صرت
محرمًا . أوزى : أظهر له النار من الزند . أضرمت : أوقدت . بيد : غير الأثوق ؛
ذكر الرّخم ولا يبيّض له ، فكانه طلب أمرًا لا يكون أبدًا ، ومثله : طلب الأبق
العقوق ، والأبق الذكر والعقوق من الخيل : التي امتلأ بطنها من حملها ؛ يقال
للأبي : قد أعقت وهي معق وعقوق ؛ فكانه طلب أمرًا لا يكون أبدًا ، لأنه
لا يكون الأبق عقوقًا .

ويقال : إن رجلا سأل معاوية أن يزوجه أمه هنداً ، فقال : أمرها إليها ،
وقد أبت أن تزوج ، قال : فولّى مكان كذا وكذا ، فقال معاوية معتملاً :

طلب الأباقي العتوق فلما لم ينله أراد بيض الأنوق
والأنوق : طائر أبيض في شواحق الجبال ، فبيضها في حرز لا يطمع فيه ،
فعمناه طلب مالا يكون ، وأما طلب الطيران من النوق فمثل الأول ، وهو لا يمكن .
قوله : أعنتك ، أى أنعبك ، وكلفك ما يشق عليك ، من غت البعير بعنت عنتا ،
إذا حدث في رجله كثر بعد الجبر ، فلا يمكنه التصرف إلا بمشقة . قال
أبو عبيد رحمه الله : عنته : أضربه ، والعنت : الضرر ، قال : وأعنته أيضا ، أهلكه .
وقال أحمد بن عبيد : أعنته : شدد عليه ، والعنت : التشديد .

ابن عزيز : عنت : هلاك ، وأصله المشقة والصعوبة ، ومنه قولهم : أكمة
عنت ، إذا كانت صعبة المسالك ، وقوله تعالى : ﴿لَا أَعْتَبُكُمْ﴾ ^(١) ، أى
لأهلككم ، ويجوز أن يكون المعنى لشدة علمكم وتعبدكم بما يصعب أداؤه
عليكم ، كما فعل بمن قبلكم . امتحن : ابتلى . صفر : خلا . مني : بلى .
الإحمال : الجدب والفقر . يسومى : يكلفى . أتلفظ بالسؤال ، أى أكثر
الكلام به ، والتلفظ : تنبّع ما بقى في الفم من الطعام بالأسان بعد الأكل . سحّب :
جمع سحابة . النوال : العطاء ، قال ابن الأنبارى رحمه الله : النّول والنّوال :
المنفعة والحظ ، ونلت الرجل : إذا نفعت ، وأنلته حظا ونالنى فلان : نفعتى ،
وقولهم : ما كان نولك أن تفعل كذا ؛ أى ما كان لك منفعة في هذا الفعل ،
ونولك : منصوب خبر كان وأن فعل اسم كان أو بالمكسر . يفيض : يسيل ويكثر .
شربه : ماؤه ، وأراد به ماله : غاض : جف . انهاض : انكسر . أشرب :
روى وسقى . الحرص : كثرة الطمع والطلب للدنيا ، والشرة : الحرص
الكثير . متخم : مفسدة ، والمسألة : سؤال ما في أيدي الناس . ملأمة : لوم .

ثم أنشدني من فلقٍ فيه ، ونَحَتْ قوافيه :

إَرْضْ بِأَذْنِي الْعَيْشِ وَاشْكُرْ عَلَيْهِ شَكَرَ مَنْ الْقُلُّ كَثِيرٌ لَدَيْهِ
وَجَانِبِ الْحَرْصِ الَّذِي لَمْ يَزَلْ يَعْطُ قَدْرَ الْمَتَرِاقِ إِلَيْهِ
وَحَامٍ عَنْ عِرْضِكَ وَاسْتَبَقِ كَمَا يَحَامِي اللَّيْثُ عَنْ لِبْدَتَيْهِ
وَاصْبِرْ عَلَى مَا نَابَ مِنْ فَاقَةٍ صَبَرَ أُولَى الْعِزْمِ وَأَغْمِضْ عَلَيْهِ
وَلَا تُرِقْ مَاءَ الْحَيَا وَلَوْ خَوَّلَكَ الْمَسْتَوِلُ مَا فِي يَدَيْهِ
فَالْحَرْبُ مَنْ إِنْ قَذَيْتَ عَيْنُهُ أَخْفَى قَذَى جَفْنَيْهِ عَنْ نَاطِرَيْهِ
وَمَنْ إِذَا أَخْلَقَ دِيْبَاجَهُ لَمْ يَرَ أَنْ يُخْلِقَ دِيْبَاجَتَيْهِ

• • •

فَلَقَ : شَقَّ مِنْ بَيْنِ شَفَتَيْهِ . نَحَتْ : نَجَّرَ ، أَرَادَ إِنْشَاءَ قِصَائِدِهِ . وَالْقَوَافِي ، مِنْ قِفْوَتِ الشَّيْءِ ، إِذَا تَقَبَعَتْهُ ، وَسَمَّيْتُ بِذَلِكَ الْإِتْبَاعَ بِمَعْضَا الْقُلِّ : الْقِلَّةُ . الْمَتَرِاقُ : الْمُرْتَفِعُ . لِبْدَتَيْهِ : شَعْرٌ مُتَلَبِّدٌ عَلَى كَفَلِهِ وَبَيْنَ كَتِفَيْهِ . نَابَ : نَزَلَ . فَاقَةٌ : فَقْرٌ . أَغْمِضْ ، أَيْ اسْتَرْهَ وَأَغْفَلَ عَنْهُ ، وَالْحَيَا : الْوَجْهَ . خَوَّلَكَ : مَدَّكَ . النَّاطِرُ : سَوَادُ الْعَيْنِ ، فَيُرِيدُ أَنَّهُ إِذَا وَقَعَ فِي عَيْنَيْهِ قَذَى وَهُوَ السَّقَطُ عَلَى شِدَّةِ إِذَابَتِهِ ، احْتَمَلَهُ الْحَرَّ الْكَرِيمَ وَصَبَرَ عَلَيْهِ ، وَأَخْفَاءَ مِنْ نَاطِرَيْهِ : تَجَلَّدَ ، أَيْ أَخْفَى . أَذَى بَعْضَ الْعَيْنَيْنِ مِنْ بَعْضٍ ، وَهَذَا غَايَةُ فِي الْمُبَالَغَةِ . دِيْبَاجُهُ : ثَوْبُهُ ، وَالْدِيْبَاجُ : ثَوْبٌ رَفِيعٌ . دِيْبَاجَتَيْهِ : خَدَيْهِ ، وَقِيلَ دِيْبَاجَةُ الْخَلْدِ حَسَنُ بَشَرَتِهِ ، وَأَخْلَقَ الشَّيْءُ ، وَأَخْلَقَهُ غَيْرُهُ لَازِمٌ وَمُتَعَدٍّ ، يَقُولُ : إِذَا افْتَقَرْتَ وَبَلَى ثَوْبُكَ فَلَا تَبْدُلْ وَجْهَكَ لِأَحَدٍ ، وَلَا تَهِنَنَّ بِالسَّوَالِ ، وَهَذَا مِنْ قَوْلِ حَبِيبٍ :

ذلّ السؤال شجعا في حلق ممقرضٍ من دونه شرّق من خلفه حرّض^(١)
 ما ماء كفك إن جادت وإن بخلت من ماء وجهي إذا أفنيت هوض
 وقال في ابن الزيات :

أعطى ونظفة وجهي في قراراتها بصونها الوجفات الفضة القش^(٢)
 يقول : لم يخلق وجهي سؤال ، فوجهي غضّ جديد ، والنظفة : ماء الوجه
 الذي نهى الحريري عن إراقته حين قال :

ولا ترق ماء الحياء ولو خولك المسؤل ما في يديه

[بين أبي تمام وعبد الصمد بن المعتز]

قال الصولي : كان حبيب رحمه الله لا يجيب هاجيا ، ترثما عنه ، فاحذر
 إلى البصرة والأهواز يمدح من بهما ، فسكتب إليه عبد الصمد بن المعتز :

أنت بين اثنتين تبرز لنا^(٣) بكتلتهما بوجه مذل^(٤)
 لست تنفك طالبا لوصال من حبيب أو طالبا لتوال
 أي ماء الحر^(٥) وجهك يبق بين ذل الهوى وذل السؤال
 فلما قرأ الشعر قال : قد شغل هذا ما يايه ، ولا أرب لنا فيه^(٦) .

وحكي الأصبهاني قال : جمع مجلس^١ أبا تمام وعبد الصمد ، وكان عبد الصمد

(١) ديوانه ١٤٩

(٢) ديوانه ٤٨ .

(٣) في أخبار أبي تمام للصولي : « تفدو مع الناس » .

(٤) المذل : المهان .

(٥) « الصولي : ماء وجهك » .

(٦) أخبار أبي تمام للصولي ٢٤٢، ٢٤١

سريح القول ، وفي أبي تمام بطء ، فأخذ عبد الصمد قرطاسا ، وكتب : أنت بين اثنتين .. الأبيات ، ورعى بها إلى أبي تمام ، فأخذه وخلا به طويلا ، وجاء وقد كتب فيه :

أنت تنظم قول الزور والفنيد وأنت أنزرت من لا شيء في العدد
أشرجت قلبك من بفض على خرق^(١) كأها حركات الروح في الجسد

فقال له عبد الصمد : يا ماص بظرامه^(٢) ، أخبرني من « لا شيء » في العدد كيف يكون ؟ وعن قولك : « أشرجت^(٣) قلبك » ، أعيبة أو خرج ، فأشرجه ، عليك لعنة الله^(٤) .

فانقطع أبو تمام انقطاعا مائتي مثله .

وحكاية الصولي أولى بالصحة من هذه ، وليس عبد الصمد من رجال أبي تمام ، ولاله من التصرف في أنواع الشعر ما لأبي تمام ، وصنع البديع وقف عليه ، ولو صحت الحكاية فلا يحكم بالقدرة ، لكن يحكم بالجملة ، واستعمال ديوان حبيب في مجالس العلماء شاهد على فضله ، على أن ما جمعنا لعبد الصمد في هذا الكتاب غاية في بابه . فلنرجع إلى ما قيل في ذل السؤال .

[مما قيل في ذل السؤال]

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ سَأَلَ وَعِنْدَهُ مَا يَفْتَدِيهِ أَوْ بَعْثِيهِ ، فَإِنَّمَا يَسْتَكْثِرُ مِنْ جَهَنَّمَ » .

(١) ط : « أشرجت » بالسين تصحيف .

(٢) بعدها في الأغاني : « يافت » . وأشرجت العيبة : أو شدتها بخيط أو نحوه .

(٣) أشرجت العيبة : شدتها بخيط .

(٤) الخبر في الأغاني ١٣ : ٢٥٣ ، ٢٥٤ برويه عن ابن مهرويه . وفي آخر الخبر : قال أبو الفرج الأصمغاني : « كان في ابن مهرويه تحامل على أبي تمام لا يضر أبا تمام هذا منه ، وما أقل ما يدح مثل هذا في أبي تمام » .

وقال الحسن بن علي رضي الله عنهما : حسبك من السؤال أنه يصف
لسان المتكلم ، وبكسر قلب الشجاع البطل ، وبوقف الحر الكريم موقف
العبد الدليل ، وبذهب بنفخة اللون ، وبمحو الحسب ، وبموجب الموت ، ويمت
الحياة .

الأصمى رحمه الله : سمعت أهرابيا يقول : المسألة طريق المذلة ، تساب
الشريف عزه والحبيب حسبه .

وقال معاوية لعبد الله بن الزبير : أنشدني ثلاثة أبيات غريبة ، فقال
أنشدكها بثلاثين ألفاً تدفعها إلي ، فقال : حتى تنشد فأسمع ، فأنشده أبيات
الأفوه الأودى^(١) :

بلوتُ الناسَ قرناً بعد قرنٍ فلم أرَ غيرَ خَتلٍ أو فُصالٍ^(٢)
ولم أرَ في الخطوبِ أشدَّ ضرّاً وأذىً من مُعاداةِ الرِّجالِ^(٣)
وذقت مرارةَ الأشمَاءِ طرّاً فإِشياءُ أمرٍ من السؤال
ثم قال له : أسمعك وأنت الحكم ، فحكّم له ، وأمر له بثلاثين ألفاً .
وينظر إلى ما نسبته ابن المعتز الحبيب من إضافة ذل السؤال ، ما أضافه له
علي بن الجهم من ذل الاعتذار ، وقال يعتذر للمتوكل :

إِنَّ ذلَّ السؤالِ والإعتذارِ خُطَّةٌ صَعْبَةٌ عَلَى الْأَحْرَارِ^(٤)
ليس من باطلٍ تورّدها المرءُ ولكن سوابقُ الأقدارِ
فأرض للسائل الخضوعَ وللقا رِفَ ذنباً بذلةً^(٥) الإعتذار

(١) ديوانه ٢٢ مجموعة الطرائف الأدبية ، بيون الأخبار ٣ : ١١٣ .

(٢) الديوان : « غير خلاص وقال » .

(٣) رواية الديوان : « فاطم الخطوب »

(٤) ديوانه ١٤٩ .

(٥) الديوان « مضاعفة » .

إن تجافيتَ منهما كنتَ أولى من تجافى عن الذنوب الكبارِ
أو تعاقبُ فانتَ أعرف بالله وليس العقابُ منك بمارِ

وقال أيضاً :

هى النفس ما حملتها تتجملُ وللهر أيامٌ تجورُ وتعديلُ^(١)
وعاقبة للصبر الجميل بجميلةٌ وأكل أخلاق الرجال التفضلُ
ولاعاراً أن زالت عن المراء^(٢) نعمة ولكن عارا أن يزول التجميلُ
وما المال إلا حسرة إن تركته وغنم إذا قدّمته معجّلُ

قال : فعبس الشيخُ واكفهر ، واندراً على ابنه وهر ،
وقال له : صه يا عقيق ، يا من هو الشجى والشرق . ويك ،
أتعلم أمك البضاع ، وظنرك الإرضاع ! لقد تحككت العقربُ
بالأفعى ، واستنتت الفصائل حتى القرعى . ثم كأنه نديم على
ما فرط من فيه ، وحدته المقة على تلافيه ، فرنا إليه بعين
عاطف ، وخفض له جناح ملأطف ، وقال له : ويك يا بُنى ،
إن من أمر بالقناعة ، وزجر عن الضراعة ، ثم أرباب البضاعة ،
وأولو المكسبة بالصناعة : فأما ذوو الضرورات ، فقد استثنى
بينهم فى المحظورات ؛ وهبك جهلت هذا التأويل ، ولم يبلغك
ما قيل ، ألسنت الذى عارض أباه ، فيما قال وما حاباه !

قوله : اكْفَهْر ، اشتدَّ هبوسه ، ووجهٌ مكْفَهْرٌ : منقبض كالخ ، لا بُرَى فيه أُرْبُشْر ولا فرح . اندرأ : اندفع على ابنه بالشتم . مرّ : كثر وجهه وحبسه . صه : اسكت . ياعُقُق : يا كثير العتوق ، ويقال : عَقَّ أباه بعتقه عقوقا ، فهو هاق ، ويُبدَل إلى عُقُق للمبالغة ، كما مر وعَقَّ أباه : لم يطمعه وقطع رحمه . ولما قُتِل حمزة عمُّ النبي صلى الله عليه وسلم ورضى الله عن عمه ، مرَّ به أبو سفيان ، فطمنه بالرمح في شدِّقه ، وقال : ذق عُقُق ، أى ذق جزاء فِعْلِكَ يا عُقُق ، والعُقُق : القطع والشق .

وقال عليه الصلاة والسلام : « ثلاثة لا يدخلون الجنة : العاقُّ لوالديه ، والدَّيُّوثُ ، وَرَجُلُهُ ^(١) النساء » .

قوله : الشَّجَا : الاختناق بالطعام ، الشَّرَقَ بالماء والطعام والشراب ، بهما قوام العيش ، فإذا عرض فيهما ذلك فقد عرضت مشقة وأذية في موضع الالتذاذ ، وكذلك الولد العاق ، وهو أذية في موضع راحة ، وما أحسن قول القائل :

قَرَايَةُ السُّوءِ دَاءٌ سُوءٌ قَاحِلٌ أَذَاهُمْ تَعِيشُ حَمِيدًا

فَن تَكُنْ قَرَحَةً بَفِيهِ يَصْبِرُ عَلَى مَصِّهِ الصَّدِيدَا

الهُضَاع : النكاح والجماع . ظَنَرَك : مرضعتك . تَحَكَّكَت : اصبقت بها وحلقت حوا اليها . اسنَّت : جَرَّتْ متتابعة في سنٍّ ، وهو اللطريق والمذهب ، ومنه فلان بسنٍّ ، أى يجرى على أى أمر شاء ، لا يزجره عنه زاجر . وقيل : اسنَّت ، أى سمعت ، من قولهم : سنَّ الراعى لبله : إذا أحسن رعيها فأسمنها ، فكأنه أسنَّها وصقلها . القرعى ^(٢) : التى يصيبها الفَرَع في رأسيها ، والقرعى : جمع قريع ، مثل مَرَضَى ومربض ، وهذه أمثال تغرب لمن ينشبه بغيره ، ولا يقوى قوته .

(١) الرجل (بالضم) من النساء المترجلة ابن الأثير .

(٢) لفظ المثل : اسنَّت الفصال حتى القرعى ، ذكره الميداني في ١ : ٣٣٣ ، والباله : يضرب الذي يتكلم مع من لا ينبغي أن يتكلم بين يديه لجلالة قدره .

فَرَط : سبق . حَذَنَ : ساقته . المَقَّة : الحبة . تَلَاْفِيهِ : تداركه بالعطف عليه .
 رَنَا : نظر : عاطف : راحم . ملاطف ، أى رفيق به ، أى حَسَنَ كلامه وأنسه .
 وخَفَضَ الجناح ؛ يَكْنَى به عن لين الجانب . ويك : عجباً لك ! زجر : نهى .
 الضَّرَاعَةُ : التَّذَلُّ ، وضرع ضراعة فهو ضارع ، تضرع : تذلل وتخشع . البضاعة :
 التجارة . المحظورات : المنوعات ، وأراد بالاستثناء ما أحل الله من المحرمات
 لأهل الضرائر ، ويروى : سوَّغُوا فى المحظورات ، أى رخصوا لهم فيها . هبك :
 أحسبك . التَّأْوِيل : التفسير . ولم ييلفك ما قبل ، يعنى فى إباحة السؤال للمضطر ،
 وهو قول الناس : الضرورات تبيح المحظورات ، ويصدق قوله تعالى : ﴿ قَمَنُ
 اضْطُرُّ فى غَمَّةٍ . ﴾ ^(١) الآية ، وقال عليه الصلاة والسلام : « إِنَّمَا الْمَسْأَلَةُ كُدُوحٍ يَكْدَحُ
 بِهَا أَحَدُكُمْ وَجْهَهُ إِلَّا مَسْأَلَةً مِنْ ذِي سُلْطَانٍ أَوْفَى أَمْرٌ لَا بَدَّ مِنْهُ » . هارضة :
 قابله بنقيض ما قاله . حاباه : اختصه بهذه الوصية ، أى جعل هذا الشعر وصية
 لمن سمعه ، ويقال : حابى فلان فلاناً ، إذا مال إليه واتصل به ، أخذ من حَيِّ
 السحاب ، وهو السحاب الذى يدنو بعضه من بعض وقيل . حَبَاه : خَصَّه
 بالبل ، أخذه من الحَبْوَةِ ، وهى العطية يُعْبَرُها الرجل صاحبته ، ويخصه بها ،
 قال البيهقى : ثلاثة إن لم تظلمهم ظلموك : ابنك ، وزوجك ، وخدامك .

لَا تَقْعُدَنَّ عَلَى ضُرٍّ وَمَسْغَبَةٍ لِكَيْ يَقَالَ عَزِيزُ النَّفْسِ مُصْطَبِرٌ
 وَانْظُرْ بَيْنِكَ هَلْ أَرْضٌ مُعْطَلَةٌ مِنْ النَّبَاتِ كَأَرْضِ حَقِّهَا الشَّجَرُ
 قَعْدٌ عَمَّا تُشِيرُ الْأَغْصِيَاءُ بِهِ فَأَيُّ فَضْلِ لِعُودٍ مَالُهُ تَمَرٌ
 وَارْحَلْ رِكَابَكَ عَنْ رَنْجٍ ظَمِئَتْ بِهِ
 إِلَى الْجَنَابِ الَّذِي يَهْمِي بِهِ الْمَطَرُ

وَاسْتَنْزَلَ الرَّيَّ مِنْ دَرِّ السَّحَابِ فَإِنْ
 بُلَّتْ يَدَاكَ بِهِ فَلْيَمِزْكَ الظَّفَرُ
 وَإِنْ رُدِدْتَ فَمَا فِي الرَّدِّ مَنَقَصَةٌ
 عَلَيْكَ ، قَدْ رُدَّ مُوسَى قَبْلُ وَالْخَضِرُ

* * *

مَسْفِيَةٌ : جَوْع . حَقَّهَا : حَلَقَهَا ، يَرِيدُ أَنْ الْأَرْضُ فَاتِ الْخَصْبِ تُقَصِّدُ
 لَهَا فِيهَا مِنَ الْأَرْزَاقِ ، وَالْأَرْضُ الْمُعْظَلَةُ مِنَ الذَّبَاتِ - وَهِيَ الْجَدْبَةُ - يَفْرُغُ عَنْهَا ،
 وَكَذَلِكَ الْغَنَى يُكْرِمُ لِلَّهِ ، وَالْفَقِيرُ يَهْجُرُ وَيَهَانُ .

[فضل المال]

وَمَا جَاءَ فِي فَضْلِ الْمَالِ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْمَجَاشِعِيِّ : « إِنْ
 كَانَ لَكَ مَالٌ فَلِكَ حَسَبٌ ، وَإِنْ كَانَ لَكَ خُلُقٌ فَلِكَ مَرْوَةٌ ، وَإِنْ كَانَ لَكَ
 دِينٌ فَلِكَ كَرَمٌ » .

وَقَالَ حَكِيمُ لَابَنِهِ : يَا بُنَى أَوْصِيكَ ، عَلَيْكَ بِطَابِ الْمَالِ ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا
 أَنَّهُ عَزَى قَلْبِكَ ، وَذُلٌّ فِي قَلْبِ مَدُوكِ^(١) .

وَقَالَ آخِرُ لَابَنِهِ : يَا بُنَى أَوْصِيكَ بِأَنْتَ بَيْنَ لَنْ تَزَالَ بِخَيْرٍ مَا نَمْسُكَتَ بِهِمَا :
 دَرَمُكَ لِمَعَاشِكَ ، وَدِينُكَ لِمَعَادِكَ .

وَكَانَ سَمْعُ بْنُ عِبَادَةَ يَقُولُ : اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي حِمْدًا وَمَجْدًا ، فَإِنَّهُ لَا مَجْدَ إِلَّا
 بِفَعَالٍ ، وَلَا فَعَالَ إِلَّا بِمَالٍ .

وَقَالُوا : الْمَالُ آتَى لِلْكَارِمِ ، وَعَمُونَ عَلَى الزَّمَانِ ، وَمَتَأَلَّفَ لِلْإِخْوَانِ ، وَمَنْ
 قَقْدَهُ قَلَّتِ الرِّغْبَةُ إِلَيْهِ وَالرَّهْبَةُ مِنْهُ .

قَالَ سَفِيَانُ الثَّوْرِيُّ : الْمَالُ سِلَاحٌ لِلْمُؤْمِنِ فِي هَذَا الزَّمَانِ .

(١) مَا شِط : « قَوْلُهُ : « فَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا أَنَّهُ » جَوَابٌ لَوْ عَذُوفٌ ، أَيْ لِكَمَا أَكْ أَوْ نَحْوَهُ ،
 (١٦ - مَرْجِعُ مَقَامَاتِ الْمَرْبَرِيِّ ج ٤)

وكان لأحيحة بن الجلاح بالزَّوراء ثمانمائة ناضح ، فدخل بسقائمه ، فمَرَّ بتمرة فلقطها ، فليَمَ على ذلك ، فقال : تمرة إلى تمرة تمرات ، وَجَلَّ إلى جَلَّ ذَوْد .
ثم أنشد يقول :

إني مقيمٌ على الزَّوراء أُعمرُها إن الحبيب إلى الإخوان ذو المال^(١)
استغن أومت ولا يفرُّك ذو نسبٍ من ابن عمٍّ ومن عمٍّ ومن خال^(٢)
كلَّ الفداء إذا ناديتُ بِخَذُلِي إلَّا الفداء إذا ناديتُ يا مالى

وقال هريرة بن الورد :

ذري لي لِفَنَى أَسْتَى فَإِنِّي رأيتُ الذَّنسَ ثَمَرُهُمُ الْفَقِيرُ^(٣)
وأدنام وأهونُهُمُ عليهم وإن أُمسى له حَسَبٌ وَخَيْرُ
يُساعدُه القريب وتَزِدُّ به حاملته ويقهره الصغير
وباقى ذو الدنى وله جلال يكاد فؤادُ لاقِيهِ يَطِيرُ
قليل ذنبه والذنب جمٌّ ولكنَّ لَفَنَى رَبِّ غُفُور

ومن أمثال بغداد : المال المال ، وما سواه محال .

قوله : الأغنياء : الجهال ، وأراد بهم الذين يأمرُون بالبخل . ظمئت : عطشت . والركاب : الإبل . والجَناب : الجانب والناحية . يهيم : يسهل . والرئى : الشَّيخ من النساء ، والصَّوْب وقع الماء . والظفر : الفوز بالحاجة ، يقول : فارق أرضك واغترِب في طلب المال ، واسأل الكرماء يعطوك .

وقال الشاعر :

سأعيل نصَّ العيس يوماً ليَكُنِي غِنَى المال يوماً أو غِنَى الخلدانِ
فَلَمُوتُ خيرٌ من حياة يُرى بها على المرء بالإقلالِ وَسَمُّ هَوَانِ

(٢) الأغاني : « د ولهم »

(٣) الأغاني ١٥ : ٣٧ ، وفيه : « على الإخوان »

(٤) البيان والتبيين ١ : ٢٣٤ ، ولم ترد الأبيات في ديوانه .

إذا قال لم يُسَمَّعْ لحسن مقاله وإن لم يقل قالوا عديمُ بيان
 كُنْتُ الفنى في أهله يحمل الفنى بفـير لسانٍ ناطقاً بلسان
 وأشار بقوله : « قد رد موسى قبل والخضر ، إلى قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا
 أَنْتَبَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمُوا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهَا ﴾ ^(١) .

وفي نسب الخضر اختلاف ، منهم مَنْ جعله من قابيل بن آدم ، ومنهم من
 يجعل بينه وبين سام بن نوح خمسة آباء ، ويجعله من ذرية سام ، وقال عليه
 الصلاة والسلام : « إِنَّمَا سُمِّيَ خَضِرًا لِأَنَّهُ جَلَسَ عَلَى فُرْوَةٍ بَهْضَاءٍ ، فَإِذَا هِيَ تَهْتَزُّ
 خَضِرَةً » . وللفروة : الأرض البيضاء ، وقصته مع موسى مشهورة . وقيل إن
 موسى صاحبه غير موسى بن عمران . وقال موسى للخضر حين فارقته : عظمي
 فقال : لا يراك الله حيث تهك ، ولا يفقدك حيث أمرك ، فكما تذهب بأمل
 صادق فتغيب ، قد تذهب بأمل كاذب فتصيب ، وتذهب للحقير ، وتترك
 الجليل . وقد ذهب موسى ليقفيس ناراً ، فسكّاه ربه . وقد تقدّم هذا .

قال ابن هبّ ربه : مما جُيِّلَ ^(٢) عليه الحرّ الكريم ، ألا يقنع من شرف
 الدنيا والآخرة بشيء مما انبسط له من أمر الدنيا ، بل يكون أهله فيما هو أسمى
 درجة وأرفع مرتبة ، ولذلك قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وهو عامل
 بالمدينة لدُكَيْنٍ ^(٣) الراجز : إِن لِي نَفْسًا تَوَاقَّةً ، فَإِذَا بَلَغْتَكَ أَنِي صَرْتُ إِلَى أَشْرَفِ
 مِنْ مَنَزَلَتِي فَأَنِّي . فلما صار خليفة أتاه ، فقال : أَنَا أَعْلَمْتُكَ أَنَّ لِي نَفْسًا تَوَاقَّةً ،
 وَأَنَّ نَفْسِي تَأْتَتْ إِلَى أَشْرَفِ مَنَازِلِ الدُّنْيَا مَنَزَلَةً ، فَلَمَّا بَلَغْتُهَا وَجَدْتُهَا تَقُوقِي إِلَى
 أَشْرَفِ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ مَنَزَلَةً .

ومن الشاهد لهذا المعنى أَنَّ موسى عليه السلام لَمَّا كَلَّمَهُ رَبُّهُ تَكَلَّمَ سَاهٍ ،

(١) سورة الكهف ٧٧ (٢) ط : « الرعين » تحريف (٣) الفقه ٣ : ٢٠ ، ٢١

النظر إليه إذ كان ذلك - لو وصل إليه - أشرف من المنزلة التي نالها ؛ فالحرّ الكريم لا يقنع بمنزلة إلا رجا أشرف منها قال : ومن قولنا في هذا المعنى :

والحرّ لا يكتفى أبداً من نيل منزلةٍ حتى ينال ألقى من دونها العطبُ
يسعى به أملٌ من دونه أجلٌ إن كَفَّه رهبٌ يدعو به رغبُ
لذلك ما سال موسى ربه : أرني أنظرُ إليك وفي تسأله عجبُ
يبغى التزيد فيما نال من كرم وهو النجى لديه الوحي والكتبُ
وقال حبيب :

ذري وأهوال الزمان أقاسها فأهواله العظمى تليها رغائبه^(١)

• • •

قال : فلهذا أن رأى القاضى تناهى قول الفتى وفعله ، وتَحَلَّيه بما ليس من أهله ، نظر إليه بعين غَضَبِي ، وقال : أتميميامرة وقبسيا أخرى أف لمن ينفُض ما يقول ، ويتلوّن كما تتلوّن الغول . فقال الغلام : والذي جمّلك مفتاحاً للحق ، وفتحاً بين الخلق ؛ لقد أنسيّت مذاسيت ، وصديّ ذهني مذ صديت ؛ على أنه أين البابُ الفتح ، والعطاء الشرح ! وهل بين من يتبرع باللها ، وإذا استطعم بقول : ها !

قال له القاضى : منه فع الخواطي سَمَّ صائبٌ ، وما كل برقي حالب ، فيز البروق إذا شمت ، ولا تشهد إلا بما علمت .

قوله تحليه : تزينه ، وقوله : أنميئاً مرة وقيسياً أخرى ، مثل يضرب لمن
 يتناقض فيما يقول ، تقديره : أنتسب مرة لتميم وتنسب مرة لقيس ! وتميم وقيس
 قبلتان عظيمتان ، وبينهما أبداً مكائحات ومقاتل ، وتميم هذا ابن مرة ابن أذين
 طابخة بن إلياس بن مضر ، وقيس ابن إلياس ، قال أبو الدرداء رضى الله تعالى عنه :
 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أبا الدرداء ، إذا فاخت ففاخرة بقريش ،
 وإذا كثرت فسكار بتميم ، وإذا حاربت فخارب بقيس ، إلا أن وجهها
 كصفانة ، ولسانها أسد ، وفرسانها قيس ، ألا إن الله فرسانا في سمائه وهم الملائكة ،
 وفرسانا في الأرض وهم قيس ، وإن آخر من يقاقل على الإسلام حين لا يبقى
 إلا ذكره ، ومن القرآن إلا رسمه ، رجل من قيس » ، قلت : يا رسول الله ،
 من أى قيس ؟ قال : من سليم . وفي البديعية :

إنّ حال مع الزما ن كحالى مع "نَسَب"^(١)
 أنا أصحى مع النّبيط وأمنى مع العرب
 نسبي في يد الزما ن إذا سامه انقلب

وقال زفر بن الحارث لعمران بن حِطّان : أزيدياً مرة ، وأوزاعياً أخرى !
 وقال عمران بن حِطّان :

- فامذر أخاك ابن زنباع فإن له في النّائبات خطوباً ذات ألوان^(٢)
 يوماً يمان إذا لاقيت ذا يمن وإن لقيتُ معدياً فعدائى
 وقال آخر :

أفى الولائد أولاداً لواحدة وفى العياده أولاداً لثلاث
 قوله : يتلون ، أى يتغير ويتنوع . والنّول : ساحرة الجن ، وهو يتصوّر

(١) مقامات الحمزان ١٠٥

(٢) الكامل ٣ : ١٢٠

في صور شتى . وأخذه من قول كعب بن زهير :

فما تدوم على حالٍ تسكونُ بها إلا كما تلونُ في أنوابها الغول^(١)

وتزعم العرب أنه إذا انفرد رجل في الصحراء ظهرت له في خِلْفَةِ إنسان ، ولا يزال يقبعها حتى يضل الطريق ، فتدنو منه ، وتتمثل في صور مخمفة فتهاككه رَوْعاً . وإذا أرادت أن تضلّ الناس أوقدت نارا فيُبصرها السارى فيمقصدها ، فتفعل ذلك وتروّعه ، فإن كان الذي يأتيها شجاعاً مقدّماً تحامل وتبعها ، فإذا رأت ذلك لم تغرّه ، وجلس يصطلي بفارها وهي معه . وقال تأبط شرا :

وأدمم قد جبتُ جلبابه كما اجتابت الكاعب الخيعة^(٢)
إلى ضوء نارٍ تنورُها^(٣) فبت لها مدبراً مُقبلاً
فأمسيتُ والغول لي جارةً فيا جارنا أنت ما أهولا
فمن يك عن جارتي سائلاً فإن لها باللوى منزلا

قال أبو عمرو رحمه الله بات تأبط شراً لئله ذات ظلمة ورعد وبرق بواد يقال له : رَحَى بطن ، فلقية الغول - وهو سبعٌ من سباع الجن - فما زال يقاثلها حتى قتلها ، فقال :

ألا مَنْ مبلغٌ فتيان فهم - بما لا قيتُ عند رَحَى بطن^(٤)
فإني قد رأيت الغول تهوى بسَهَب كالصَّحفة صَحْصَحان^(٥)
فشدّت شدةً فهو فاهوى لها كُفَى بمصقولٍ يمانى
كأُسر الهرة مشقوق اللسان
وساقاً مخدج وشواة كلب وثوبٌ من عباء أو شِفان^(٦)

(١) ديوانه ٨ (٢) الشعر والعمراء ٣١٣ . والخيل : الفرو ، واجتابت : أبسته .

(٣) العمراء : « على شيم نار » (٤) مختار الأغاني ٢ : ١٥١ .

(٥) السهيب : الفلاة . والصحصحان : ما استوى من الأرض .

(٦) المخدج : الناقص الخلق . والمواء : قحف الرأس . والشنان : القرية الخلقية .

قالوا : وَخَلَقْتُمَهَا خَلْقًا إِنْسَانٍ وَرَجُلًا هَا رَجُلًا حَارًّا ، فَإِذَا صَاحَ بِهَا الرَّجُلُ :
رَجُلِي حَارٌّ أَنَهَيْتَ نَهْيَهَا لَا تَخْطِئِ السَّبَبَ وَالطَّرِيقَ ، وَفَرَّتَ مِنْهُ .

وَانْظُرْ فِي الْقَاسِمَةِ وَالْأَرْبَعِينَ ذَكَرَ الْقَطْرَ وَفِيهِ شَيْءٌ مُسْتَفَازٌ .

قوله : فَتَّاحًا ، أَيْ حَاكِمًا . وَافْتَحَ بَيْنَنَا ، أَيْ أَحْكَمَ بَيْنَنَا ، وَالْفَتْحُ : النَّاصِرُ ،
وَالْفَتْحُ : النَّصْرُ . وَالْحَاكِمُ بِنَصْرِ الْمَظْلُومِ . أُسَيْتَ : حَزَنْتَ صَدَى ذَهَبِي ، أَيْ
تَغَطَّى بِالْفُغْلَةِ ، مِنَ الصَّدَأِ ، وَهُوَ مَا يَلْوُهُ مِنَ الدَّرَنِ . وَصَدَيْتُ ، غَيْرُ مَهْمُوزٍ
أَصْدَى صَدَى ، وَأَرَادَ مَذْ فَتَحَتْ عَلَانِي الْوَسْخَ ، وَصَحْبِي الذَّيَّانِ . الْفُتْحُ :
الكَثِيرُ الْفَتْحُ الْوَاسِعُ الَّذِي لَا يَفْلُقُ فِي وَجْهِ قَاصِدِهِ . الشَّرْجُ : الْكَثِيرُ الْقَدَى
يَسْرَحُ صَاحِبُهُ فِي أَنْوَاعِ الْجُودِ ، وَالسَّرْحُ : السَّهْلُ السَّرِيعُ ، وَنَاقَةُ سَرُوحٍ : مَسْرُوعَةٌ
فِي سِيرَتِهَا . يَتَبَرَّعُ : يَتَفَضَّلُ بِجُودِهِ مَتَطَوِّعًا ، وَتَبَرَّعَ : تَطَوَّعَ . الْإِلَهَا : الْمَطَايَا .
هَا . مَعْنَاهَا : خَذْ وَتَنَاوَلْ . وَذَكَرَ أَبُو مُحَمَّدٍ هَذِهِ اللَّفْظَةَ فِي الدَّرَةِ (١) فَقَالَ : وَيَقُولُونَ
لِمَنْ يُنَاوِلُ شَبَاثَاهَا ، يَقْصُرُ الْأَلْفُ ، فَيَلْحَنُونَ فِيهَا ، لِأَنَّ الْأَلْفَ مَمْدُودَةٌ كَمَا جَاءَ فِي
الْحَدِيثِ : « الذَّهَبُ بِالذَّهَبِ رَبًّا إِلَّا هَاءَ وَهَاءَ » . وَبِجُودِ فِيهِ فَتَحَ الْمَمْدُودَةَ وَكَسَرَهَا
مَعَ الْمَدِّ وَلَا يَقْصُرُ إِلَّا إِذَا انْصَلَتْ بِهَا كَافُ الْخُطَابِ ، فَيَقَالُ : هَاكَ ؛ كَمَا يَرَوْنَ
أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ آبَ إِلَى فَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مِنْ بَعْضِ مَوَاطِنِ الْحَرْبِ ،
وَسَمِعَهُ يَقَطُرُ دَمًا ، فَقَالَ :

• أَفَاطَلَمَ هَاكَ السَّيْفَ غَيْرَ مَذْمُومٍ •

وَعِنْدَ النُّحَوِيِّينَ أَنَّ الْمَدَّ فِيهَا يَدُلُّ مِنْ كَافِ الْخُطَابِ ، لِأَنَّ أَصْلَ وَضْعِهَا أَنَّ
تَقْتَرَنُ كَافُ الْخُطَابِ بِهَا . فَسَأَلَهَا أَبُو مُحَمَّدٌ هُنَا مَقْصُورَةٌ بِغَيْرِ كَافٍ ، وَوَقَعَ فَيَجَازِمُ
أَنَّهُ لَحْنٌ . فَإِنْ قِيلَ : لَعَلَّمَا لَهَا وَقَمْتُ فِي قَفْرَةٍ مُوقُوفٌ عَلَيْهَا ، يَحْتَمِلُ فِيهَا ذَلِكَ ،
فَنَقُولُ : لِأَنَّهُ قَدْ أَرَدْنَا عَلَى قَفْرَةٍ قَبْلَهَا مَقْصُورَةٌ بِإِجْمَاعٍ ، وَهِيَ الْإِلَهَانُ سَوَاهَا مَعَهَا ؛
عَلَى أَنَّ أَهْلَ الْفَنِّ حَكَمُوا فِي اللَّفْظَةِ أَرْبَعَ لَفَاتٍ : هَا مَقْصُورَةٌ كَمَا فِي الْقَامَةِ ، وَهَاءَ

بالدَّمْعِ فَنَعَ الْهَمْزَةَ وَكَسَرَهَا . وَصَمَعَ رَجُلٌ أَبَا الْعَتَاهِيَةِ يُنْشِدُ :
فَانْظُرْ بِطَرْفِكَ حَيْثُ شَتَّتَ فَنَ تَرَى إِلَّا بُخَيْلًا

فَقَالَ : قَدْ بَخَلْتَ النَّاسَ كُلَّهُمْ ، فَقَالَ : كَذَبْتُ أَنْتَ بَوَاحِدٍ مِنْهُمْ سَخِي .
قَوْلُهُ : مَا : أَكْفَفَ . الْخَوَاطِي : السَّهَامُ تَخْطِيهِ الْفَرَسُ ، وَهَذَا مِثْلُ يَضْرِبُ
لِمَنْ يَكْثُرُ الْخَطَا وَيَأْتِي أَحْيَانًا بِالصَّوَابِ . خَالِبٌ : خَادِعٌ شَتَّتَ الْبَرْقُ : نَظَرَتْ
سَحَابُهُ أَيْنَ يَمْطُرُ . أَعْظَمَ : جَعَلَهُ عَظِيمًا .

* * *

فَلَمَّا تَبَيَّنَ لِلشَّيْخِ أَنَّ الْقَاضِيَ قَدْ غَضِبَ لِلْإِكْرَامِ ، وَأَعْظَمَ تَبْخِيلَ
جَمِيعِ الْأَنَامِ ؛ عَلِمَ أَنَّهُ سَيَنْصُرُ كَلِمَتَهُ ، وَيُظْهِرُ أَكْرُومَتَهُ ، فَا كَذَّبَ
أَنْ نَصَّبَ شَبَكَتَهُ ، وَشَوَى فِي الْحَرِيقِ سَمَكَتَهُ ، وَأَنْشَأَ يَقُولُ :
يَا أَيُّهَا الْقَاضِي الَّذِي عَلِمَهُ وَحِلْمُهُ أَرْسَخُ مِنْ رَضْوَى
قَدْ ادَّعَى هَذَا عَلَى جَهْلِهِ أَنْ لَيْسَ فِي الدُّنْيَا أَخُو جَدْوَى
وَمَا دَرَى أَنَّكَ مِنْ مَنَشْرِ عَطَاؤِهِمْ كَالْمَنْ وَالسَّلْوَى
فَجَدَّ بِمَا يَنْبِيهِ مُسْتَحْزِيًا مِمَّا اقْتَرَى مِنْ كَذِبِ الدَّعْوَى
وَأَنْشَأَ جَذْلَانِ أَثْنِي بِمَا
أَوْلَيْتَ مِنْ جَدْوَى وَمِنْ عَدْوَى

* * *

وَالْحَرِيقُ : مَا نَحَرَقَهُ النَّارُ مِنَ الْحَشِيشِ وَالْعِيدَانِ ، وَنَارُهُ ضَعِيفَةٌ لَا تَدُومُ .
السَّمَكُ : كَبَشُ الْمَاءِ ، فَلَا يَسْتَوِي إِلَّا عَلَى نَارٍ قَوِيَةٍ فَرَبَّمَا شَوَى سَمَكُهُ مَا دَامَ
لَهُ النَّارُ مَوْجُودًا ، فَإِذَا سَكَنَ الْهَبُ لَمْ يَتِمَّكَنْ مِنْ شَيْءٍ لَعَدَمِ الْجُرِّ فِي الْحَرِيقِ ،
فَيُرِيدُ أَنَّهُ حَرَّضَ الْقَاضِيَ بِالشَّمْرِ عَلَى الْإِكْرَامِ ، حِينَ اهْتَزَّ لِلْإِكْرَامِ ، وَغَضِبَ

من تبخيلهم . فهزّه بهذا الشعر ليجود عليه قبل أن يسكن ، فربما يبدو له ألاّ
يجود . أرسخ : أثبت . رضوى : جبل بالمدينة سَمَل مشتق من الرضوان ، كان
الذى يصعده راض عنه لقلة المشقة في صعوده . أخو جدوى : صاحب عطية وكرم .
المن والساوى : طعام كان ينزل على بنى إسرائيل ، وقيل : المن الترنجيبين والساوى
السمانى ، وهو طائر . يثنيه : يرّده . مستخزبا : صاغرا خاضعا . ويروى
« مستخدبا » ، والخدية : الاستحياء ، أويكون بمعنى مهانا ، والخزى : الهوان
افترى : كذب واستبعد . أنشئ جذلان : أرجع فرحا . أوليت : أعطيت .
جدوى : إمانة ، أى أرجع بالجدوى ، وإعانة لك لى عليه حتى يتوب من عفرته .

* * *

قال : فهشّ القاضى لقوله ، وأجزّل له من طوله ، ثمّ لفت
وجّهه إلى الغلام ، وقد نصلّ له أسهم الملام ، وقال له : أرايت
بطل زعمك ، وخطأ وهيك ! فلا تمجّل بعدها بدم ، ولا تنمّت
عوداً قبل عجم ، وإياك وتأييك ، عن مطاوعة أيبك ، فإنك إن
عذت تمعّقه ، حاق بك منى ما تستحقّه ، فسقط الفتى في يده ،
ولاذ بحقوق والده ، ثم نهض يحمّده ، وتبعه الشئى يمشد :

مَنْ ضامه أو ضاره دهره فليتمرد القاضى فى صعدّه
سمّاحه أزرى بمن قبله وعدله أتعّب من بعده

* * *

هشّ : فرح . أجزّل : أكثر . طوله : إفضاله وهباته . وافت : ردّ .
نصل : جعل له نصالا ، وأنصلها : نزع نصلها ، والنصل : حديدة السهم . بطل
زعمك ، أى بطلان قولك . وهيك : ظنك . تنمّت : تنجّر . عجم : اختبار ،

أى حتى تعلم : هل هو قوى أو ضعيف ، يقول : لا نعتب أحداً حتى تجرب به . قوله : وإياك وتأييدك من مطاوعة أبيك ، أى احذر أن تمتنع عن مطاوعة والدك ، فإنك ومالك لأبيك .

جابر رضى الله عنه : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، إن أبى أخذ مالى ، فقال له : اذهب ، فأنتغنى به ، فأوحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن يسأل الشيخ عن شيء فى نفسه ، قاله فى شأن ابنه . فلما جاء الشيخ ، قال له النبي صلى الله عليه وسلم : ما بال ابنك يشكوك ؟ أتريد أن تأخذ ماله ! فقال : سله يا رسول الله ، هل أفقته إلا على نفسى أو على إحدى عمامته أو خالاته ! فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : دعى من هذا ، أخبرنى عن شيء قلته فى نفسك ، ما سمعته أذنك ، فقال : يا رسول الله ، ما زال الله يزيدنا بك يقيناً ، لقد قلت فى نفسى شيئاً ، ما سمعته أذنائى ، وأنشد يقول :

غذوتك مولوداً وعلمتك يافعاً	تمل بما أجنى عليك وتنهل
إذا ليلة ضافتك بالسقم لم أبت	لسمك إلا ساهراً أتمل
كأنى أنا المطروق دونك بالذى	طرت به دونى فعمى ساهل
تخاف الردى نفسى عليك وإنها	لتعلم أن الموت وقت مؤجل
فلما باغت السن والغاية التى	إليها مدى ما كنت فىك أو مل
جملت جزائى غلظة وفظاظة	كأنك أنت المنعم المتفصل
فليعلمك إذ لم ترم حق أبوتى	فعلت كما الجار الجاور بفعل

قال : فحينئذ أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بتلايب ابنه ، وقال : « أنت ومالك لأبيك » .

قوله : حاق ، أى نزل ، تقول : حاق به المكروه والشؤم يَحِيقُ حَيْقًا ،
نَزَلَا بِهِ .

ابن عرفة : وجبا عليه وألزمه ، قال الأزهرى رحمه الله : الحق ما يحيط بالإنسان
من سوء عمله ومكروه فعله ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ
إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ ، أى لا ترجع عاقبة مكرم إلا عليهم . سَقَطَ فى يده ، يقال ذلك
للنادم المتحير ، ويقال : سَقَطَ فى يده وأسَقَطَ فى يده ، إذا دُم على فعله ، وتحسّر
عليه ، واليَد هنا : الندم ، وقوله : سَقَطَ الذى فى يده ، قل جماعة من أهل اللغة :
صوابه : سَقَطَ فى يده من غير تسمية الفاعل ، لأن الفعل يستند إلى المجرور .
وقال الأزهرى رحمه الله : إِنَّمَا حَسَنَ سَقَطَ فى يده بضم السين ، غير مسمى فاعله
الصلة ، وهى فى يده ، ومثله قول امرئ القيس :

* دَع عَنْكَ نَهْبا صِيحَ فِي حَجَرَاتِهِ *

أى صاح المتعجب فى نواحيه ، وكذلك المراد سقط الندم فى يده . وقال
أبو اللقاسم الزجاجى : سَقَطَ فى أيديهم نظم لم يُسمع قبل القرآن ، ولا عرفته العرب ،
فيوجد فى أشعارها وخفى على الإسلاميين قال أبو نواس :

* وَنَشْوَةٌ سَقَطَتْ مِنْهَا فِي يَدَى *

وأخطأ فى استعملها ، لأن فعلت لا يُبْنَى إلّا ما يعتمدى ، لا يقال : رغبت
ولا غضبت ، إنما يقال رغبت فى وغضب على . لاذ : لجأ وتستر ، ولاذ فلان
بفلان : تستر به ودار حوله ، وبعضهم يقول : أَلَاذ ، والأولى هى الغالبة ، والأوْاد
مصدر لاوْذ ، ولذا أثبتت الواو ، ولو كان مصدر «لاذ» لقات لياذاً ، كقمت قياماً .

محتو : مخفّر ، وجمعه أحتاء وحتاء . وحفد يحفد أمرع . ضامه : أذله .

ضارّه : ضرّه : أزرى : قعّر . وتقدم معنى البيت في الرسالة السادسة والعشرين

* * *

قال الراوى : فحزنت بين تعريف الشيخ وتنكيره ، إلى أن
أخروا روف أسيريه ، فناجيت النفس باتّباعه ، ولو إلى رباعه ، أعلى
أظهر على أسرارّه ، وأعرف شجرة ناره ، فمذت الملق ، وانطلقت
حيث انطلق ، ولم يزل يخطو وأعقب ، ويبعد وأقرب ، إلى أن
ترأى الشخصان ، وحق التعارف على الخلصان ، فأبدى حينئذ
الاهتِشاش ، ورفّع الارتماش ، وقال : من كاذب أخاه فلا عاش .
فمرفت عند ذلك أنه السروجى بالاحالة ، ولاحتول حالة . فأسرعت
إليه لأصافحه ، وأستعرف سائحه وبارحه ؛ فقال : دونك ابن أخيك
البرّ ، وتركنى ومّر . فلم يعد الفتى أن أن افترّ ، ثم فرّ كافرّ ، فمذت
وقد استنبت عيّنهما ، واسكن أين هما

* * *

أحروا روف : مال والمهرق . ناجيت : حدثت . رباعه : دياره . شجرة
ناره ، يريد أصل جبلته . أعقب : أمشى خلفه واتبع عقبه . ترأى : ظهر ،
وخلصان الرجل : صديقه الذى خلصت له مودته . الاهتِشاش : الطرب والبشر .
الارتماش : الرعدة ، يريد أن داه كذب لاحقيقة له محاله : حيله . حثول :
تغير . أصافحه : أحافقه وأسلم عليه . أستعرف سائحه وبارحه ، أى أطلب منه

أن يعرفني بخبره وشهره . والسانح من الطير والوحش ما مرّ على ناحية يمينك ،
والبارح ما مرّ على ناحية يسارك . وقيل : السانح ما أولاك ميامنه ، والبارح :
ما أولاك مهامره ، وأكثر العرب تتبرك بالسانح وتتشام بالبارح ، وبعضهم
يتبرك بالبارح ، ويتشام بالسانح ، والسانح : الذي يمر عليك عن مهامك إلى
مهامرك ، فيمكن لقطاع طمنه ، ولراى رمويه ، فالذى يتمين به يرى أنه رزق
حاصل ، والذي يُتشام به يرى أنه عاطب وهالك ، والبارح بالضدّ ، فالأول
يرى أنه فائت ، وراميه خاسر فيتشام به ، والثانى يرى أنه سالم غير عاطب ،
فويتمين به ، والذين يقيمون بالبارح ويتشامون بالسانح أهل نجد ، والذين
يضادّونهم أهل العالية .

قوله : دونك ، أى خذه واقصده . البرّ : والبار : الكثير الإكرام لأبويه .
افترّ : ضعك . استبذت : عرفت . عنيهما : شخصهما ، وجعله آخر المقامة برّاً
له لموافقته له فى الحيل ، وجرت للمادة بأنّ الأب إذا كان نجيباً ، فالابن بالضدّ
ولهذا قال الشاعر :

إذا أطلع الدهر حرّاً نجيباً فسكن فى ابنه سَيِّئ الاعتقاد
فلست ترى من نجيب نجيباً وهل تترك الفار إلا الرماد

المفامة الثامنة والثلاثون وهي المروية

حكى الحارث بن همام قال: حُبِبَ إِلَى مَذْ سَمَتِ قَدِيحِي ، وَنَفَثَ قَلَمِي ، أَنْ أَتَّخِذَ الْأَدَبَ شِرْعَةً ، وَالْأَقْتِبَاسَ مِنْهُ نُجْمَةً ؛ فَكُنْتُ أَنْقَبُ عَنْ أَخْبَارِهِ ، وَخَزَنَةَ أَسْرَارِهِ ؛ فَإِذَا أَلَفْتُ مِنْهُمْ بُيُوتَ الْمَلْتَمَسِ ، وَجَدُّوهُ الْمُقْتَبِسَ ، سَدَدَتْ يَدِي بَعَزَرِهِ ، وَاسْتَنْزَلَتْ مِنْهُ زَكَاةَ كَنْزِهِ ؛ عَلَى أَنِّي لَمْ أُلْقِ كَالسَّرُوجِيِّ فِي غَزَاةِ الشُّحْبِ ، وَوَضَعَ الْهَنَاءَ مَوَاضِعَ الثُّقْبِ ؛ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ أَسِيرَ مِنَ الْمَثَلِ ، وَأُسْرَعَ مِنَ الْقَمَرِ فِي الثُّقْلِ ، وَكُنْتُ لِهَوَى مُلَاقَاتِهِ ، وَاسْتِحْسَانِ مَقَامَاتِهِ ، أَرْغَبُ فِي الْإِعْتِرَابِ ، وَأُسْتَعَذِبِ السَّفَرِ الَّذِي هُوَ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ .



قوله : نفث ، أى كتب ، والنفث ما تلقى من فيك من البصاق الغليظ ، فشيبه ما يلقى القلم من المداد بالنفث ، هذا ظاهر اللفظ ، وإنما أراد في المعنى بالقلم ذكره ، ونفثه مني ، فكأنى عن البلوغ بذلك ، فهو يريد وقت الحلم ، وهو الوقت بقوى فيه على المشى في الأسفار ، والتصرف ؛ كذا فسرنا لنا بعض حذائق أشياخنا ، وفسره الفجديهي على ظاهره ، فقال : معنى مذ سعت قدمي نفث قلمي ، مذ قدرت على المشى والكتابة والفظم والنثر . شريعة : طريقة وشرعة وعادة ، ومعناه : أصرفتي إلى علم اللغة والعربية . قال الشافعي رضي الله عنه : مَنْ نَعِمَ الْقُرْآنَ عَظُمَتْ قِيَمَتُهُ ، وَمَنْ نَظَرَ فِي الْفَقْهِ أَنْبَلْ مَقْدَارُهُ ، وَمَنْ تَعَلَّمَ الْلُغَةَ رَقِيَ طَبْعُهُ ، وَمَنْ تَعَلَّمَ الْحِسَابَ جَزُلَ رَأْيُهُ ، وَمَنْ كَتَبَ الْحَدِيثَ قَوَّيَتْ حُجَّتُهُ

ومن لم يصن نفسه ، لم ينفعه عمله .

الافتباس : الاكتساب وهو افتعال ، من القبس . نجمة : طلب المرعى ، أى جمعت طلب الأدب لى غذاء ورزقا . أنقب : أبحث . أحباره : علمائه . ألفيت : وجدت . بغية : حاجة . الملتبس : الطالب لشيء . جذوة : جرة عظيمة . الملتبس : الطالب للنار ، والفورز : لارجل ، كالتكاب للسرج ، ومعنى شددت بغرزه ، أى تمسكت بركابه وبالف في خدمته ، روى ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَخَذَ بِرَكَابِ رَجُلٍ لَا يَرْجُوهُ وَلَا يَخَافُهُ غَفَر لَهُ » .

غزارة : كثرة ، والسعاب : جمع سعابة ، كفى بها من كثرة العلم . الهناء : القطران . الثقب : جمع ثقبه وهو أول ما يبدو من الجرب ، وهو مثل لمن وضع الشيء في موضعه ، أراد أنه ماهر ، أى حاذق يعطى كل طاب ما يستحقه ويشفيه من سؤاله ، لأن الجهل في القلب بمنزلة الداء ، فهذا يوقع بهانه بموضع الجهل ، فيبرأ صاحب ذلك من دائه ، ووضع الهناء مواضع الثقب ، عجز بيت لدريد بن الصمة ، وكان خرج فرأى الخنساء الشاعرة تهنا ذودا لها ، ثم أضت ثيابها واغتسلت وهو يراها ولا تراه فقال :

حَيُّوا تُمَاضِرَ وَارْبُعُوا صَحْبِي وَقِفُّوا فَإِنَّ وَقُوفَكُمْ حَسْبِي ^(١)
مَا لِمَنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِهِ كَالْيَوْمِ طَالَى أَبْنُقٍ جُرْبِ
مَتَبَذَّلًا تَبَدُّوْا مُحَاسِنُهُ بَضْعُ الْهِنَاءِ مَوَاضِعِ الثُّقْبِ
وَتُمَاضِرُ اسْمُ الْخَنَسَاءِ . قوله : أسيّر من المثل ، أى أنه لا يستقر ببلد .

(١) الشعر والشعراء ٣٠٢ والأغانى ١٥ : ٧٦ وبعد هذا البيت هناك :

أَخْنَأَسَ قَدْ هَامَ الْفُؤَادُ بِكُمْ وَأَحَابَهُ تَبَيَّلَ مِنَ الْحَبِّ

النقل ، يريد انتقاله في المنازل فلا يقيم بمنزلة سوى ليلة ، وينتقل في الثانية إلى أخرى ، فأراد أن أبا زيد لا يستقرّ ببلد إلا ما يستقرّ القمر بمنزله وهي ليلة واحدة ، بل هو أسرع من القمر في ذلك ، وإنما خصّ القمر به لأنه أسرع الكواكب نقلةً من رُج إلى رُج ، إذ لا يمكث في البرج إلا يومين أو ثلاثاً ، والبرج منزلتان وثلاث ، والشمس تمكث في البرج ثلاثين يوماً ، وعطارد يمكث فيه سبعة عشر يوماً ، والمشتري اثني عشر شهراً وزُحل ثلاثين شهراً ، والمريخ شهراً ونصفاً ، والزهرة ستة وعشرين يوماً ، والرأس والذنب ثمانية عشر شهراً ، ذلك تقدير العزيز العليم .

قوله : وأستعذب السفر الذي هو قطعة من العذاب : هو حديث صحيح ، رواه مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « السفر قطعة من العذاب ، يمنع أحدهم نومه وطعامه وشرابه ، فإذا قضى أحدكم نَهْمَتَهُ من وجهته فليعجل الرجوع إلى أهله . » النّهمة . بلوغ الهمة والشهوة والحاجة ، ورجل منهوم بكذا مواع به .



فلمّا تطوّحتُ إلى مَرَوْ ، ولا غَرَو ، بشرّني بملقاهُ زَجْرُ الطَّيْرِ ، والفأل الذي هو بريء الخَيْر ؛ فلم أزل أنشدّه في المحافل ، وعند تلقّي القوافل . فلا أجِدُ عنه مُخْبِراً ، ولا أَرى له أثراً ولا عَمِيْراً ، حتّى بلغ اليأسُ الطمعَ وانزوى التأميلُ وانقطع ، فإنّي لذات يوم بحضرة والى مَرَوْ ، وكان ممن جمَعَ الفضلَ والسَّرو ، إذ طلَعَ أبو زَيْدٍ في خلقٍ مِمْلَاق ، وخلق مِمْلَاق . فحيّا الوائِيَّ تحيّة المحتاجِ ، إذ الِتي ربُّ التاج ، ثم قال له :

اعلم وقيتَ الذمَّ ، وكفيتَ الهمَّ ؛ أن من عُذِّقَتْ به الأعمال ،
أعلقتْ به الآمال ، ومن رُفِّعَتْ له الدرجات ، رُفِّعَتْ إليه الحاجات .
وَأَنَّ السعيدَ مَنْ إِذَا قَدَرَ ، وَوَاتَاهُ الْقَدَرُ ، أَدَّى زَكَاةَ النِّعَمِ ، كما يُؤَدِّي
زَكَاةَ النَّعَمِ ، والتزمَ لأهلِ الْحَرَمِ ، ما يُتَنَزَّمُ للأهلِ والحَرَمِ . وقد
أصبحتَ بحمدِ اللَّهِ عَمِيدَ مِصْرِكَ ، وعمادَ عَصْرِكَ ، تَرْجَى الرَّكَابَ
إلى حَرَمِكَ ، وتَرْجَى الرِّغَائِبَ من كَرَمِكَ ، وتُنْزِلُ الْمُطَالِبُ بِسَاحَتِكَ ،
وتُسْتَنْزِلُ الرَّاحَةَ من رَاحَتِكَ ، وكانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ،
وَإِحْسَانُهُ لَدَيْكَ عَمِيمًا .

* * *

قوله : تطوّحت ، يقال : تطوّح في البلاد : ذهب به هاهنا وهاهنا ، فأراد
بقوله : تطوّحت : رميت بنفسي إليها .

[ذكر مرو]

مَرَوْ : بلدةٌ بِخُرَّاسَانَ^(١) ، جَلِيلَةٌ لَهَا قَرْيٌ وَحِلَالَتٌ ، وَتُسَمَّى أُمَّ خُرَّاسَانَ ،
وهي دارُ خِلافةِ الْأُمَمُونَ ، ومنها خَرَجَ أَبُو مُسْلِمٍ صَاحِبُ الدَّعْوَةِ ، يُنسَبُ إِلَيْهَا .
التَّوْبُ مَرَوْيٌّ وَالرَّجُلُ مَرَوْزِيٌّ ، وَهُوَ شَاذُ النِّسَبِ ، وَمَنْ مَرَوْ إِلَى مَرَوْ^(٢)
خمسَ مَراحِلَ ، وعلى مَرَوْ نَهْرٌ قَوَّهَتُهُ بِالسَّابِيَانِ ، وَهُوَ جَبَلٌ عَظِيمٌ الارتفاعِ ،
تَسِيلُ مِنْهُ أَنْهَارٌ تَحْتَرِقُ بِلَادَ خُرَّاسَانَ ، مِنْهَا وَادِي خُوَارِزْمَ ، مَسِيرَتُهُ أَرْبَعُونَ
يَوْمًا ، وَوَادِي الْقَنْدَهَارَ مَسَافَتُهُ شَهْرٌ ، وَنَهْرُ سِجِسْتَانَ ، مَسَافَتُهُ شَهْرٌ ، وَنَهْرُ مَرَوْ ،
مَسَافَتُهُ شَهْرٌ ، وَنَهْرُ هَرَاةَ مَسَافَتُهُ عَشْرُونَ يَوْمًا ، وَنَهْرُ بَلْخَ مَسَافَتُهُ اثْنَا عَشَرَ

(١) يريد مرو الفاجان ، ولصبتها نيسابور .

(٢) يريد من مرو الرود إلى مرو الفاجان ؛ ذكرهما ياقوت .

(١٧ - شرح مقامات الحريري ج ٤)

يوما ، وبلغ هي متوسطة خراسان ، منها إلى فرغانة ثلاثون مرحلة مغربا ، وإلى سجستان مما يلي القبلة كذلك وإلى كابول وقندهار كذلك ، وإلى خوارزم كذلك . وأهل مَرَوْأطبع الناس على البُخْل ثم أهل خراسان ، قال نامة : ما رأيت الذي يأكل في بلد قط إلا وهو يدعو الدجاجة إلى الحب ، ويلفظ الحب إليها ، إلا بَمَرَوْ ، فإني رأيته يأكل وحده ، فملت أن لؤمهم كثير جدا ، وهو فيهم طبع ، ورأيت بها طفلا صفها ، بيده بيضة ، فقلت له أعطينها ، فقال لي : ليست نسفها في يدك ، فملت أن النع طبع مركب فيهم .

لا غرو : لا محجب . وَزَجَرَ الطير . النفاؤل بها ، وفتر الشافعي رضي الله عنه قوله النبي صلى الله عليه وسلم « أَقْرُوا الطيرَ على مَكِنَاتِهَا ^(١) » . لأن الرجل كان في الجاهلية ، إذا أراد الحاجة أتى الطائر في وَكْرِهِ فنفره ، فإن أخذ ذات اليمين مضى لحاجته ، وإن أخذ ذات الشمال رجع . فهي النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال : « لا عدوى ولا طيرة ، ويعجبني الفأل » قيل : وما الفأل ؟ قال : « كلمة طيبة » .

[العيافة والزجر]

وزجر الطير القيام بها ، والتشاؤم . وكان عند العرب قوة زائدة وإدراك ، فينظر الزاجر منهم للطائر ، ولما يفعل ، فيستقرى من ذلك ما يتأمن به وينشام منه ، مثل ما يحكى عن أمية بن أبي الصلت أنه كان يشرب مع إخوان له في قصر خَيْلان بالطائف ؛ إذ سقط غراب على شرف القصر ، فتمب نعمة ، فقال له أمية : بغيك الكشكشك - وهو التراب ، فقال له إخوانه ما يقول ؟ قال : يقول : إذا شربت الكأس الذي في يدك ميت . ثم نمب نعمة ، فقال أمية نحو ذلك ، فقالوا له :

(١) ذكره ابن الأثير في النهاية ٤ : ٢٥٠ ، وقال في شرحه : « أي لا تزجروها وأفروها

على مواضعها التي جعلها الله لها » .

وما يقول؟ قال: زعم أن علامة ذلك أن يقع على هذه المزبلة نحت القصر، فيستنير عظاما، فيشجى به فيموت. فبينما هم يتكلمون، إذ وقع الغراب على هذه المزبلة ليلتقط، فاستنار عظاما، فأراد أن يتعلمه، فشجى به فأت، فانكسر أمية، ووقع الكأس من يده، وتغير لونه، فعملوا يميرونه عليه، ويقولون: ما أكثر ما سمعنا بمثل هذا، وكان باطلا! فالتحوا عليه، حتى شرب الكأس، فقال^(١) في شق فأغى عليه، ثم أفاق، وقال: لا برى فاعتذر، ولا قوى فانتصر، ثم زهقت نفسه^(٢).

وحكى المدائني قال^(٣): خرج كثير من الحجاز يريد مصر، ليزور عزة، فلما قُرب منها رأى غرابا على شجرة ينفث ريشه، فتطير من ذلك، فلقته رجل من بني لُهب^(٤) فقال: يا أخا الحجاز، مالك كاسف اللون؟ فذكر له ما رأى، فقال: إنك تطلب حاجة لا تدرِكها. فقدم مهر، والناس منصرفون من جنازة عزة فقال:

(١) كذا في الأغاني، وفي ط: «فبال».

(٢) الخبر في مختار الأغاني ١: ٨٢، ٨٣.

(٣) ورد الخبر في ديوان كثير ٤٦١ هكذا: «قيل: وفدت عزة كثير على عبد الملك بن مروان فلما دخلت سلمت، فرد عليها السلام، ورحب بها وقال: ما أقدملك يا عزة؟ قالت: شدة الزمان وكثرة الألوان واحتباس القطر وقلة المطر، قال: هل تروين لكثير:

وقَدْ زَعَمْتُ أَنِّي تَغَيَّرْتُ بَعْدَهَا وَمَنْ ذَا الَّذِي يَاعِزُّ لَا يَغْفِرُ
قالت لا، ولكن أوري له:

كأني أنادي صخرة حين أعرضت من العزم لو تمسني بها العزم زلت

فقال: ما كنت لتصبري إلى حاجة أو تهني نفسك لي فأزوجك منه. قالت: الأمر إليك، يا أمير المؤمنين؛ ما كنت لأزهدي في هذا العرف الباقي لي مادامت الدنيا؛ أن يكون أمير المؤمنين ولي. فظلم بذلك قدرها منه، وأمر لها بال، وكتب إلى كثير وهو بالكوفة أن اركب البريد ومجل فإني مزوجك عزة، فأناه لك كتاب وهو مضى من فوق إليها؛ فرحل فأقبل نحوها، فلما كان في بعض الطريق... وساق بقية الخبر كما هنا.

(٤) بنو لُهب، من قبائل العرب الذين اشتهروا بالعبادة والزجر. وفي الديوان: «بنو نهد» تصحيف.

رَأَيْتُ غُرَابًا سَاقِطًا فَوْقَ بَانِيَةٍ يَنْتَفِ أَعْلَى رِيشِهِ وَيُطَايِرُهُ
فَقُلْتُ وَلَوْ أَنِّي أَشَاهُ زَجْرَتَهُ بِنَفْسِي لِلَّهِجِّي فَهَلْ أَنْتَ زَاجِرُهُ
فَقَالَ غُرَابٌ لَّا غُرَابَ مِنَ النَّوَى وَفِي الْبَانِ بَيْنُ مَنْ حَبِيبٌ تَجَاوِرُهُ
فَا أَعْيَفَ اللَّهُجِّي لَادَرَّ دَرَّهُ وَأَزْجَرَهُ لِلطَّيْرِ ، لَأَطَارَ طَائِرُهُ^(١)
وَمَنْ زَجَرَ لِنَفْسِهِ بِشَرِّ ذُو الرُّمَةِ فَقَالَ :

رَأَيْتُ غُرَابًا سَاقِطًا فَوْقَ قَضِيَّةٍ مِنَ الْقَضِبِ لَمْ يَنْبُتْ لَهَا وَرَقٌ خَضِرُ^(٢)
فَقُلْتُ غُرَابٌ لَّا غُرَابَ وَقَضِيَّةٌ انْقَضَبَ النَّوَى ، تِلْكَ الْمِيَاقَةُ وَالزَّجْرُ
وَمَنْ زَجَرَ بِخَيْرِ أَبُو حَيَّةٍ ، حِينَ قَالَ^(٣) :

وَقَالَ صِغَابِي هُدْمَةٌ فَوْقَ بَانِيَةٍ هَدَى وَبَيَانٌ بِالنَّجَاحِ يُلَوِّحُ
وَقَالُوا دَمٌ ، دَامَتْ مَوَاتِيْقُ بَيْنِنَا وَدَامَ لَنَا حُلُو الصَّفَاءِ صَرِيحُ
وَقَالُوا حَامَاتٌ ، فَخَمَّ لِقَاؤُهَا وَطَلَحَ فَزِيرَتْ وَالْمَطَى طُلُوحُ

وَمَنْ مُلِّحَ الزَّجْرِ زَجَرَ أَبِي نَوَاسٍ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ اسْتَخْفَى عَنْهُ أَصْحَابُهُ ، وَكَانَ
لَا يَفَارِقُهُمْ ، وَوَجَّهُوا رَسُولًا إِلَيْهِ ، فَرَمَى لَهُ ظَهْرَ قِرْطَاسٍ مِنْ وَرَاءِ الْبَابِ ، غَيْرِ
مَكْتُوبٍ ، وَخَرَمُوهُ بِزِيرٍ ، وَخَتَمُوهُ بِقَارٍ ، وَأَمَرُوا الرَّسُولَ أَنْ يَرْمِيَ إِلَيْهِ
الْكِتَابَ مِنْ وَرَاءِ الْبَابِ ، فَاسْتَعْلَمَ مَوْضِعَهُمْ ، وَتَعَرَّفَ حَالَهُمْ ، وَكَتَبَ إِلَيْهِمْ :

زَجَرْتُ كِتَابَكُمْ لَمَّا أَنَا نِي بِمَرِّ سَوَانِحِ الطَّيْرِ الْجَوَارِي
نَظَرْتُ إِلَيْهِ مَخْرُومًا بِزِيرٍ عَلَى ظَهْرٍ وَخَتُومًا بِقَارٍ
فَعَيْتُ الظَّهْرَ أَهْيَفَ قُرْطُفِيًّا يَحَارُ الطَّرْفُ مِنْهُ بِاخْوِرَارٍ
وَكَانَ الزَّيْرُ ذَا شَدْوٍ مُصِيبٍ وَقَارُ الْخَتَمِ مِنْ قَارِ الْعُقَارِ

(١) ديوانه : د لاهز ناصره .

(٢) ملحق ديوانه ٦٦٧

(٣) من قصيدة له في الأمل إلى ١ : ٧٠ والآتي ١ : ٢٤٣ ، وأبيات منها في المحاسن

والمساوي ٢ : ١٧ .

فَطَرْتُ إِلَهُكُمْ يَا أَهْلَ وَدْيَ بَقْلَبُ مِنْ هَوَاكُمُ مُسْتَطَارِ
فَكَيْفَ تَزُونَنِي وَتَزُونُ زَجْرِي أَلَسْتُ مِنَ الْفَلَّاسَةِ الْكِبَارِ !
وما أحسن قول ابن قاضي ميلة^(١) وجمع الوصفين :

وَلَمَّا التَّقِينَا مُحْرِمِينَ وَسِيرُنَا	بَلَّيْبِكَ يَطْوِي وَالزَّكَاثِبُ تَنْسِفُ
فَقُلْتُ لِيَتَرَبَّيْنَاهَا أَبْلَغَاهَا بِأَنِّي	بِهَا مُسْتَهَامٌ قَالَتَا : نَتَلَطَّفُ
تَفَاءَلْتُ فِي أَنْ يَطْوِي طَارِقُ الْهَوَى	بَأَنْ عَنْ لِي مِنْهَا الْبَيَانُ الْمَطْرَفُ
وَأَمَّا دَمَاءُ الْهَدْيِ فَهِيَ تَوَاصُلُ	يَدُومُ وَرَأْيُ فِي الْهَوَى يَتَأَلَّفُ
وَفِي عَرَافَاتٍ مَا يَحْتَبِرُ أَنِّي	بِمَارِفَةٍ مِنْ نَيْلٍ وَصَلِكٍ أُسَمِّفُ
وَتَقْبِيلِ رَكْنِ الْبَيْتِ إِقْبَالُ دَوْلَةٍ	لَنَا وَزَمَانٌ بِالْمَوْدَةِ يَمِطِفُ
وَأَبَاقُهَا مَا قَلَّتْهُ فَتَمَهَّدَتْ	وَقَالَتْ أَحَادِيثُ الْعِيَاةِ زُخْرِفُ
لَنْ كُنْتُ تَرْجُو فِي مَنَى الْفُوزِ بِالْمَنَى	فَبِالْخَيْفِ مِنْ أَعْرَاضِنَا تَتَخَوَّفُ
وَقَدْ أَنْذَرَ الْإِحْرَامُ أَنْ وَصَالَنَا	حَرَامٌ وَأَنَا عَنْ مَرَادِكَ نُعْمَرُ
فَهَذَا وَقَدْ ذُقْتُ بِالْخَصَالِكِ مَنْذَرُ	بَأَنَّ النُّوَى لِي عَنْ دِيَارِكَ تَنْقَذُ
فَهَادِرُ نَفَارِي لَيْلَةَ الْفَرِّ إِتَهَ	سَرِيعٌ وَقُلْ مَنْ بِالْعِيَاةِ أَعْرِفُ

قوله : أَنَشُدْهُ ، أى أطلبه . والحافل : الجموع . والقوافل : الرفاق الرواجع .
عنبر : غبارا . الهأس : قطع الرجاء . انزوى : انقبض . التأميل : الترجى ، وهو
مصدر أمّل الخير ، أى ترجاه . انقمع : انكف . السرور : السيادة . مملّاق : فقير .
ملاق : متلطّف في كلامه . عُدِقت : عُلِّقَتْ وشدّدت به ، وعذق شاته بعذقها ، إذا
ربط في صوفها خرقة تخالف لونها . الدرجات : المنازل الشريفة .

ومن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) ميلة : مدينة صغيرة بأقصى إفريقية ، بينها وبين بجاية ثلاثة أيام . ياقوت

«خُلِقَانِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ ، وهما السخاء والسماحة ، وخلقَانِ يُبَغِضُهُمَا اللَّهُ ، وهما البخل وسوء الخلق . وإذا أراد الله بعبده خيراً استعمله على قضاء حوائج الناس .»
وقال خالد بن صفوان : لا تسأل الحوائج ثلاثة لا تُسألها : كذوباً ، فقرب بعيداً وبيعد قريباً ، ولا أحق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك ، ولا رجلاً له إلى صاحبك حاجة ، فإنه يصير حاجتك بطانة لحاجته .
واتاه : وافته وطاوعه . أدى : أعطى . زكاة النعم : الإبل والشاة ، أى أعطى الصنائع والمعروف .

الحرم : جمع حرمة ، أراد بذلك أهل الصيانة والعفاف .
المنجديهي : الحرم أقوام محترمون ، والحرم الثانى : الأهل والقرابة ، ومن يحرم على الإنسان نكاحه أو أتركه لضياعه . حميد : صيد .

مصر : بلدك ، والمصر : الحد ، ويكتب أهل نجد : اشترى فلان من فلان الدار بمصورها ، أى بمحدودها .

قطرب : هو مأخوذ من مصرت الناقة أمصرتها مصرأ ، إذا خلعت عنها ، وجعلت ضرعها بين إصبعين ، فخرج من اللبن شيء قليل ، فيسمى مصرأ ، لأن الناس يجهشون إليه ثم يثبتون ، أول فأول وقيل : المصر العلامة .
العماد : ما يقوم عليه الخلاء ، شبهه في قيامه بالأمور بالعماد .

تزوجى : تساق . الرّ : كائب : الإبل . حرمك : بلدك وموضعك الذى تحببه . الرغائب : العطايا . ساحتك : فناء دارك . راحتك : كنتك .

ونذكر من الأحاديث ما يوافق هذا الفصل الذى قدّمنا تفسيره .
قال النبى صلى الله عليه وسلم «مَنْ عَظُمَتْ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ عَظُمَتْ مَثْوَنَةُ النَّاسِ

إليه ، فإن لم يَقُمْ بِتلك اللثونة مَرَضَ النعمة للزوال .

عمرو بن العاص : والله أَرَجُلٌ ذَكَرَنِي ، ينام على شِقةٍ مرّةً ، وعلى الأخرى أخرى ، يرانى موضعاً لحاجته لَهُوَ أوجب على حقا ؛ إذا سألتُ ما مَنِي أَنْ أَفْضِيَهَا لَهُ .
وقف العتّاب بباب المأمون ، فجاء يحيى بن أكرم ، فقال له : إن رأيتَ أَنْ تُعَلِّمَ أميرَ المؤمنين بموضعي ا قال : لست بمحاجب قال : لقد علمتُ ، ولكنك ذو فضل وذو الفضل مِعْوان ، قال : سلكتُ بي غير طريقي ، قال : إن الله تعالى ألحقك بجاه ونعمة فهم أمقيان عليك بالزيادة إن شكرت ، وبالتفكير إن كفرت ، وأنا اليوم لك خير منك لنفسك ، أدموك إلى ما فيه زيادة نعمتك ، وأنت تأبى ذلك ، ولكل شيء زكاة ، وزكاة الجاه بذله للمستعين .

[من غرر المدائح]

وأما قوله : تزجى الركائب إلى حرمك ، فهو كثير في الشعر ، ونذكر منه شيئاً يبين حالة القصد لهذا الاسم ، وقال الحسن يمدح الأمين^(١) :

أقولُ والعيس تمرورى الفلاة بنا	صغر الأزيمة من مَنَى وَوُحْدَان ^(٢)
يا ناقُ لا تسأى أو تبلىنى ملكاً	تقبيلُ راحته والركن سِيَّانٍ
محمدٌ خير مَنْ يمشى على قدم	يَمْنُ برا الله من لانسٍ ومن جانٍ
محمد بين أملاكٍ تفضله	ولادَتَانِ من المنصور ثنتان
تفازع الأحمدان الشُّبه فاشتبهها	خَلَقًا وَخَلَقًا كما قُدَّ الثُّمرا كان
سَيَّان لا فرق في المقول بينهما	معناها واحدٌ والدة اثنتان

وقال حبيب :

إلى أحمد المدوح أمتُ بنا الثرى نواهبُ في عرضِ الفلا ورواسم^(٣)

(١) هو الحسن بن هاني المعروف بأبي نواس ، والأبيات في ديوانه ٦٥ .

(٢) المرورى : سار في الأرض وحده . والصمر : جمع أصمر وصمراء ، من الصمر وهو المبل .

(٣) ديوانه ٢٨٦ ، وأمت : قصدت . نواهب : مسرعات . رواسم : ترسم الأرض بأخفافها .

إلى سالم الأخلاق من كل عائب
 جدير بالأصباح المال عنده
 وليس له مال من الجود سالم
 جديراً بأن يبقى وفي الأرض غارم^(١)
 وقال آخر^(٢) :

سأجهد عزمي والطايا فإنتي
 مَرَيْنَ بنا رهواً ووخذاً وإنما
 أرى القفو لا يُمتاح إلا من الجهد
 يظل ويُمسى النجع في كنف الوخذ^(٣)
 قواصد بالسير الحثيث إلى أبي السميت فما تنفك ترقل أو تُخدي^(٤)
 إلى مُشرق الأخلاق للجود ماحوى
 ويحوى وما يخفى من الأمر أو يُبدي
 فنى لم يزل تُقضى به طاعة الندى
 إلى العيشة الفراء والشؤدود الرغد^(٥)
 وقال فيها معتذراً :

أنا في مع الركبان ظنٌ ظننتمه
 ومن زمن ألبستني كآته
 لففت له رأسي حياء من المجدي^(٦)
 إذا ذكرت أيامه زمنُ الوردي
 أَسْريلُ هجر القول من أوهجرتة
 إذا لهجاني عنه معروفه عندي
 كريم متى أمدحه أمدحه والورى
 ممي ومتى مالت له لفته وخدي^(٧)
 وقال أبو الطيب :

فلم تلق ابن إبراهيم عنسي
 وفيها قوت يوم للقراد^(٨)

(١) غارم : خاسر . (٢) هو أبو تمام والأبيات في ديوانه ١٢٨ ، ١٢٩

(٣) في ط : « زهوا » تصحيف . والزهو : السير السهل . والوخد السير السريع .

(٤) الحثيث : السريع . وترقل : تسرع .

(٥) في الديوان : « الموقفة العسراء » .

(٦) ط : « رأسا » .

(٧) هذا البيت من شواهد البلاغة ، وانظر معاهد التصديس ١ : ٢٥ .

(٨) ديوانه ١ : ٣٥٧ . وفي ط : « عيسى » والمضى : الناقة الصليبة .

فَلَمَّا جِئْتَهُ أَعْلَى مَحَلِّي وَأَجْلَسَنِي عَلَى السَّيْنِ الشَّدَادِ^(١)
تَهَلَّلَ قَبْلَ تَسْلِيمِي عَلَيْهِ وَأَلْقَى مَالَهُ قَبْلَ الْوَسَادِ
كَأَنَّ الْهَامَّ فِي الْمِجَاعِ عَيُونٌ وَقَدْ طُبِعَتْ سَيُوفُكَ مِنْ رِقَادِ
وَقَدْ صُنَّتِ الْأَسْفَةُ مِنْ هُمُومٍ فَمَا يَخْطُرُنِ إِلَّا فِي فَوَادِي

وقال أبو الهندي :

سَأَلْنَاكَ الْجَزِيلَ فَمَا تَأَنَّى وَأَعْطَى فَوْقَ مُنْيَقِنَا وَزَادَا
وَأَحْسَنَ ثُمَّ أَحْسَنَ ثُمَّ عُدْنَا فَأَحْسَنَ ثُمَّ عُدْتُ لَهُ فَعَادَا
سَرَاراً مَا قَصَدْتُ إِلَيْهِ إِلَّا تَبَسَّمَ ضَاحِكاً وَتَفَى الْوَسَادَا

وقال أبو الطيب :

وَلَمَّا قَلَّتِ الْإِبِلُ أَمْتَعَيْنَا إِلَى ابْنِ أَبِي سَلَمَانَ الْخَطُوبَا^(٢)
مَطَابَا لَا تَذِلْ لِمَنْ عَلَيْهَا وَلَا يَبْنِي لَهَا أَحَدٌ رُكُوبَا
وَتَرْتَعِدُونَ بَيْتَ الْأَرْضِ فِينَا فَمَا فَارَقْتُمَا إِلَّا جَدِيًّا^(٣)
إِذَا تَسَكَّيْتُ كِفَانَتَهُ اسْتَبَيْنَا بِأَنْصُلِهَا لَا أَنْصِلَهَا نُدُوبَا^(٤)
يُصِيبُ بِنَعْصِهَا أَفْوَاقَ بَعْضٍ فَلَوْلَا الْكَسْرُ لَا تَصِلَتْ قَضِيْبَا^(٥)

(١) قال شارحه : السبع الشداد ، يريد السنوات السبع ، والشداد معنا : المتقنة الصنع ، قال تعالى :
(وَبَلِّغْنَا قَوْمَكَ سَبْعًا مَهْدَادًا)

(٢) ديوانه ١ : ١٤٠ .

(٣) الديوان : « حريباً » .

(٤) تكبت : قلبت على راحها . والكنانة : الجمبة . قال الفارح « المعنى : إذا ألقى ما في
كناته رأينا لنصوله آثاراً في فصوله لأنه يرميها على طريقة واحدة ، فتصيب النصول بعضها بعضاً » .

(٥) الفوق من السهم : موضع الوتر والجمع أفواق . قال شارحه : « المعنى يريد أنه حسن
الرمي ، وأنه يصيب بعض نصوله أفواق السهام التي رماها ، وأنه لولا كسر السهام لا تصلحت حق
تصير قضيباً . متوياً ، أي غصناً » .

أَلَسْتَ ابْنَ الْأَوَّلَى سَمِدُوا وَسَادُوا
وَلَمْ يَلِدُوا امْرَأً إِلَّا نَجِيباً^(١)
وَنَالُوا مَا اشْتَهَوْا بِالْحَزْمِ هَوْنًا وَصَادَ الْوَحْشَ نَمْلَهُمْ دَيْبًا
وَمَا رَيْحُ رِيَاضِهَا وَلَسَكِنْ كَمَا هَادَفْنَهُمْ فِي الْفُتْرِ طَيْبًا

ومن المدح قول للستري في أبي الحصين القاضى :

لَقَدْ أَضَعْتُ خِلَالَ أَبِي حُصَيْنٍ حِصُونًا فِي الْمَلَأَاتِ الصَّعَابِ^(٢)
كَسَانِي ذَيْلَ^(٣) نَائِلِهِ وَأَوَى غَرَائِبَ مِنْطَقِي بَعْدَ اغْتَرَبِ
فَسَكَنْتُ كَرَوْضَةٍ سَقَمَتْ سَحَابًا فَأَنْتَ بِالْذَّسِيمِ عَلَى السَّحَابِ

وقال بديع الزمان وشاعر الأوان :

بِاسْتِدِّ الْأَمْرَا فَنُغْرًا فَمَا مِلَكْتُ إِلَّا تَمَنَّاكَ مَوْلَى وَاشْتَهَاكَ أَبَا^(٤)
وَكَادَ يَحْكِيكَ صَوْبُ الْغَمِّ مَنْسَكَبَا لَوْ كَانَ طَلَقَ الْحَيَا يُنْطَرُ الذَّهْبَا
وَالدَّهْرُ لَوْلَمْ يَخُنْ وَالشَّمْسُ لَوْ نَطَقَتْ وَاللَّيْثُ لَوْلَمْ يَصُدْ^(٥) وَالْبَحْرُ لَوْ عَذَّبَا

هذه الجملـة كافية وكأنها تفسير ما أجمل من ذكر ممدوحه .

• • •

ثم إننى شيخ تَرَبَّ بَعْدَ الْإِتْرَابِ، وَعَدِمَ الْإِعْشَابِ، حِينَ شَابِ.
فَصَدْتُكَ مِنْ مَحَلَّةٍ نَازِحَةٍ ؛ وَحَالَةٍ رَازِحَةٍ ، آمَلْتُ مِنْ بَحْرِكَ دُفْعَةً ، وَمِنْ
جَاهِكَ رَفْعَةً . وَالتَّامِيلُ أَفْضَلُ وَسَائِلِ السَّائِلِ ، وَنَائِلِ النَّائِلِ ؛ فَأَوْجِبْ
لِي مَا يَجِبُ عَلَيْكَ ، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ . وَإِيَّاكَ أَنْ تَلْوَى

(١) ط : د وجادوا « .

(٢) ديوانه ٧٣

(٣) الديوان : د ظل نائله «

(٤) يتيمة الدهر ٤ : ٢٧٦

(٥) ط : د يصل « تحريف .

هَذَا رَكْ، عَمَّنْ اِزْدَارَكَ، وَأَمَّ دَارَكَ، أَوْ تَقْبِضَ رَاكْ؛ عَمَّنْ اِمْتَاكَ،
وَامْتَارَ سَمَاكَ؛ فَوَاللَّهِ مَا مَجَّدَ مِنْ سَجَّدَ، وَلَا رَمَدَ مِنْ حَشَدَ؛ بَلِ
الْلَّبِيبُ مَنْ إِذَا وَجَدَ جَادَ، وَإِنْ بَدَأَ بِمَائِدَةٍ عَادَ؛ وَالْكَرِيمُ مَنْ إِذَا
اسْتَوْهَبَ الذَّهَبَ، لَمْ يَهَبْ أَنْ يَهَبَ.

ثُمَّ اَمْسَكَ يَرْقُبُ أَكْلَ غَرَسِهِ، وَيَرْصُدُ مَطْيِبَةَ نَفْسِهِ وَأَحْبَبُ
الْوَالِي أَنْ يَعْلَمَ: هَلْ تُنْفِثُهُ ثَمَدٌ، أَمْ اِقْرِیْحَتُهُ مَدَدٌ اِفْأَطَرَقَ يَرْوِي
فِي اسْتِيرَاءِ زَنْدِهِ، وَاسْتِشْفَافِ فِرْنَدِهِ، وَالتَّبَسُّ عَلَى أَبِي زَيْدٍ سِرٌّ
صَمْتِيَّتِهِ، وَإِرْجَاءُ صَلَاتِهِ، فَتَوَغَّرَ غَضْبًا، وَأَنَشَدَ مَقْتَضِبًا:

* * *

قَوْلُهُ: تَرَبُّبٌ، اِفْتَقَرَ فَلَمْ يَبْقَ لَهُ مَا يَقْعُدُ عَلَيْهِ غَيْرَ التَّرَابِ. وَالتَّرَابُ:
الْاِسْتِغْنَاءُ، وَأَنْزَبُ: صَارَ لَهُ مِنَ الْمَالِ بَكْثَرَةٌ التَّرَابِ. وَالْإِعْشَابُ: إِصَابَةٌ
لِلْعُشْبِ، وَأَرَادَ بِهِ لِلْمَالِ. تَحَلَّةٌ: مَنْزِلٌ يَحُلُّ فِيهِ.

نَازِحَةٌ: بِمَعْنَى رَازِحَةٍ: كَالَّذِي مِنَ الْهَزَالِ، وَرُزْحًا: كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْعَمَلِ.

ابْنُ الْأَثَرِيِّ: رُزْحُ فُلَانٍ: ضَعْفٌ، وَذَهَبَ مَا فِي يَدِهِ، وَأَصْلُهُ مِنَ
رَزَحَتْ إِبِلُ فُلَانٍ وَكَلَابَهُ، إِذَا ضَعُفَتْ، وَلَزَقَتْ بِالْأَرْضِ، وَقِيلَ: هُوَ مِنَ
الرُّزْحِ، وَهُوَ الطَّمْنُ مِنَ الْأَرْضِ، فَكَأَنَّ الرُّزْحَ قَدْ لَزَمَهُ، وَضَعُفَ عَنْ الِارْتِقَاءِ
إِلَى الْعُلُوِّ. آمَلٌ: أَرْجُو. جَاهِلٌ: عَزْلٌ. وَالْوَسَائِلُ: جَمْعُ وَسِيلَةٍ، وَهِيَ
الشَّفِيعَةُ، فَجَمَلُ نَاصِيئِهِ أَفْضَلُ وَسِيلَةٍ. نَائِلٌ: هَظَاءٌ، وَالْفَائِلُ: الْمَعْلِيُّ، وَنَلْتُ

له بالمعطاء أنول وأنت أنول ، ورجل نال^(١) ورجلان نالان ، ورجال أنوال ،
ونالته أنوله نولا أعطيته ، قال الأعشى :

ينولُ العشيّة ما عنده ويفقر ما قال جُهاها^(٢)

تلوي عذارك : تعرض بوجهك . ازدارك ، بمعنى زارك ، واستعمل
قصداً . راحك : جمع راحة ، وهى باطن الكف . امتاحك : استسفاك وأراد
طلب معروفك ، قال الرّاجز :

أفلح ساق يوديك امتاحاً وقرّ ههنا ورجا الفسلاحا

قوله : امتار : استعجب منك الرزق . سماحك : جودك . تجد : كرم ،
وصار ماجدا ، أى شريفاً ، وتجّد يمجّد ، مجداً فهو ماجد ، ومجد مجادة فهو مجيد .
وقيل : الحمد تسكّرم الآباء خاصة ، وقيل : الأخذ من الشرف والسؤدد ما يكفى .
وقيل كرم للفعل . جمد : بخل . حشد : جمع المال . اللبيب : العاقل . وجد :
استغنى . جاد : تسكّرم . عاد : فعلها مرة بعد أخرى ، وقد تقدم منظوماً ،
لم يهب : لم يخف . أن يهب : أن يعطى ، وهذا كله قصد فيه التّجنيب فإزاء
منه بكل بديع .

قوله : نطقته ثمّد ، أى قليل .

الأزهري : النطفة تنال للماء القليل والكثير ، ورأيت أعرابيا شرب من
ركبة غزيرة الماء فقال : والله إنها لنطفة باردة ، والحمد : الماء القليل الذى لا مدد
له . قريحته : ذهنه . أطرق : أى أمال رأسه للفكرة . فى استبراء زنده : فى
استخراج ناره ، وأراد طلب ما عنده من العلم والاستشفاف : الاستقصاء فى

(١) فى القاموس : رجل نال ؛ أى جواد كثير النائل .

(٢) ديوانه ١٦٦ .

النظر والتأمل فيما يبصره ، واستشف الثوب : جملة طاقا واحدا ، أو رفعه في ظل
حتى ينظر : أ كثيف هو أم رقيق ، واستشفه : رأى ما وراءه ، والاستشفاف :
للنظر إلى كل شيء صقيل . الفِرْنَد : جوهر السيف ، وأراد أن الوالى أعجب
بكلامه ، فأراد أن يعلم هل كان في حفظه لغيره أو ارتجله لنفسه . صَمَتَتْه :
صكته . إرجاء : تأخير . توغّر : توقّد . مقهضبا : مرتجلا .



لَا تَحْقِرَنَّ أَيْبَتَ الْأَعْنِ ذَا أَدَبٍ لِأَنَّ بَدَا خَلَقَ السَّرِيالَ سُبُوتَا
وَلَا تُضِغْ لِأَخِي التَّامِيلَ حُرْمَتُهُ أَمْ كَانَ ذَا لَسَنِ أَمْ كَانَ مِسْكِيَتَا
وَانْفَعْ بِعُرْفِكَ مَنْ وَاكَ مُخْتَبَطَا
وَانْعَشْ بِغَوْثِكَ مَنْ أَلْفَيْتَ مَنْكُوتَا
نَفِيرُ مَالٍ الْفَقَى مَالٌ أَشَادَ لَهُ ذَكَرَ أَتَمَّ قَلَّ الرُّكْبَانُ أَوْ صَبِيَتَا
وَمَا عَلَى الْمُشْتَرَى حَدًّا بِمُوهَبَةٍ غَبْنٌ وَلَوْ كَانَ مَا أَعْطَاهُ يَأْفُوتَا
لَوْلَا الْمَرْوَةُ ضَاقَ الْعُذْرُ عَنْ فِطَانِ
إِذَا اشْرَابَ إِلَى مَا جَاوَزَ الْقُوتَا
لَيْكِنَّهُ لَا بِنَاءَ الْمَجْدِ جَدٌّ وَمِنْ حُبِّ السَّمَاحِ ثَنَى نَحْوِ الْعَلَا لَيْتَا



قوله : أَيْبَتَ الْأَعْن ، تحية ملوك الجاهلية ، قال ابن الأبارى رحمه الله في
تفسيرها قولان : أحدهما أَيْبَتُ أَنْ تَأْتِيَ مِنَ الْأَشْيَاءِ مَا تَسْتَعْقِ الْأَعْنَ عَلَيْهِ ،
فَالْأَعْنَ مَنْصُوبٌ ، وَالْآخِرُ - وَهُوَ أَرَادَ الْقَوْلَيْنِ - أَنْ تَكُونَ الْأَلْفُ بِمَعْنَى «يَا» ،

وبيت من البيوت مضاف إلى اللعن ، لأن بعضهم يخفض اللعن ، وتقديره :
يا بيت الآمن : سمة للملك ، نقل من الوجه الأول لكثرة الاستعمال ، ألا ترى أنها
تعطى معنى الفداء في البيت ، وتقديره : يا ملك أو يا أمير ، ويتضمن معناه
الهداء ، أي جعلك الله تَمَن يكره الآمن ؛ ولذا وقع اعتراضا بين اللفظين ؛ الأول
طالب للثاني ، كما قال ابن محمّل :

إِنَّ الثَّانِينَ - وَبُلَّتَتْهَا - قَدْ أَحْوَجَتْ سَمْعِي إِلَى تَرْجَانٍ^(١)

سَبَرُونَا : فقيرا محتاجا ، والسَّبَرُوت : الفقير الذي لا ثياب له . ذَا لَسَنٍ ،
أي فصيحاً . سَكَيْتَا : عَمِيًّا كثير السكوت . انْفَحَ بَعْرُفَكَ ، أي ارم بعروفتك .
انمَشْ بَعْرُفَكَ ، أي ارفع بعطيتك ، والنمَشُ الإغانة ، وهي المبادرة بالنصرة
لمن جاء يستغيثك . والإِنْمَاشُ أَنْ تَرَى رجلاً قد أهوى لستقوط فقرمه ، أو افتقر
فتعجبه . مَنْسَكُونَا : ملقَى على رأسه ، وَنُسَكِتَ الرجلُ فهو مَنْسَكُوتٌ ، إذا
خُرِبَ فَاسْقَطَ على رأسه . قوله أشاد : أي رفع .

[الذكر الحسن]

صديقا : ذكرنا حسنا . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا أردتم أن
تعملوا ما لا بعد عند الله فانظروا ما يتبعه من حسن الثناء » .

وقيل لبعض الحكماء : ما أحمَدُ الأشياء ؟ قال : أن يبقى للإنسان
أحدوثه حسنة .

أَكْثَمُ بْنُ صَيْفٍ : إنما أنتم خير ، فطَيَّبُوا أخباركم ، أخذه حبيب فقال :
وما ابنُ آدم إلا ذكرٌ صالحٌ أو ذكرٌ سيِّئٌ يسرى بها الكلامُ

(١) من نصيدة له في أمالي القائل : . .

أما سمعتَ بدهرٍ باد أمته جاءت بأخبارها من بعدها أمُّ
الأحنف : ما أدخرت الآباء للأبناء ، ولا أبقت الموتى للأحياء شيئاً أفضل
من اصطناع المعروف عند ذوى الأحساب .

وقيل لماوية : أى الناس أحب إليك ؟ قال : مَنْ كانت له عندى يد
صالحة ، قيل : فإن لم تكن ؟ قال : فَمَنْ كانت لى عنده يد صالحة .
قال بُرزُجمهر : إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق منها فإنها لا تنفى ، وإذا
أدبرت عنك فأنفق منها ، فإنها لا تبقى . أخذ هذا المعنى الشاعر فقال :

لا تبخلنْ بدُنْيَا وهى مقبلةٌ فليس ينقصها التبذيرُ والسرفُ
فإن تولّت فأحرى أن تجود بها فالحمد منها إذا ما أدبرت خلفُ

وقال آخر :

إذا جادت الدنيا عليك فجدبها على الناس طراً قبل أن تنفقتِ
فلا الجودُ يُغيثها إذا هي أقبلت ولا الشحُّ يُبقيها إذا هي ولّت

وكان سعيد بن العاص يقول على المنبر : مَنْ رزقه الله رزقاً حسناً ، فلينفقْ
منه سرّاً وجهراً ، حتى يكون أسعد الناس به ؛ فإنما يترك ما يترك لأحد رجلين ؛
إما لمصلحة فلا يقل عنده شيء ، وإما لمفسد فلا يبقى له شيء . أخذ هذا الشاعر فقال :

احمدْ بمالكٍ فى الحياة فإنما يبقى خلافتك مصلحٌ أو مفسدُ
فإذا جمعتَ لمفسدٍ لم تُغنِهِ وأخو الصلاح قليله يزيّد

[بما قيل فى المروءة]

قوله : لولا المروءة ، المروءة هى الأفعال الشريفة ، التى يجب أن يقال

لرجل بها سره ، مثل الرجولة للأفعال التي يستحق الرجل أن يقال له بها رجل .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا دين إلا بمروءة » .

وقال عمر رضي الله عنه : المروءة مروءتان : ظاهرة وباطنة ، فالظاهرة الرياش والباطنة للعفاف .

قدم وفد على معاوية رضي الله عنه ، فقال لهم : ما تعدون المروءة ؟ قالوا : العفاف وإصلاح العيشة ، قال : اسمع يا يزيد !
وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « تجاوزوا قذوى المروءات عثراتهم ، فوالله إن أحدم ليمتر وإن يده بيد الله » .

عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : إننا معشر قريش ، نمدد الحلم والجود سؤدداً ، ونمدد العفاف وإصلاح المال مروءة .
أنوشيروان : المروءة ألا تعمل عملاً في السر تستحي منه في العلانية .
غيره : المروءة اسم جامع للمحاسن كلها .
وقالوا : للمروءة العفة والخرفة .

قوله : اشرب : تشوف ، والتشوف أن تسمع بالشئ وتطلع أن تراه ،
وتمد أن تنظر إليه ، يقول : لولا الأفعال الجميلة كان عذر الفطن الحاذق يضيق عليه إذا سئل . وقيل له : قد جاوز مالك قوتك ، وفضل عن مؤنتك ، فلم تجهد في طلب المال ، وترغب في الزيادة منه . قال : فالمروءة توسع عليه عذره ،
فهو قول ذو المروءة . إنما اكتسبه لأنفقه في البر ، وبين هذا بقوله : « نبي نحو الغني ربنا » والليت : صفة للعتق فيقول : إنما نبي عتقه ، وأما لهما حباً في السراح .

وقد سبّه إلى هذا للتأني بقوله :

ولولا المطايا أنها سُنَّةٌ له لما قال للدنيا إذا عثرت: «لما»^(١)
 فإن باشر الدنيا فلجود نالها^(٢) وإن هجر الدنيا فعنها ترفعا
 فزاد بقوله: «وإن هجر الدنيا» معنى حسنا .
 وقلوا: نعم المون على المروءة المال .

وقال الأحنف بن قيس :

فلو مُدَّ تَرْوِي بِمَالٍ كَثِيرٍ لَجِدْتُ وَكُنْتُ لَهُ بِأَذْلًا^(٣)
 فإن المروءة لا تُسْطَاعُ إذا لم يكن مالها فاضلا
 وقال آخر :

ولا شماعة أهداء ذوى حسدٍ أو أن أنال بنفع من يُرْجَوِي^(٤)
 لما خطبتُ إلى الدنيا مطالِبها ولا بذلتُ لها عِرْضِي ولا دِينِي

• • •

رما تنشَقَّ نَشَرَ الشُّكْرِ ذُو كَرَمٍ
 إِلَّا وَأَزْرَى بِنَشْرِ الْمِسْكِ مَفْتَوْتَا
 والحمدُ والبُخْلُ لم يُقْضِ اجتماعُهما
 حتى لقد خِيَلَا ذَا ضَبَا وَذَا حُوتَا

(١) ديوانه ١٧٣ ، ولما : صوت منناه الدعاء للعائر بأن يرتفع من عثرته .

(٢) ديوانه

• فإن يلبس الدنيا فلجود لالها •

(٣) البهتان في البيان والتبيين ٣ : ٢٩٢ .

(٤) للبتان في المجد لابن جبريه ٣ : ٤٤٠ ، وفيه : « وأد أنال » وبمدها :

لكن منافسة الأكفاء تحمِلُنِي على أمورٍ أراها سوف تُرْدِيْنِي
 وقد خشيتُ بأن أبقى بمنزلة لادين عندي ولادنيا توافيني

(١٨ - شرح مقامات الحريري ج ٤)

وَالسَّمْحُ فِي النَّاسِ مَحْبُوبٌ خَلَاتُهُ
 وَالْجَامِدُ الْكَفَّةُ مَا يَنْفَكُ تَمَقُّوتَا
 وَلِلشَّيْخِ عَلَى أَمْوَالِهِ عِلَلٌ يَوْمَعْنُهُ أَبَدًا ذِمًّا وَتَبْكِيَتَا
 فَجَبَدَ بِمَا جَمَعَتْ كِفَاكَ مِنْ نَشَبٍ
 حَتَّى يُرَى مُجْتَدِي جَزْدِ ذَوَاكَ مَبْهُوتَا
 وَخُذْ نَصِيْبَكَ مِنْهُ قَبْلَ رَائِقَةٍ
 مِنَ الزَّمَانِ تَرِيكَ الْعُودَ مَنُجُوتَا
 فَالْدَهْرُ أَنْكَدُ مِنْ أَنْ تَسْتَمِرَّ بِهِ
 حَالٌ، تَكَرَّرْتَ تِلْكَ الْحَالَ أَمْ شَيْتَا
 فَقَالَ لَهُ الْوَالِي: تَاللَّهِ لَقَدْ أَحْسَنْتَ، فَأَيَّ وَلَدِ الرَّجُلِ أَنْتَ؟ فَظَنَرَ
 إِلَيْهِ عَنْ عُرْضٍ، وَأَنشَدَ وَهُوَ مُنْقَضٍ:
 لَا تَسْأَلِ الْمَرْءَ مَنْ أَبُوهُ وَرُزُّ خَلَا لَهُ ثُمَّ صَلِّهُ أَوْ فَاضِرِيْمَ
 غَايَسِيْنِ السَّلَافِ حِينَ خَلَا مَذَاقُهَا كَوْنُهَا ابْنَةُ الْحِضْرِمِ.

* * *

قوله: تَنْشَقُّ، أي شم. نشر: رائحة. أزرى: عاب. مفتوتا: مدقوقا،
 يقول: لشكر المعروف عند أهل الجود أعطر من ريح المسك إذا فت فانشرت
 رائحته.

وقال إبراهيم الشيباني: كنت أرى رجلا من وجوه أهل الكوفة، لا ينفك
 لبده، ولا يستريح قلبه في طلب حوائج الناس، وإدخال المرافق على الضعيف،
 فقلت له: أخبرني عن الحال التي هوت عليك هذا التعمب في القيام بحوائج

الغاس ، ماهي ؟ قال : قد والله سمعت تغريد الأطيّار بالأسعار في فروع الأشجار ، وسمعتُ خُفُوق أوتارِ العِمدان وترجيع أصوات التقيان ، فما طربت من صوتٍ قطّ طرَبِي من ثناء حسن ، بلسانٍ حسن ، على رجلٍ قد أحسن ، وما سمعتُ أحسنَ من شكر حرّ لرجلٍ حرّ ، ومن شفاعةٍ بحَسْبِ لطالبٍ شاكر ، فقلت له : **لله أبوك ! لقد حُشيتَ كرمًا ، فلذة السمع هنا بمنزلة الشم في البيت .**
خيّل : حسب ، والضبّ والحوت قد تقدّما في الثامنة عشر .

قوله : الجامد الكفت : هو البخل ، وهو ضدّ السّمح . ممقوتًا : مبهوضًا .
 هَمَل : أهدار . يُوسِعَنه ذمًا ، أى يكثرن ذمه ، التبكيت : الهوان والتوبيخ .
 جَدّ : تسكّرم . نَشَب : مال . مجندى جدواك : طالب عطاياك . مبهوتًا : متحيرًا ، يريد أنه يعجب من كثرة مانعفيه فيتعجّر وما بدرى كيف يشكره !

[مدح الكرم وذم البخل]

ومن مدح الكرم وذم البخل قالوا :
 لو لم يكن في الكرم إلا أنه من صفات الله عز وجل .
 وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحبّ الجود ومكارم الأخلاق .
 ويؤدّم سَفْسافها » .

وقيل لقوم من العرب : مَنْ سَيِّدُكُمْ ؟ فقالوا : فلانٌ على بخلٍ فيه ، فقال عليه الصلاة والسلام : « وأى داء أذوى من البخل ^(١) » !

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ^(٢) .
 وقال المأمون لمحمد بن عباد : أنت متلاف ، فقال : منعّ الجود سوء ظنّ بالمعبود ، يقول الله عز وجل : ﴿ وَمَا أَفْقَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُمْ لَا يَخِفُّهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ ^(٣)

(١) النهاية لابن الأثير ٢ : ١٤٣

(٢) سورة المؤمن

(٣) سورة سبأ ٣٩

وقال كسرى : عليكم بأهل السخاء والشجاعة ؛ فإنهم أهلُ حسن الظنِّ بالله ، ولو أن أهل البخل لم يدخل عليهم من ضرِّ بخلهم ومذمة الناس لهم وإطباقُ القلوب على بنفُسهم ، إلا سوء ظنِّهم بربهم في الخلف لكان عقاباً ، أخذه محمود الوارق فقال :

مَنْ ظَنَّ بالله خيراً جاد مبعثاً والبخل مِنْ سوء ظنِّ المرء بالله
وخوفٌ بخيلٌ سَخِيّاً الإملاق والفقر ، فردَّ عليه السخى ، يقول : (الشَّيْطَانُ
يَمِدُّكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً^(١) .
وقال الحسن والحسين لعبد الله بن جعفر : إنك قد أسرفتَ في بذل المال ،
فقال : بأبي أتما وأمي إنا لله عودنى أن يفضّلَ على ، وعودته أن أنفضّلَ
على عبيده ، فأخاف أن أقطع المادة فيقطع عني عادته .

قوله : وخذ نصيبك منه قبل رائئة . الرائئة الشيبة ، لأنها ترَوِّع الإنسان
أى تغزعه ، وتعلمه أنها تأتيه بالكبر والهرم . والعود المنحوت ، أراد به الجسم
الهابس لأن الهرم يُذهبُ نعمة الجسم ، وأصل المنحوت المنجور .
وأراد بقوله : خُذْ نصيبك قوله عليه الصلاة والسلام : « يقول ابن آدم : مالى
مالى ، وماله مِنْ مَالِهِ إلا ما أكل فأنى ، أو لبس فأبلى ، أو أعطى فأمضى » .

[مما قبل فى الشيب]

وقال الشاعر فى الرائئة :

أهلاً برائئة للشيب واحدة تفنى الشباب وتنهانا عن الغزل^(٢)

وقال أبو الطيب المتنبى :

راعتك رائئة المشيب بعارضى وكو أنها الأولى راع الأسعم^(٣)

(١) سورة البقرة ٢٦٨ .

(٢) شرح المكبرى ٤ : ١٢٣ .

(٣) ديوانه ٤ ، ١٢٣ . العارض ، مايل الحد والأسعم : الأسود .

لو كان يُمكنني سَفَرْتُ من الصَّبَا فالشَّيب من قَبْلِ الأوان يُكْتَمُ^(١)
وفي رواية ابن جني: «رائحة البياض»، وقال: هي أول شعرة تطلع من الشَّيب.
وأنشد ابن الأَمرأى «أهلاً برائحة للشَّيب» وأنشد غيره «برائحة بيضاء» أي
بشعرة تطلع من الشَّيب بيضاء تروع للمناظر، وهذا أصوب من الوجه الآخر،
وقال كثير:

كَذَبَ العواذِلُ بل أَرَدَنَ خِيَاتِي وَبَدَتْ رَوَانِعِي رِائِي وَفُتُومُ^(٢)
وقال الألبيري:

بَعُرْتُ بِشَيْبَةٍ وَخَطْتُ بِلَيْلِي قُلْتُ لَهَا نَأَقِي لَارِحَمِلِ^(٣)
وَلَا يَهْنُ القليلُ عَلَيْكَ مِنْهَا فَا لَشَيْبٍ وَيَحْكُ مِنْ قَلِيلِ
غَمُّكُمْ قَدْ أَبْعَرْتُ هَيْنَاكَ مُزْنًا أَصَابَكَ طَلَهَا قَبْلَ النُّزُولِ^(٤)
فَلَا تَعْقِرْ بِنُورِ الشَّيبِ واعْلَمْ^(٥) بَأَنَّ القَطْرَ يَبْعَثُ بِالشَّيْبِ

وقال أبو بكر البلوي:

نَسِيتُ فِي شِعْرِي وَشِعْرِي وَمَا نَفْسِي فِي صَبْرِي بِمَكُوبَةٍ
إِذَا دَنَتْ بِيَضَاءَ مَكْرُوهَةٍ مَنِي نَأَتْ سَوْدَاءَ مَحْبُوبَةٍ

وقال كشاجم فأحسن:

نَظَرْتُ إِلَى الرِّاءِ فَرَوَّعَتْنِي طَلَانِعُ شَيْبَتَيْنِ لَدَى المَتَابِ^(٦)
فَأَمَّا شَيْبَةٌ فَفَزَعَتْ مِنْهَا إِلَى المَقْرَاضِ مِنْ حَبِّ التَّصَابِي
وَأَمَّا شَيْبَةٌ فَصَفَحَتْ عَنْهَا لِنَشْهِدَ بِالْبَرَاءَةِ مِنْ خِضَابِي

(٢) ديوانه ٢٠٦، والقُتُوم: المَحُوب والمُفْتَمِر.

(٤) الديوان: «الهمول»

(٦) ديوانه ١٠

(١) الديوان: «تَلْتَمُ»

(٣) ديوانه ١٤٧، ١٤٨

(٥) ديوانه: «نَزَرَ الشَّيبُ»

فوالك من مشيب قد تبدى أقمت به الدليل على شبابي^(١)
وقال البحتري :

وأبت تركي الفديات والآصال حتى قضين بالقراض^(٢)
شمرات أقضهن ويرجع ن رجوع السهام في الأغراض^(٣)
وقال ابن المعتز :

ألت ترى شيباً برأيتي شاملاً ونث حيلتي عنه وضاق به ذرعى
كأن المقاربض التي يعقورته مناقير طير تلتقي سنبل الزرع
وقال رجل من الأزد :

ولقد أقول لشيبة أبصرتها في مفرق ففتحها إعراضى
عنى إليك فلمت منها لقد عمت منك مفارقى ببهاض
هللى سوى مشربن عاماً قد مضت مع ستة فى إثرهن مواضى
ولقد أرتاع منك ولأنى فيها هويت وإن وزعت لماضى
فعلبك ما استطعت الظهور بيلمى وعلى أن ألك بالقراض
وقال أبو نواس :

وإذا عذدت السن كم هى لم أجد للشيب حذراً أن يلم براسى
وقال أبو داف :

فى كل يوم أرى بيضاء قد طلعت كأنما نبقت فى ناظر البصر^(٤)
لئن قرضت بك بالقراض عن بصرى لما قرضت عن هوى وعن فكرى

(١) الديوان :

فيما عجباً لك من مشيب أقمت به الدليل على الذهاب

(٢) ديوانه ١٢٠٩ ، وفيه « خضبت بالقراض »

(٣) الأغراض : الأهداف .

(٤) أمالي المرتضى ١ : ٦٠٨ ، وفيه : « كأنما طلعت فى أسود البصر »

وقال كشاجم :

أخى قم فعاوني على شيبه بفت
إذا مامضى النقاش يأتي بها أت
كعان على السلطان يجزى بذنبه

ولأبي الفضل الدارمي :

شيبه نقتت على شبابي
قلت ماذا كذا العمر التصابي
فأجابت جزي من الرسم للسـ
فإن ازددت في الجفاء فلا تند

وهذا مثل قول الآخر :

وزائرة للشيب لاحت بمارضى
فقلت على ضمني استطات ووحدنى
فلم يك إلا عن قريب فأقبلت
فوا أسفا لو كان يغنى ناستنى

وقال الرماني :

وثلاث شيبات طلقن بمفرق
طلعت ثلاث في طلوع ثلاثة
فمرلني عن صيوتي فائن ذلا

وفي معنى قول أبي نواس : « وإذا عدت السن كم هي » قال المعري :

عجبت هند من تسرع شيبى
عوضتني بد السفاسف من مـ
قلت هذا عقيب فظام الشرور
لك عذارى ريشا من الكافور

كَانَ لِي فِي انْتِظَارِ شَيْءٍ حَسَابٌ غَالِطِي فِيهِ صُرُوفُ الدُّهُورِ
وَقَالَ ابْنُ الْمَلْعِ الشَّيْلِيُّ :

طَلَعَ الشَّيْبُ بَلَمَتِي فَتَمَجَّبُوا مِنْ كَدِّهِ وَتَمَجَّبُوا مِنْ مُهْلَتِهِ
مَا شَبْتُ مِنْ كِبَرٍ وَلَكِنْ مَنْ يَبْتُ دَنَقًا وَمَشَقًّا يَشْبُ مِنْ لِبَلَتِهِ
وَقَالَ أَبُو عَثَانَ الْخَالِدِيُّ :

فَدَيْتُكَ مَا شَبْتُ مِنْ كِبَرَةٍ وَهَذِي سِنِّي وَهَذَا الْحَسَابُ^(١)
وَلَكِنْ مَجَرَّتْ خُلَّ الشَّيْبِ وَلَوْ قَدْ وَصَلَتْ لَحُلَّ الشَّبَابُ^(٢)
وَهَذَا الْقَدَرُ كَافٌ .

قوله : فالدهر أنكد ... البيت يقول : إن كنت غنياً أو فقيراً فذلك حال
لاندوم ، كرهت أو رضيتها .

وقوله : أى ولد الرجل أنت ، هذا الكلام إنما يقع في باب النفي ، قال
بمقرب : تقول العرب : لأدرى أى ولد الرجل هو ؟ يعنون بالرجل آدم وولده
للناس ، فكأنه قال : ما أدرى أى الناس هو .

عُرِضَ : جانب . مغمض : مغمض عينه ، يريد أنه لم يعجبه سؤاله ، فلم يقبل
عليه بنظره ، ولا بإنشاده . ورُزُ ، بالراء قبل الزاي ، معناه اختبر واطلب . قال
ابن الأنباري : رزت ما عنده ، أى طلبته وأردته ، قال الزُّبَيْدِيُّ : الرُّوزُ قريب
من التحقيق ، والروز أن تأخذ الصنعة بيدك ، فترفعها لتختبر ثقلها ، قال الشاعر :

وإن الله رازٌ حلوم قيسٍ فلما ذاق خِمتَها قلّاها
وقال الأعشى :

فشى ولم يخش الأني من فرازا وخلاً بها
أضرم : أقطع الصنعة . الشلاف : الحمر الخالصة . الحصرم : الحامض ، لأن

عود الغنّب حامض ، ويقولُ عنه شيءٌ قديدٌ ، وتقدّم معنى البيتين .
وأما وجود الأشياء مع أصدادها مثل الخلاوة مع ما أصله مرّ فله نظائر ،
قال حبيب :
• والفار قد تُفَقِّصُ من ناضِرِ السَّلمِ •^(١)

وقال المتنبّي :
فإن الماء يَجْرِي من جهادٍ وإن النار تخرج من زنادٍ^(٢)
وقد يجري أيضاً خلاف العادة في الأشياء ، فقد يقشّبه الشيطان من جهة ،
ويقبّاعدان من أخرى .
قال المرّى :

قد يَبْعُدُ الشيءُ من شيءٍ يُشَابِهُهُ إنَّ السماءَ نغِيرُ الماءِ في الزَّرَقِ^(٣)
قال المتنبّي وقد سبقه إليه :
وقد يتقارب الوصفان جدّاً وموصوفاً هما مُقبّاعدان^(٤)
وما أحسن قول ابن صارة :
يا مَنْ بَعْدَ بِي لَمَّا تَمَلَّكَ بِي ماذا تريد بعد بِي وإضراري
تروقُ حسناً وفيك الموتُ أجمعُ كالصَّقلِ في السَّيفِ أو كالنورِ في النارِ
وقال ابن عبدون أستاذ بلنسية :
يا مَنْ مَحْيَاهُ جَمَاتٌ مَفْتَعَةٌ وهجره لي ذنبٌ غيرُ مغفورٍ
لقد تَنَاقَضَتْ في خُلُقِي وفي خُلُقِي تَنَاقَضَ النَّارُ بالثَّخينِ والنُّورِ

* * *

قال : فقرّبه الوالي لبياينه الفاتن ؛ حتى أحله مَقْعَدَ الخاتن . ثم
فَرَضَ له من سُيُوبِ نَيْلِهِ ، ما آذن بطولِ ذَيْلِهِ ، وقَصَرَ ليله . فَهَضَّ

(١) ديوانه ٢٦٩ . تنقي : تستخرج ، وصدرة :

• أخرجتموه بكمه من سَجِيحِهِ •

(٢) ديوانه ٢ : ٣٦٥ (٣) سقط الزند ٦٨٨ (٤) ديوانه ٤ ، ٢٥٥ .

عنه بِرُذُنِ مَلَّانَ ، وَفَلْبِ جَذْلَانِ ، وَتَبَعْتُهُ حَازِيًا حَذْوَهُ ، وَفَاقِيًا
خَطْوَهُ ، حَتَّى إِذَا خَرَجَ مِنْ بَابِهِ ، وَفَصَلَ عَنْ غَايِهِ ، قُلْتُ لَهُ :
هُنْتُتَ بِمَا أُوتِيتَ ، وَمُلِّيتَ بِمَا أُوتِيتَ . فَأَسْفَرَوَجْهَهُ وَتَلَّالًا ، وَوَالِي
شُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى ، ثُمَّ خَطَرَ اخْتِيَالًا ، وَأَنْشَدَ اِرْتِجَالًا :

مَنْ يَكُنْ نَالٌ بِالْحَمَاقَةِ حَظًّا أَوْ سَمًا قَدْرُهُ لَطِيبِ الْأَصُولِ
فَبِفَضْلِي انْتَفَعْتُ لَا بِفُضُولِي وَبِقَوْلِي اِرْتَفَعْتُ لَا بِقُبُولِي
ثُمَّ قَالَ : تَعْسًا لِمَنْ جَذَبَ الْأَدَبَ ، وَطُوبَى لِمَنْ جَذَّ فِيهِ وَدَّأَبَ ،
ثُمَّ وَدَّعَنِي وَذَهَبَ ، وَأَوْدَعَنِي اللَّهَبَ .

* * *

قوله : مقدم الخائن : كناية عن القرب ، كما أن مَزَجَرَ السَّكَبِ كناية عن
الهمد . سهوب : عطايا ، وأصلها الكنوز والمعادن . نَيْلُهُ : ماله الموهوب ، وفي
كتاب العَيْنِ : أظلت المعروف ونزلته ونزلته واسم مانهب النِّوَالِ وَالْخَيْلِ . أَذْنُ : أهدم .
طول ذيله : كثرة ماله . قصر ليله : يريد قلة همه ، لأنَّ المهموم لا ينام فهو طول ليله ،
ووصف الليل بالطول والقصر ، وله باب مشهور في كتب الأدب تركنا ذكره
لشهرته وكثرته ، وعلمته راجعة لما ذُكِرَ من أن لَيْلَ السُّرُورِ قَصِيرٌ ، وَلَيْلُ
الْهَمِّ طَوِيلٌ .

[مما قبل في طول الاول]

وحدث إسحاق الموصلي قال : دخلت على الرهيد وهو مُسْتَلْقٍ عَلَى قَفَاهُ .
وهو يقول : أحسن والله فتي قریش وظريفها وشاعرها ، قلت : فبِمَ ذاك يا أحمق
المؤمنين ؟ قال في قوله :

لا أسأل الله تغييراً لما فعلتُ نامت وقد أمهرت عيني عيناها
فالليل أطولُ شيء حين أفقدها والليل أقصر شيء حين ألقاها

ثم قال : أنتعرفه ؟ قلت بصوت ضعيف : لا ، قال : بحق عليك ؟ قلت : نعم
هو الوليد بن يزيد ، فقال استر ماسمته مني ، وإنه ليستحق أكثر مما وصفته به^(١)

ولبعضهم وأجاد :

إن الليالي الأنام مطيبةٌ تطوى وتُنشر بينها الأعمارُ
فقصارهنَّ مع الموم طويلةٌ وطواهنَّ مع المرورِ قصارُ
وأنشد الفنجديهمى للمطراي :

أخوالموى يستطيلُ الليلَ من ممرٍ والليل في طوله جارٍ على قدَرٍ
ليلُ الموى سفةٌ في المجر مدتهُ لسكته سنة في الوصل من قصرٍ
وأنشد السَّلامى رحمه الله :

إبلى وليلى سواه في اختلافهما قد صيراني جوماً في الموى مثلاً^(٢)
يجود بالطول ليلى كلما بنجات بالطول ليلى وإن جادت به بخلاً

وقال ابن أبي دبال :

بطولُ اليوم لا ألقاك فيه وحولٌ نلتني فيه قصيرُ
وتبَّه بشار ، فقال وأحسن :

(١) الخبر والشعر في شرح المختار من شعر بشار ٢١ ، والشعر أيضاً في زهر الآداب ٧٤٩

لا أَظْلَمَ اللَّيْلَ وَلَا أَدْعَى أَنْ نَجُومُ اللَّيْلِ لَيْسَتْ تَفُورُ^(١)
 لَيْلِي كَمَا شَاءَتْ فَإِنْ لَمْ تَزُرْ طَال وَإِنْ زَارَتْ فَلَيْلِي قَصِيرُ
 نَصْرَفَ اللَّيْلَ عَلَى حَكْمِهَا فَهُوَ عَلَى مَا صَرَّفَتْهُ يَدُورُ

وزاد ابن العريف الزاهد على هذا المعنى ، فقال وأحسن :

لَسْتُ أَدْرِي أَطَالَ لَيْلِي أَمْ لَا كَيْفَ يَدْرِي بِذَاكَ مَنْ يَتَقَلَّى
 لَوْ تَفَرَّغْتَ لَأَسْتَطَاعَةَ لَيْلِي وَلَوْ عَنِيَ النُّجُومُ كُنْتُ نُجُومًا
 إِنْ لَمْ أَشْقِيقَنَّ عَنْ قَصْرِ اللَّيْلِ لَوْ عَنْ طَوْلِهِ مِنَ الْهَمِّ شُقُومًا

قوله : ردن ، أى كم . جذلان : مسرور . حاذباً حذوه ، أى متبعا له
 جامعاً لقدمى موضع قدمه ، فيتنسج فيه ، فهقال : حذوت حذوه ، أى قملت مثل
 فله ، وأصله فى حَذُو النمل بالنمل ، وقد تقدم .

قافيا : متبعا . فَصَّلَ : زال وخرج . غابه : موضعه ، والغاب الشجر اللثف
 يتخذ الأسد فيه بيتا . مُلِيت : أطيل لك ومتعت به ، من الملاوة ، وهو الحين .
 أوليت : أعطيت . أسفر : أضاء ، ومثله تلاء ، إلا أن معناه أبلغ ، وأصل
 تلاء : ابوض ، فأشبهه بياض اللؤلؤ ، وصفاءه ، يريد أنه انبسط وجهه وحسنت
 خلقته لما دعاه . والى : كرر . خطر اختيالا : جرأ أثوابه إعجابا بنفسه . سما قدره :
 ارتفعت منزلته . طيب الأصول : شرف الجدود . الفضول : الحقيق والدخول
 فيما لا يعنى . والقُيُول : مَنْ دُونَ الْمَلِكِ ، واحدم قَبِيل ، وأراد بهم الأجداد
 الأشراف ، وطابق بينه الحماقة والفضول ، وبين طيب الأصول والقبول ، وسلخه
 من قول المتنبي :

(١) لسبب القائل في الأمالي ١ : ١٠٠ هذا الشعر لعلى بن بسام وكذلك فزهر الآداب ٨٤٩
 والنويزى ١ : ١٣٥ ، وشار الأزهري ٢٣ ، وديوان الماتى ١ : ٣٤٩

ما بقومي شرفتُ بل شرفوا بي وبنفسي ارتفعتُ لا يمجّدودي^(١)
أشار إلى نسبه من ملوك كنده .
قال آخر :

أيها الفاخر جهلاً بالحسب إنما للناس لأثم ولأب
إنما النخس بمقل راجع وبأخلاق حسان وأدب
ذاك من قد فاخر الناس به فاق من فاخر منهم وغلب
وقال الحكيم بن قنبر :

لاخير فبين له أصل بلا أدب حتى يكون على مانابه حدباً
كم من حبيب أخى عى وطمطمه فديم هي القوم معروف إذا انتسباً
في بيت مكرمة أبأوه نجب كانوا الرءوس فأضحى بهم ذنباً
وقد تقدمت نظائره .

قوله : نَمَسَا ، أى هلاكا . جذب : عاب ، وفي الحديث : «جذب ابن الأئمة
بالسمر بعد العشاء»^(٢) أى عابه ، وقال ذو الرمة .

إذا نازعتك لقول مية أو بدا لك الوجه منها أفضاً الدرع سأل به^(٣)
فمالك من خلد أسيل ومنطق رخم ومن خلق تمل جاد به^(٤)
قوله : دأب ، أى دام عليه . أودعى : ضمنى ، وجعله فى قلبى . ألّهب :
بجّر النار .

ومما يمتلئ بما قدمناه من الشعر قول جعظلة .

(١) ديوانه ١ : ٣٧٢ . (٢) النهاية لابن الأثير ، وقال : «أى ذمه وعابه»

(٣) ديوانه ٤٢

(٤) أسيل : سهل . رخم : فيه لينة . جاد به : عاتبه .

أرى الأعياد تتركى وتمغى وأوشك أنها تبقى وأمضى
 علامة ذلك شيب قد علاني وضعي عند إرامي ونفسي
 وما كذب الذي قد قال قبل إذا مامر يوم مر بعضي
 أرى الأيام قد ختمت كتابي وأحسبها مستبعدة بفضي

وعلى قوله : « إذا مامر يوم مر بعضي » قال بعض بني حمدان :

المسر وقت له تنام مقدر طوله وعرضه
 فكأما مر منه يوم فأنسا مر منه بعضه

وجعظة مطبوع الشعر ، هو القائل في أبي بكر بن دريد :

فقدتُ بابن دريد كلَّ قائدة لما غدا ناك الأحجار والتراب^(١)
 وكنت أبكي لنقد الجود مجتهداً فصرت أبكي لنقد الجود والأدب
 أين هذا من قول الفرزدق يرثي سائسا ، أنشده أبو محمد في الدرة :

ليك أبا الخنساء بقل وبقلة ومخللة سوء قد أضيع شعيرها^(٢)
 وتجرفة مطروحة ومحسة ومقرعة صفراء بال سهو ويدا
 أخذه من قول زيد الخليل يرثي عبداً له :

أما تعاورتك الزماح فلا أبكيك إلا لادلو والمرس
 وقد قدّمتنا فصلا في التشاؤم بالأدب في قوله ، فقد دهاني شؤمه وأنى عليه
 هنا بقوله : تمسا لمن جادب الأدب ، وطوبى لمن جدّ فيه وأدب .

(١) تاريخ بغداد ٢ : ١٩٧

(٢) درة الفراس ٩٧ .

[فصل في مدح الأدب]

ونذكر هنا فصلاً مقتضياً في مدحه ، حسب ما شرطنا من الجرى معه على أغراضه .
قال العلامة بن أيوب كان يقال : مثلُ الأدب ذى القريحة ، مثلُ دائرة تُدار من خارجها ، فهمى في كلِّ دائرة تدار تنسع وتزداد عِظْماً ، ومثلُ الأديب غير ذى القريحة مثلُ دائرة تُدار من داخلها ، فهمى عن القبول تبلغ إلى باطنها .
أوصى بعض الحكماء بنوه ، فقال لهم : الأدب أكرمُ الجواهر طبيعةً ، وأنفسُها قهمةً ، يرفع الأحساب الوضيعة ، ويفيد الرغائب الجاهولة ، ويُبْنِي من غيره عشيرةً ، ويكثر الأنصارَ من غير رزيةً ، فالتبسوه حُلَّةً ، وتزيّنوا به حِلْيَةً ، يؤنسكم في الوحشة ، ويجمع القلوب المختلفة .

وقال شبيب بن شبة : اطلبوا الأدب فإنه مادة للعقل ، دليل على الروءة صاحب في الغربة ، مؤنن في الوحشة ، حلية في المجلس .
وقال الخليل : مَنْ لم يكتسب بالأدب مالاً اكتسب به جلالاً .

وأشد الأسمى رحمه الله :

إِنْ يَكْ لَعَقْلٌ مَوْلُودٌ فَلَسْتُ أَرَى ذَا الْعَقْلِ مَسْتُوحِشًا مِنْ حَادِثِ الْأَدَبِ
إِنِّي رَأَيْتُهُمَا كَالْمَاءِ مَخْتَلَطًا بِالتَّرْبِ نَظْمٌ عَنْهُ زَهْرَةُ الْعُشْبِ
وقال عبد الملك لبنيه : عليكم بالأدب ، فإنكم إذا اجتمعتم إليه كان لكم مالا ، وإن استغنيتم عنه كان لكم جلالاً .

ابن المقفع : إذا أكرمك الناس لئالٍ أو دنيا ، فلا يعجبك ، فإن تلك كرامة تزول بزوالها ، ولكن لمعجبك إذا أكرموك لدين أو أدب .
وقال ابن عباس رضى الله عنهما : كفاك من علم الدين أن تعرف مالا يسمع جهه ، ومن علم الأدب أن تروى الشاهد والمثل .

وقال بُزْرُجْمَهْر : ماورئت الآباء الأبناء خيراً من الأدب ، لأن به يكسبون المال ، وبالجهل يتلفونه .

وقال : حسن الخلق خير قرين ، والأدب خير ميراث ، والتقوى خير زاد . وقالوا : ثلاث لا غربة معهن . مجانبه للريب ، وحسن الأدب ، وكف الأذى . وقال بُزْرُجْمَهْر : من كثر أدبه كثر شرفه ، وإن كان قبل وضهماً ، وبعد صيته ، وإن كان خاملاً ، وسادوا إن كان غريباً ، وكثرت الحاجة إليه وإن كان فقيراً .

وقال عمر رضى الله عنه : من أفضل ما أعطيت العرب الأبيات ، يقدمها الرجل بين يدي حاجته ، فيستعطف بها الكريم ويستنزل بها اللئيم . وقالوا : الأدب أدبان . أدب الغريزة ، وهو الأصل وأدب الرواية وهو الفرع ، ولا يتفرع الشيء إلا عن أصله ، ولا ينمو الأصل إلا بانفعال المادة . وقال حبيب فأحسن :

وما السيفُ إلا زَبْرَةٌ إن نرَكَتْهُ على الخِلقة الأولى لما كان يقطعُ^(١)
وقال آخر :

ما وهب الله لأمري هِيبَةً أفضلَ من عقله ومن أدبِهِ
هُما كمال الفتي فإن فُقِدَا فقدتُهُ للحياة أحسنُ بِهِ
وقالوا : إذا كان الرجل طاهر الأدب ، طاهر المنبت ، تأدب بأدبه ، وصلاح بصلاح أهله وولده .

وقال الشاعر :

رأيت صلاح المرء يُصالحُ أهلهُ ويَعْدِيهمُ عند الفساد إذا فسَدَ
يعظُمُ في الدنيا لأجل صلاحِهِ ويَحْفَظُ بعد الموت في الأهل والولدَ

المقامة التاسعة والثلاثون وهي العمانية

حدث الحارث بن همام، قال: لهجتُ مُذِ اخضرَ إزارِي، وبَقَلْ
 عِذارِي، بَأَنْ أَجُوبَ الْبَرَارِي، عَلَى ظُهورِ الْمَهَارِي، أُنَجِدُ طُورًا،
 وَأُسَلِّكُ تَارَةً غُورًا؛ حَتَّى فَلَيْتُ الْمَعَالِمَ وَالْمَجَاهِلَ، وَبَلَوْتُ الْمَنَازِلَ
 وَالْمَنَاهِلَ، وَأَذْمَيْتُ السَّنَابِكَ وَالْمَنَاسِمَ، وَأَنْضَيْتُ السَّوَابِقَ
 وَالرَّوَاسِمَ فَلَمَّا مَلَيْتُ الْإِضْحَارَ، وَقَدْ مَنَحَ لِي أَرَبٌ بِصُحَارَ، مِلْتُ
 إِلَى اجْتِيَاذِ الثِّيَارِ، وَاجْتِيَاذِ الْفُلْكِ السِّيَّارِ، فَنَقَلْتُ إِلَيْهِ أَسَاوِدِي،
 وَامْتَصَحَبْتُ زَادِي وَمَزَاوِدِي، ثُمَّ رَكِبْتُ إِلَيْهِ رُكُوبَ حَازِرٍ نَازِرٍ،
 عَازِلٍ لِنَفْسِهِ عَازِرٍ. فَلَمَّا شَرَعْنَا فِي الْقَلَمَةِ، وَرَفَعْنَا الشَّرْعَ لِلشَّرْعَةِ،
 سَمِعْنَا مِنْ شَاطِئِ الْمَرْسَى، حِينَ دَجَا اللَّيْلُ وَأَغْشَى، هَاتِفًا يَقُولُ:
 يَا أَهْلَ ذَا الْفُلْكِ الْقَوِيمِ، الْمَرْجَى فِي الْبَحْرِ الْعَظِيمِ، بِتَقْدِيرِ الْعَزِيزِ
 الْعَلِيمِ، هَلْ أَذْلَكُمْ عَلَى تِجَارَةِ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ أَفَقَلْنَا:
 أَقْبَسْنَا نَارَكَ أَيُّهَا الدَّلِيلُ وَأَرْشَدْنَا كَمَا يُرْشِدُ الْخَلِيلُ الْخَلِيلُ.

لهجتُ، أي اشتدحتي، وأصله في التفصيل إذا رضع أمه، يقال: لمج بضرع
 أمه، إذا لومه ليرضعه. اخضرَ إزارِي، كفى به عن الشهاب، وكانت العرب
 إذا بلغ منها الغلام الحلم، وأشعر لبس الإزار ليستر عورته. بقل عذارِي: اخضرَ
 شارِي، وبدا الشعر في وجهي أخضر مثل البقل.

[مما قيل في العذار]

ونذكر هنا شيئاً مما قيل في العذار ، قال أبو نؤاس :

مِنْ أَيْنَ لَارِشَا الْأَغْنِ الْأَحْوَرِ فِي الْخَلْدِ مِثْلَ عِذَارِهِ الْمُنْعَبِرِ
قَمَرٌ كَانَ بِمَارِضِيهِ كِلَيْهِمَا مِسْكًا نَسَاقُطُ فَوْقَ وَرْدٍ أَحْمَرِ
وقال أيضاً :

قَدْ كَانَ بَدَرَ السَّمَاءِ حَسَنًا فَالْنَّاسُ فِي حُبِّهِ سَوَاءُ
فَزَادَهُ رَبُّهُ عِذَارًا نَمَّ بِهِ الْحَسَنُ وَالْبِهَاءُ
لَا تَعْجَبُوا ، رَبُّنَا قَدِيرٌ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ
وقال ابن رشيقي :

حَمَّتْ عِذَارَاهُ بِتَقْبِيلِهِ فَاسْتَلَّ مِنْ عَمَلِهِ سَيِّفَيْنِ^(١)
نَظَرَ الْحَمْرُ مِنْ خَدِّهِ دَمٌ جَرَى بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ
وقال غيره :

قَمَرٌ كَانَ قَوَامَهُ مِنْ قَدْ غَصِنِ مَسْقُ
وَكُنَّا قَلَمَ الزَّمَرِ دَفَى عَوَارِضِهِ مَشْقُ
ولأبي الفضل الدارمي :

هَذَا الَّذِي خَطَّ الْجَمَالُ بَوَجْهِهِ خَطَّيْنِ هَاجَا لَوْعَةً وَبَلَابِلًا
مَا صَحَّ عِنْدِي أَنَّ لِحَظَكَ صَارُمٌ حَتَّى رَأَيْتُ بِمَارِضِيكَ سَحَائِلًا
وقال أيضاً :

قَلْتُ لِلْمَلِيقِ عَلَى الْخَلْدَيْنِ مِنْ وَرْدٍ مُخَارَا
أَسْبَلَ الصَّدْغُ عَلَى خَدَّيْكَ مِنْ مِسْكِ عِذَارَا

أَمْ أَمَانُ الْإِهْلِ حَتَّى غَلَبَ اللَّيْلُ النَّهَارَا
قَالَ مِيدَانُ جَرَى الْحَسَنِ عَلَيْهِ . فَاسْتَدَارَا
رَكَضَتْ فِيهِ عَوْنٌ فَأَثَارَتْهُ غُبَارَا

قوله : أجوب ، أى أقطع . البرارى : الصحارى . المهارى : إبل كرام .
أنجد : أطلع ، والنجد : الارتفاع . والفور : ضده ، وقد أنجد وغار . أسلك :
أدخل وأمشى . فليت : قطعت . للعالم : المواضع المألوفة ، والمجاهل ، ضدها .
بلوت : جربت . المناهل : مواضع المياه . السدائك : أطراف الحوافر . المنام :
جمع منسىم ، وهو مقدم خف البعير . أنضيت : أهزأت . السوابق : الخليل .
الرواسم : الإبل السريعة ، ورسمت الفاقة فهى راسمة ، إذا أثرت فى الأرض
من شدة وطئها ، قال أبو عبيد رحمه الله : إذا ارتفع السير عن القمق قليلا ، فهو
التزبد ، فإذا ارتفع عن ذلك ، فهو الذميل ، ثم الرسيم . الإصعار : الدخول
للعصراء ، يريد مالت من سفر الليل . سنع : ظهر وعرض . أرب : حاجة .

[ذَكَرَ صُحَار]

صُحَار : سوق عُمان ، وهى مدينة كبيرة على ساحل البحر ، مُرْسَاهَا فرسخ
فى فرسخ ، وبلاد عُمان ثلاثون فرسخا ، مالى البحر سهول ورمال ، وما تباعد
عنه حزون وجبال ، وهى مدن ، منها مدينة عُمان وهى حصينة على الساحل ،
ومن الجانب الآخر مياه تجرى إلى المدينة ، وفيها دكا كين التُّجَار مفروشة
بالتُّحاس مكان الآجر ، وهى كثيرة الفخل والبساتين وضروب الفواكه والحنطة
والشعر والأرز وقصب السكر ، وفى الأمثال : مَنْ تَعَذَّرَ عَلَيْهِ الرِّزْقُ فَعَلَهُ بَعْمَانُ ،
وفى أحوازها مفاص اللؤلؤ . وعُمان من أحواز اليمن تُسَمَّى بهمان بن سها .
الفنجديهي : صحار اسم بلدة بكورة عُمان وهى قصبتها تَمَّا بلى الجبل .



التَّيَّار : البحر . الْفُلْكَ : السفينة . التَّيَّار : الكثير النش ، وَالْفُلْكَ يكون
واحدا وجمعا ، ويذكر ويؤنث .

أساودي : أمتاعى، لأنها تسود الأرض بظلمها ، وهى جمع أسودة ، وأسودة جمع سواد ، وسواد الأمير نَقْلُهُ . أبو عبيد : كُلَّ شخص سواد ، من متاع أو إنسان أو غيره . الحاذِر : الخائف . ناذر : حالف ، وأراد به القدى بنذر بخير إن سلمه الله تعالى من هَوْلِ البحر . عاذل وعاذر ، يريد أنه يمدل نفسه عن التفرير بدخول البحر ومقاساة أهواله ، ويعذرهما لكثرة المفاجر . شرعنا فى القلعة : أخذنا فى قلع المراسى ، ورفع القلاع وهى الشرع . قوله : أغشى ، أى أظلم هائفاً ، أى صامحاً . القويم : المستقيم . المزجى : السوق المسير ، قال الله تعالى : ﴿ رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ ﴾ أى يسيرها ، وأزجاء : إذا ساقه . أقبسنا : أعطنا أرشدنا : دلنا ، قاله الأزهري رحمه الله .



فقال : أَلَسْتُمْ حَبِيبُونَ ابْنَ سَبِيلٍ ، زَادَهُ فِي زَيْلٍ ، وَظَلُّهُ غَيْرُ ثَقِيلٍ ، وَمَا يَبْقَى سِوَى مَقِيلٍ . فأجمعنا على الجُنُوحِ إِلَيْهِ وَالْأَنْبَخلِ بِالْمَاعُونِ عَلَيْهِ .

فَلَمَّا اسْتَوَى عَلَى الْفُلْكِ ، قَالَ : أَعُوذُ بِمَالِكِ الْمَلِكِ ، مِنْ مَسَالِكِ الْهَلْكِ . ثُمَّ قَالَ : إِنَّا رَوَيْنَا فِي الْأَخْبَارِ ، الْمُنْقُولَةَ عَنْ الْأَخْبَارِ ، أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَا أَخَذَ عَلَى الْجُهَالِ أَنْ يَتَعَلَّمُوا ، حَتَّى أَخَذَ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَنْ يُعَلَّمُوا ، وَإِنْ مَرَى لَعُودَةً ، عَنْ الْأَنْبِيَاءِ مَاخُودَةً ، وَعِنْدِي لَكُمْ نَصِيحَةٌ ، بَرَاهِينُهَا صَحِيحَةٌ ، وَمَا وَسَعَنِي الْكِتَابُ ، وَلَا مِنْ خِيْبِي

الْحَرَمَانِ فَتَدَبَّرُوا الْقَــوْلَ وَتَفَهَّمُوا ، وَاعْمَلُوا بِمَا تُعَلَّمُونَ
وَعَلَّمُوا .

ثمَّ صَاحَ صَنِيعَةَ الْمَبَاهِي ، وَقَالَ : أَتَذَرُونَ مَا هِيَ اِلهِي وَاللهِ
حِرْزُ السَّفَرِ ، عِنْدَ مَسِيرِهِمْ فِي الْبَحْرِ ، وَالْجَنَّةُ مِنَ النَّعْمِ ، إِذَا جَاشَ
مَوْجُ الْيَمِّ ، وَبِهَا اسْتَعَصَمَ نُوحٌ مِنَ الطُّوفَانِ ، وَنَجَّى وَمَنْ مَعَهُ مِنَ
الْحَيَوَانِ ؛ عَلَى مَا صَدَّعَتْ بِهِ آيُ الْقُرْآنِ . ثُمَّ قَرَأَ بَعْدَ أُسَاطِيرِ
تِلَاوَاهَا ، وَزَخَارِفِ جَلَالِهَا ، وَقَالَ : اِزْكِبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا
وَمُرْسَاهَا . ثُمَّ تَنَفَّسَ تَنَفُّسَ الْمُتَغَرِّمِينَ ، أَوْ عِبَادِ اللهِ الْمَكْرَمِينَ .

وَقَالَ : أَمَّا أَنَا فَقَدْ قُتِلْتُ فِيكُمْ مَقَامَ الْمُبْلَغِينَ ، وَنَصَحْتُ لَكُمْ
نُصْحَ الْمُبَالِغِينَ ، وَسَلَكْتُ بِكُمْ حَجَّةَ الرَّاشِدِينَ ، فَاشْهَدِ اللَّهُمَّ
وَأَنْتَ خَيْرُ الشَّاهِدِينَ .



ابن سبيل : هو المسافر الذي انقطع به ، وهو يريد الرجوع إلى بلده ،
ولا يجد ما يتبلَّغ به ، فله سهم في الصدقات . زَبِيل : قُفَّة من جلود ، وألغز به
بعضهم فقال :

وَذِي أُذُنَيْنِ لَا يَتَنَاتَى قُوْنَا وَجُوفٍ لِلْحَوَائِجِ وَاحْتِمَالِ
يَكْتَلِفُ شَغْلَ أَهْلِ الْبَيْتِ طُرًّا وَتُحْمَلُ فِيهِ أَقْوَاتُ الْعِيَالِ
نُسِيرُهُ إِلَيْهِ فِي الْأَسْوَاقِ سِرًّا فَلَا يُفْشِيهِ إِلَّا فِي الرَّحَالِ
ظَلَهُ غَيْرَ ثَقِيلٍ ، أَيْ هُوَ خَفِيفُ الرُّوحِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ مَعْنَى اسْتِمْتَالِ ظَلَهُ فِي

الثانية والعشرين ، ويريد بظله شخصه ، كما يسمى الشخص سواداً ، لأنه يسود الأرض بظله .

قال زياد بن عبد الله : قيل للشافعي رضي الله عنه : هل تمرض الروح ؟ قال : نعم من ظل الثقلاء ، قال : فررت به يوماً وهو بين ثقيلين ، فقلت كيف الروح ؟ قال : في النزاع .

وقال الميثم بن عدي : انظر إلى الثقل حُمى الروح . مقبول . موضع جلوس في القائلة . الجنوح : الميل ، والماعون اسم للمطر . وأنشد أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه :

يَجِّ صَبِيرُهُ الْمَاعُونُ نَجًّا إِذَا نَسَمَ مِنْ الْهَيْفِ اعْتَرَاهُ
وَالْمَاعُونُ الزَّكَاةُ ، قَالَ التَّزَامِي :

قَوْمٌ عَلَى الْإِسْلَامِ لَمَّا يَمْنَعُوا مَاعُونَهُمْ وَبَضَعُوا التَّهْلِيلَا

مسالك : طرق ابن عباس رضي الله عنهما ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا في السفن أن يقولوا : بسم الله الملك ، ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَتَّى قَدَرَهُ ﴾ ، الآية ﴿ بسم الله تجزأها ومزساها إن ربي لغفور رحيم ﴾ .

وقوله : إن الله تعالى ما أخذ على الجمل - ال أن يتعلموا حتى أخذ على العلماء أن يعلموا ، قيل : معنى أخذ : أوجب ، وأراد قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ وَلَا يَكْفُرُونَ ﴾ أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما آتى الله تعالى عالماً علماً إلا أخذ عليه الميثاق ألا يكتمه » . قال الحسن بن عمر : أنبت الزهرى بعد أن ترك الحديث ، وألقيته على بابي ، فقلت : إنما أن تحدثني وإما

أن أحدثك ، قال : حَدَّثَنِي ، قُلْتُ : حَدَّثَنِي الْحَكَمُ بْنُ عَمِينَةَ ، مِنْ يَحْيَى بْنِ
الْجَزَارِ ، قَالَ : سَمِعْتُ هَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ : مَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى
الْجَهَالِ أَنْ يَتَعَلَّمُوا حَتَّى أَخَذَ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَنْ يَتَعَلَّمُوا ، قَالَ : لَخَدَّثَنِي بِأَرْبَعِينَ حَدِيثًا .
قوله : عُرُودٌ ، أى ما يمتدّ به الإنسان من الحِرْز وشبهه . براهنها : حُجَجُهَا .
خِيَمِي : طَبِي . الْحِرْمَان : منع الفوائد . الْمُبَاكِي : المفاخر الكثير الإعجاب .
السَّفَر : المسافرين . الْجَفَّة ، السَّيْر . جَاش : تحرك وهاج . الْهَم : البحر . اسْقَمَصَم :
امنع . الطوفان : الماء العام . صَدَعَتْ : نطقت . آى : جمع آية ، وتقدمت .
الأساطير ، هى الأباطيل . زخارف : أشياء مُزَيَّنَةٌ . المَفرَمين : المذنبين ، والمُفرَم
المولع بالحب وغيره . الراشدِين : الهادين للطريق .



قال الحارث بن همام : فَأَعْجَبَنَا بَيَانُهُ الْبَادِي الْطَّلَاوَةُ ، وَعَجِبْتُ لَهُ
أَصْوَاتُنَا بِالتَّلَاوَةِ ، وَأَنْسَ قَلْبِي مِنْ جَرَمِهِ ، مَعْرِفَةَ عَيْنِ شَمْسِهِ ،
فَقُلْتُ لَهُ : بِالَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ الْلَّحْيَ ؛ أَلَسْتَ السَّرُوجِي ؟ فَقَالَ لِي :
بلى ، وَهَلْ يَخُونَنِي ابْنُ جَلَا ؟ فَأَحْذَتْ حِينَئِذٍ السَّفَرُ ، وَسَفَرْتُ عَنْ
نَفْسِي إِذْ سَفَر ، وَلَمْ تَزَلْ نَسِيرُ وَالْبَحْرُ رَهْوٌ ، وَالْجَوُّ صَخْوٌ ،
وَالْعَيْشُ صَفْوٌ ، وَالزَّمَانُ لَهْوٌ ، وَأَنَا أَجِدُ لِلْقِيَانَةِ ، وَجَدَ الْمُنْزَى بِعَقْيَانِهِ ،
وَأَفْرَحُ بِمَنَاجَاتِهِ ، فَرَحَ الْغَرِيقِ بِمَنَاجَاتِهِ ، إِلَى أَنْ عَصَفَتْ الْجُنُوبُ ،
وَعَصَفَتْ الْخُتُوبُ ، وَنَسِيَ السَّيْرُ مَا كَانَ . وَجَاءَهُمُ الْوُجُحُ مِنْ كُلِّ
مَكَانٍ ؛ فَمِلْنَا لِهَذَا الْحَدَثِ السَّائِرِ ، إِلَى إِحْدَى الْجَزَائِرِ ؛ لِرَّيْحٍ وَنَسْتَرِيحَ
رَيْثَمَا تَوَاتَى الرِّيحُ .

فَمَا دَىٰ عَيْتَاصُ الْمَسِيرِ ؛ حَتَّى نَفَسَ الزَّادُ غَيْرَ الْبَسِيرِ ؛ فَقَالَ لِي
أَبُو زَيْدٍ : إِنَّهُ لَنْ يُحَرِّزَ جَنَى الْعُودِ بِالْقَعُودِ ، فَهَلْ لَكَ فِي اسْتِنَارَةِ
السُّمُودِ بِالصُّمُودِ ؟ فَقُلْتُ لَهُ : إِنِّي لَا تَبْعُ لَكَ مِنْ ظِلِّكَ ، وَأَطْوَعُ مِنْ
تَعْلِكَ .

* * *

الطَّلَاوة : الحسن والقبول . عُجَّتْ : ارتفعت . آتَس : أحسّ وأدرك .
جرسه : صوته الخفيّ . عين شمسه : حقيقة نفسه ومعرفة اللهجي : العظيم الجبة
وهي مظلم الماء .

[ذكر الطوفان]

ونذكر هنا بعض ما حدث من طوفان نوح عليه السلام :

ذكر أهل الأخبار أن نوحاً عليه السلام أول نبى بُعث ، وأن قومه
كانوا أهل أوثان ، يعبدون من دون الله ، فُبعث لهم نوح فدهام إلى الله ،
فكانوا يبطشون به ، ويستخفون به ، وهو يقول : اللهم اغفر لقومي فإنهم
لا يعلمون . فلما كثر استخفافهم به ، قال : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ
الْكَاذِبِينَ دِيَّارًا ﴾ ، فأوحى الله إليه أن اصنع الفلك لإنهم مفرقون . فأقبل
على قطع الخشب وضرب الحديد وتهيئة العود بالقَار وغيره ، فصنعه من خشب
التساج ، وجعل طوله ثمانين ذراعاً ومرضه خمسين ذراعاً ، وطوله في السماء ثلاثين
ذراعاً . وكان قومه في خلال صنعة السفينة يأثرونه أفواجا ، يستخفون عقله ،
ويعمدون عقله من جنونه ، ويقولون له : حملت سفينة في البر ، فيقول لهم : سوف
تطمون . فلما اطمأنوا في الفلك فار التَّنُور من الهند ، وقال الشعبي رحمه الله

عن الكوفة . وفتحت أبواب السماء بماء منهمر ، وتفجرت الأرض ميوناً ،
فكان بين إرسال الماء وارتفاعه أربعون يوماً ، فلما بلغ الماء إليهم أووا إلى
الجبال ، فكانت الجبال تستقبلهم بالحجارة ، وتفرقهم في الماء ، فانوا غرق ،
وارفع الأفلك ، وجعل يجرى في موج كالجبال ، ودار الأرض كلها في ستة أشهر
ومشر ليال . ويقال : إنهم ركبوها لشر ليال مَضِينَ من رجب ، ونزلوا يوم
عاشوراء من الحرم ، فلذلك صام الناس يوم عاشوراء ، وأنت السفينة الحرم
فدارت به أسبوعاً ، ولم يبق شيء من الخلائق ولا من الشجر إلا هلك ، إلا نوح
ومن معه ، وإلا عوج بن عنق - فما يزعم أهل الكتاب - وانتهت آخرها إلى
الجودي ، وهو جبل بالحصنين من أرض الموصل فنزلت عليه .

* * *

قوله : ابن جلا ، أى المشهور المعروف ، يقال للرجل إذا كان على الشرف
واضح الأمر لا يخفى مكانه : هو ابن جلا ، أى هو الذى الأمود بنفسه ،
وأوضحها ، قال سحيم بن وثيل :

أنا ابنُ جَلَا وطَلَّاعُ الشَّيَا متى أضعِ العمامةَ تعرفُوني

وكان صاحب غارات ، يطلع فيها من ثنية الجبل على قومه ؛ قال ثعلب :
المامة تلبس في الحرب وتوضع في السلم ؛ قال ابن الأعرابي : يقال للشيء : ابن جلا ،
قال سيبويه رحمه الله : جَلَا فعل ماض ، كأنه يعنى الذى جلا ، أى أوضح وكشف .

قوله : أهدت ، أى وجدته محمودا . سَفَرْتُ : كشفت وأزلت المم .
سَفَرٌ : هَرَقْنَا بنفسه ، ويقال : سَفَرْتُ عن نفسى كما سَفَر ، أى عرفته شخصى
كما عرفنى هو شخصه ونفسه . رهو : ساكن ، ويقال : فعل ذلك رَهْوًا ، أى
ساكنًا من غير تشدد ، قال تعالى : ﴿ رَاثِرُكَ الْبَحْرَ رَهْوًا ﴾ . والرهو عند العرب
الساكن ، يقال : جاءت الريح رَهْوًا ، أى ساكنة ، ويجوز أن يكون رهوًا من

نفت موسى عليه السلام، أى اتركه على هَيْئَتِكَ ، أو يكون من نفت البحر ، أى دَعَه باموسى ساكنًا واقفًا ماؤه واعبره . الجوّ : ناحية . للسماء محو : نقيّ من السحاب المثرى : الغنى . والعقيقان : الذهب يثبت نباتًا . عصف الرّيح : اشتدّت . الجنوب : الرّيح القبليّة . عسفت : جاءت من كلّ جانب ، والعسف ركوب الأسر على جهالة . والخبوب ، بخاء معجمة ، جمع خِب ، وهى الرواية الصحيحة عن ابن جرّور وغيره ، وهو هَيْج البحر واضطراب الماء ، وهو الذى صحّحه الفجديهي . كأن أبا عمرو القسطلّى شاهدَ هذه الحالة من هول البحر فوصفه بقوله ^(١) :

إليك شعثنا الفلّك تهوى كأنها	وقد ذعرت من مغرب الشمس غربانُ
على لُجَجٍ خضريّ إذا هبت العُصْبَا	ترامى بنا فيها تَبِيرٌ وشُتْلَانُ
موائِلَ يرمى في ذراها موائِلُ ^(٢)	كما عُبِدَتْ في الجاهلية أوثانُ
تقاتل موج البحر والليم والدجى ^(٣)	تموجُ بنا فيها هبونٌ وآذانُ
ألا هل إلى الدنيا معادٌ وهل لنا	سوى البحر قبراُ وسوى الماء أكلانُ

وقال آخر :

وجمّاء في الثرى مخضلة	لا زورديّة ما فيها صفا
غَطَّتِ ^(٤) الأرض فلم تترك لنا	من فضاء الأرض إلا طرّفا
فكانت الأرض فيها مائِمٌ	غاب إلا هامة أو ككتنا

(١) هو ابن دراج القسطلّى ، واسمه : أحمد بن محمد بن العباس بن أحمد بن سليمان بن محمد ابن دراج ، وقد كنيته خلاف ، ذكره الدكتور محمود طي مكي حواشي ديوانه ص ٢١ ، والأبيات في ديوانه ٨٧ ، ٨٨ .

(٢) الديوان :

* موائِل ترمى في ذراها موائِلًا *

(٣) الديوان : « يقاتل موج البحر واليم والدجى » .

(٤) ط : « غصت » .

وَكَانَ الْمَوْجُ فِيهَا مَسْكَرٌ كَبِدُوا لَأَمَّا وَغَالُوا حُجُفًا
خَافِقٌ رَاجِفَةٌ أَحْشَاؤُهُ كَحَشَا الْمَجُورِ يَهْوِ أَصْفَا

قوله : نسي السفر ما كان ، أي نسوا ما كان من طيب العيش بصفو الصحو .
قوله : الحدث الثائر ، أي الأمر الطارئ . لنريح ، أي لنريح أنفسنا من تعب
المول والخوف ، وأراح الرجل : استراح وأراح غيره ، وأراح الريح وأروحها
واسترّوحها : وجدها . ريث : قدر ، والريث اللبث والبطء . تواتي : توافق .
اعقباص : التواء وتصب . نفد : فنى . استنارة : استخراج ، يقول : هل
لك في إدراك الحظ بالخروج من السفينة إلى البرية .

• • •

فَنَهَدْنَا إِلَى الْجَزِيرَةِ ، عَلَى ضَعْفٍ مِنَ الْمَرِيرَةِ ؛ لَنَرُكُضَ فِي امْتِرَاءِ
الْمِيرَةِ ؛ وَكِلَانَا لَا يَمْلِكُ فَتِيلًا ، وَلَا يَهْتَدِي فِيهَا سَبِيلًا ؛ فَأَقْبَلْنَا
نَجُوسَ خِلَالَهَا ، وَتَفْقِيًا ظِلَالَهَا ، حَتَّى أَفْضَيْنَا إِلَى قَصْرِ مَشِيدٍ ، لَهُ
بَابٌ مِنْ حَدِيدٍ ، وَدُونُهُ زُمَرَةٌ مِنْ عَبِيدٍ . فَنَاسَمْنَاهُمْ لِنَسْخِذَهُمْ سُلَامًا
إِلَى الْإِرْتِقَاءِ ، وَأَرْشِيَةِ الْإِسْتِقَاءِ ؛ فَأَلْفَيْنَا كُلًّا مِنْهُمْ كَتِيبًا حَسِيرًا ؛
حَتَّى خِلْنَاهُ كَسِيرًا أَوْ أُسِيرًا . فَقُلْنَا : أَيُّهَا الْعِلْمَةُ ، مَا هَذِهِ النُّعْمَةُ ؟ فَلَمْ
يُجِيبُوا النَّدَاءَ ، وَلَا فَأَهْوُوا بَيَضَاءَ وَلَا سَوْدَاءَ ، فَلَمَّا رَأَيْنَا نَارَهُمْ نَارَ
الْجَلْبَابِ ، وَخُبْرَهُمْ كَسْرَابِ السَّبَاسِبِ ، قُلْنَا : شَاهَتِ الْوُجُوهُ ، وَوَقَّحَ
الْأَلْسُنُ وَمَنْ يَرْجُوهُ فَايْتَدَرَ خَادِمٌ قَدْ عَلَّمَتْهُ كِبَرَةٌ ، وَعَرَّتْهُ عِبَرَةٌ ،
وَقَالَ : يَا قَوْمَ ، لَا تَوْسِعُونَا سَبًّا ، وَلَا تَوْجِعُونَا عَتْبًا ؛ فَإِنَا إِنِّي حَزَنٌ
شَامِلٌ ، وَشُغْلٌ عَنِ الْحَدِيثِ شَاغِلٌ ، فَقَالَ لَهُ أَبُو زَيْدٍ : نَفْسُ خِنَاقٍ

الْبَثِّ ، وَإِنِّثِ إِن قَدَرْتَ عَلَى النَّفْثِ ، فَإِنَّكَ سَتَجِدُ مِنِّي هَرَّافًا
كَافِيًا ، وَوَصَافًا شَافِيًا .

* * *

هَذَا : نَقْدَمْنَا . الْمِرِيرَةِ : قُوَّةُ النَّفْسِ . تَرْكُضُ ، بَفَتْحِ أَوَّلِهَا ، وَأَصْلُ
التَّرْكَضِ ، تَحْرِيكُ الْقَرَائِمِ ، وَمِنْهُ ﴿ وَارْكَضْ بِرِجْلِكَ ﴾ ، وَلِهَذَا قِيلَ لِلْجَنِينِ إِذَا
اضْطَرَبَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ : قَدْ ارْتَكَضَ ، وَمِنْ مُشْكَلِ آيَاتِ الْمَعَانِي :

قَدْ سَبَقَ الْحَلِيبَةُ وَهُوَ رَاكِضٌ فَكَيْفَ لَا يَسْبِقُ وَهُوَ رَابِضٌ

الْمُرَادُ : أَنَّ أُمَّهُ سَبَقَتْ الْجِيَادَ وَهِيَ حَامِلٌ بِهِ ، نَاضَفَ السَّبْقَ إِلَيْهِ لِاتِّصَالِهِ
بِهَا ، وَأَرَادَ بِرَاكِضٍ تَحْرِيكُهُ قَوَائِمَهُ فِي مَقَرِّهِ ، وَالتَّرْكَضُ يَسْتَعْمَلُ فِي الْخَيْلِ وَغَيْرِهَا
فَيُقَالُ : رَكَضَ الْبَعِيرُ بِرَجْلِهِ ، وَالطَّائِرُ بِجَنَاحِهِ .

قَوْلُهُ : امْتَرَأْ ، أَيْ اسْتَخْرَاجَ . الْمِيرَةِ : جَلْبُ الرِّزْقِ ، وَمَارُ الرَّجُلِ عَلَى
أَمَلِهِ مَيْرًا : جَلْبُ لَهُمُ الْقُوَّةِ .

نَجُوسٌ خِلَافُهَا ؛ نَطُوفٌ فِي طَرَفِهَا ، قَالَ الْإِيثُ وَابْنُ سَيِّدٍ : الْجَوْسُ وَالْجَوْسَانُ :
الْتِدَادُ فِي خِلَالِ الدَّوَرِ وَالْبَيُوتِ ، وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ وَالْأَزْهَرِيُّ وَأَبُو هَبِيدَةَ :
جَاسُوا الْمَوْضِعَ : وَطَنُوهُ ، وَفُلَانٌ يَجُوسُ بَنِي فُلَانٍ ، أَيْ يَطْوِمُ يَطْلُبُ فِيهِمْ .
وَقَالَ الْقَطْرِيُّ وَالنَّفَّاسُ وَالزَّجَّاجُ وَالنَّمَالِيُّ : ﴿ جَاسُوا ﴾ ^(٢) خِلَالَ الدِّيَارِ ، أَيْ طَافُوا
بَيْنَ بَيْتِهِمْ ، يَطْلُبُونَهُمْ وَيَطْلُبُونَهُمْ ، ذَاهِبِينَ وَجَائِئِينَ . وَالْخُلَلُ : الْفَرْجَةُ بَيْنَ
الشَّيْئَيْنِ ، وَالْجَمْعُ خِلَالٌ . كَتَبْتُ : نَسْتَعْلَمُ ، وَتَفْتِيًا بِهِ : اسْتَظَلَّ بِهِ ، وَتَفْتِيًا : تَقَلَّبَ

أفضيئنا : وصلنا . مَشِيد : مرتفع البناء ، والشَّيد : الحص . زمرة : جماعة . ناسمناهم :
 قربنا منهم ، وناسمهم : سارهم وشامهم ، وناسمت الرجل : قربت نسمةًك من نسمة ،
 وتحدثت معه سرّاً . أرشية : حبلاً . الارتقاء : الصعود . المسك : الجلد ، يريد
 أنه شديد التوجّع ، وهذا كما تقول : لقيت فلاناً في ثوب نمر ، أو في جلد أسد ،
 أي لقيته بادي الشر ، قال الشاعر :

فطوراً ترانا في مُسوكٍ جيكادنا وطوراً ترانا في مُسوكِ الثعالبِ

قال البكري : الخيل توصف بالإقدام والثعالب بالزوغان ، فيريد أنهم
 مُقدّمون على أعدائهم يوماً ، ورائعون عنهم يوماً . وقال الأستاذ : أي أَمِروا
 فسكّرتنوا بجلود خيلهم المعقورة وفي جلود الثعالب ، كناية عن خُبث الأسير .
 طاهوا : نطقوا . سوداء : كلمة رديئة . نار الحبّاب : ما تطاير من الشرر في
 الهواء بتصادم حجرين أو بضرب حافر في حجر ، وذلك نارٌ لامعة فيها ، وقيل :
 الحبّاب رجل يحوّل كان يُوقد ناراً ضعيفة لثلاثية قصد ، فإن أحسن إنسان أطفأها
 لثلاثية يقتبس أحد من ناره ، وقيل : نار الحبّاب نار سراج ، ولهذه كان إذا
 جاء أحد يوقد منه أطفأها ، وقال مهدي الصمد بن المذل في أخيه :

ليت لي منك يا أخى جارةً من محاربٍ
 نارها كل شتوةٍ مثل نار الحبّابِ

يريد جارة القطامي التي يقول فيها :

إلى حيزبون تُوَقِد النارَ بمد ما تَلَفَّتِ الظلماء من كل جانبٍ

فلما تنازعنا الحديث سألناها عن العي قالت: معشر من محارب
 ألا إنما نيران قومي إذا شقوا طارق ليل مثل نار الحباب
 وقيل: الحباب ذباب يطير بالليل، له شعاع كالسراج. قوله: خبرهم،
 الخبر بضم الخاء، مصدر خبرت أخبر إذا امتحنت، والسباسب والبسابس:
 الأرض المستوية، واحدها سبَسَب وبَسَبَس. شأَت الوجوه: قُبِعت الوجوه.
 وفي الحديث: «أخذ عليه الصلاة والسلام قبضة من تراب يوم بدر فعثاها في
 وجوه المشركين، وقال: شأَت الوجوه»، ويقال شأَ وجه الرجل يشوهه شَوْهًا
 وشَوْهَةً، قبح، ووجه مشوّه، أى متبجح، ورجل أشوه وامرأة شوهاء. واللثع
 اللثيم، وقد لثع لكما فهو ألكع، ولُكِعَ ولُكِعَ، إذا لزم وتحق وامرأة لكاع
 ولكيمة. قوله: حلقه كَبْرَة، أى أسن وكبر. وعرته عَبرَة، أى غشيقته ذمعة.
 والنخادم: الغمي، موصوف بطول العمر وسُرعة العبث، قال الهيثم بن عدي:
 في الخصى عشر خصال لا يجتمع في غيره: التهمة، والنميمة، والشره، وسُرعة
 الدمعة، وطول العمر، وكبر القدم، والتبري من الصلح، والإجارة في الصغر،
 والقيادة في الكبر، والاسترخاء في المقعدة وسعة الحجر. لا توسعون سبًا، أى
 لا تكثروا شقنا عتبا لوما وموجدة، وعقت عليه أعقب عتبا وعتابا، وأعقبه:
 أرضاه، والعُتْبَى الرضا، واستعقبته طلبت إليه أن يعقب، وقال اللبانة:

* وإن تك ذا عتبي فتلك يُعقب *^(١)

وقال حبيب:

سَرَتْ تحمل العقبى إلى القتب والرضا إلى السخط والعذر الجليل إلى الحقد^(٢)

(١) ديوانه ١٤، وصدرة:

* فإن ألك مظلوما فعبد ظلمته *

(٢) ديوانه ٢١٥

الخلق : العجل يُخَفِّق به كالعقال لجعل يُعَقِّل به . نفس : روح وحل
عن المنوق . والبث : العزن . انث : تكلم ، وأصله ابصق ، عرافا : كثير
المعرفة ، والعراف : العالم بالشيء ، وأصله الكاهن .

فقال له : اعلم أن رب هذا القصر هو قطب هذه البقعة ،
وشاه هذه الرقعة ؛ إلا أنه لم يخل من كمد ، لخلوه من ولد ؛ ولم
يزل يستكرم المغارس ، ويتخير من المفارش التفائس ؛ إلى أن
بشر بحمل عقيلة ، وأذنت رقلته بفسيلة ، فنذرت له النذور ،
وأخصبت الأيام والشهور . ولما حان التاج ، وصيغ الطوق والتاج .
هسر نحاض الوضع ، حتى خيف على الأصل والفرع ؛ فما فينا من
يعرف قراراً ، ولا ينظم النوم إلا غراراً . ثم أجش بالبكاء
وأهول ، وردد الاسترجاع وطول . فقال له أبو زيد : اسكن
يا هذا واستبشر ، وأبشر بالفرج وبشر ؛ فعندى عزيزة الطلق ،
التي انتشر سمعها في الخلق . فتبادرت الغلظة إلى مولاهم ، متباشرين
بانكشاف بلوائهم ، فلم يكن إلا كلاً ولا ، حتى برز من هلم بنا
إليه . فلما دخلنا عليه ، ومثلنا بين يديه ، قال أبو زيد : إيهيك
منالك ، إن صدق مقالك ، ولم يقل فالك .

تُطَبُّ هذه البقعة ، أى رئيس هذه الأرض ، وقطب القوم : سيدهم الذمى بلجئون إليه .

وشاه هذه الرقعة : مَلِك هذه الجزيرة ، وأراد بالرقعة سُفْرة الشطرنج ، وشاهها : مَلِك جيشها الذى يتصرف فى بيوتها كيف شاء ، وقد أحسن مَنْ قال فيها :

أَرْضٌ مَرَبَعَةٌ سَحَرَاءُ مِنْ أَدَمَ مَا بَيْنَ خِلَائِنِ مَوْصَوَيْنِ بِالكَرَمِ
تَذَاكَرَّا الْحَرْبَ فَاحْتَالَ لَهَا شَبَّهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَعِيَا فِيهَا لِسْفَكِ دِمِ
هَذَا يُغَيِّرُ عَلَى هَذَا وَذَاكَ عَلَى هَذَا يُغَيِّرُ وَعَيْنُ الْحَرْبِ لَمْ تَنْمِ
فَانْظُرْ إِلَى فِطَانٍ جَاشَتْ بِمَعْرِفَةٍ فِي عَسْكَرِينَ بَلَا طَبِيلٍ وَلَا هَلَمِ

قوله : كَمَد ، أى حزن . المغارس والمفارش : النساء ، كأنَّ النُّطْفَ تَفْرَسُ فِهِنَّ فيكثر الولد منها الفئاس : الكرائم . عَقِيلَةٌ : خَيْرَةٌ ، والعقيلة دُرَّةُ الْبَحْرِ ، وبه سُمِّيَتْ الْمَرْأَةُ لِكْرَمِهَا وَشَرَفِهَا ، وكل كريمة من النساء والإبل والخيول فهى عَقِيلَةٌ . الرَّقْلَةُ : النَّخْلَةُ الطَّوِيلَةُ . الْفَسِيلَةُ : نُخَيْلَةٌ تَسْكُبُ فِي أَصْلِ النَّخْلِ ، أَرَادَ أَنَّ الْمَرْأَةَ حَمَلَتْ بَوْلَدٍ . نَذَرْتُ النَّذُورَ ، أى وَعَدْتُ بِفِعْلِ خَيْرٍ إِنْ سَلِمَ الْحَمْلُ . أَحْصَيْتُ : حُدِدَتْ ، وعلم ما بقى منها . حَانَ الْفَتَاحُ : قَرُبَ وَقْتُ الْوَلَادَةِ صَبِيغٌ : صَبِيغٌ . الطَّوْقُ : الثَّوْبُ يَلْبَسُهُ الْمَوْلُودُ بِغَيْرِ جَيْبٍ ، وَلَمَّا سَبَقَ إِلَى جَذِيعةِ ابْنِ أُخْتِهِ عَمْرُو ، وَكَانَ لَهُ طَوْقٌ يَلْبَسُهُ فِي الصَّبَرِ ، فَقَالَ لَهُ : الْبِسْهُ فَلَمَّ يَسَعُهُ ، فَقَالَ : شَبَّ عَمْرُو عَنِ الطَّوْقِ ، فَذَهَبَتْ مِثْلًا ، قَالَ ابْنُ الْقَيْطَرُونَةِ ^(١) فِي الْحَكَمِ بْنِ حَزَمٍ ، وَكَفَّلَهُ ذَلِكَ ابْنُ سِرَاجٍ :

(١) ط : « القبطرية » تصحيف ، صوابه من نفع الطيب ، قال « وكان بنو القبطرية بالأندلس أشهر من نار على علم ، وقد تصرفوا فى البراعة والقلم ، ولهم الوزارة المذكورة والفضائل المذكورة » .

رأى صاحبي غمراً فكلف وصفه وحتلى من ذاك ما ليس في الطوق^(١)
 فقلت له : همرو كمر و فقال لي صدقت ولكن شب هذا عن الطوق
 عسر : صعب . مخاض : تحرك الولد عند الولادة ، وقيل : وجع الولادة .
 القرار : السكون . القرار : النوم القليل ؛ وهو من غر الطائر فرخه بفقره ، إذا
 أطعمه شيئاً بدمه ، وأخذ من قول الشاعر :

لا أذوق النوم إلا غرراً مثل حسو الطير ماء الشمار^(٢)

ولا يطعم النوم ، أى لا يذوقه ، ويقال : طعمه وتطعمه : ذاقه ، وفي المثل :
 تطعم تطعم ، أى ذق تشته . أجهش : أى تهيج بالبكاء ، والإجهاش : تغير الوجه
 عند إرادة البكاء . أعول : رفع صوته بالبكاء . الاسترجاع ، قد تقدم . الطلق :
 وجع الولادة ، سمي طلقاً على التناول للمرأة بالانطلاق بالولد . سمعها : ذكرها
 الجليل . تبادرت : تسابقت .

وجمع غلام غلّة وغلان . البلى : البلاء . كلاً ولأ ، أى كاللفظ بها ، وهى
 كناية عن قلة الألبث وسرعة الأمر ، ويضرب بلا المثل ، فيقال : أخف من
 لا على اللسان ، وأقل من لا فى اللفظ ، وقال جرير :

يكون نزول القوم فيها كلاً ولأ غشاشاً ولا يدنون رجلاً إلى رجل^(٣)

غشاشاً ، أى قليلاً . ويقال : لقيه على غشاش ، أى على عجلة ، وقال الكميت :

(١) نفع الطيب ١ : ٦٣٦ ، ثلاثه العيان ١٧٦ . قال فى النفع : « وركب أبو الحسن بن
 البطرنة إلى سوق الدواب بقرطبة ومعه أبو الحسن بن سراج فنظر إلى أبي الحسن بن حزم
 خلافاً كما فى تمامه ؛ وهو يروق كأنه زهر قارق كأنه ، فسأل أبا الحسين بن سراج أن يقول
 فأوتج عليه ؛ فثنى عنان القول إليه ، فقال « وذكر البيت .

(٢) الكامل ١ : ١٥١ - بفرح الرضى ، من أربعة أبيات نسبها إلى بعض الأعراب ،
 ولى ط « الثمار » تحريف .

(٣) ديوانه ١٦١ ، وفيه « رجلاً إلى رجل » بالهاء .

(٢٠ - شرح مقامات الحريري ج ٤)

كَلَّا وَكَذَا تَفْمِيضُهُمْ ثُمَّ هَجُّهُمْ لَدَى حِينَ أَنْ كَانُوا إِلَى النَّوْمِ أَفْقَرًا^(١)
يقول : كان نومهم في القلة والسرعة ، كقول القائل : لا وذا .

وقال الحسن^(٢) رحمه الله :

يَا عَاقِدَ الْقَلْبِ مِثِّي هَلَا تَذَكَّرْتُ خِلَا
تَرَكْتَ مِثِّي قَلِيلًا مِّنَ الْقَهْلِ أَقْلًا
يَكَادُ لَا يَتَجَزَّى أَقْلَ فِي الْفِظِّ مِّنْ لَا

وفي أبيات البديع :

وَأَرْوَعَ أَهْدَاهُ لِيَ اللَّيْلِ وَالْقَلَا وَخَسَّ نَمْسَ الْأَرْضِ لِسَكْنِ كَلَّا وَلَا

جمل قوائيم فرسه وهي الخمس نمس الأرض في المشي كلاً ولا على اللسان .
قوله : برز ، أى خرج . هلم : دعا ، وقال لنا هلمْ مَثَلْنَا : وَقَفْنَا ، ومَثَلٌ بين
يديه : انتصب قائماً . مثالك : عطاؤك . ولم يفل قالك : لم يخطئ . رأيك ، وقال
رأيه فيولة : ضَعُفَ وأخطأ .

فَامْتَحَضَرَ قَلَمًا مَبْرِيًّا ، وَزَبَدًا بِحْرِيًّا ، وَزَعْفَرَانًا قَدْ دَبَفَ ، فِي
مَاءٍ وَرْدٍ نَظِيفٍ ؛ فَمَا إِنْ رَجَعَ النَّفْسَ ، حَتَّى أَخْضَرَ مَا التَّمَسَ ، فَسَجَدَ
أَبُو زَيْدٍ وَعَفَّرَ ، وَسَبَّحَ وَاسْتَغْفَرَ ، وَأَبْعَدَ الْحَاضِرِينَ وَنَفَرَ . ثُمَّ أَخَذَ
الْقَلَمَ وَاسْتَحَفَّرَ ، وَكَتَبَ عَلَى الْزَبَدِ بِالْمُزَعَفَرِ :

(١) اللسان (لا) ، وفيه « تفيضة » .

(٢) هو الحسن بن هاني ، أبو نواس

أَيُّهَا الْجَنِينُ إِنِّي نَصِيحٌ لَكَ، وَالنُّصْحُ مِنْ شُرُوطِ الدِّينِ
 أَنْتَ مُسْتَعِصِمٌ بِكِنِّ كَنِينٍ وَقَرَارٍ مِنَ الشُّكُونِ مَكِينٍ
 مَا تَرَى فِيهِ مَا يَرُوعُكَ مِنْ أَلْفِ مَدَاجِرٍ وَلَا عَدُوٍّ مُبِينٍ
 فَتَى مَا بَرَزْتَ مِنْهُ تَحَوَّلْتَ إِلَى مَنْزِلِ الْأَذَى وَالْهُونِ
 وَتَرَأَى لَكَ الشَّقَاءَ الَّذِي تَذُقُ فِتْيَتِي لَهُ بَدَمْعٌ هَتُونٍ
 فَاسْتَدِمُّ هَيْشَكَ الرِّغِيدَ وَحَازِرُ أَنْ تَبِيعَ الْحَقُوقَ بِالْمُظُنُونِ
 وَاحْتَرِسْ مِنْ مُخَادَعِ لَكَ يَرْقِيكَ لِيُثْلِقِيكَ فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ
 وَلَعَمْرِي لَقَدْ نَصَحْتُ وَلَسَكِنْ كَمْ نَصِيحٍ مُشَبَّهِ بِظُنِينِ

* * *

وَالزَّبْدُ: حَجَرٌ مَعْرُوفٌ، وَهُوَ شَدِيدُ الْبَهَاضِ دَقِيقُ الثَّقَبِ جَدًّا، يَوْجَدُ
 حَائِمًا عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ يَصْرِفُ فِي الْأَحْكَالِ. وَقَالَتِ الْحَكَمَاءُ: مِنْ خَصَائِصِ
 الزَّبْدِ الْبَحْرِيُّ أَنَّهُ إِذَا هَاقَ عَلَى امْرَأَةٍ مَا خَضَّ سَهْلٌ عَلَيْهَا الْوَلَادَةَ، وَيَكُونُ
 فِي بَحْرِ الْبَحْرِ دَيْفٌ: خَلِيطٌ. التَّمَسُّ: طَلَبُ عَفَرٍ: جَعَلَ وَجْهَهُ عَلَى الْأَرْضِ،
 وَالْعَفَرُ التُّرَابُ. اسْتَحْفَرُ: جَدَّ وَشَمَّرَ لِلْكِتَابَةِ، وَيُقَالُ: اسْتَحْفَرُ فِي الْأَمْرِ، إِذَا
 تَحَفَّرَ فِيهِ. وَقَالَتْ جَارِيَةٌ مِنَ الْعَرَبِ:

يَا أُمِّمَا أَبْصَرَنِي رَاكِبٌ مُسْتَحْفَرٌ فِي مَسَرِّبٍ لَاجِبٍ^(١)
 حَازَلْتُ أَحْمُو التُّرْبَ فِي وَجْهِهِ عَمْدًا وَأَحْيَى حَوَازَةَ النَّائِبِ

(١) تنسب هذه الأبيات للبحرئى، وانظر الديوان وحواشيه ص ٣٠١.

فاجابتها أمها^(١):

الْحُصْنُ أَوْلَىٰ لَوْ تَأَيَّيْتَهُ مِنْ خَشْيِكَ الْتَرَبُّ عَلَى الرَّابِ
 مَسْرَبٍ : طريق لاجب بَيْنَ . الغائب : زَوْجُهَا . الحصن : العفة . تَأَيَّيْتَهُ :
 تَعَمَّدْتَهُ وَقَصَدْتَهُ . لَزُعْفَرٍ : اللداد من الزُعْفَرَانِ . الجَنِينِ : الولد في بطن أمه .
 النَّصَحُ : ضدُّ الْفُتْرِ ؛ قَالَ الْخَطَّابِيُّ : النَّصِيحَةُ كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ مَعْنَاهَا حَيَازَةُ الْحِظِّ
 لِلْمَنْصُوحِ ، وَقِيلَ : أَصْلُهَا مِنْ نَصَحَ الرَّجُلُ ثَوْبَهُ ، أَيْ خَاطَهُ ، وَالنَّصَاحُ : الْخَلِيطُ ،
 شَبَّهُوا فِعْلَ النَّاصِحِ بِالْخَلِيطِ الَّذِي يَلَامُ الْخَلَلَ وَالْفَتْوَقَ ، وَالْقَوْبَةُ الْمَنْصُوحُ ،
 كَأَنَّهَا تَرْقَعُ مَا خَرَقَتْهُ الْمَعْصِيَةُ . مَسْعَمٌ : مَسْعَمُكَ مَمْنَعٌ ، وَاسْتَمْعَمَ^(٢) فِي ذِكْرِ
 يُوسُفَ : امْتَنَعَ وَتَأَبَّى . كَنَّ : مَوْضِعٌ يَكْنَى فِيهِ . كَنِينٌ : سَاتِرٌ ، وَالسَّكِينُ :
 الْمَعْتُورُ . وَالْإِرَارُ : لِلْمَكَانِ الْمَطْمَئِنِّ الَّذِي يَسْتَقِرُّ فِيهِ الْمَاءُ ، وَأَرَادَ بِهِ الرَّجِيمَ .
 بُرْعُوكَ : يَفْرَمُكَ . إلف : صَاحِبٌ . مَدَاحٌ : يَظْهَرُ الْحُبُّ ، وَيَضْمُرُ خِلَافُهُ ،
 وَدَاجَاهُ : سَاتَرَهُ بِالْمَدَاوَةِ . بَرَزَتْ : خَرَجَتْ . الْأَذَى : الضَّرَرُ . الْهُونُ : الْهَوَانُ .
 تَرَامَى : تَظَاهَرَ . هَتُونٌ : كَثِيرُ السَّيْلَانِ . وَهَتَنْتِ السَّمَاءَ : صَبَّتْ . ارْفِيدُ :
 الْوَاسِعُ . الْخَنُوقُ : الَّذِي لَا يُشْكَّتُ فِيهِ . الْغُلَّانُونَ : الْمُشْكُوكُ فِيهِ ؛ فَهُوَ يُشِيرُ عَلَى
 الصَّبِيِّ أَنْ يُقِيمَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ وَلَا يَخْرُجَ لِلدُّنْيَا . خَلَيْنِ : مَتَّهِمٌ .

ثُمَّ إِنَّهُ طَمَسَ الْمَكْتُوبَ عَلَى غَفْلَةٍ ، وَتَقَلَّ عَلَيْهِ مَائَةٌ تَفْلَةٍ ، وَشَدَّ
 الزَّبَدَ فِي خِرْقَةٍ حَرِيرٍ ، بَعْدَ مَا ضَمَّنَهَا بِعَبِيرٍ ، وَأَمَرَ بِتَعْلِيلِهَا عَلَى فَنَاحِ

(١) قِي الدِّبْوَانُ :

قَالَتْ لَهَا ضَاحِكَةً أَتَمَّهَا أَنْتِ كَمَلِ الْأَمَلِ الْخَائِبِ
 (٢) هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ يُوسُفَ ٣٢ ﴿وَلَقَدْ رَاودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾

الماخِضِ ، وألّا تملَقَ بِهَا يَدُ حائِضٍ ، فلم يَكُنْ إِلَّا كَذَوَاقِ
شَارِبٍ ، أو فَوَاقِ حَالِبٍ ، حَتَّى انْدَلَقَ شَخْصُ الْوَلَدِ ، لِخِصْمَيْهِ
الزَّبَدِ ، بِقُدْرَةِ الْوَاحِدِ الصَّمدِ .

فامتلاً الْقَصْرُ جُبُوراً ، وَاسْتُطِيرَ عَمِيدُهُ وَعَبِيدُهُ سُرُوراً ،
وَأَحَاطَتِ الْجَمَاعَةُ بِأَبِي زَيْدٍ تُثْنِي عَلَيْهِ ، وَتُقَبِّلُ يَدَيْهِ ، وَتَتَبَرَّكُ بِمَسَاسِ
حِلْمَرِيهِ ؛ حَتَّى خُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ الْقَرْنِيُّ أَوْيسُ ، أَوِ الْأَسَدِيُّ دُونِسَ .



طَمَسَ : غَطَى ، وَطَمَسَتِ الدَّارُ إِذَا غَطَى التُّرَابُ آثَارَهَا وَمَحَاَهَا . وَالتَّقَلُّ :
نَفَعَ بِمَخْرَجٍ مَعَهُ بَصَاقٌ مَتَفَرِّقٌ ، وَأَوَّلُهُ الْبَرْقُ نَمَ التَّقَلُّ ، نَمَ النَّفْثُ ، نَمَ النَّفْعُ .
ضَمَّتْهَا : لَطَخَهَا . عَيَّرَ : أَخْلَطَ مِنَ الْعُطُوبِ . الْمَاخِضُ : الْحَامِلُ . وَلَا تَمْلَقُ
بِهَا يَدُ حَائِضٍ ، تَمْوِيهِ بِأَن مَكْتُوبَهُ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْحَائِضُ لَا تَمْسُهُ . الذَّوَاقُ : مَنْ
الطَّعَامِ أَوِ الشَّرَابِ بِلِسَانِكَ . الْفَوَاقِ : مَا بَيْنَ الْحُلْبَعَيْنِ مِنَ الْوَقْتِ ، لِأَنَّ النَّاقَةَ
تُحَلِّبُ نَمَ تَفَرَّقَ سَاعَةً يَرْضَعُهَا فَصِيلُهَا لِقَدَرٍ نَمَ تَحَلَّبَ . انْدَلَقَ : خَرَجَ بِسْرَمَةٍ ،
وَكُلُّ شَيْءٍ يَدْرُ خَارِجاً بِسْرَمَةٍ فَقَدْ انْدَلَقَ ، وَانْدَلَقَ التَّيْفُ مِنْ غَمْدِهِ إِذَا
صَقَطَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْلَ . خِصْمَيْهِ الزَّبَدُ ، أَيْ خَاصِمَتُهُ الَّتِي يَفْرُدُ بِهَا عَنِ الْأَحْجَارِ ،
وَاخْتَصَمْتُ بِالشَّيْءِ : انْفَرَدْتُ بِهِ ، وَجَاءَنِي خِصْمِي الْقَوْمُ ، مَقْصُوراً ، أَيْ
خَاصِمَتُهُمْ ، وَخِصْمَتُهُ بِالشَّيْءِ خُصُوصاً وَخُصُوصِيَّةً وَخِصْمِيَّةً .

ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَا وَلَدَنِي
أَهْلُ بَيْتِ غُلَامٍ إِلَّا أَصْبَحَ فِيهِمْ عِزٌّ لَمْ يَكُنْ » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ وَلَدَهُ مَوْلُودٌ فَاذْنُ فِي أُذُنِهِ الْيَمْنَى وَأَقَامَ فِي
الْيَمَنِ ، دَلِمَتْ عَنْهُ أُمُّ الْعَبْيَانِ » .

حُبُورًا : سرورًا . واستطِير : داخله السرور . عَمِيدُهُ : سيده . طَمَرِيه : ثوبيه .
 وذكر ابن قتيبة بسند متصل بآبن عباس رضى الله عنهما ، أنه قال : مرَّ
 عيسى بن مريم عليه السلام على بقرةٍ قد اعترض ولدها في بطنها ، فقالت :
 يا كلمة الله ، ادعُ الله أن يخلصني ، فقال : يا خالقَ النفس من النفس ، ويا مُخرجَ
 النفس من النفس ، ويا مُخلصَ النفس من النفس خُصِّصها ، فألقت ما في بطنها ،
 فإذا عسرت على المرأة ولادتها فيسكتب على مكيال ، ثم تعطاء المرأة .

وذكر الفنجدي بسند متصل بآبى هريرة رضى الله عنه ، قال : بينا
 عيسى ويحيى عليهما السلام في البرية إذ رأيا وحشيّةً ماخضاً^(١) ، فقال عيسى
 ليحيى : قل تلك الكلمات : جنة ولدت مريم ، مريم ولدت عيسى ، الأرض
 تدهوك يا ولد ، اخرج يا ولد ، اخرج .

قال حماد بن زيد : فما يكون في الحى امرأة ماخض ، فيقال هذا عندها
 إلّا ولدت ، حتى الشاة التي يمسّر وضعها ، فيقال هذا عندها ، فلا تبرح
 حتى تضع .

يونس بن عبيد الله : اللهم أنت عُدَّتى عند شدّتى ، وأنت صاحبى عند
 كُرْبَتى ، وأنت ولى نعمتى ، مَنْ قالها عند الغفساء إذا عسر عليها ولدها ، أو
 على بهيمة ، أذن الله تعالى في خروجه .

وذكر من ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : إذا عسر على المرأة ولادتها ،
 فليكتب لها بسم الله لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سُبْحَانَ الله ربّ العرش
 العظيم ، الحمد لله ربّ العالمين ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا عَشِيَّةً
 أَوْضَحَاهَا ﴾^(٢) ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ . لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ
 بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾^(٣) .

(٢) سورة النازعات ٤٦ .

(١) الماخض : الحامل .

(٣) سورة الأحقاف ٣٥ .

قال سفهان : يكتب هذا في جام وتسقاء .

وذكر من أبي الزناد قال : كنت مثنأنا ، فقبل لي استغفر الله إذا جامع ،
فقطت فوضع لي بضعة عشر ذكرا .
قوله خُيِّل : أي شَبَّه .

[ذكر أوبس القرني]

وأوبس القرني بَشَّرَ به النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو من التاجين .

وفي صحيح مسلم : إن أهل الكوفة وفدوا على عمر رضي الله عنه ، وفيهم
رجل يَمْنُ كان يسخر بأوبس ، فقال عمر رضي الله عنه : هل هاهنا أحد من قرن ؟
فجاء ذلك الرجل ، فقال عمر : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن رجلاً
يأتيكم من اليمن يقال له أوبس ، لا بدع باليمن غير أمِّ له ، وقد كان فيه بهاض ،
فدعا الله ، فأذهب الله عنه إلا موضع الدينار أو الدرهم ، فمن لقيته منكم فليستغفر
لكم .

وفيه عن أسيد بن جابر ، قال : كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا
أنه أمداد أهل اليمن سأل : أنتم أوبس بن عامر ؟ حتى أتى على أوبس ، فقال :
أنت أوبس بن عامر ؟ قال : نعم ، قال : من مُراد ، ثم من قرن ؟ قال : نعم ،
قال : فكان بك برص فبرئت منه إلا موضع الدرهم ؟ قال : نعم ، قال : ألك
والدة ؟ قال : نعم ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يأتي إليكم
أوبس بن عامر ، مع أمداد أهل اليمن ، من مُراد ثم من قرن ، وكان به بهاض
فبري منه إلا موضع الدرهم ، له والدة هو بها بارئ لو أقسم على الله لأبره ، فلئن
استطعت أن يستغفر لك فافعل » ، فاستغفرت فاستغفر له ، فقال عمر رضي الله عنه
أين تريد ؟ فقال : الكوفة ، قال ألا أكتب لك إل عاملها ؟ قال : أكون
في غير الناس أحب إلي . قال : فلما كان في العام القابل حجَّ رجل من أنسرافهم ،

غواني حرّ رضى الله عنه ، فسأله عن أُويس ، فقال : تركته رثّ البيت ، قليل المتاع . قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يأتي عليكم أُويس ابن عامر مع أمداد أهل اليمن من مُراد ثم من قَرْن ، وكان به برّص فبرئ منه إلا موضع درهم ، له والدة هو بها بارّ ، لو أقسم على الله لأبره ، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل . فأتى أُويسا فقال : استغفر لى ، فقال : أنت أحدث عهدا بسفر صالح ؟ قال : نعم ، قال له : لقوت عمر ؟ قال : نعم ، فاستغفر له ، فقطن له الناس ، فانطلق على وجهه ، قال أسيد : وكسوته بُرْدَة ، فكان كلما رآه إنسان قال : من أين لأُويس هذه البرْدَة !

وفى كتاب الإحياء : أنه لما ولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال : أيها الناس ، مَنْ كان من أهل العراق فليقيم ، فقاموا ، فقال : اجلسوا إلا مَنْ كان من قَرْن ؟ فجلسوا إلا رجلا واحداً ، فقال له عمر رضى الله عنه قَرْنى ؟ أنت ؟ قال : نعم ، قال : أنعرف أُويسا ؟ قال : نعم ، وما تسأل عن ذلك يا أمير المؤمنين ؟ والله ما نينا أحق ولا أجنّ ولا أحوج منه ! فبكى عمر رضى الله عنه ، ثم قال : ما قلت ، إلا أنّى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يدخل في شفاعته مثل ربيعة ومضر » . ولما كان عند أهل كالحجنون بَنَوْا له بيتاً على باب دارهم ، فكان تأتي عليهم السنّة لا يرون وجهه ، كان يخرج أوّل الأذان وبأى بعد المشاء الآخرة ، وكان طامئاً أن يلقط النوى ، فكلما أصاب حَشَفَةً خبأها لإفطاره ، فإن أصاب ما بقوته باع النوى ، ونصدّق به ، وإلاّ اشترى منه ما بقوته . وكان لباسه قطع الأكسية من المزابل ، يلققُ بعضها إلى بعض ، ثمّ يلبسها ، وإذا مرّ بالصبيان رجوه ، يظنّون أنه مجنون ، ولهذا أعظم النبي صلى الله عليه وسلم حرمة ، فقال : « إني لأجد نفس الرحمة من قبل اليمن » إشارة إليه .

[ذكر الأمير ديبس]

وأما ديبس فهو الأمير سيف الدولة بن مزيد الأسدي ، وقيل : ديبس بن صدقة بن مزيد ، وذكر أبو الحسن علي بن الحسين بن أبي طالب الباهرزي للأمير أبا الأعر ديبس بن علي فقال : خدمته ببغداد ، وعبرت إليه أخت يده الجواد - يعني دجلة - وهي زاخرة الأمداد ، فإذا باحة لطارقين مباحة ، وراحة في كنفها للمفاتيح راحة ، وقباب التفت بها غاب القنا ، واشترك مع أسودها الناس في فرائس النوى .

قال الفنجديهي : سمعت بعض أهل الفضل يقول ببغداد : لما سمع الأمير ديبس ، أن الرئيس أبا محمد الحريري ذكره في مقاماته ، وأورد فيها بعض صفاته ، أنفذ إليه من الخلع السنية ، والجوائز الهنيئة ومزية المعطية ، ما عجز عنه الوصف ، وكل عنه الطرف ، واقتضاه علو همة ، وممو قدرته . ثم عصى ديبس على الإمام المسترشد بالله أمير المؤمنين أبي منصور الفضل بن المستظهر بالله ، وسمى في إراقة دمه ، وجمع العساكر وحشد ، وقصد بغداد في عسكر عظيم ، وعاث في أطرافها ، وأفسد في أكنافها ، فخرج المسترشد بالله أمير المؤمنين من دار الخلافة ، واجتمعت إليه الأجناد ، وظهر إليه وحمل عليه ، فهزم ديبس وعسكره ، وانتهى إلى الحلة الزيدية ، فانتبهما ، وذلك في الحرم في سنة سبع عشرة وخمسمائة . وانهمزم ديبس في خواص من أصحابه وغلمانة خوفاً من الخليفة ، ومرّ نحو الشام ثم قتل الأمير ديبس بن صدقة بن مزيد في سنة ثلاثين أو في سنة تسع وعشرين ، قتله السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه لأموار أنكرها وأسباب امععض لها ، نسبت إليه^(١) .

ثم انشال عليه من جوائز المجازاة ، ووصائل الصلات ، ما قيض له

النِّفَى، وَيَبِضَ وَجْهَ الْمُنَى، وَلَمْ يَزَلْ يَنْتَابُهُ الدَّخْلُ، مَذْنُوجُ السَّخْلِ؛
إِلَى أَنْ أُعْطِيَ الْبَحْرُ الْأَمَانُ، وَتَسَنَّى الْإِتْمَامُ إِلَى عُثْمَانَ؛ فَاصْتَفَى
أَبُو زَيْدٍ بِالنَّحْلَةِ، وَتَأَمَّبَ لِلرَّحْلَةِ؛ فَلَمْ يَسْمَحِ الْوَالِي بِمَحْرَكَتِهِ، بَعْدَ
تَجَرُّبَةِ بَرَكَاتِهِ، بَلْ أَوْعَزَ بَعْضُهُ إِلَى خِرَازَتِهِ. وَأَنْ تُطْلَقَ يَدُهُ فِي
خِرَازَتِهِ.

قال الحارث بن همام: فلما رأيته قد مال، إلى حيث يكتسبُ
المال، أنعمتُ عليه بالتعنيف، وهجنتُ له مفارقة المألف والأليف،
فقال: إليك عني، واسمع مني.



قوله: انثال، أى انصب. جوائز: عطايا. وسائل: متصلات غير منقطعة،
والوسائل: ثياب حر محططة نُصْنَعُ باليمن بلبسها النساء، قال الشاعر:

* لها حُبُّكَ ككانها من وسائل *

فيمض: قدَّر وساق. ينفابه، أى يقصده ويأنوه مرةً بعد أخرى.

الدَّخْلُ: العطايا التي تدخل إليه من قبل الأمير وغيره، ورجل كثير
الدَّخْل: إذا كثُر دخوله الرزق عليه. والسَّخْلُ: الولد.

ومما يستحسن في التهنئة بمولود قول الخلواني:

نَجْمٌ تَوْلَدَ مِنْ شَمْسٍ وَمِنْ قَمَرٍ وَأَيْنَ مَنْ أَبَوَاهُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
شَمْسُ الْعَافِ وَجَدَّ الْبَذْرِ بَيْنَهُمَا تَوْلَدَ النُّورُ إِلَّا أَنَّهُ بَشَرُ

أخذه من قول ابن الرومي :

شمس وبدرٌ ولداً كوكباً أقسمت بالله لقد أنجبا

وجاء لمرمادي يهنئُ الفقيه ابن المطار بمولود ، فقال :

يَهْنِئُكَ مَازَادَتِ الْأَيَّامِ فِي عَدَدِكَ مِنْ فَلَذَةٍ بَرَزَتْ بِالسَّعْدِ مِنْ كِبَدِكَ^(١)
كَأَنَّمَا الدَّهْرُ دَهْرٌ كَانَ مَكْتَنِبًا مِنْ أَنْفِرَادِكَ حَتَّى زَادَ فِي عَدَدِكَ
لَا خَلْفَتَكَ إِلَّا هَالِي تَحْتَ ظِلِّ رَدَى حَتَّى تَرَى وَلَدًا قَدْ شَبَّ مِنْ وَلَدِكَ

قوله : تَسَنَّى الْإِتْمَامُ ، أى تيسر لإتمام المشى والإفلاخ . اكتبنى : اقتنع .
الفحلة : العطية . أَوْعَزَ وَوَعَزَ ، تقدم ، يعقوب : لا يقال . وَعَزَ بالتخفيف . حُزَانَتُهُ :
جماعته ، وعياله الذين يتعزَّون لسكرته ولفقده ، ويحزن هو لِضَيْعَتِهِمْ .
أنجيت : ملت عليه وقصدته به . التعتيف : القوم والأخذ باللسان . المؤلف : البلدة
وموضع الألفة . الأليف : الصَّاحِب . إليك عني : نباعد هني .

* * *

لَا تَصْبُؤَنَّ إِلَى وَطَنٍ فِيهِ تَضَامٌ وَتُمْتَهَنُ
وَارْحَلْ عَنِ الدَّارِ الَّتِي تُغْلِي الْوِهَادَ عَلَى الْقُنَنِ
وَاهْرَبْ إِلَى كَنْ يَتَّقِي وَلَوْ أَنَّهُ حِضْنًا حَضَنَ
وَارْبَأْ بِنَفْسِكَ أَنْ تَقِيَمَ بِمَحِثٍ يَنْفُشَاكَ الدَّرَنُ
وَجِبِ الْبِلَادِ فَأَيُّهَا أَرْضَاكَ فَاخْتَرَهُ وَطَنُ
وَدَعِ التَّذَكُّرَ لِلْمَعَا

هِدِ وَالْحَيْنِ إِلَى السَّكَنِ

واعلمُ بأنَّ الحُرَّ في أوطانهِ يَلْقَى الغَبْنَ
كالدرِّ في الأصدافِ يُسْتَرَرَّى وَيُخَسُّ في الثَّمَنِ



تَصْبُونُ : تَمِيلُنَ ، وَصَبَوْتُ إِلَيْهِ مِلْتُ بِالْحُبَّةِ . تَضَامُ : تَذَلُّ . تَمْتَنُ :
تَحْتَقِرُ ، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ بَشَرٍ فِي هَذَا اللَّغْوِ :

إِنَّمَا أَرَى بِقَدْرِي أَنِّي لَسْتُ مِنْ بَابَةِ أَهْلِ الْبَلَدِ
لَيْسَ مِنْهُمْ غَيْرُ ذِي مَقْلَبَةٍ قَدَوِي الْأَبَابُ أَوْ ذِي حَسَدِ
يَتَعَامُونَ لِقَائِي مِثْلَ مَا يَتَعَامُونَ لِقَاءَ الْأَسَدِ
مَطْلَمِي أَتَقُلُّ فِي أَهْمِهِمْ وَعَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ أَحَدِ
لَوْ رَأَوْنِي وَسَطَ بَحْرِ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَأْخُذُ مِنْهُمْ بِيَدِي

وَقَالَ الْبَحْتَرِيُّ :

أَشْرَقَ أُمُّ أَغْرَبٍ بِاسْمِعِيدُ وَأَنْقَصَ مِنْ زَمَاعِي أُمُّ أَرْبَدٍ^(١)
عَدَنِي عَنْ نَصِيبِينَ الْقَوَادِي فَبَخَتِي أَبْلَهُ فِيهَا بَلِيدُ
وَأَخْلَفَنِي الزَّمَانُ عَلَى رِجَالٍ وَجُوهَهُمْ وَأَيْدِيَهُمْ حَدِيدُ
لَهُمْ حُلَلٌ حُسْنٌ فَهَنْ بِيضٌ وَأَخْلَاقٌ سَمُجَنْ فَهَنْ سَوْدُ

وَمِنْ نَبَا بِهِ إِلَيْهِ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدِ الْوَهَّابِ ، خَرَجَ مِنْ بَغْدَادَ يَرِيدُ مِصْرَ ،
فَشَفِيقَهُ أَكْبَرَهَا ، وَمِنْ أَصْحَابِ مَحَابِرِهَا جَلَّةٌ مَوْفُورَةٌ ، فَقَالَ لَهُمْ : وَاقِدُ لَوْ وَجَدْتُ
بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ رَغِيفِينَ كُلَّ يَوْمٍ ، مَا عَدَلْتُ بِبِلَادِكُمْ بِلَوْغِ أَمْنِيَةِ ، وَالْخَبْرُ عِنْدَهُمْ يَوْمَئِذٍ
ثَلَاثَةٌ رَطْلٌ بِدِينَارٍ ، وَقَالَ :

سلامٌ على بغدادٍ مِنِّي تحيةٌ وحقٌ لها مني السلامُ المضاعفُ^(١)
 لعمرك ما فارقتها قالبا لها وإني بشطآنٍ جانيبينها لعارفُ
 ولكها ضاقت عليَّ برُحبتها ولم تكن الأقدار تمن يساعفُ
 فكانت كخيلٍ كنت أهوى دنوهُ وتأنى به أخلاقه فهو مخالفُ
 وقال أيضا :

بغدادُ دار لأهلٍ المالِ واسعةٌ وللغالبِ دار الضنكِ والضييقِ^(٢)
 قد صرتُ أمشي مهانكا في أزقيها كأنني مصعفٌ في كفٍّ زنديقِ

قوله: الوهاد والفتن: الانخفاض والارتفاع ، والفتنة: أعلى الجبل ، والوهدة:
 القعدة من الأرض تجري إليها مياه جهاتها . حصنًا : جانبًا حصينًا مانعًا . أربأ ،
 أي ارتفع . يمشاك : يُعْطِيكَ . الدرن: الوسع . للمأهـد: منازل سكناه . الحنين:
 الشوق . السكـن : الأهل . الأصداف : محالّ الجواهر . يستزرى : يستحقّر .
 يبخس : ينقص ، ومعنى هذه الآيات يقول : أرحل عن بلد يملو فيه قدر أصاغر
 الناس قدر أكابرهم ، ولا نقيم فيه على الهوان ، وارتفع قدر نفسك من أن تقيم
 بموضع توسّخك فيه الإهانة ، فإن المرء حيث يضع نفسه ، وطُفّ بالبلاد ، واختر
 وطنًا ما أرضاك ، فإن الحرّ يضع في وطنه ، ولا يعرف قدره .

الأصمعيّ : سمعتُ بعضَ العرب يقول : الفقـر في الوطن غربة ، والغنى في
 الغربة وطن .

ونظر أبو الحسن إلى بردونٍ يُستَقى عليه ، فقال : المرء حيث يضع نفسه ،
 لو هملج هذا لم يُبَيِّلَ بما ترون .

الزبير رضى الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن العباد عباد الله ، والبلاد بلاد الله ، فحينما وجدتَ خيراً فأقم ، واحمد الله » .

وقال هلال بن الملاء الرقى :

لا تجزمنَ وإن نأتَ أرضُ تُنالُ بها الحِبةُ
وطنُ الغريبِ يسارُهُ والفقرُ في الأوطانِ غربةُ

وقال آخر :

أشدَّ من فاقةِ الزَّمانِ مقامُ حرٍّ على الهوانِ
فاسترزقِ الله واستغنِ فإنه خيرُ مستعانِ
فإن نبا منزلٌ بحرٍّ فن مكانٍ إلى مكانِ

وقال آخر :

شرقي وغرب تجدد من غادرٍ بدلاً فالأرض من تربة والناس من رجلٍ

وقال آخر :

من ضاق منك فأرض الله واسمه عن وجه كل مضيق وجه منفرج
خيرُ المذاهب في الحاجات أنجحها وأضيق الأسر أدناه من الفرج

* * *

ثمَّ قالَ : حَسْبُكَ ما اسْتَمَعْتَ ، وَحَبِّذَا أَنْتَ لَوْ اتَّبَعْتَ .
فَأَوْضَحْتُ لَهُ مَعَاذِرِي ، وَقُلْتُ لَهُ : كُنْ عَذِيرِي . فَعَذَرَ وَاعْتَذَرَ ،
وَزَوَّدَحَنِي لَمْ يَذَرْ ، ثُمَّ شَيَّعَنِي تَشْيِيعَ الْأَقَارِبِ ، إِلَى أَنْ رَكِبْتُ
فِي الْقَارِبِ . فَوَدَّعَنِي وَأَنَا أَشْكُرُ الْفِرَاقَ وَأَذُمُّهُ ، وَأَوْدُهُ لَوْ كَانَ
هَلَكَ الْجَنِينُ وَأُمُّهُ

* * *

حسبك : بكفيك . أوضحت : بيّنت . معاذبري : أهداري ، والمُذْبرَةُ :
 العذر ، ويقال : عذرك من كذا ، بمعنى هلمّ معذرتك منه ، وقيل : العذر بمعنى
 عاذر ، فَعُول بمعنى فاعل ، أي هلمّ لمن يعذرك منه .

تطلب : العذر ، مصدر بمعنى التّكبر ، ومعنى عذبري منه ، أي مَنْ
 يعذّرني منه !

وعذّر : قَبِلَ العذر . والله أعلم .

المقامة الأربعون وهي التبريزية

أخبر الحارث بن همام، قال: أزمعتُ التبريز من تبريز، حين
نبتت بالدليل والعزير، وخلصت من المجير والمجيز؛ فبينما أنا في
إعداد الأهبة، وارتداد الشجبة، ألفت بها أبا زيد السروجي ملتقاً
بكيساء، ومحتفاً بكيساء، فسألته عن خطبه، وإلى أين يسرب مع
ميربه، فأولمأ إلى امرأةٍ منهن باهرة السفور؛ ظاهرة الثفور، وقال:
تزوجت هذه لتؤنسني في الغربة، وترخص عني قشف العربة،
فلقيت منها عرق القربة، تمطلني بحقي، وتكلفني فوق طوق،
فأنا منها نضو وجي، وحلف شجور وشجي. وهما نحن قد تساعينا
إلى الحكيم، ليضرب على يد الظالم؛ فإن انتظم بيننا الوفاق، وإلا
فاطلاق والانطلاق.

قال: فأت إلى أن أخبر لمن القلب، وكيف يكون المنقلب؛
فجملت شغلي دبر أذني، وصحبتهم وإن كنت لا أغني.

* * *

أزمعت: عزمت، والزماع العزم، والتبريز: الخروج إلى البراري، وهي
الأرض الفضاء بلا شجر. تبريز: قرية من كور أذربيجان من همل خراسان،
بينها وبين الراغة عشرون فرسخاً.

نبتت: قلمت وارتفعت الجير: الذي يحيرك من الناس ويكفك شرهم،
والمجيز: الواهب الجائزة وهي الصلة ارتداد: طلب محققاً. محتفاً: خطبه:

أمره . بسرّب : يذهب . وميربه : جماعة نسائه . أوماً : أشار . باهرة : ظاهرة .
والشفور : كشف الثياب من الوجه . ترخص : تفعل ، ورخص الثوب : يرخضه
غسله . قشّف : تنفّر ، ورجل متقشّف : لا يعتمد الفضل والنظافة . والقشّف :
سوء العيش . ومطلّ حنّه ، كناية عن جماعه لها ، والمطلّ في الأصل : الذّ ، يقال :
مطلّ القَيْن الحدب يدّ مطلقاً إذا ، مدّه وطوّله ، فعنى بمطلّى : تطوّل على .
والطّوق : الطّاقة . نضو وجّى : هزبل من الجفاء ، وأراد به شرّها وما يلقاه
منها . حلف شجّو : صاحب حزن . والشّجا : الاختناق بالعظم وهو نوى
صعب : يضرب على يده : ليكفّه ويمنّعه

• • •

فلما حضرا القاضي ؛ وكان يَمُنُّ يَرَى فضل الإمساك ، ويَضِنُّ
بُفائَةِ السّواك ، جثّاً أبو زيدَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وقال : أَيَّدَ الله القاضي
وأَحْسَنَ إليه ، إن مَطِيقِي هذه أَيْبَةُ الْقِيَادِ ، كثيرةُ الشَّرَادِ ؛ مع أنّي
أطوَعُ لها مِنْ بَنَانِهَا ، وأُخْنِي هَلِيهَا مِنْ جَنَانِهَا . فقال لها القاضي :
وَنَحْمَكِ ! أَمَا عَلِمْتِ أَنَّ النُّشُوزَ يُغْضِبُ الرَّبَّ ، وَيُوجِبُ الضَّرْبَ !
فَقَالَتْ : إِنَّهُ يَمُنُّ يَدُورُ خَلْفَ الدَّارِ ، وَيَأْخُذُ الْجَارَ بِالْجَارِ ، فقال له
القاضي : تَبْأَلَكِ ! أَتَبْذُرُفِي السَّبَّاحَ ، وَتَسْتَفْرِخُ حَيْثُ لَا إِفْرَاحَ !
أَعِزُّبُ عَنِّي ، لَا نَعِمْ عَوْفُكَ ، وَلَا أَمِنْ خَوْفُكَ ، فقال أبو زيد : إِنَّهَا
وَمُرْمِلِ الرِّيَّاحِ ، لَا كَذَبُ مِنْ سَجَّاحِ !
فَقَالَتْ : بَلْ هُوَ وَمَنْ طَوَّقَ الْحَمَامَةَ ، وَجَنِّحَ النَّعَامَةَ ، لَا كَذَبُ
مِنْ أَبِي ثَمَامَةَ ، حِينَ تَخْرُقُ بِالْيَمَامَةِ !

• • •

لا أَغْنِي ، أَيْ لَا أَنْفَع ، الْإِمْسَاكُ : الشَّحْ ، بِيضُنْ : يَبْغُلُ ، وَالْغَفَاةُ :
مَانِطَرُحُهُ مِنْ فَمِكَ مِنَ السَّوَاكِ بَعْدَ الْإِنْتِفَاعِ بِهِ ، وَهَذَا وَإِنْ كَانَ فِي غَايَةِ الْبَغْلِ
مُتَزَعٍّ مِنْ قَوْلِ الشَّاعِرِ :

لَقَدْ بَخَلْتُ حَقِي لَوْ أَتَى سَأَلُهَا قَدَى الْعَيْنِ مِنْ ضَاغِي التَّرَابِ لَضَنَّتِ
وَقَالَ آخِرُ فِي مَعْنَاهُ :

يَبْغُلُ بِالسَّاءِ وَلَوْ أَنَّهُ مِنْغَمَسٌ فِي وَسَطِ الْغَيْلِ
شَجًّا فَلَا تَطْمَعُ فِي خَيْرِهِ وَلَوْ تَوَسَّلْتَ بِمَجْرِدِ

وَقَالَ آخِرُ :

مَا كُنْتُ أَحْسِبُ أَنْ الْخَبْرَ فَاكِهِ حَتَّى نَزَلْتُ عَلَى أَوْفَى بْنِ مَنْصُورٍ
بِأَحَابِسِ الرُّوثِ فِي أَعْتَابِ بَيْلَقِهِ خَوْفًا عَلَى الْحَبِّ مِنْ أَقْطِ الْمَصَافِرِ

وَهَذَا الْبَابُ مَسْتُوفِي فِي الرَّابِعَةِ وَالْأَرْبَعِينَ :

وَمَا يُسْتَظَرَفُ مِنْ لَفْظِ السَّوَاكِ ، قَوْلُ بَعْضِ الظُّرَفَاءِ :

قَدْ هَجَرْتُ السَّوَاكَ مِنْ أَجْلِ أَنِّي إِنْ ذَكَرْتُ السَّوَاكَ قُلْتُ سِوَاكَ
وَأَحْبَبْتُ الْأَرَاكَ مِنْ أَجْلِ أَنِّي إِنْ ذَكَرْتُ الْأَرَاكَ قُلْتُ أَرَاكَ

جَنَّا : بَرَكْ ، أَيْدٍ : قَوَى : مَطِيقِي : زَوْجَتِي ، أَيْتِي : حَشْبَةٌ مَمْنَعَةٌ عَلَى قَائِدِهَا .
الشَّمْرَادُ : الثَّقُورُ ، أَخْنَى : أَعْطَفَ وَأَرْحَمَ . جَنَانُهَا : قَلْبُهَا .

النُّشُوزُ : عَصْيَانُ الزَّوْجِ وَخَالَفَتُهُ ، وَالنُّشُوزُ أَصْلُهُ الْارْتِفَاعُ . وَوَبَّعَ ،
مِمَّا هَا التَّوْبِيْعُ وَالتَّقْبِيْعُ ، وَتَمْتَعِلُ أَيْضًا لِقَرَحَمَ ، وَقَوْلُهُ : وَيُوجِبُ الضَّرْبَ
مِنْ قَوْلِهِ نَمَالِي : ﴿ وَاللَّائِي تَغَا فُوتَ نَشُوزَهُنَّ فَمِظْوَهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي
الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ﴾ ^(١) فَنَشُوزُهُنَّ : عَصْيَانُهُنَّ . الْأَزْهَرَى : النُّشُوزُ : كَرَاهَةُ
كَلِّ وَاحِدٍ مِنَ الزَّوْجَيْنِ صَاحِبِهِ ، وَنَشَزَتْ تَنْشَزُ فَنِي نَاشَزَ

ابن عمر رضى الله عنهما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لَا تُسْكِنُوا
النِّسَاءَ الْغُرَفَ فَيُشْرَفْنَ ، وَلَا تَعْلَمُوهُنَّ السَّكَاةَ ، وَاسْتَعِينُوا عَلَيْهِنَّ بِالضَّرْبِ » .
ابن عباس رضى الله عنهما ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حَلَقُوا
السُّوْطَ حَيْثُ يَرَاهُ أَهْلُ الْبَيْتِ » .

وروى بعض أهلہ فقال : « أَنْفَقَ عَلَى أَهْلِكَ مِنْ طَوَلِكَ ، وَلَا تَرْفَعُ عَصَاكَ
عَنْهُمْ ، وَأَخْفِئْهُمْ فِي اللَّهِ » ؛ فعنى لا ترفع عصاك ، أى لا تنترك تأديبهم فى الله تعالى .
قوله : وَيَأْخُذُ الْجَارُ بِالْجَارِ ، العرب تسمى فَرْجَ الْمَرْأَةِ بِالْجَارِ ، ودُبُرُهَا جَارُ الْجَارِ ،
وأخذه الحريرى من قول أعرابى جاء لامرأته وقد اغتلم واشتدَّتْ شهوته ،
فأنفط ، فلما قرب منها وهجم عليها قالت له : إِنْى حَائِضٌ ، قال لها : فَأَيْنَ الْمَنَّةُ
الْأُخْرَى ؟ ثم حل عليها وهى تدافعه وتسبّه ، وهو ماض فى شغفه ينشدها :

كَلَّا وَرَبُّ الْبَيْتِ ذِي الْأَسْتَارِ لَأَهْتَكَنَّ حَلَقَ الْحَقِّارِ
* قَدْ يَأْخُذُ الْجَارُ بِذَنْبِ الْجَارِ *

قال الخليل : الحتار : ما استدار من طَوَلِ الْجَفْنِ ، وكذلك حَتَارُ الظَّفَرِ
والدبر ، وما يبين هذا المعنى قول الشاعر^(١) :

جَارُكَ قَدْ يَجْنِيْ عِلْمَكَ وَقَدْ تَعْدِي الصَّحَاَحَ مَبَارِكُ الْجُرْنِ^(٢)
وَلَرَبُّ مَاخُوْذٍ بِذَنْبِ قَرِيْبِهِ وَنَجَا الْمَقَارِفُ صَاحِبُ الذَّنْبِ^(٣)

(١) البيتان فى المقد : ١٥٠ و ٢٣٧ ، ونسبهما لذنوب بن عمرو ، يقولهما لأبيه ، وذكر اباهما :

يَا كُفِّبَ إِنْ أَخَاكَ مَنَعَقٌ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ صَرَةً كُفِّبَ

(٢) فى المقد : جَانِيكَ مِنْ يَجْنِي عَلَيْكَ .

(٣) المقاريف : لا تتركب ؛ وموضع هذا البيت فى المقد : ٢٣٧

وَالْجُرْنُ قَدْ تَضَطَّرَّ صَاحِبُهَا نَحْوُ الْمَضِيقِ وَدُونَهُ الرَّحْبُ

أنْهَذِرُ : أنْزِرْع ، وَابْذَرُ الْحَبُوبَ تَزْرَعُ : السَّيَّاحُ : الْأَرْضُ ذَاتُ الْمَلْحِ
وَالرَّيْشُ ، وَهِيَ لَا تَنْبِتُ شَيْئًا لِلْوَحْتِهَا وَقَلَّةُ جَفَافِهَا ، وَأَرَادَ : أَنْزِرْعُ نَظْفَتَكَ فِي مَوْضِعٍ .
لَا يَقْبَلُ الْوَلَدَ ، تَسْتَفْرِخُ : نَلْمُ مَنْ عَمِلَ الْفَرْخَ . اعْزَبَ : غَبَ
طَلَّقَ الْحَمَامَةَ : جَعَلَ لَهَا طَوَاقًا ، وَالْحَمَامُ عِنْدَ الْعَرَبِ ذَوَاتُ الْأَطْوَاقِ نَحْوُ
الْفَوَاحِشِ وَالْوَرَّاشِينَ وَالْقَمَارِيِّ ، وَدَخَلَتِ الْمَاءُ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ لِلْجِنْسِ لَا لِلتَّأْنِيثِ ،
الْمَيْثُ : يَقُولُ الْعَرَبُ : حَمَامَةُ ذَكَرٍ ، وَحَمَامَةُ أُنْثَى ، وَالْجَمْعُ الْحَمَامُ .
الشَّافِي : كُلُّ مَا عَبَّ وَهَدَّرَ فَمَوْ حَمَامٍ ، يَدْخُلُ فِيهِ الْقَمَارِيُّ وَالْوَرَّاشِينَ ؛
سَوَاءٌ كَانَتْ مَطْوُوقَةً أَوْ غَيْرَ مَطْوُوقَةٍ ، آفَةٌ أَوْ وَحْشِيَّةٌ ، وَهَذَا الْقَوْلُ كَأَنَّهُ الْأَكْثَرُ
لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ بِأَمْرِ بِأَخْذِ الْحَمَامِ الَّتِي تَسْتَفْرِخُ فِي الْبُيُوتِ ،
وَلَيْسَتْ ذَوَاتُ أَطْوَاقٍ ، وَكَانَ يَسْمِيهَا حَمَامًا ، وَكَانَ فِي مَنْزِلِهِ حَمَامٌ أَحْمَرٌ ، اسْمُهُ
وَرْدَانٌ ، وَقَدْ قَدَّمْنَا فِصْلًا فِي الْحَمَامِ فِي الصَّدْرِ
تَحَرَّقَ الرَّجُلُ : أَوْ هُمُ أَنَّهُ عَلَى حَقٍّ وَصَوَابٍ ، وَهُوَ عَلَى خِلَافِهِ

[قصة زواج مسيلة بسجاح]

وَأُورِدُ هُنَا فِي شَرْحِ تَرْوِيجِ مَسِيلَةَ بِسَجَّاحٍ مَا يَبَيِّنُ سَخْفَ نَبُوتِهَا ، وَإِنْ
كَانَ الْحَرِيرِيُّ قَدْ أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ فِي هَذِهِ الْمَقَامَةِ .
(١) كَانَ مَسِيلَةُ بْنُ حَبِيبٍ الْحَنْفِيُّ ، ثُمَّ أَحَدُ بَنِي الدَّبِيلِ ، قَدِ تَسَمَّى بِالرَّحْمَنِ
فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَكَانَ مِنَ الْمُعْتَرِينَ .

ذَكَرَ وَثِيمَةُ بْنُ مَوْسَى أَنَّ مَسِيلَةَ تَسَمَّى بِالرَّحْمَنِ قَبْلَ أَنْ يُوَلِّدَ عَبْدُ اللَّهِ
أَبُو رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَمَّا بُيِّتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
كَانَتْ قُرَيْشٌ تَقُولُ : إِنَّمَا يَعْلَمُ مُحَمَّدًا رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ الرَّحْمَنُ ، فَزَلَتْ لَهُمْ وَهُمْ يَكْفُرُونَ
بِالزَّعْمِ (٢) وَكَانَتْ بَنُو تَمِيمٍ قَدْ تَخَاذَلَتْ فِي أَمْرِ الرُّدَّةِ بَعْدَ مَوْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ

عليه وسلم واختلفوا في ذلك اخلافاً شديداً ، فبينما هم على ذلك إذ طأأتهم
سجاح بنت الحارث مقبلةً من الجزيرة ، تقود بني ربيعة . فأتاهم أسراً كان أعظمَ
تألمٍ فيه من الاختلاف ، وكانت سجاح تميميةً وبدو أيها في تغلب ، وأدعت
النبوة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم في الجزيرة ، فاجتمعت عليها بنو تميم
ورؤساء تغلب ، فأدعت أنها أنزل عليها . « يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ ، لَنَا نِصْفُ الْأَرْضِ
وَلْقُرَيْشُ نِصْفُهَا ، وَلَسَكُنَّ قُرَيْشًا قَوْمٌ يَبْغُونَ » . فاجتمعت تميم كلها تنصرها ،
فكان فيهم الأحنف وحارثة بن بدر ووجوه بني تميم ، وكان مؤذنها شبيب
ابن ربيع الرياحي ، فقالت : « أَعِدُّوا الرِّكَابَ ، وَاسْتَعِدُّوا لِلنَّهَابِ ، ثُمَّ اغْدُوا عَلَى
الرَّيَّابِ ، فَلَيْسَ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابٌ » . فصمدت إليهم ، وقتلت فيهم قتلاً كثيراً ،
ثم قالت لأجنادها : اقصدوا اليمامة ، فقليل لها إن شوكة أهل اليمامة قوية شديدة
وقد غلظ أمر مسيلة ، فقالت : « يامعاشر تميم ، اقصدوا اليمامة ، فاضربوا فيها كل
هامة ، واضربوا ناراً ملهامة ، حتى تتركوها سواداً كالجمامة » ، وإن الله تعالى
لم يجعل هذا الأمر في ربيعة - تعني نبوة مسيلة - وإنما جعلها في مضر ،
واقصدوا هذا الجمع ، فإذا قصدتموه عكرتم على قريش .

فسارت في قومها ، وهم عدد لا يحصى ، وبلغ مسيلة الخبر ، فضاق به ذرعاً ،
وتحصن في حِجْر حصن اليمامة ، وأحاطت به جيوشها ، فأرسل في وجوه قومه .
وقال : ماترون ؟ قالوا : نسلم هذا الأمر لها ، فإن لم نفعل فهو البوار . فقال لهم
بدهائه : سننظر . ثم بعث إليها ، وقال : إن الله قد أنزل عليك وحياً وعلى ،
فهلمي مجتمع فتندرس ما أنزل الله ، فمن عرف الحق تبعه ، واجتمعنا ، فأكلنا
المرء أكلًا بقوى وقومك . فأنعمت له ، فأمر بضرب قبة من آدم ، فضربت
وأمر بالود المندلي فبخرت به ، وقال : أكلثروا من الطيب ، فإن المرأة إذا
شمّت رائحته ذكرت الباه . وأتته إلى القبة ، وقالت : هات ما أنزل عليك ربك ،

فقال: « ألم تركب فعل ربك بالخيل ، أخرج منها نسمة تسعى ، ومن بين صفاتي ^(١) وحشي ، من بين ذكرواتي ، وأمات وأحيا ، إلى ربكم يكون للفنسي » . قالت : وما ذاك ؟ قال : « ألم تر أن الله خلقنا أفرأجا ، وجعل لنا النساء أزواجاً ، فنولج فيهن فمسا إيلاجاً ، ومخرجه منهن إذا شئنا إخراجاً » ، قالت : فبأي شيء أمر ربك ؟ قال :

ألهجي إلى الخدع فقد هني لك المضجع
فإن شئت في البيت وإن شئت في الخدع
وإن شئت سلقناك ^(٢) وإن شئت على أربع
وإن شئت بثلاثيه وإن شئت به أجمع

قالت : بل به أجمع . قال : كذلك أوحى إلي . فواقعها فلدسا قام منها قالت : إن مثلي لا يُنسكح هكذا ، فيكون وضعة على قومي ، ولكي مسلة لك النبوة ، فاخطبني إلى أولائي يزوجوك ، ثم أقود مملك تميمًا . فخرج وخرجت معه ، واجتمع الحيتان : حنوفة وتميم ، فقالت سجاح : لئن قرأ علي ما أنزل عليه ، فوجدته حقا ، فعبثته ، ثم خطبها فزوجه منها .

وقد الأغلب العجلى في ذلك :

قد لقيت سجاح من بعد العمى ملوحاً في العين مشدود القوى
كان هرق أيزه إذا بدا حبل عجوز ضفرت سبيماً قوى
ما زال عنها بالحديث والمنى والخلق السفساف يردى في الردى ^(٣)
قال : ألا أدخله ؟ قالت : بلى فشام فيها مثل محراب العصا

(١) الصفات : الجلد الأسفل الذي تحت الجلد الذي عليه الشعر .

(٢) سلقه : ألغاه على قتله .

(٣) السفساف : الردى . ويردى مثل يرضى : هلك .

قول لما غاب فيها واستوى لئلا هذا كنت أحسبك الحسى
والهامة بلد الزرقاء . وسأنى ذكرها فى الحسين ، فعلى نحو ما ذكرنا من
أمر سجاح ، ذكرها أكثر أهل الأخبار .

وقال الفجديسى : سجاح بنت الحارث بن سويد بن عقيان ، من بنى يربوع ،
كفيتها أم صادر ، أدعت النبوة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فى الجزيرة فى
بنى تغلب ، فاستجابوا لها ، وتبعها قوم من تميم ، وظهر أمرها حتى هابتها العرب
وصالحتها ، لتجوز فى بلادهم حيث شادت . فسمعت بمسيلة فى اليمامة ، فقالت
قومها « عليكم باليمامة ، دُفوا إليها دنيف الحامة ^(١) » ، فإنها غزوة صرامة ، لانهلككم
بمدها ملامة .

وبلغ مسيلة خبرها فهابها ، وخاف إن هو شغل بها غلبه ثمة بن أنال
وشرحبيل على حُجر اليمامة إذ هما من قبيل أبى بكر رضى الله عنه ، فأرسل إليها
بسلامتها على نفسه ، فأمنته فجاءها فى أربعين من بنى حنيفة ، فقال لها : نصف
الأرض لى ، والنصف الذى كان لفريش صار لك ، فقالت : لا يرد النصف إلا من
جَنَف ، فأحل النصف . فصالحها على أن يحمل إليها نصف غلات اليمامة من
تلك السنة ، وعلى أن يُسلفها ثمن غلات السنة المقبلة . فقبلت منه ، وقدم لها مقل
تلك السنة ، ورجعت إلى الجزيرة ، فلم تزل فى بنى تغلب حتى نقلهم معاوية عام
انفراد بالملك إلى الكوفة ، فانتقلت معهم ، وحسن إسلامها .

[قصة تخاصم أبى الأسود مع امرأته]

وأظن أن الحريرى صور تخاصم زوجة أبى زيد معه على تخاصم أبى الأسود
الدولى مع زوجته عند معاوية .

(١) ط : « الجماعة » تحريف ، والصواب ما أثبتته من تاريخ الطبرى .

حدث أهل الأخبار قالوا : كان أبو الأسود كبيراً عند معاوية ، وكان معاوية يجالسه ويُدْنِه ، ويسأله فنجيبه فيما يعلم ، فبينما هو ذات يوم عند معاوية وقد قدم المدينة إذ دخلت عليه امرأة بَرْزَةَ^(١) فقالت : أصلح الله أمير المؤمنين وأمتع به ! إن الله جعلك خليفة في البلاد ، ورقيباً على العباد ، يُسْتَسْقَى بك المطر ، وَيُسْتَنْتَبِت بك الشجر ، وَيُؤْمَن بك الخائف ، وَيُرَدَّع بك الجانف^(٢) . أنت الخليفة المصطفى ، والأمير المرتضى ؛ فسأل الله لك الدعة في غير تغيير ، والبركة من غير تقير ؛ فقد أُلْغِي إلهك وأمير المؤمنين أمرٌ ضاق بي عنه الخرج ، من أمر كرهتُ عاره ، إِنَّا أَرَدْتُ إظهاره ، فليكشف عني أمير المؤمنين ، ولم يصغني من الخصم ، ولم يكن ذلك على يديه ، فإني أعود بك وبمَنفُوك من العار الوبيل ، والأمر الجليل ؛ الذي يشتد على الحرائر ، ذوات البيوت الأخيار . فقال لها معاوية : مَنْ هذا الذي أشمركِ شتارَه ؟ قالت : أمر طلاقٍ جائر ، من بئس غادر ، لا تأخذه من الله مخافة ، ولا يمجد بأحد رافة ، قال : وَمَنْ بئلكِ ؟ قالت : هو أبو الأسود . فالتفت معاوية إليه فقال : أحقُّ ما تقول هذه للمرأة ؟ فقال : إِنَّمَا تقول من الحق بعضاً ، وليس أحد يطيق عليها نقضاً . أما ما ذكرت من أمر طلائها فحق ، وسأخبرك عن ذلك بصدق ، أنا والله ما طلقتهما ربية ظهرت ، ولا مِن هفوة حضرت ؛ ولم يكن كرهت شمائلها ، فقطعت حبالها . قال : فأني شمائلها كرهت ؟ قال : إِنَّكَ تهيجها على جواب عتيد ، ولسان شديد . قال : لا بد من جوابها ، قال : هي يا أمير المؤمنين كثيرة الصَّخَب ، دَائِمَةُ الذَّرَب ، مُهَيَّجَةٌ للأهل ، ومُؤَذِّبَةٌ للبتل ؛ إن ذكر خيراً دَفَنَتْه ، وإن ذكر شراً أَدَاعَتْه ، تخبر بالباطل ، وتطير مع المازل ، لا تنكِل عن عَتَب ، ولا يزال زوجها معها في نعب ؛ فقالت : أما والله لولا حضور أمير المؤمنين ، وَمَنْ حضر من المسلمين ،

(١) امرأة بَرْزَةَ ، أي بارزة الحسن . أو المرأة الجليلة التي تبرز لأقوم يجلسون إليها

(٢) الجانف : المائل .

ويجعدون .

ترددت عليك بوادر كلامك بنوادر تردع كل سهاك. فقال معاوية : عزمت عليك لما أجبتك ا فقلت : هو والله يا أمير المؤمنين ستول جهول ، ملحاح بخل ، إن قال فشر قائل ، وإن سكت فقدّم غائل ، لث حين يأمن ، ثعلب حين يخاف ، شحيح حين يستغاض ، إن التمس الجود عنده انقمع ، لما يعلم من لؤم آثانه ، وقصر رشانه ، ضيفه جائع ، وجاره ضائع ، لا يحمي ذماراً ، ولا يغفر ناراً ، ولا يرعى جواراً ، أهون الناس عليه من أكرمه ، وأكرمهم عليه من أهانه .

فقال معاوية : ما رأيت أعجب منها . انصرف في رواحاً^(١) ، فلما كان العشي جاءت ، فلما رآها أبو الأسود قال : اللهم اكفني شرها ، فقلت : كفاك الله شرى ، وأرجو ألا يعيذك من شر نفسك . قال : ناويني هذا الصبي حتى أحمله ، قالت : ما جعلك الله بأحق من يحمل ابني . فوثب فانزعه منها ، فقال معاوية : مهلاً يا أبا الأسود . قال : يا أمير المؤمنين حماته قبل أن تحمله ، ووضعه قبل أن تضعه ، وأنا أقوم عليه في أدبه ، وانظر في أوده ، أمنحه على ، وألممه حلى ، حتى يكمل عقله ، ويستحكم قلبه ، قالت : كلاً أصلحك الله أحمله خفاً ، وحمله ثقلًا ، ووضعه شهوة ، ووضعه كرهاً . حجرت فئاؤه ، وبطنى وعاءه ، وندبى سفاؤه ، أكلؤه إذا نام ، وأحفظه إذا قام .

فقال معاوية : ما رأيت أعجب من هذه المرأة ا فقال أبو الأسود : يا أمير المؤمنين ، إنها تقول من الشعر أبياناً فتجيدها ، قال : فتكلف أنت لها أبياناً لعلك أن تهرها بالشعر ، فقال أبو الأسود :

مَرْحَباً بِاتِّى نَجُورَ عَلَيَا نَمَّ أَهْلًا بِالْحَامِلِ الْحَمُولِ
أَغْلَقْتُ بِأَبَا عَلَى وَقَالَتْ إِنَّ خَيْرَ نَسَا ذَوَاتِ الْبِعُولِ
شَفَلْتُ قَلْبَهَا عَلَى فَرَاغَا هَلْ سَمِعْتُمْ بِفَارِغٍ مَشْفُولِ ا

قالت :

ليس مَنْ قَالَ بالصواب وبالْحَقِّ كَمَنْ حَادَ مِنْ مَلَارِ السَّبِيلِ
كَانَ حَجَرِي فَنَاءَهُ حِينَ يُضْحَى ثم تَدْبِي سَقَاؤُهُ بِالْأَصْبَلِ
لَسْتُ أَبْغِي بِوَاحِدِي بِابْنِ حَرْبٍ بَدَلًا مَا رَأَيْتُهُ وَالْجَاهِلِ

فقال معاوية رضى الله عنه :

ليس مَنْ قَدْ غَذَاهُ طِفْلاً صَغِيراً وَسَقَاهُ مِنْ تَدْبِيهِ بِالْجُدُولِ
هُى أَوْلَى بِهِ وَأَقْرَبُ رَحْمًا مِنْ أَبِيهِ وَفِي قَضَاءِ الرَّسُولِ
ثم دفعه معاوية إليها .

* * *

فَزَفَرَ أَبُو زَيْدٍ زَفِيرَ الشَّوَاظِ ، وَاسْتَشَاطَ اسْتِشَاطَةَ الْمُغْتَاطِ ،
وَقَالَ لَهَا : وَيْلَكَ يَا دَرْفَارٍ يَا فَجَارَ ، يَا غُصَّةَ الْبُغْلِ وَالْجَارَ ، أَتَقْمَدِينَ
فِي الْخَلْوَةِ لِتَعْذِيبِي ، وَتُبْدِينَ فِي الْحَفْلَةِ تَكْذِيبِي !

وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ حِينَ بَنَيْتُ مَلِيكَ ، وَرَنَوْتُ إِلَيْكَ ، أَلْفَيْتُكَ
أَقْبَحَ مِنْ قِرْدَةٍ ، وَأَيْسَ مِنْ قِدَّةٍ ، وَأَخْشَنَ مِنْ لَيْفَةٍ ، وَأَتَنَ
مِنْ جَيْفَةٍ ، وَأَثْقَلَ مِنْ هَيْضَةٍ ، وَأَقْدَرَمِنْ حَيْضَةٍ ، وَأَبْرَزَ مِنْ قِشْرَةٍ ،
وَأَبْرَدَ مِنْ قِرَّةٍ ، وَأَنْحَقَ مِنْ رِجْلَةٍ ، وَأَوْسَعَ مِنْ دِجْلَةٍ ؛ فَسَمَرْتُ
عَوَارِكَ ، وَلَمْ أَبْدِ عَارِكَ . عَلَى أَنَّهُ لَوْ حَبَبْتُكَ شَتِيرِينَ بِجَمَالِهَا ، وَزَيْبَدَةً
بِمَالِهَا ، وَبِلَقَيْسٍ بِعَرَشِهَا ، وَبُورَانَ بِفَرْشِهَا ، وَالزُّبَاءَ بِمَلِكِهَا ،

وَرَابِعَةٌ يَنْسُكُهَا ، وَخَنْدَفٌ يَفْخِرُهَا ، وَالتَّخْنَسَاءُ بِشَمْرِهَا فِي
صَخْرِهَا ، لِأَنْفَتُ أَنْ تَكُونِي قَعِيدَةً رَحْلِي ، وَطَرُوقَةً فَخْلِي .

* * *

قوله : زفر : أى تنفس غيظ ، والزفر والزفير رد النفس في جوفه حتى تنفخ
عروقه . قال ابن عرفة : الزفير من الصدر والشهيق من الحلق . الشواظ : النار
بغير دخان وزفيره : صوت انقاده . استشاط : اشتد غيظه وانتشر في جسده .
يا فجار : ابن عمر رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ قَذَفَ
أَمْرَانَهُ جُلِدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِائَةَ جَلْدَةٍ بِسِياطٍ مِنْ نَارٍ » .

والنقصة : ما يخفف به . والبعل : الزوج ، وأراد أنها مؤذبة يشق بها
زوجها وجارها ، كما يشق صاحب النقصة . نعيمدين : نعيمدين . الخلوة . الافراد .
والحفلة : الاجتماع . بنيت عليك ، أى تزوجتك ، وكانت العرب إذا تزوج
الرجل بقى على أهله قبة ، فيسمى دخول الزوج بناء لذلك . رنوت : نظرت .
ألفيك : وجدتك . قذة : شراكة . فقد من من جلد غير مدبوغ . والألفه ،
واحدة ليف النخل ، وهى التى تكون بين الجرائد . هيضة : هى الامضة تنول
إلى القيء والإسهال وقشرة الشيء : ما علا عليه

ودجلة : نهر العراق ، وعليه بغداد والبصرة ، وواسط على جرفها ، ويمجرى
على وجه الأرض أربعمائة فرسخ . ولم يحمل الحريرى مبالغة السعة على هذه ؛
ولما أراد دجلة الموراء ؛ وهى التى انتشر ماؤها فى البطاح ، حتى صارت سعتها
هنالك ثلاثين فرسخا فى مثلها .

وقال ابن سكرة يهجو امرأة بالسعة :

لَا تَعْدُلُونِى عَلَى مَا كَانَ مِنْ مَلَالٍ مَنْ ذَا يَرَاكِ وَلَا يَصُبُّ إِلَى الْمَلَالِ (١)

إن كنت أبصرتُ أُشْفِيْ مِنْكَ فِي بَصْرِيْ فَلَا بَلْفْتُ الَّذِيْ أَهْوَاهُ مِنْ أَمَلِيْ
 الْهَرَأَنْتُ ، وَأَبْزَى لَيْسَ مِنْ مَمْلِكٍ وَلَيْسَ بَيْنِيْ وَبَيْنَ الْبَحْرِ مِنْ هَمَلِيْ
 قَالَ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ لِلْأَبْرَشِ الْكَلْبِيِّ : زَوِّجْنِيْ امْرَأَةً مِنْ كَلْبٍ ،
 فزَوَّجَهُ ، فَقَالَ لَهُ ذَاتَ يَوْمٍ يَهْزُلُ مَعَهُ : تَزَوَّجْنَا إِلَى كَلْبٍ ، فَوَجَدْنَا فِي نِسَائِهِمْ سَعَةً ،
 فَقَالَ الْأَبْرَشُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنْ نَسَاءَ كَلْبٍ خُلِقْنَ لِرِجَالِ كَلْبٍ .

وَسَمِعَ رَجُلٌ مِنْ كِنْدَةَ رَجُلًا يَقُولُ : وَجَدْنَا فِي نِسَاءِ كِنْدَةَ سَعَةً ، فَقَالَ :
 إِنْ نِسَاءُ كِنْدَةَ مَكَاهِلُ فَقَدَتْ مَرَاوِدَهَا .

قِيلَ : لَامْرَأَةٍ تُنْطَلِقُ كَثِيرًا : مَا بَالُكَ تُطْلَقِينَ أَبَدًا ؟ قَالَتْ : يَرِيدُونَ الضُّيُوقَ :
 خَشِيقَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ .

قَوْلُهُ : فَسَتَرْتُ عَوَارِكِي ، ابْنُ عَبَّاسٍ ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَا مِنْ
 مُسْلِمٍ أَطْلَعَ عَلَى عَوْرَةِ مُسْلِمٍ فَأَذَاهَا عَلَيْهِ شِمَانَةٌ وَعَدَوَانَا إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ
 أَنْ يَفْضَحَهُ عَاجِلًا أَوْ آجِلًا ، وَمَنْ سَتَرَهَا عَلَيْهِ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَدْخُلَهُ فِي
 سَعَرِهِ وَحِجَابِهِ يَوْمَ يُنْبِئُ السَّرَائِرَ وَتُخْرِجُ الْحَبَائِلَ » . حَبَيْتُكَ : أَيِ حَصَّتِكَ .

وَشِيرِينَ هِيَ بِنْتُ أَبِرْوَيْزَ بْنِ هَرَمَزٍ ، وَكَانَتْ آيَةً فِي الْجَمَالِ ، وَغَايَةً فِي الْحُسْنِ
 وَالْكَمَالِ ، فَاتَتْ نِسَاءَ زَمَانِهَا صِمَانَةً وَظَرْفَاءً ، وَبَهْرَ شَهْنِ مَلَا حَةٍ وَلُطْفًا ، وَخَلَقَتْ فِي
 الْعِرَاقِ آثَارًا مِنْهَا قَصْرُ شِيرِينَ ، وَلَهَا قِصَّةٌ مَفْظُومَةٌ مَشْهُورَةٌ بِالْمَعْجَمَةِ .

[زَبِيدَةُ بِنْتُ جَعْفَرِ زَوْجِ الرَّشِيدِ]

زَبِيدَةُ : هِيَ بِنْتُ جَعْفَرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي جَعْفَرِ النَّصُورِ ، زَوْجُهَا هَارُونُ
 الرَّشِيدُ ، وَجَدَاهَا النَّصُورُ ، وَعَمَّتُهَا الْمُهْدِيْ ، وَابْنُهَا الْأَمِينُ ؛ فَكَانَتْ اخْتِلَافًا
 قَدْ اكْتَفَتْهَا ، وَلَيْسَ فِي بَنِي هَاشِمٍ عَاشِيَةٌ وَلَدَتْ خَلِيفَةً إِلَّا هِيَ . وَلَدَتْ فِي حَيَاةِ
 النَّصُورِ ، فَسُمِّيَتْ أُمَّةَ الْمَرْبِزِ .

وكان المنصور يرقصها ويقول: لَأَزِيدُكِ أَنْتِ زَبِيدَةُ ! فغلب ذلك على اسمها ، وكانت أموالها لا تنقص ، وأنفقت في سبيل الله وفي الحج وفي بناء المساجد والقناطر ما لم يتفق أحد قبلها ؛ فمن ذلك ما أنفقت في حفرها لعمين المعروفة بعين المشاش بالحجاز ، فإنها حفرتها ، وهدمت الطريق لها في كلِّ رفع وخفض ، حتى أجرتها من مسافة اثني عشر ميلا ، فأحصى ما أنفقت فيها فوجد ألف وسبعمائة ألف دينار ، دون ما كان في وقت الشغل بها في البذل ، وما عمَّ أهل الفاقة ، ولها في طريق مكة من العراق آثار كثيرة في مصانع حفرتها ، وبركٍ أحدثتها ، تنزل وفود الحج عليها ، فلا نجد ماء إلا فيها ، فيشربون ويسقون بآبارهم ، ويتزودون وهم في الكثرة أعداد لا يحصيهم إلا خالقهم ، والسكل دافعون لزيدة إلى زماننا هذا . وأما آثارها الملوكية ، فإنها أولُ من اتخذت الآلات من الذهب والفضة المكلفة بالجواهر . وبلغ ثوب وشى اتخذت لباسها خمسين ألف دينار .

وهي أول من اتخذت القباب من الفضة والأبنوس ، وكلاهما من الذهب ، ملبسة بالوشى والديباج ، وأنواع الحرير الملون ، وهي أول من اتخذت الخفاف المرسمة بالجواهر ، وشمع العنبر . ولما أفضى الأمر إلى ابنها الأمين رفع منازل الخدم ككوثر وغيره ، فلما رأت حبه فيهم اتخذت له الجوارى القنودات الحسان الوجوه ، وعمت رءوسهن ، وجملت لهن الطرر والأصداغ والأقفية ، وألبسنهن الأقبية والقراطن والمناطق ، فبالت قدودهن ، وبرزت خصورهن . وبعثت بهن إليه ، فاستحسنهن وأبرزهن للناس ، فسئوهن الفلاميات .

وأخبارها كثيرة ، وعندما قتل الأمين دخل عليها بعضُ خدمها ، فقال لها : ما يجلسك وقد قتل أمير المؤمنين ؟ فقالت : وبلك وما أصنع ؟ قال : تخرجين وتأخذين بدمه ، كما خرجت عائشة تطلب بدم عثمان ، فقالت : اخسأ لأم لك ! ما للنساء وطلب الدماء ثم أمرت بثيابها فسودت ودعت بدواة ، فكتبت إلى المأمون :

أخيراً إمام قام من خير عنصُرٍ وأفضل راقٍ فوق أعواد منبرٍ
ووارثَ علم الأولين وفخرهم إلى الملك المأمون من أم جعفرٍ
كعبتُ وصوى تسهيلُ دموعها إليك ابن عمي من جُنُوني ومحجري
أصِبتُ بأذى الناس منك قرابةً ومن زال عن عبي قتلٌ تصبّري
أنى طاهرٌ، لا طاهر الله طاهراً،^(١) فما طاهر في فعله بمطهرٍ
فأبرزني مكشوفة الوجه حاسراً وأنهب أموالى وحرّق أدوري
بمزي على هارون ما قد لقيته وما نالني من ناقص الخلق أهوٍ
تذكّر أمير المؤمنين قرايتي فديتك من ذى قرْبٍ مقدّرٍ
فإن كان ما أبدى لأمرٍ أمرته صبرتُ لأمرٍ من قديرٍ مُقدّرٍ
وإن كان ما قد كان منه تدبياً على أمير المؤمنين فقيرٍ

فلما قرأها المأمون، بكى بكاء شديداً، ثم قال: إني لأقول كما قال علي
أمير المؤمنين حين بلغه قتل عثمان رضي الله عنهما: والله ما أمرتُ، ولا رخصيتُ،
اللهم جَلِّ قلب طاهر حزناً.

قال إبراهيم الحربي: رأيتها في المنام، فقلت لها: ما فعل الله بك؟ فقالت:
غفرت لي، فقلت: بما أُنقذت في طريق مكة؟ فقالت: أما النفقات فرجعت أجورها
إلى أربابها، وغفرت لي بنيتي.

[بوران بنت الحسن بن سهل وزوجها بالمأمون]

وأما بوران فهي خديجة بنت الحسن بن الحسن بن سهل، تزوجها المأمون
على يد إسحاق الموصلي، وفي هذا التزويج قصة الزبول وهي طويلة خفيفة،
نذكرها على جهة الاختصار، حدث إسحاق الموصلي قال:

(١) هو طاهر بن الحسين قائد المأمون، قتل الأمين بتدبيره سنة ١٩٨.

بيناً أنا ذات يوم عند المأمون ، وقد خلا وجهه ، وطابت نفسه ، فقال :
 يا إسحاق ، هذا يوم خلوة وطيب ، فقلت : طيب الله عيش أمير المؤمنين ،
 وأدام سروره وفرحه . فأخذ بيدي ، وأدخلني في مجالس غير التي كنت فيها ،
 فأخذنا من لذاتنا وشرابنا حتى غربت الشمس ، فقال : قد عَزَمْتُ على دخلة
 إلى دار الحرم ، فلا تَرِمِ حتى آتيك ، فنهض وبقيت إلى عامة الليل ، وكان
 للمأمون أشغف خلق الله بالنساء ، وأشدّهم ميلاً إليهن ، فقلت في نفسي : هو في
 لذة وأنا في غير شيء ، وتذكرتُ صبيّةً اشتريتها ، وكنت عزمْتُ على اقتضاها
 فنهضت إلى الباب ، فقال الحاجب : أين تريد ؟ فقلت : الانصراف ، قال فإن
 طلبك ، قلت هو من لذة السرور في شغلٍ عن طلبه ، فقيل لي : إن خلعتك
 استهبطوك وانصرفوا . فجئني بدابة ، فركبتها ومشيت ، فأحسست بالبول ،
 فصدت إلى زقاق لأبول ، فبليتُ وقت لا أتمسح بالحيطان إذا أنا بشيء معلق من
 تلك الدور ، فنهضت فإذا بزبيل^(١) كبير بأربع آذان ، ملبس ديباجا ، فقلت :
 إن لهذا سبها ، وبقوت أروى في أمره ، ثم قلت : والله لأجلسن فيه كأننا
 ما كان ، فجلست ، فلما أحسن بي القدين يرقبونه ، جذبوه إلي رأسي الخائط ، فإذا
 أربع جوار يقُلن لي : انزل بالزحب والسمّة ، فحشت بين يدي جارية بشمعة ،
 حتى نزلتُ إلى دار نظيفة إلى مجالس مفروشة ، لم أر مثلاً إلا في دار ملك ،
 فجلست فاشعرتُ إلا بعد ساعة ، حتى أزيأت ستور كانت في ناحية الدار ،
 وإذا وصائف يناشين ، في أيديهن الشمع ، وبعضهن بمجامر يحرق فيها العود ،
 وبينهن جارية تنهادي كأنها البدر الطالع ، فنهضت قائماً ، فقالت : مرحبا بك
 من زائرا وجلست . ثم استطردتُ إلى سؤال أبدو استطراد ، فقلت : انصرف
 من عند بعض إخواني ، وغرّني الوقت ، وحركني البول ، فعدلتُ إلى هذا الزقاق ،

(١) الزبيل : اللقطة أو الرواء .

فوجدت زبيلاً معلقاً ، فحملني النبيذ أن جلست فيه ، فإن كان خطأ فالنبيذ أكسبني ، قالت : لا خير ، أرجو أن محمد عاقبة أمرك ، قالت : فما صناعتك ؟ قلت : بزّاز من بغداد ، قالت : فهل رويت من الأسمار شيئاً ؟ قلت : شيئاً ضعيفاً ، قالت : فذا كبرنا ، قلت : إن للداخل حشمة ولكن تهدين ، قالت : صدقت ، فأنشدني لجماعة من القدماء والحدثين من أجود أقاويلهم ، وأنا مستمع لا أدرى مِمَّ أعجب ! أم من حسن روايتها وجودة ضبطها للغريب ، أم من اقتدارها على النحو ومعرفة أوزان الشعر ! ثم قالت : أذهب ما كان عندك من الحصر ؟ قالت : إى والله ، قالت : فإن رأيت أن ننشدنا ، فأنشدنا لجماعة من القدماء ما فيه مقنع ، فاستحسن ذلك ثم قالت : والله ما ظننت أن يوجد في أبناء الحوقة هذا !

ثم أمرت بالطعام فأحضِر ، وقالت : المأجلة^(١) أول الرضاع ، فدونك . وجمعت تقطع وتضع بين يدي ، وفي المجلس من صنوف الرياحين وغرائب الفواكه ما لا يكون إلا عند سلطان ، ودعت بالشراب ، فشربت قدحاً ، ثم سكبت لي قدحاً ، فشربت ، ثم قالت : هذا أوان المذاكرة بالأخبار وأيام الناس ، فاندفعت فقلت : بلقي أنه كان كذا ، وكان رجل يقال له كذا ، حتى أتيت على عدة أخبار حسان ، فسُرت بذلك ، وقالت : كثر تعجبي أن يكون أحد من التجار يحفظ مثل هذا ، وإنما هذه أحاديث ملوك ، فقلت : كان لي جار يُنادم الملوك ، فإذا تعطل حضرت معه ، فربما حدث بما سمعت ، فأخذتها عنه . فقالت : لعمري لقد أحسنت الحفظ ، وما هذا إلا لقريحة جيّدة ، وأخذنا في للذاكرة إذا سكّت ابتدأت هي ، وإذا سككت ابتدأت أنا ، حتى قطعنا عامة

(١) يقال : ملج الصبي أمه ، أى تناول فديها بأدني فقه ، والسلام على النبيه .

الليل ، وبخور العود يَتَّبِقُ ، وأنا في حالة لو توهمها المأمون لطار فرحاً . فقالت : إنك من الرجال وضوء الوجه ، بارع الأدب ، وما بقي عليك إلا شيء واحد . قلت : وما هو ؟ فقالت : لو كفت تترنم ببعض الأسماء ! فقلت : والله لقد عينا . كُفِّتُ به ولم أرزقه ، فأعرضت عنه ، وفي قلبي منه حزازة ، وكنت أحب أن أسمع في مجلسي هذا منه شيئاً لتكمل ليلتي ، قالت : كأنك عرضت بنا ! قلت : والله ما هو تعريض ، قد بدأت بالفضل وأنتِ جديرة باستقامته . فأخضر هود بأسرها ، فنفثت بصوت ما سمعت كعنه ، مع حسن أدائه ، وجودة الضرب . قلت : والله لقد أكل الله فيك خلال الفضل وحباك بالكمال الراجح ، والعقل الوافر ، والأخلاق الرضية والأفعال السنية . قالت : هل تعرف هذا الصوت ومن غنى فيه ؟ قلت : لا والله ، قالت الشمر : لفلان ، وكان سببه كذا والفناء لإسحاق ، قلت : وإسحاق هذا جُمِلَتْ فداك في هذا الحال ! قالت : بخ بخ ! إسحاق بارع هذا الشأن ، قلت : سبحان الله ! لقد أعطى هذا ما لم يعطه أحد ، قالت : فكيف لو سمعت هذا الصوت منه ! فلم نزل كذلك حتى إذا انشق الفجر أقبلت عبوز كأنها داية لها ، قالت : أي بنية ، إن الوقت قد حضر ، فنهضت عند قولها ، فقالت : مصاحباً ، لتستر ما كنا فيه ، فإن المجالس بالأمانات ، فقالت : جُمِيت فداك ، فأحتاج إلى وصية في ذلك ! وودعتها وجارية بين يدي إلى باب الدار ، ففتحت لي ، وخرجت إلى داري فصلبت الصبح ، ونمت .

فأنبهي رسول المأمون فسيرتُ إليه ، فلما رآني ، قال : يا إسحاق ، تشاغلتا هنك ، فما كان حالك ؟ قلت : اشتريت صبيّة وكنت معلق القلب بها ، فضيتُ لها ، وشربت معها ونمت ، فقال : يتهياً مثل هذا ، فهل لك فيما كنا فيه أمس ! قلت : وما يمنع من ذلك ؟ فنهضتُ إلى مجلس أمس ؛ فلما كان المقاء قال : لا يَمُ ، فإني أجيتك ونهض ، فتأملت ما كنت فوه الهارحة ، فإذا هو شيء .

لا يصبر عنه إلا جاهل؛ فخرجتُ . فقال الغلمان : الله الله ، فإنه أنكر علينا تخليقتك ، فوعدهم أن آتى قبل أن يمىء ، وأن أخرجى لعذر ، وفي الحين أرجع .

فهمضت إلى الزَّيْبِل فجلست فيه ، فُرفِع بى إلى موضع البارحة ، فإذا هى قد طلعت ، فقالت : لقد عاودت ، فقلت : ولا أظن إلا أنى قد ثَقَلت ، فقالت : ماحد نفسه بقرئك السلام ، قلت : فمفوة فتنى بالفضل . قالت : قد فعلنا ، ولا تعد ، فأخذنا فى مثل القيلة السالمة من المذاكرة والناشدة وغريب الغناء منها إلى الفجر .

فانصرفتُ إلى منزلى وصليت ونمت ، فأنبهنى رسولُ المأمون ، فلما رآنى قال : أبيت إلا مكافأة لنا ! فقلت : والله بأمر المؤمنين ما ذهبت إلى ذلك ، واسكن ظننت أن أمير المؤمنين قد تشاغل عني بذيته ، وأغفل أمرى ، وجاء الشيطان ، فذكرنى أمرتك للمعونة ، فبادرت . قال : فما كان منك ؟ قلت : قضيت الحاجة منها ، قال : فقد انتضى ما كان بقلبك منها ، وواحدةً بواحدة ، والهادى أظلم . قلت : بل أنا أظلم ، وإليك المذرة ، قال : لا تثريب عليك ، فهل لنا فى مثل حالنا أمس ؟ قلت : إى والله ، فتمنا إلى موضعنا إلى الوقت ، فقال : يا إسحاق ما عزمك ؟ قلت : لا عذر لى ، قال : فعزمت عليك لتجلس حتى أجمى ، فإنى عازم على الصُّبوح ، وقد نصت على منذ يومين ، قلت : فالليلة إن شاء الله ، فما هو إلا أن غاب وجاءت وساوسى ، فلما تذكرت ما كنت فيه البارحة هان على ما يلحقنى من سَخَطِهِ؛ فوثبت مبادراً ، فوثب إلى جند الدار ، وحُبِست ، فقلت : الله الله ! إنى معلق البال بهمضى مائى منزلى ، فقالوا : ما إلى تركك من سبيل ، فلم أزل أرغب هذا وأقبل يدهذا ، ووهبت خاتمى لهذا ، ورددائى لهذا ، وخرجت أهدوحامراً حتى وافيت الزَّيْبِل ، فتنعدت فيه ، فُرفِعْتُ إلى موضعى ، وأقبلت ، فقالت : صديقنا ! قلت : إى والله ، قالت : أ جعلتها دار مقام ؟ قلت : جعلت فذاك ! حق الضيافة ثلاث ، فإن رجعتُ فأنتم فى حل من دى . قالت :

واﷲ لقد أنيتَ بحُجَّةٍ ، ثم جلسنا في مثل تلك الحال ، فلما قُرب الوقت علمت أن المأمون لا بُدَّ أن يسألني ، ولا ينع مني إلا بشرح القصَّة ، فقلت لها : أراك تمنى يعجب بالفناء ، ولي ابن عمِّ أحسنُ مني وجهاً ، وأظرفُ قدًّا ، وأكثرُ أدباً ، وأنا حسنة من حسناته ، وهو أعرف خلق الله بفناء إسحاق الموصلي ، قالت : طهيلي وتقترح ؟ قلت لها : أنت المحكِّمة ، قالت : إن كان ابنُ حمك على ما تصف فلما نسكروه معرفته ، ثم جاء الوقت فنهضتُ فلم أصل إلى دارى إلّا ورسل المأمون قد هجموا علىّ ، وحملوني حملاً عنيقاً ، فوجدته على كرمىّ وهو مفتاظ ، فقال : يا إسحاق أخرو جأ من الطاعة ! قلت : لا والله قال : فما قصّتك وما هذا الانحراف ؟ فأصديقي ، قلت : في خلوة ، فأوماً إلى من بين يديه فتحدّثوا لحدثته الحديث وقلت له : قد وعدتها في أمرك ، قال : قد أحسنت ، ولولا ذلك لنسكلت بك ، فقلت : قد سلم الله ، فأخذنا في لذتنا في ذلك اليوم ، وهو لا يسمع مني غير حديثها ، فلم يتمّ النهار إلّا والمأمون معلق القاب ، فلما جاء الوقت سرّنا وأنا أوصيه وأقول : يجنب أن تظهرني بحضورها ، ودعني من نخوة الملوك ، وكن لي تبعاً ، وهو يقول : نعم ويحك ! وإن قالت : غنّ كيف أصنع ؟ قلت : أنا أضعها عنك .

ثم سرّنا إلى زيبيلين فقمعدنا فيهما ، فرُفَعنا إلى الموضع ، فأقبلت فسلمت ، فما نملك إذ رآها أن بُهِت في حسننها ، وقالت لي : والله ما أنصفت ابن حمك إذ لم ترفع منزله ، وكان قد قعد دوني ، فقالت : ارتفع فديتُك ، أنت جديد ، وهذا قد صار من أهل البيت ، فنهض إلى صدر البيت ، وأقبلت نذاكره وتناشده وتمازحه ، وهو يَظْهر عليها في كل فن . ثم أحضِر القُبْهْذ فشربنا ، وهي مقبلة عليه ومسرورة به ، وهو أكثر ، وأخذت العود ففنت صوتاً ، وقالت : وابن حمك هذا من التجار ؟ قلت : نعم ، قالت : إنكها لفربيان . فلما شرب المأمون ثلاثة أرطال داخله الفرح والطرب ، ثم رأيته ينظر إلى نظر الأسد إلى فريسته ، فصاح : يا إسحاق ، فنهضت وقلت : لبيك يا أمير المؤمنين !

قال : غنّ هذا الصوت ، فلما علمت أنه الخليفة نهضت إلى كِأَةِ مضروبة ، فدخلتها ، فلما فرغت من الصوت ، قال : انظر من ربّ هذه الدار ؟ فسألت عبّوزاً ، فقالت : هو الحسن بن سهل ، فقال : على به ، فقابت العبّوز ساحة وإذا الحسن قد حضر ، فقال له : ألك ابنة ؟ قال : نعم بوران ، قال : فزوّجتها ! قال : لا والله ، قال : فأني أخطبها إليك ، قال : هي أمّك ، وأمرها إليك ، قال : قد تزوّجتها على نقد ثلاثين ألفاً نعملها إليك صبيحة يومنا ، فإذا قبضت المال فاحملها إلينا ، قال : نعم ، ثم خرجنا .

فقال : يا إسحاق لا يقف على ما وقفت عليه أحد ، فسترت الحديث إلى أن مات المأمون ، فاجتمع لأحداً اجتمع لي في تلك الأربعة الأيام مجالسة المأمون بالنهار ، ومجالسة بُوران بالليل ، ووالله ما رأيت أحداً من الرجال في ملوكهم مثل المأمون ، ولا شاهدت امرأة تقارب بُوران فهما وعقلا ، وما أظن أحداً وقف من العلوم على ما وقفت عليه .

وفي السعدي : انحدر المأمون إلى قم الصّالح في شعبان سنة تسع ومائتين ، وأملك^(١) بخديجة بنت الحسن بن سهل ، ونثر الحسن في ذلك الإملاك ما لم ينثره قطّ ملك في جاهلية ولا إسلام ، نثر على الهاشميين والقواد والكتّاب بنادق مسك ، فيهارقاع بأسماء ضياع ، وجوار وأسماء ديار ودواب وغير ذلك ، فإذا وقعت البندقة بيد الرجل ، فتحمها فيجدها على قدر سمده ، ثم ينثر بعد ذلك الدنانير والدرهم ونوافج المسك على عامة الناس ، وأنفق على المأمون وعلى جميع قواده ، فلما أراد المأمون الانصراف إلى مدينة السلام قال له : يا أبا محمد ، سل حوائجك ، قال : نعم يا أمير المؤمنين ، أسألك أن تحفظ على مكاني من قبلك ، فأمر المأمون أن يحمل له خراج فارس والأهواز لسنة^(٢) .

وذكر الحريري في القدر أن المأمون لمّا بي على بُوران ، فرش له حصير منسوج بالذهب مأمّته أحد ، وعليه در منشور ، فوجه الحسن إلى المأمون أن

هذا نثار يجب أن يُلتَقَطَ ، فقال المأمون لن حوله من بنات الخلفاء : شرّفن أبا محمد ،
فقدت كل واحدة منهنّ يدها ، فأخذت دُرَّةً وبقى باقي الدرّ بلوح على الحصيد
المذهب ، فقال : قاتل الله أبا نُوَاس ، لقد شقّه بشيء ما رآه قط ، فأحسن في
وصف الخمرة والعباب الذي فوقها فقال !

كَانَ صُفْرِي وَكُتْبِي مِنْ فَوَاقِمِهَا حَصْبَاءُ دَرٍّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ^(١)
فكيف لو رأى هذا معاينة !

ويقال : إن الحسن بن سهل نثر في ذلك العرس على المأمون ألف حبة جوهره
وأشعل بين يديه شمعة عنبر ، وزنها مائة رطل ، فأمره المأمون بمائة ألف ألف درهم ،
وأقطعه مدينة فم الصلح ، وهي قريبة من واسط ، وكان العرس بها .

وذكر المبرد أن الملاحين الذين نصرّفوا في هذا العرس تيقفوا على السهمين
ألفاً ، وكانت جراية السلطان عليهم ، ولما بنى المأمون على بُوران وأراد غشيانها
حاضت ، فقالت : أتى أمر الله فلا تستمجلوه ! فنام في فراش آخر ، فلما أصبح
دخل عليه أفاضل ندائه يهنئونه ويدعون له فأشدهم بديها :

فارس في الحرب منغمسٌ عارف بالطمن في الظلم
رام أن يُذمّي فريسته فأنقته من دم بدم

وأكثر الشعراء في ذلك الإملاك ، وأسقطرف منها قول ابن أبي حازم الباهلي :

بارك الله الحسن ولُبُورانَ في الخَلَنِ^(٢)
يابن هارون قد ظفرت ت ولكن بنت من !

(١) ديوانه ٢٤٣

(٢) البيتان في معاهد التنصيص ٣ : ١٣٩ ، من شواهد التوجيه ، وهو إيراد للكلام

بوجهين مختلفين ، وهنا لم يعلم ما أراد بقوله : « بنت من » .

فلما وصلت إلى المأمون قال : لا والله ما نَدْرِي أخيراً أَرَادَ أمَ شِراً .
ويشبه هذا أن رجلاً أتى رجلاً خياطاً بثوب ليقطع له منه قميصاً ، فقال :
والله لأنصَلَنِي لك تفصيلاً ، لا يُدْرِي أَقْبِصُ هو أم قَبَاء ؟ ففعل ذلك ، فقال له صاحب
الثوب : وأنا والله لأدْعُونَ لك دعاء لا يُدْرِي أَلَك هو أم عليك ؟ وكان الخياط
يسمى بِشِراً ، وكان أهور ، فقال :

خاط لي بشرٌ قَبَاءٌ كَنتَ هينيه سِواءٌ^(١)

وأنت المأمون بهماز لم يُسمع بمثله قطَّ كان فيه القُرْشُ منسوجةً بالذهب .
وقال إبراهيم بن العباس الصَّوْلِي يَهْنِي الحسن بمصاهرة المأمون :
هَنَيْكَ أَكرومةٌ جَلَّتْ نَعْمَتُهَا أَعْلَتْ وَلِيكَ واجتَنَّتْ أَعَادِيكَ^(٢)
ما كان يُحِبِّي بها إلا الإمام ولا كانت إِذَا قُرِئَتْ بِالتَّلَاقِ تَعْدوكا
ومانت بُورَان في سنة إحدى وسبعين ومائتين ، وقد بلغت ثمانين سنة .
وثُمَّ بُورَان أخرى وهي بنت كسرى ، وأمها صريم بنت قيسر ، ملكت
سنة ونصفاً ، وليست المعنوية في المقامة .



[ذكر بلقيس وعرشها]

وأما بلقيس فهي ابنة شراحبيل بن أبي سرح بن الحارث بن قيس بن صئيف
ابن سبأ ، وكان سبب مراسلة سليمان إليها أنه فقد الهدد ، وبه يُعرَف قُرْبُ
الماء من بعده ، فنزل سليمان عليه السلام بمقازة ، فدعا بالهدد فلم يُوجَد ، فقال .
وهو غاضب ﴿ مَا لِي لَا أَرَى الْهُدُودَ ... ﴾^(٣) الآيات . وكان الهدد قد مرَّ بعرش

(١) معاهد التنصيص ١٣٨:٣ ، ونسبه إلى بشار ، وذكر بعده :

فقلتُ شِعْراً ليس يُدْرِي أَمْدِيحُ أمْ هَجَاءُ

(٣) سورة النمل ٢٠ وما بعدها .

(٢) ديوانه ١٣٥ ، ١٣٦

بَلْقَيْسَ وَبَسَاتِينَهَا ، فَلَمَّا رَجَعَ تَلَقَّاهُ الطَّيْرُ ، فَقَالُوا : تَوَعَّدَكَ رَسُولُ اللَّهِ بِنُفْثِ رَيْشِكَ أَوْ بِذُبْحِكَ ، فَيَنْقَطِعُ نَسْلُكَ ، فَقَالَ : وَمَا اسْتَنْتَيْ؟ قَالُوا : بَلَى ، قَالَ : ﴿أَوَلَيْتَانِيَّيْنِ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ ، أَيْ بَعْدَ مَبِينٍ فَأَتَى سُلَيْمَانَ فَقَالَ : مَا غَيَّبَكَ عَنِّي؟ قَالَ : ﴿أَحْطْتُ بِمَا لَمْ نَحِطْ بِهِ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿فَانْظُرْ مَاذَا يَرْتَجِعُونَ . قَالَ سَتَنْظُرُونَ أَصْدَقْتُ...﴾ الْآيَاتِ فَوَجَّهَهُ بِالْكِتَابِ ، فَوَافَقَهُ فِي قَهْرِهَا ، فَسَدَّ عَلَيْهِمَا بِالْكِتَابِ ضَوْءَ طَائِقٍ ، فَانْفَقَتْ فَاتَّقَى إِلَيْهَا الْكِتَابَ ، فَأَخَذَتْهُ وَغَطَّتْهُ بِثَوْبٍ ، وَنَادَتْ فِي قَوْمِهَا فَقَالَتْ : ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ...﴾ الْآيَاتِ ، فَقَالُوا لَهَا : ﴿نَحْنُ أَوْلَوْ قُوَّةً...﴾ الْآيَاتِ . ثُمَّ قَالَتْ : إِنْ قَبِلَ الْهَدِيَّةُ فَهُوَ مَلِكٌ مِنْ مَلُوكِ الْهَدَنِيَّةِ وَأَنَا أَعَزُّ مِنْهُ ، وَإِنْ لَمْ يَقْبَلْهَا فَهُوَ نَبِيٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ .

فَلَمَّا رَجَعَ بِالْهَدِيَّةِ قَالَ سُلَيْمَانُ : ﴿أَتَمِدُّونَ بِنِمَالٍ﴾ إِلَى ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ . فَلَمَّا رَجَعَ إِلَيْهَا رَسَلَهَا بِالْخَبَرِ ، خَرَجَتْ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهَا - قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : وَمَعَهَا أَلْفُ قَيْلٍ ، وَأَهْلُ الْيَمَنِ بِسُمُونِ الْقَائِدِ الْقَيْلِ - مَعَ كُلِّ قَيْلٍ عَشْرَةُ آلَافٍ . وَكَانَ سُلَيْمَانُ مَهْمِبًا لَا يَبْدُوهُ أَحَدٌ بِشَيْءٍ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْهُ ، فَخَرَجَ فَرَأَى رَهْجًا قَرِيبًا مِنْهُ ، فَقَالَ : مَا هَذَا؟ قَالُوا : بَلْقَيْسُ ، قَالَ : وَقَدْ نَزَلَتْ مَعًا بِهَذَا الْمَسْكَنِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿أَيْ-كُمُ يَا نَبِيَّيَ بِمَرْشِيهَا﴾ فَأَتَاهُ بِهِ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمَ الْكِتَابِ قَبْلَ مَا نَقَطَ كَلَامَهُ ، وَصَرَفَ بَصَرَهُ ، فَرَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ ، فَقَالَ : هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي . ثُمَّ جَاءَتْ بَلْقَيْسُ وَقَعَدَتْ إِلَى سُلَيْمَانَ ، فَقِيلَ لَهَا : ﴿أَهْمُكَذَا عَرَشُكَ﴾ فَنَظَرَتْ إِلَيْهِ وَقَالَتْ : ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ ثُمَّ قَالَتْ : تَرَكْتُهُ فِي قَهْرِي وَالْجَنُودِ مُحِيطَةً بِهِ ، فَكَيْفَ جِئْتُ بِهِ؟ وَكَانَتْ شَعْرَاءَ السَّاقِينَ ، فَقَالَتِ الْجَنُّ : إِنْ نَكَحَّهَا سُلَيْمَانُ فَوَلَدَتْ لَهُ غُلَامًا مَا نَنْفَكُ مِنَ الْعَبودية أَبَدًا ، فَهَلُمَّ نَبِيَّ لَهُ بَنُوْنَا ، فَيَرَى شَعْرَهَا فِيهِ فَلَا يَتَزَوَّجُهَا ، فَبَنُوا لَهُ صَرْحًا أَخْضَرَ مِنْ قَوَارِيرِ كَأَنَّهُ الْمَاءُ ، وَجَمَلُوا فِي بَاطِنِ طَرَائِقِهِ كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الدُّوَابِّ وَالسَّمَكِ وَغَيْرِهِ ، وَأَلْقَى لِسُلَيْمَانَ كَرَمِي فِي أَقْصَاءِ : فَلَمَّا رَأَى مِنْهُ مَا رَأَى قَعَدَ عَلَيْهِ ، وَدَعَا بِهَا ، فَلَمَّا رَأَتْ صُورَ السَّمَكِ فِيهِ حَسِبَتْهُ لَجَّةً ، وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا . فَأَبْصَرَ شَعْرَهَا سُلَيْمَانُ ،

فصرف بصره عنها ، وقال إنه صرح بمرد من قوارير ، فقالت : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي .. ﴾ الآية . فقال سليمان للجن : ما يذهب الشعر ؟ فقالوا : له النّورة ، فاسفكها سليمان عليه السلام .

وذكر ابن إسحاق أنها لما أسلمت ، قال لها سليمان : اختاري رجلاً من قومك أزوجه ، فقالت : ومثلي يُنكح ، وقد كان لي من الملك والسلطان ما كان ! فقال لها : ما ينبغي أن نحرمني ما أحل الله لك ، فزوجها ذاتبج ملك همدان ، وملكه اليمن ، وردّها معه ، فلم يزل ملك اليمن حتى مات سليمان . وكانت بلقيس من بيت الملكة ، قيل : إنها ولدها أربعون ملكاً ، واختلف في أمها قيل : إنسيّة وقيل جنيّة .

وأما عرشها ، وهو سريرها ، تقول : كان طوله ثمانين ذراعاً ، ومعرضه كذلك . وكان عرشها صفاً من ذهب وفضة قد ركبت فيه فُصوصُ الياقوت الأحمر والزّبرجد الأخضر والدرّ واللؤلؤ ، وكان له قائمتان من ياقوت وقائمتان من زبرجد ، ولللك قُدٌّ واحدة ، ألقى سحر لسليمان هذا الملك العظيم ومن أحضر له هذا العرش العظيم قبل رجوع الطرف .

وذكر الحريري في الدرّة : أن صواب لفظ « بلقيس » أن تكسر باؤه لأن كل أعجمي يُمرّب بقياسه أن ياحق بأمثلة كلام العرب ، قال : وعلى ذلك بلقيس .^(١)

وقرأت في أخبار سيف الدولة أن الخالدين مدحاه ، فبعث إليهما وصيفاً ووصيفة ، مع كل واحد منها بدرة وتخت من ثياب مصر والشام ، فسكها إليه :

لَمْ يَفِدْ شُكْرَكَ فِي الْخِلَاقِ مَظْلُومًا إِلَّا وَمَالُكَ فِي النَّوَالِ حَبِيسٌ^(١)
 حَوَّلْتَنِي شَمْسًا وَبَدْرًا أَشْرَقَتْ بِهِمَا لَدَيْنَا الظُّلُمَةُ الْخَذِيسُ
 رَشَاءُ أَنَا وَهُوَ حُسْنًا «يُوسُفُ» وَغَزَالَةٌ هِيَ بِهِجَةٌ «بَلْقِيسُ»
 هَذَا وَلَمْ تَقْنَعْ بِذَاكَ وَهَذِهِ حَتَّى بَعَثْتَ الْمَالَ وَهُوَ نَفِيسُ
 أَنْتِ الْوَصِيفَةُ وَهِيَ تَحْمِلُ بَدْرَةً وَأَتَى عَلَى ظَهْرِ الْوَصِيفِ الْكَيْسُ
 وَكَسَوْنَنَا مِمَّا أَجَادَتْ حَوَّكُهُ مَصْرٌ وَزَادَتْ حُسْنُهُ نَخِيسُ
 فَقَدَانَا مِنْ جُودِكَ الْمَأْكُولِ وَالْمَشْرُوبِ وَالْمَنْكُوحِ وَالْمَلْبُوسِ

فلما قرأها سيف الدولة قال: أحسن، إلا في لفظ «المنكوح»، إذ ليست بما
 مخاطب بها الملوك.

وهذا من بدیع نقده الملیح وشواهد ذكائه الصریح .
 وأما الزّباء: فقد تقدّم ملكها في الرابعة والعشرين .



[ذكر رابعة العدوية]

وأما رابعة فهي^(٢) بنت إسماعيل العدوية، وكانت قد بلغت من الذّسك
 والفضل والزهد منزلة شريفة، وكانت منورة البصيرة، مطهرة السريرة،
 حظيت بالكاشفات الربانية. وكان سفيان الثوري يذهب إليها ويسألها عن
 مسائل دينية، ويعتمد عليها، وخطبها عبد الواحد بن زيد، فقالت له بعد أن

(٢) انظر ترجمتها في ابن خلدون ١٨٢:١

(١) ديوان الخالدين ١٦٢ .

حبيبته أيا ما تم أذنت له: يا شهوان، أي شيء رأيته في من آية الشهوة! ألا خطبت
شهوة وانية مثلك!

وقال أبو سليمان الداراني: بت ليلة عند رابعة العدوية، فقامت إلى محراب
لها، وقت إلى ناحية من البيت فلم تزل قائمة إلى السحرة، فقلت: ما جزاء من قوتنا
على قيام هذه الليلة؟ قالت: جزاؤه أن نصوم له غدا.

وزارها أصحابها، فذكروا الدنيا وأقبلوا على ذمها، فقالت: اسكتوا عن
ذمها، فلو لا موضعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها! ألا من أحب شيئا
أكثر من ذكره.

واحتاجت رابعة إلى شيء فقيل لها: لو بعثت إلى فلان؟ قريب لها، فقالت:
والله لا أطلب الدنيا ممن يملكها، فكيف بمن لا يملكها!

وحدث جعفر بن سليمان قال: أخذ بيدي سفيان الثوري فقال لي: سربي
إلى المؤذنة التي لا أجدي أستريح إذا فارقتها - يعني رابعة - قال: فلما دخلت
عليها، رفع سفيان يديه، وقال: اللهم إني أسألك السلامة! فبكت رابعة،
فقال لها: ما يبكيك؟ فقالت: أنت عرضتني للبكاء، فقال لها وكيف ذلك؟
قالت: أما علمت أن السلامة من الدنيا ترك ما فيها، فكيف وأنت
مقاطع بها!

وقال سفيان الثوري لرابعة راحة الله عليهما: ما حقيقة إيمانك؟ قالت:
ما عبده خوف الفار، ولا رجاء الجنة، فأكون كالأجير السوء، بل عبده حبا له
وشوقا إليه، وقالت في معنى ذلك:

أحبك حُبَيْن: حبَّ الهـوى وحُبًّا لأنك أهلٌ لذلك

فَأَمَّا الَّذِي هُوَ حَبَّ الْهَوَىٰ فَشَغَلِي بِذِكْرِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ
وَأَمَّا الَّذِي أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ فَكَشَفَكَ لِي الْحِجَبَ حَتَّى أُرَاكَ
فَلَا الْحَدَّ فِي ذَا وَلَا ذَا لِيَا وَلَكِنْ لَكَ الْحَدُّ فِي ذَا وَذَاكَ

وقهل لها : كيف حبّك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : شغلتني
حبّ الخالق عن حبّ المخلوقين .

ودخل سفيان عليها وهي قائمة تصلي ، فلم تعرّج عليه ، ودخل جعفر - وكان
يخدمها - فقال لسفيان : أي شيء دار بينك وبينها ؟ قال : ما كلمتني . فقال لها :
يا سبحان الله ! الشيخ جاء إليك فما كلمته ، فقالت : إن العبد إذا كان مقبلاً على
الله عز وجل كان الله مقبلاً عليه ، وقد كنت مقبلة على الله عز وجل ، ولست
أشكّ في إقباله عليّ ، فأبما أحبّ إليك أن أكون مقبلة على الله ويكون
مقبلاً عليّ ، أو أقبل على هذا ؟ ثم قالت : الله أكبر .

وقال لها رجل : إني أحبك في الله ، فقالت : فلا تنعمي الذي أحببتني له
وأنشدت :

أَتَغْمِنُ بِأَنْتِي تَرَكِ الْمَعَاصِيَ وَأَرْهَنَهُ الْكَفَالَةَ بِالْخُلَاصِ
أَطَاعَ اللَّهُ قَوْمٌ فَاسْتَرَحُوا وَلَمْ يَتَجَرَّعُوا غُصَصَ الْمَعَاصِيَ

[ذكر خندف]

وأما خندف ، فهي ليلى بنت حُلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ،
وهي امرأة إلياس بن مضر ، ولدت منه عمراً وهو مدركة ، وعامراً وهو طابخة ،

وعميراً وهو قَمْعَة ، فندت لهم إبل ، فخرجوا في طلبها فأدركها همرو ، فسُمِّيَ مدركة ، واقتنص حاسر أرنبا فطبخها ، فسُمِّيَ طابخة ، وانقمع عمير في بيته فسُمِّيَ قَمْعَة ، فلما أبطلوا عليها خرجت في إثرهم ، فقالت : ما زلت أخندف في إثركم ؟ فلنبت خندف ، والخندفة بالهرولة ، وهي أمّ عرب الحجاز ، وجميع ولد إلباس من خندف ، وخندف يُنسبون ، وجميع ولد مضر من إلباس وخندف ، فن مدركة كدانة وأسد ابنا خزيمة ، ومن طابخة ضبة بن طابخة ، ومزينة والرّباب ، وهم عدى وتميم بن مر بن أد بن طابخة ، وتور وعُكل بن مدركة ، وقُرَيْش وهو في كنانة .

ومنها سيد ولد آدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى ما في كنانة من الشجعان المشاهير في الجاهلية .

ومن طابخة تميم ، وهي أكبر قبيلة في العرب وأشجعها ، وهي عدد لا يحصى ، وهز لا يدرك .

وقال المنذر بن ماء السماء ذات يوم وعنده وفود قبائل العرب ودّها بئزهرن فقال : ليلبس هذين البرذنين أكرم العرب وأشرفهم حسباً وأعزّم قبيلة ، فأحجم الناس ، فقام الأحمر بن خلف بن بهدلة بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة ابن تميم ، فلبس أحدهما وارتنى الآخر ، فقال له المنذر : ما جئتكم فيما ادعيت ؟ قال : الشرف من نزار في مضر ، ثم في تميم ، ثم في سعد ، ثم في بهدلة ، قال : هذا أنت في أصلك ، فكيف أنت في عشيرتك ؟ قال : أنا أبو عشرة وعم عشرة وخال عشرة قال : هذا أنت في عشيرتك ، فكيف أنت في نفسك ؟ فقال : شاهد العين شاهدي ، ثم قام فوضع قدمه في الأرض ، وقال : من أزالها فله مائة من الإبل ، فلم يبق إليه أحد ، وفي ذلك يقول الفرزدق :

فإنتم في سعدٍ ولا آل مالكٍ غلام إذا ما قيل لم يقبهم دل^(١)
 لهم وهب الله مكان بُردى محرقٍ بمجد معدّ والعديد المحصل
 فلخندف هذا الفخر في الجاهلية ثم النبوة ، ثم الملك إلى يوم القيامة وفيها
 يقول الراجز :

• وخندف هامة هذا للعالم •

* * *

[ذكر الخنساء]

وأما الخنساء فهي ثُمَاض بنت عمرو بن الشريد ، من سِراة قهاثل سليم بن
 منصور بن عكرمة بن خَصَفَة بن قيس عيلان ، قدمت على رسول الله صلى الله
 عليه وسلم مع قومها بني سليم ، ولَسَلِمَ في الإسلام صابغة حسنة ، حضر منهم
 مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فَتَحَ مكة وحرب حُنَيْن ألف رجل .

وذكروا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستنشد الخنساء ويمجِّبُه
 شعرها ، فكانت تنشده وهو يقول : هيه يا خنساء ! ونظرتها عائشة رضي الله
 عنها ، وعليها صِدَارٌ من شعر ، فقالت : يا خنساء ، أتلبسين الصِّدَار وقد نهى عنه
 رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : لم أعلم بنهى رسول الله صلى الله عليه
 وسلم ؛ وكان للصِّدَار سبب ، كان زوجي رجلاً مِثْلَاقاً فأماق ، وأراد أن يسافر ،
 فقلت له : أقم حتى آتي أخى صخرًا ، فأنيته فشاطرني ، ماله فأتلفه زوجي ، فعدت
 إليه فعاد بمثل ذلك ، فأتلفه زوجي ، فعدت إليه في الثالثة والرابعة ، فقالت له
 زوجته : إن هذا المال متلف ، فامنعها شرار مالك ، فقال :

والله لا أَمْنَحُهَا شَرَارَهَا وهي حَصَانٌ وقد كَفَنَتْنِي عَارَهَا^(١)
ولو هَلَكْتُ خَرَقْتُ خَارَهَا واتَّخَذَتْ مِنْ شَعْرِهَا صِدَارَهَا
فلما هَلَكَ اتَّخَذَتْ هَذَا الصِّدَارَ .

وقيل لجريـر : مَنْ أَشْعَرُ النَّاسِ ؟ قال : أنا ، لولا هذه الفاعلة - بمعنى الخنساء -
قوله له : فِيمَ فَضَلْتُكَ ؟ قال بقولها :

إِنَّ الزَّمَانَ وَمَا تَفْنَى عَجَائِبُهُ أَبَقِيَ لَنَا ذَنْبًا وَاسْتَوْصِلَ الرِّاسُ^(٢)
أَبَقِيَ لَنَا كُلَّ مَجْهُولٍ وَفَجَعْنَا بِالْحَالِمِينَ فَهَمَّ هَامٌ وَأَرْمَاسُ^(٣)
إِنَّ الْجَدِيدِينَ فِي طَوْلِ اخْتِلَافِهِمَا لَا يَفْسُدَانِ وَلَكِنْ يَفْسُدُ النَّاسُ
فَاجْمَعِ عِلْمَاءَ الشَّعْرِ أَنَّهُ لَمْ تَسْكُنْ قَطَّ امْرَأَةً قَبْلَهَا وَلَا بَعْدَهَا أَشْعَرَ مِنْهَا .

وكان النابغة الذبياني يجلسُ لشعراء العرب بِمَكَازٍ عَلَى كَرْمِيٍّ ، يَنْشُدُونَهُ
فَيُفَضِّلُ مَنْ يَرَى تَفْضِيلَهُ ، فَأَنْشَدَتْهُ فِي بَعْضِ الْمَوَاسِمِ فَأَعْجَبَ بِشَعْرِهَا ، وَقَالَ لَهَا :
وَالله لَوْلَا أَنَّ هَذَا الْأَعْمَى أَنْشَدَنِي قَبْلَكَ - يَعْنِي الْأَعْمَى - لَفَضَلْتُكَ عَلَى شِعْرَاءِ
هَذَا الْمَوْسَمِ .

وكان بشار يقول : لَمْ تَقُلْ امْرَأَةً شِعْرًا إِلَّا ظَهَرَ الضَّمْفُ فِيهِ ، فَقِيلَ لَهُ :
أَوْ كَذَلِكَ الْخَنْسَاءُ ؟ فَقَالَ : تِلْكَ كَانَتْ لَهَا أَرْبَعُ خُمَى .

وَمِنْ جَيِّدِ مَا رَثَتْ بِهِ صَخْرًا قَوْلُهَا :

(١) شرح ديوان الخنساء ٢١ ، الأغاني .

(٢) ديوانها ١٥٥ ، وروايته : د وما يفنى له عجب .

(٣) جَمَعْنَا : أَحْزَنَّا ، وَالْهَامُ : جَمْعُ هَامَةٍ ، أَرَادَ بِهِ هَامَتَا الْجِثَّتَيْنِ وَالْمَرَافَتَيْنِ . وَالْأَرْمَاسُ :
القبور ، جَمْعُ رَمْسٍ .

ألا يا صخرُ إن أبكىْتَ عيني لقد أضحكْتَنِي دَهْرًا طويلاً^(١)
بكيَّتْكَ في نساءِ ممولاتٍ وكنتَ أحقَّ منْ أبدى العوِيلاً
دفعتُ بكِ الجليلَ وأنتِ حَيٌّ فنِ ذَا يَدْفَعُ الخُطْبَ الجليلَ
إذا قَبَّحَ البكاءُ على قومٍ رأيتُ بكاءَكَ الحَسَنَ الجميلاً

ومنه :

يؤرِّفني التذكُّرُ حينَ أمسى ويردُّعني عن الأحزانِ نُكسي^(٢)
على صخرٍ وأنى فتى كصخرٍ ليومِ كريمةٍ وطمانِ خَلَسِ
ولم أر مثله رُزواً لجنٍّ ولم أر مثله رزواً للإنسِ
يدكرُّني طلوعُ الشمسِ صخرًا وأبكيه لكلِّ غروبِ شمسِ
ولولا كثرةُ الباكينِ حوَّلي على إخوانهم لقتلتُ نفسي
وما يسكون مثل أخى ولا كن أعزى النفسِ عنه بالتأَمي

ومنه أيضاً :

أبعدُ ابنِ عمرو من الِ الشَّريدِ حَلَّتْ به الأرضُ أثقالها^(٣)
لعمُرُ أبيه لنعمَ الفتى إذا النفسُ أعجبها مالها
فإن نك مرةً أودتْ به فقد كان يكثرُ تنقالتها
فخرَّ الشوايح من قَدِّه وزُلْزِلَتِ الأرضُ زلزالها

(١) ديوانها ٢٢٥ .

(٢) ديوانها ١٥٠ ، وفيه : « مع الأحزان » .

(٣) ديوانها ٢٠١ ، وقوله :

ألا مالعينك أم مالها وقد أخضَل الدَّمعَ يَريرَ بالها

ومنه أيضاً :

أعيني جوداً ولا نجمداً ألا تبكيان لصخر القدي^(١)
ألا تبكيان الجريء الجمول^(٢) ألا تبكيان الفتى السودا
طويل الذجاد رفيع المصا د ساد مشيرته أمردا

ومنه أيضاً :

تمرتني الدهر نهشاً وحزاً وأوجعتني الدهر قرعاً وغمزاً^(٣)
وأفنى رجالي فبادوا معاً فأصبحتُ من بينهم مستغزراً^(٤)
كان لم يسكنوا حتى يتقي إذ الناس إذ ذك من عزباً
وكانوا سراة بني مالك ونخر العشرة مجدأً وهزاً
جززنا نواصي فرسانها وكانوا يظفون ألا تجزاً
ومن ظن من يلقى الحرو ب ألا يصاب فندظن عجزاً

ومنه أيضاً :

يا صخر وراذ ماء قد تبادره^(٥) أهل للوارد وما في ورده عار
منى السبقتي إلى هوجاء معضلة له سلاحان أنياب وأظفار^(٦)

(٢) الديوان : « الجيم » .

(٤) الديوان :

(١) ديوانها ٤١ .

(٣) ديوانها ١٤٣ .

* فأصبح قلبي لهم مستغزراً *

(٦) الديوان : النمر .

(٥) ديوانها ٧٥ .

وما عَجولٌ عَلَى بَوِّ نَحْنُ لَهُ لَهَا حِينَانِ إِعْلَانِ وَإِسْرَارُ
تَرْتَعِ مَارْتَعَتْ^(١) حَقٌّ إِذَا ذَكَّرْتُ فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالُ وَإِدْبَارُ
يَوْمًا بِأَوْجَعِ مَنَى حِينَ قَارِقِي صَخْرٌ فَلَدَهْرٍ إِحْلَاءُ وَإِمْرَارُ
وَأِنْ صَخْرًا لَوَالِيْنَا وَسَيِّدُنَا وَإِنْ صَخْرًا إِذَا نَشْتُو لَنَحَارُ
وَأِنْ صَخْرًا لَنَأْتُمُ الْمَدَاءُ بِهِ كَأَنَّهُ عِلْمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ
وحدث المفضل قال : كنت جالساً يوماً على باب منزلي ، أحتاج إلى درهمٍ واحد ، وعلى دين عشرة آلاف درهم ، إذ جاءني رسول المهدي ، فقال : أجب أمير المؤمنين ، فقلت في نفسي : وما بعثته إلي ! لعل ساعياً سعى بي عنده . ثم دخلت منزلي ، ولبست ثيابي ، وسرتُ إليه ، فلما مثلت بين يديه أومأ إليّ بالجلوس ، فلما سكن جأسي ، قال لي : يا مفضل ، ما أنفغرُ بيت قالته العربُ ؟ فأرتجعَ إلي ساعه ، ثم قلت : يا أمير المؤمنين قولُ الخنساء ، فاستوى جالسا وكان معكنا ، فقال : أي ، [بيت هو ؟]^(٢) فقلت قولها :

وَأِنْ صَخْرًا لَنَأْتُمُ الْمَدَاءُ بِهِ كَأَنَّهُ عِلْمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ

فقال : قد قلت له فأبى عليّ - وأومأ إلي إسحاق^(٣) بن بزيع - قلت : الصواب مع أمير المؤمنين ، ثم قال : يا مفضل ، حدثني فحدثته حتى انقصف النهار ، قال : أنشدني ، فأنشدته قول الحسين بن مطهر الأسدي :

وَقَدْ تَفَدَّرُ الدُّنْيَا فِيضْحَى غَنِيَّتِهَا فَقِيْرًا وَيَتَرَى بَعْدَ بَوْسٍ قَهْرُهَا
وَكَمْ قَدْ رَأَيْنَا مِنْ تَغْيِيرِ هَيْشَةٍ وَأُخْرَى صَفَا بَعْدَ كَدِّ غَدْرِهَا
فَلَا تَقْرَبِ الْأَمْرَ الْحَرَامَ فَلَانَهُ حَلَاوَتُهُ تَنْفَى وَيَبْقَى مَرِيرُهَا

(١) ط : « ظلت » . (٢) من الأغاني .

(٣) في الأغاني : فأومأ إلى إسحاق بن بزيع ، ثم قال : قد قلت له ذلك فأباه .

(٢٣ - شرح مقامات الحريري ج ٤)

وكان المهدي رقيقاً فبكى ، وقال : يا مفضل ، كيف حالك ؟ قلت : كيف
يكون حال مَنْ عليه عشرة آلاف درهم ، وليس معه منها درهم واحد ، قال :
يا إسحاق ، أعطه عشرة آلاف درهم قضاء لدينه ، وعشرة آلاف درهم يستعين
بها على حاله ، وعشرة آلاف درهم يصلح بها من شأنه ^(١).

ورأى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه الخنساء تطوفُ بالبيتِ مخلوقةً
الرأس ، نهكى وتلطم خدَّها ، وقد علقت نعلَ صَخْرٍ في خمارها ، فومظها
قالت : إني رُزيت فارساً لم يُرْزَأُ أحدٌ مثله ، فقال : إن في الناس مَنْ هو أعظم
مرزاةً منك ، وإن الإسلام قد غطى ما كان قبله ، وإنه لا يحمل لك لطمٌ وجهك ،
ولا كشف رأسك ، فكفَّت من ذلك وقالت :

هَرَبْتُ مِنْ دُمُوعِكَ وَاسْتَفْتَيْتُ	وَصَبْرًا إِنْ أَطَقْتُ وَلَنْ تُطِيقَ ^(٢)
وَقُولِي إِنَّ خَيْرَ بَنِي سُلَيْمٍ	وَأَكْرَمَهُمْ بِصَحْرَاءِ الْعَفِيقِ
أَلَا هَلْ تَرَجِمَنَّ لَنَا إِلَهًا إِلَى	وَأَيَّامٍ لَنَا يَلْوِي الشَّقِيقِ
وَإِذْ فِينَا مَعَاوِيَةَ بْنَ عَمْرِو	عَلَى أَدْمَاءٍ كَالْجَلِجْلِ الْفَنِيقِ ^(٣)
فَنَبِّكِيهِ فَقَدْ أودَى جَهْدًا	أَمِينَ الرَّأْيِ عَمُودَ الصَّدِيقِ ^(٤)
فَلَا وَاللَّهِ لَا تَسْلُوكِ نَفْسِي ^(٥)	لِفَاحِشَةٍ أَنْيْتُ وَلَا عُمُوقِ ^(٦)
وَلَكِنِّي رَأَيْتُ الصَّبْرَ خَيْرًا ^(٧)	مِنَ النَّفْلَيْنِ وَالرَّأْسِ الْخَلِيقِ

وأما أبو العباس المبرد فقال : وقالت الخنساء ترقى أخاها معاوية بن عمرو ،
وكان أخاها لأبيها [وأُمها ، وكان صخر أخاها لأبيها] ^(٨) وكان أحبهما إليها ،

(١) الخبر والعمر في الألفاظ ١٦ : ٢١ ، ٢٢ . (٢) ديوانها ١٧٣ .

(٣) أدماء : ناقة بيضاء . والفنيق : الفحل من الإبل .

(٤) الديوان : « فيسكيه » (٥) الديوان : « ماسليت نفسي » .

(٦) الديوان : « بفاحشة علمت » .

(٧) الديوان : « بعاقة فإن الصبر خير » . (٨) من الكامل .

واستحق ذلك لأمر : منها أنه كان موصوفاً بالحلم مشهوراً بالجود ، معروفاً بالتقدم والشجاعة ، محظوظاً في العشيرة ، ثم أنشد الأبيات المتقدمة ^(١) .

وكان صخر أحمل رجل في العرب ، وكان سبب قتله أنه جمع جمعاً ، وأغار على بني أسدين خزيمه ، فنذروا به والتقوا ، واقتتلوا قتالاً شديداً ، فرفض أصحاب صخر عنه ، فطمعه ربيعة بن ثور الأسدي ، فأدخل جوفه حلقة من الدرع ، فاستقل ^(٢) منها ، وسار إلى أهله فاندمل عليه الجرح ، ونشأ منه مثل الهدى ، فأضناه ذلك حولاً ، فسمع سائلاً يقول لامرأته : كيف صخر اليوم ؟ قالت : لحي فبرجى ، ولا ميت فينقى ، ولقد لقينا منه الأمرين - وأمراته بديلة الأسدية ، وكان سبأها من بني أسد ، وانخذها لنفسه - فلما سمع قولها علم أنها برمت منه ، ورأى نحر ن ^(٣) أمه عليه ، فقال :

أَرَى أَمْ صَخْرٍ لَا تَجِفُّ دُمُوعُهَا وَمَلَّتْ سُلُوبِي مَضْجَعِي وَمَكَائِي
وَمَا كُنْتُ أَخْشَى أَنْ أَكُونَ جِنَازَةً عَلَيْكَ ، وَمَنْ يَفْتَرُّ بِالْخُدَّائِي
أَمْ بِأَسْرِ الْحَزْمِ لَوْ اسْتَطَعْتُمُ وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الْعِيرِ وَالنَّزْوَانِ
لِعَمْرِي قَدْ نَبَهْتُ مَنْ كَانَ نَائِمًا وَأَسْمَعْتُ مَنْ كَانَتْ لَهُ أُذُنَانِ
فَأَيُّ اسْرِيءَ سَاوِي بِأَمِّ حَلِيلَةٍ فَلَا عَاشَ إِلَّا فِي شَقَى وَهَوَانِ

ثم حزم على قطع ذلك الموضع ، فلما قطعه يئس من نفسه ، فقال :

أَجَارَتْنَا إِنْ الْخَطُوبُ قَرِيبُ عَلَى النَّاسِ ، كُلِّ الْخَطُوبَيْنِ تَصِيبُ
أَجَارَتْنَا إِنْ غَرِيبَانِ هَاهُنَا وَكُلِّ غَرِيبٍ لِقَرِيبٍ نَسِيبُ

(١) الكامل : ٤ : ٥١ .

(٢) ط : « فاستقل » تحريف . وفي الكامل : « استقل بها » .

(٣) الكامل : « حزن أمه » .

فلما مات دفن في أرض بني سليم بقرب عَيب^(١).

وحضرت الخنساء القادسية مع بنيتها وم أربعة رجال ، فقالت لهم من أولي الليل : يا بني إنكم أسلمتم طائفتين ، وهاجرتم مختارين ، والله الذي لا إله إلا هو ؛ إنكم لبنو رجل واحد ، كما أنكم بنو امرأة واحدة ، ماخفت أباكم ، ولا نصحت خالكم ، ولا هجنت حسبكم ، ولا غيرت نسبكم ، وقد تعملون ما أعد الله تعالى للمؤمنين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين . واعلموا أن الدار الآخرة خير من الدار الدنياه ، يقول الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَاصْبِرُوا وَوَزَّاءُطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ، فإذا أصبحتم غدا إن شاء الله سالمين فاغدوا لقتال عدوكم مستبصرين ، وبالله على أعدائه مستنصرين ، فإذا رأيتم الحرب قد شمرت من ساقها ، وجلت نارا على أوراقها ، فتوهموا وطيسها ، وجالدوا رسيبها ، تغلبوا بالغنم والسكرامة في دار الخلد والمقامة . فلما أضاء لهم الصبح باكروا مراكزهم فتقدموا واحداً بعد واحد ، يُنشدون أراجيزاً يذكرون فيها وصية المجوز لهم ، حتى قتلوا من آخرهم ، فبأنها الطير ، فقالت : الحمد لله الذي شرّفتني بقلمهم ، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر الرحمة .

وكان عمر بن الخطاب يعطيها أرزاق بنيتها الأربعة ، وكان لكل منهم مائتا درهم ، حتى قبض رضي الله تعالى عنه .

قوله : فهددة رحل ، أي امرأة يتي . وناقاة طروقة : بلغت أن يطرقها الفحل . وأخفت . استنكفت وكرهت .

قال : فتذمرت المرأة وتنترت ، عن ساعدها وشمرت ، وقالت له : يا ألام من مادر ، وأشام من قاشر ، وأجبت من صافر ، وأطيش .

(١) الحبر والشعر في الكامل ٤ : ٦ ، ٦١ مع اختلاف في العبارة وتغيير في الأبيات .

من طامر؛ أترميني بشنارك، وتفرى عري بشفارك، وأنت تعلم
أنك أحقر من قلامة، وأعيب من بئلة أبي دلامة، وأفزع من
حبقة، في حلقة، وأحير من بقة، في حقة.

وهبك الحسن في وعظه وآفته، والشعبي في علمه وحفظه،
والخليل في مروضه ونحوه، وجريراً في غزله ومجوه، وقسافي
فصاحته وخطابته، وعبد الحميد في بلاغته وكتابته، وأبا عمرو في
قراءته وإغرابه، وابن قريش في روايته عن أعرابه؛ أتظنني
أرضاك إماماً لمخزاني، وحساماً لقراي، لا والله ولا بواباً لبابي،
ولا حصاً لجراي.



تذمرت: غضبت، وتذمر الرجل، إذا رأى ما يكرهه فغضب وتهدد، والتذمر:
اللوم والحض، وتذمر قائد الجيش أصحابه يذمرهم، إذا لامهم وأصمهم ما يكرهون
ليجذوا في القتال. تنمرت: تغيرت وتشبهت بالنمر، ولا يوجد النمر إلا مستكراً
مضبان، ونمر الرجل وتنمر: تنكّر وتغير. حسرت عن ساعدها: شمرت عن
ذراعها. أطيش: أخف، والطيش: خفة العقل.

والطامر: البرغوث، يقال له طامر ابن طامر. قال الأصمعي: كنت بالبادية
فرايت أعرابياً قد بسط كساءه ليقليه في الشمس، فوقفت أنظر إليه، فجعل
ياخذ البراغيث، ويدع القمل، فقلت له: لم تأخذ بعضاً وتدع بعضاً؟ فقال:
أبدأ بالفرسان ثم أعكر^(١) على الرجال.

(١) مكر على الشيء: كره وانصرف إليه.

سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً يسب برغوثاً ، فقال : « لا تسبه فإنه
نبيه نبياً من الأنبياء لعلة الفجر » .

أبو الدرداء رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أذاك
البراغيث ، فخذ قدحاً من ماء ، واقرأ عليه سبع مرات ، ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَّقَ كُلَّ
عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾ إلى قوله : ﴿ المتوكلون ﴾ ^(١) . فكفوا شرهم وإذا كم
هنا ، ثم ترش الماء حول فراشك ، فإنك تبيت الليلة آمناً من شرها » .
شمارك : عيبك وعارك . تفرى : تقطع ، وفرى ، يستعمل فى القطع على
جهة الإصلاح ، وقد جاء هنا فى الإفشاء ، ومنه قول الشاعر :

فرى نائبات الدهر بيني وبينها وصرف اليبالى مثل ما فرى الجلد
ابن سيدة : فرى الشيء يفرىه فرياً وفراء تفرية ، كلاهما شق وأفسده .
وأفراه أصلحه ، والمتقنون من أهل اللغة ، يقولون : فرى : شق للإفساد وأفرى
للاصلاح . وقيل : أفراه أفسده ، وفراء : قطعه للإصلاح . قال الأصمى رحمه الله :
أفرى الجلد مزقه وأفسده ، يفرىه إفراء ، وفرى المزايدة يفرىها فرياً : خرزها .
القلامة : ما يقص من الظفر ، وبها يتعلق وسخه ، فهمى مع حقارتها مستفدرة .

[ذكر أبى دلالة]

وأما أبودلالة ، فاسمه زند - بالنون - بن الجون ، وهو كوفى أسود ، مولى
لهبى أسد ، أدرك آخر أيام بنى أمية ، ونبع فى أيام بنى العباس ، ومدح السفاح
والمنصور والمهدى ، وكان صاحب نوادر ومُلج ، وكان خليفاً فاسد الدين ،
ودى المذهب ، وقد تقدم له شيء من ذلك فى الصلاة والحج ، ونذكر له هاهنا
شيئاً فى الصيام ، ونضيف له فنونا من سائر ملحه .

وأما بغلته فكانت جامعة لميوس الدواب كلها ، وكانت أشوه الدواب

خِلْقَةً فِي مَنْظَرِ الْعَيْنِ، وَأَسْوَأَهَا خَلْقًا فِي مَخْبَرِهَا، فَكَانَ إِذَا رَكِبَهَا تَبِعَهُ الصَّبِيانُ
بِقَضَاكَهُمْ بِهِ، وَكَانَ يَقْصِدُ رُكُوبَهَا فِي مَوَاقِبِ الْخُلَفَاءِ وَالْكِبَرَاءِ، لِيَضْحَكَهُمْ
بِشَاسِهَا؛ حَتَّى نَظُمَ فِيهَا قَصِيدَتَهُ الْمَشْهُورَةَ^(١) وَهِيَ:

أَبْعَدَ الْخَمِيلِ أَرْكَبُهَا كَرَامًا وَبَعْدَ الْفُرْزِ مِنْ حُضْرِ الْبَقَالِ^(٢)
رُزِقْتُ بُغْيَةً فِيهَا وَكَالٌ وَلَيْتَهُ لَمْ يَكُنْ غَيْرَ الْوِكَالِ^(٣)
رَأَيْتُ عَيُوبَهَا كَثُرَتْ وَغَالَتْ^(٤) وَإِنْ أَكْثُرْتُ نَمَّ مِنَ الْمَقَالِ^(٥)
لِيُحِصِيَ^(٦) مَنْطِقِي وَكَلَامَ غَيْرِي عُسْبَيْرُ خَصَالِهَا، شَرُّ الْخَصَالِ^(٧)
فَأَهْوَنُ عَيْنِيهَا أَنِّي إِذَا مَا نَزَلْتُ وَقُلْتُ: لِمَ شِئْتُ لَاتُبَالِي
تَقَوْمُ فَمَا تَبَيَّنَتْ^(٨) هُنَاكَ شَيْئاً وَتَرْتَحْنِي وَتَأْخُذْنِي قِتَالِي
وَحِينَ رَكِبْتُهَا أَذَيْتُ نَفْسِي^(٩) بِضَرْبِ الْبَلِيمِ وَالشَّمَالِ^(١٠)

(١) وردت هذه القصيدة في ثمار القلوب للشامي ٣٦١-٣٦٤، وكتاب القول في البقال
لجاحظ، وأبيات منها في الأغاني ١٠: ٢٦٥، ونهاية الأرب ١٠: ٨٩.

(٢) ثمار القلوب: «بعد الفر» والبيت في كتاب البقال ونهاية الأرب:

أَبْعَدَ الْخَمِيلِ أَرْكَبُهَا وَرَادًا وَشُقْرًا فِي الرَّعِيلِ إِلَى الْفَقَالِ

(٣) الوكال: الحكيل والبطء.

(٤) كذا في كتاب البقال: وفي ثمار القلوب: «وميت فيها». وفي نهاية الأرب.

«وعالت» ولفظ: «وليت»

(٥) كتاب البقال ونهاية الأرب وثمار القلوب: «ولو أفنيت مجتهدا مقال».

(٦) ثمار القلوب: «ليحصي».

(٧) ثمار القلوب: «فغير خصالها شرح الخصال»، ولم يرد هذا البيت في نهاية الأرب.

(٨) ثمار القلوب: «فما تبين هناك سيرا». وفي كتاب البقال: «تقوم فما تريم إذا

استعجنت».

(٩) ثمار القلوب: «وحين ركبته أذيت نفسي».

(١٠) ثمار القلوب: «أركبها».

وبالرجلين أركضها جمعاً
أناي خائبٌ يستأتم^(٢) مني
وقال تبئعها ؟ قلت أرتبعتها
فأقبل ضاحكاً نحوى سرورا
هلم إلى يخلو بي خداعاً^(٣)
فقلت بأربعين فقال أحسن
فأنزك خمسة منها لعلني
فلما ابتاعها مني وبنت
أخذت بثوبه وبرئت مما
برئت إليك من مَشَشٍ^(٤) قديم

فها لك في الشتاء وفي الكلال^(١)
عريق^(٢) في الخسارة والضلال
بحبك إن بومي غير خال
وقال أراك سهلاً ذا جمال
وما بدري الشقي بمن يُحاكي
إلى فإن مثلك ذو سِجَالٍ^(٥)
بما فيه يصير من الخبال
له في البيع غير المُستقال
أعدت عليه من سوء الخلال
ومن جرّد^(٦) ومن بلّ الخالي^(٧)

(١) بعده في كتاب القول في البغال ونهاية الأرب :

رياضة جاهلٍ وعُلَيجُ سوء
شقيم الوجهِ هلباجٍ هِدَانٍ
فأذهبها بأخلاق سماجٍ
فلما هدّني ونفى رُقادي
أنيتُ بها الكفاسة مستغنياً
بمهددة سلعةٍ ردت قديماً
فبينما فكرتني في السوم تُمرى
من الأكراد أحبن ذى سُعالٍ
تُعوس يوم حلّ وارنِحالٍ
جزاه الله شراً عن عوالي
وطالَ لِدَاكُمُى واشتغالي
أفكر دائباً كيف احتيالي
أطمم بها على الداء المُضالٍ
إذا ما نمتُ أرخصُ أم أغالي

(٢) كتاب البغال وثمار القلوب ونهاية الأرب : « حتى شقي » .

(٣) فيما هذا الفريسي : « قديم » .

(٤) كتاب البغال ونهاية الأرب : « وراوغني ليخلو بي خداعاً » .

(٥) السجال هنا : المباراة والساجلة ، يريد أنه لا يماكس في الثمن .

(٦) المشش : ورم يأخذل . مؤخر عظم الوظف أو باطن الساق .

(٧) الجرد في الدواب : ورم في مؤخر عروق الفرس يعظم حتى يمنعه المشي .

(٨) في كتاب البغال ونهاية الأرب وثمار القلوب : « وتخريق الجلال » . وبهذه فيها :

ومن فرط الحران ومن جهاحٍ ومن ضعف الأسافل والأعالي

ومن فَنَقَى بها في البطن ضخم . ومن عَمَّالها^(١) ومن انْفَتَلَ
 ومن قطع الاسان ومن بياض بعونيتها ومن قَرَضَ الحبال^(٢)
 ومن عضَّ الغلام ومن خِرَاطِ^(٣) إذا ما تمَّ صَحْبُكَ بارتحال
 وأفطى من فُرَيْخ الذر مشياً بها عَرَنَ وداء من سُلَال^(٤)
 ونكسرُ سرجها أبداً شماساً وتقصمُ للإكاف على اغتيال^(٥)
 ويُدْبِرُ ظهرها من مَسَّ كَفَ وتهزم في الجلم وفي الجلال^(٦)
 تظلَّ رَكْبَةً منها وقمداً يخاف عليك من ورم الطحال
 ومِشْفَارُ^(٧) تقدّم كلَّ سرج تصيّر دَقِيْدَ على القَذال
 وتتحقّق لو نسيرُ على الحشايا ولو تمشى على دَمِثِ الرّمال
 إذا استعملتها عَثَرَتْ وبالت وقامت ساعة عند المبال
 وتضرب أربعين إذا وقفنا على أهل الجالس للحوال
 ففقطع منطقي ونحول بيني وبين حديثهم فيما توالى
 وتذعرُ للدّجاجة إذ تراها وتنفّر للصغير ولا يخال

(١) المقال : داء يأخذ في قوائم الدابة .

(٢) كتاب البغال : « بناظرها ومن حل الحبال » ، وبعده :

وهقال يُلازمها شديد ومن هدّم العالِف والمركال
 تُقطع جلدّها جرّبا وحكا إذا هزّت وفي غير الهزال

(٣) كتاب البغال ونهاية الأرب : « ومن عض العضاض ومن غباب » .

(٤) الرن : داء يأخذ الدابة في آخر رجلها ، وفي غير العريشي : « وألطف »

(٥) في كتاب البغال :

وتلقى سرجها أبداً شماساً وتسقط في الوحول وفي الرمال
 (٦) في نهاية الأرب :

ويهرز لها الجلم إذا خصينها ويُدْبِرُ ظهرها من الجلال

(٧) ط : « ومشفار » ، والصواب ما أتبعه من نهاية الأرب .

فأما الاختلاف فأذن منها من الأتبان أمثال الجبال
وأما القَتَّ فأتِ بألفٍ وقُرِ بأعظم حملٍ أحمال الجبال
فلستُ بعالفٍ منها ثلاثا وعندك منه مودٌ للخلال
وإن عطشت فأوردها دُجَيْلًا إذا أوردتَ أونهرى بلال^(١)
فذاك لريِّها سُميتُ حبا وإن مَدَّ الفَرَاتَ فلتنهال
وكانت قارحًا أيام كسرى^(٢) وتذكُرُ نُبمًا عند الفعّال
وقد دَبرتُ ونُعمانٌ صبي^(٣) وقبيلَ فصّاله تلك الأوالي^(٤)
وتذكُرُ كُرًا إذ نشأ بهرامُ جور^(٥) وعاملُهُ على خَرَجِ الجوالِ
وقد مَرَّتْ بقرنٍ بمدِّ قرن وآخرُ عهدِها لهلاك مالي
فأبدلني بها بآربَ طَرْفًا^(٦) بزين جِمالٍ مشيتُهُ بجالي

وأشدها المهديّ ، قال : لقد أَقْلَتَ من بلاءٍ عظيمٍ ، فقال : والله يا أمير المؤمنين لقد مكثت شهرا أنوقع صاحبها أن يردّها . فقال المهديّ لصاحب دوابه : خيّرهُ بين مركبين في الإصطبل ، فقال : إن كان الاختيار إلى فقد وقعت في شرٍّ من البغلة ، وإن مره يخر لي ، ففعل .

وفي القصيدة ألفاظ من الغريب أبينها ، فمنها يقال : وَاكَلَّتِ الدابة وكالاً : أساءت السير . ورحمت ترمح : ضربت برجلها . والشُّش : داء في قوائمها . والجرّد . استرخاء العَصَب ، والعُقَال : أن تنقبض القوائم ولا تنهض ، والخِرَاط :

(١) يشير إلى النهر الذي حفره بلال بن أبي بردة بالبصرة .

(٢) القارح من ذى الحافر : الذي شق نابه وطلم .

(٣) كتاب البغال : « ونعمان فطيم » .

(٤) كتاب البغال : « وذو الأكتاف في الحجج الخوالي » .

(٥) بهرام جور ، من ملوك ساسان .

(٦) الطرف : القرس الجواد .

الجاح ، والكرن : حكة وشقاق في القوائم ، وقد عرن عرنا ، وقص بقص ويقص قصا وقاصا : رفع يديه معاً وطرحهما معاً ، وعجن يديه ، وقطا يقطو : قارب الخطو .

وكان لأبي دلامة يرذون أعجف محطّم هريم ، فدخل على المهديّ يوماً وبين يديه سلّة الوصيف ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّي جلبتُ لهابك مهرأ ليس لأحدٍ مثله ، وأحببت أن أهديه لك ، فإن أحببت أن نشرّ في بقبوله فأمر بإدخاله ، فخرج وأدخل برذونه ، فقال له المهديّ : أيّ شيء هذا وبلك الم ترعهم أنه مُهر ، فقال له أبو دلامة : أو ليس هذا سلّة الوصيف قائماً بين يديك تسميه الوصيف وله ثمانون سنة فإن كان سلّة وصيفاً فهذا مُهر ، فجعل المهديّ يضعك وسامة يشقه ، فقال له المهديّ : وبلك إنا لهذه أخوات ، والله ليضعكن بك في الحافل . فقال : والله يا أمير المؤمنين لأنضعته ، فليس في مواليك أحد إلّا وقد وصلني غيره ، فاشربت الماء له قط . فحكم عليه المهديّ أن يشتري نفسه بثلاثة آلاف درهم ، فقال له سلّة . حلّى ألا تماود ، فقال أبو دلامة : أفعل ، فحملها إليه .

ومما ينظم بهذا النمط أن محمد بن عبيد الله بن خاقان حمل أبا العيفاء على فرس ، فكعب إلى أبيه : أعلم الأمير أعزه الله أن أبا محمد أراد أن يبرني نعمتي ، وأن يركبني فأرجلي ، أمر لي بدابة تقف للثبيرة ، وتمثر بالبقرة ، كالفضيب الهابس عبيفاء ، وكالمهجور البائس دنفاء ، قد أذكر الرواة عروة المذرى والجنون العامري ، مباحداً أعلاه لأسفله ، حباه مقرون بسماه ، فلو أمسك للرجبت ، ولو أفرد لتمزيت ، ولكنه يجمعها في الطريق للممور ، والجلس للشهور ، كأنه خطيب مرشد ، أو شاعر منشد ، يضحك من فكه النسوان ، وينفاه من أجله الصبيان ، فمن صائح يصيح : داوه بالطباشير ، ومن قائل

يقول : نَقَّ له الشعير ، قد حفظ الأخبار وروى الأشعار ، ولحق العلماء في الأمصار ، فلم أعين بنطق لروى بحق وصدق ، عن جابر الجعفي وعامر الشعبي . ولم أوتَ من أمر الأمير أمزه الله ، وإنما أُزيتُ من كاتبه الأعور ؛ الذي إذا اختار لنفسه أصاب وأكثر ، وإذا اختار لغيره أخبت وأنزر ، فإن رأى الأمير أن يبدلني ويرميني بمركوب بضحكك كما أضحك مني ، يحمر بحسنه وفراجه ، ما سطره العيب بقبحه ودنائه ، ولست أذكر سرجه وجامه ، لأن الأمير أكرم من أن يساب ما يهديه ، وينقص ما يمضيه . فوجهه إليه بيرذون بسرجه وجامه ، ثم اجتمع بابنه محمد عنده ، فقال له عبيد الله : شكوت دابة محمد ، وقد أخبرني أنه يشتريه الآن منك بمائة دينار ، وهذا ثمنه لا يؤخر عنك ، فقال : أمر الله الوزير ! لو لم أكذب مستريدا ، لم أذهب مستفيدا ، وإني وإياه لكما قالت امرأة العزيز : ﴿ أَنَا وَآوَدْتُهُ مِنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

وقال ابن رشيقي في بقل :

أوصيكَ بالبقل شراً	فإنه ابن الحمار ^(١)
لا يصالح البقل إلا	لكدَّ والأسفار
كالعبدان لم تُهنئ	جَنَى على الأحرار
ما اعراض بقلًا بطرف	إلا أخو إدبار ^(٢)

وله أيضاً فيه :

فأوصيكو بالبقل شراً فإنه	من العير في سوء الطباع قريب ^(٣)
وكيف يحى البقل يوماً بحاجة	تسرَّ وفيه لعمري نصيب !

(١) نقله الميمنى في التنف ٣٦ .

(٢) الطرف بالكسر : الفرس الجواد ؛ والياء دخلت على المتروك .

(٣) نقله الميمنى في التنف ٦ .

وله من قصيدة :

أَوْ بَفَلَةٍ سَفَوَاءَ تَعْرِضُ لِفَتَى فَتُخَالِ نَحْتِ السَّرَجِ أُمَّ غَزَالٍ^(١)
سَأَلْتُ إِلَى الْأُمِّ الدَّجَابَةِ مِنْ أَبِي وَزَهَتْ عَلَى الْأَحْمَامِ وَالْأُخْوَالِ
وَكَأَنَّهَا قَدْ أَفْرِغَتْ فِي قَالِبِ لَا أَنَّهُمَا خُلِقَتْ عَلَى نِمْتَالِ
وله من قصيدة أيضاً :

كَأَنِّي بِمَضُ نُجُومِ السَّمَاءِ تَصْعَدُ فِي الْجَوِّ ثُمَّ انْحَدِرُ
عَلَى رَسَلَةٍ مِنْ هِبَاتِ الْمَوِ لِكِ سَفَوَاءَ مَلُومَةٍ كَالْحَجَرِ
تَعَاوَنَ فِي جَدَلِ أَعْضَائِهَا بَنُو أَخْدَرٍ وَبَنَاتِ الْأَفْرِ
ولمحمد بن يسير^(٢) الخارحى في بغلة :

تَزَهَتْ مِنْ الْخَلِيلِ الْعِيقَاقِ نَجْمَاهَا مِنْهَا وَعِيقَ سَوَالِفٍ وَلِبَانٍ^(٣)
وَلَهَا مِنَ الْأَعْمَارِ عِنْدَ مَسِيرِهَا قِصَّةٌ وَطُولُ صَبَارَةٍ وَمِرَانٍ^(٤)
رجعنا إلى أخبار أبي دلالة .

يحكى أن المهدي أو النصور - أنشده ما أعجبه ، فكساه طيلسانا وأمر له
بمال ، وعاهده ألا يشرب الخمر ، فعلف له وخرج إلى بني داود بن علي
فضحكوا به . وقص عليهم خبره فسقوه حتى أسكروه وأخرجوه ، فأعلم
المهدي الخبر ، فأرسل فيه ، وأمر الرسول بسجنه وتخريق ساجه ، وألا يمكن

(١) نقله في المتن ٦٣ .

(٢) ط : « بشر » تحريف ، وهو محمد بن يسير ، عاصر ظريف من المحدثين . وله ترجمة في
العمر والشراء ٨٧٩ - ٨٨٠ والأغاني ١٢ : ١٣٩ - ١٣١ .

(٣) القول في البغال ٧٥ من مقطوعة طلب فيها من هويس بن عمران بغلة لرحله . وفيه :
« نهجدها » .

(٤) القول في البغال « جد » ، وفيه « قال ذلك لأن حافر المير أوقم الحوافر » .

من قرطاس ولا مداد ، ففعل به الرسول ذلك ، فانتبه في جوف الليل فنادى
جاريته فقال له السجّان: طمّنة في كبديك فقال له : ويلك اَمَنْ أنت ، وأين أنا ؟
فقال له : سَلْ نفسك أين كنت عشاء أمس ؟ فاستحلفه مَنْ أنت؟ فقال :
أنا السّجّان ، بعث بك أمير المؤمنين وأنت سَكْران ، فأمرني أن أحبسك مع
الدجاج ، فقال : أحبّ أن تُسرّج لي سراجا ، وتأتيني بدواة وقرطاس ، ولك
عندى صِلَة ، فقال له . أما السّراج فنعم ، وأما القرطاس والدواة ، فقد أمرت ألاّ
أمكنك منهما . فلما أناه بالسّراج وجد ساجّه محرّقا ملطّخا بإزبال الدجاج ،
ورأى نفسه جالسا بينهما ، فقال له : ادع لي ابني دلامة ، فدعاه ، فأمره أن يجيّد
حلاقة رأسه ، وأن يأتيه بفَحْمة ، ففعل ، فكتب على رأس ابنه :

أَمِنْ صهباء صافية المزاج	كَانَ شُعَاعَهَا لَهَبُ السَّرَاجِ ^(١)
تَهَشَّنَ لَهَا الْقُلُوبُ وَتَشْتَبِهَهَا	إِذَا بَرَزَتْ تَرْتَفِقُ فِي الزُّجَاجِ
أَقَادَ إِلَى السَّجُونِ بَغِيرِ جُرْمٍ	كَأَنِّي بَعْضُ عَمَالِ الْخُرَاجِ
وَلَوْ مَعَهُمْ حَبَسْتُ لَكَانَ خَيْرًا	وَلَكِنِّي حُبِسْتُ مَعَ الدَّجَاجِ ^(٢)
أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَدَنِكَ نَفْسِي	فَقِيمَ حَبْسَتَنِي وَخَرَقْتَ سَاجِي
عَلَى أُنَى وَإِنْ لَاقَيْتُ شَرًّا	تَلْخِبرُكَ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرَّ رَاحِي

ثم قال : يا أمير المؤمنين ، هذه أمانة ، فإذا قرأتها فزق الرقعة . ثم أمر دلامة
أن يدخل على أمير المؤمنين ويقرئه ما في رأسه ، فأتى الباب وصاح : دعوة

(١) وبعده في الأغاني :

وَقَدْ طَلِخْتُ بِنَارِ اللَّهِ حَقِّي لَقَدْ صَارَتْ مِنَ اللَّطْفِ الْفَضَاحِ

(٢) وبعده في الأغاني :

وَقَدْ كَانَتْ تَخْبِرُنِي ذُنُوبِي بِأَنِّي مِنْ عِقَابِكَ غَيْرُ نَاجِي

الظلم ، فعلم أمير المؤمنين بمكانه فأمر بإدخاله ، فكشف رأسه ، وقال : إن ظلامتي مكتوبة في رأسي ، فأدّني منه حتى قرأها فاشتدّ ضحكك ، وعجب من حيالته وأمر بإخراجه ، وقال : ما كان أحوج هذه الرقعة أن تُمزّق ، ثم وصله بصلته ، ونهاه أن يوجد سكران^(١) .

وخرج المهديّ بتحصيد ومعه عليّ بن سليمان ، فسنح له قطيع من الظباء ، فأرسلت الكلاب وأجريت الخيل ، فرمى المهديّ سهماً فصرع ظلياً ، ورمى عليّ بن سليمان سهماً فصرع كلباً ، فقال أبو دلالة :

قَدْ رَمَى الْمَهْدِيُّ ظَلِيًّا شَقَّ بِالسَّهْمِ فُؤَادَهُ

وَعَلَى بْنِ سُلَيْمَانَ رَمَى كَلْبًا فَصَادَهُ

فَهَبَيْتُمَا لَهَا كُلَّ امْرئٍ يَأْكُلُ زَادَهُ

فضحك المهديّ حتى كاد يسقط .

ومن ملحه ، أنه دخل على المهديّ ، وعنده وجوه بنى هاشم ، فقال : أنا أعطى الله عهداً لن لم تنهج واحداً ممن في البيت لأقطعن لسانك ، فنظر إلى القوم ، فكلمنا نظر إلى واحد غمزه بأن عليه رضاه ، قال : فعلت أئى وقعت ، وأنها مزمة من عزماته لا بدّ منها ، فلم أر أدعى إلى السلامة من هجاء نفسي ، فقلت :

أَلَا أُبْلِغُ لَدَيْكَ أبا دُلَامَةَ فَلَيْسَ مِنَ الْكِرَامِ وَلَا كِرَامَةَ

إِذَا لَبِسَ الْعِمَامَةَ كَانَ قَرْدًا وَخَنْزِيرًا يَكُونُ بِلا عِمَامَةٍ

جَمَعَتْ دِمَامَةً وَجَمَعَتْ لَوْمًا كَذَلِكَ الْقَوْمُ تَقْبَهُ الدِّمَامَةُ

فَإِنْ تَكُ قَدْ أَصَبْتَ نَعِيمَ دُنْيَا فَلَا تَفْرَحْ قَدْ دَنَتْ الْقِيَامَةُ

(١) الخبر في الاغانى ١٠ : ٢٥٢ مع اختلاف في رواية الخبر والعمري .

فضحكوا ، ولم يبق أحد إلا أجازَه ^(١) .

وخرجت ^(٢) له صبيّة فأخذها على كتفه ، فبالت عليه فرمى بها ، وقال :

بَلَلْتُ عَلَى - لَاحِيَّتِ - ثَوْبِي فَبَالَ عَلَيْكَ شَيْطَانُ رَجِيمٍ
فَمَا وَلَدَتْكَ مَرْيَمُ أُمِّ عِيسَى وَلَا زَبَاكَ لِقَانُ الْحَكِيمِ
وَلَكِنْ قَدْ نَضُّمُكَ أُمُّ سَوْءٍ إِلَى لُبَاتِهَا وَأَبُ لَثِيمِ

ولما خرجت الخيزران إلى الحج تلقاها ، فصاح : الله الله في أمري ! فسأله عن أمره فقال : إني شفيخ كبير ، وأجرك في عظيم ، تهبين لي جارية تونسي وترفق بي ، وتربيني من عبوز عندي ، قد أكلت رِفْدِي ، وأطالت كدّي ، وقد عزف ^(٣) جلدًا جلدِي ، وتمنيت بُعْدَهَا ، ونشوقت قَعْدَهَا ، فوعده بها ، فلما جاءت من الحج دخل على أم عُبَيْدَة حاضنة موسى وهارون ، فدفع إليها رقعة ، فدفعتها إلى الخيزران وفيها :

(١) الخبر في الأغاني ١٠ : ٢٥٨ .

(٢) الخبر في الأغاني ١٠ : ٢٤٠ : « دخل أبو عطاء السندي يوما إلى أبي دلامة ، فاحتبسه عنده ، ودعا بطعام فأكلوا وشبعا ، وخرجت إلى أبي دلامة صبيّة فعلمها على كتفه ، فبالت عليه ، فنبذها عن كتفه ، ثم قال : بللت على ... البيتين ، ثم التفت إلى أبي عطاء ، فقال له : أجز ، فقال :

صَدَقْتَ أَبَا دُلَامَةَ لَمْ تَلِدْهَا مَطْمَرَةٌ وَلَا فَحْلٌ كَرِيمٌ
وَلَكِنْ قَدْ حَوَّسَهَا أُمُّ سَوْءٍ إِلَى لُبَاتِهَا وَأَبُ لَثِيمٌ

فقال له أبو دلامة : عليك لعنة الله ! ما حملك على أن تلبت بي هذا كله ! واقة لا أنازلك بيت شمر أبدا . فقال أبو عطاء : لأن يكونك المرب من جبهتك أحب إلى .

(٣) الأغاني : « عاف » .

وفيها :

أبْلَغِي سَيِّدَتِي إِن شئتِ لَأَمَّ عَيْبِدَةَ
أَهَا أَرْشَدَمَا اللَّهُ وَإِنْ كَانَتْ رَشِيدَةً
وَعَدْتَنِي قَبْلَ أَنْ تَحْزُرُ جَ لَلْحَيِّ وَلِيَدَةَ
إِنِّي شَيْخٌ كَبِيرٌ لَيْسَ فِي يَدَيَّ قَبِيلَةَ
غَيْرَ عَجْفَاءَ عَجُوزٍ سَاقِمًا مِثْلَ الْقَدِيدَةِ
وَجْهَهَا أَقْبَحَ مِنْ حَوْ ثِي طَرِيٍّ فِي مَصِيدَةَ
مَا حَيَاتِي - مَعَ أَتْنِي مِثْلَ عَرْمَى - بِحَمِيمَةَ (١)

فضحككت واستعادت « حوتاً في عصيدة » وهي تضعك ، ثم قالت بلجارية :
خذني ما عندك في قنصري وامشي إلي . فلما بلغها الرسول منزله لم يجده ،
فدفنها إلى امرأته ، ودخل دُلَامَةُ وأمة تبكي ، فسألها فأخبرته وقالت : إن أردت
برتي يوماً من الدهر ، فالיום . قال لها : قولي ما شئتِ أفعلهُ ، قالت : تدخل
إليها ، وتعلمها أنك مالكتها ، فتطوؤها فتحرّم عليه ، وإلا شغلته فجفاني وجفاك .
فقبل ، وجاء أبو دُلَامَةَ فسألها عنها ، فقالت : هي في ذلك البيت ، فدخل ومدّ
يده إليها ، وذهب ليقتلها ، فرأت شريكاً محطاً ببيع الوجه ، فقالت : تنح
وإلا لطمتك لطمَةً دَقَقْتُ بِهَا أَنْفَكَ . فقال : وبهذا أوصتكَ سيدتك ؟
قالت : إنها بعثتني إلى فتى من صفته كذا وكذا ، وقد نال حاجته مني آنفاً .
فلم أنه دعاء من دُلَامَةُ وأمة (٢) ، فخرج ولطمه وكتبه (٣) . وحلف ألا يفارقه
إلا إلى المهدي ، ففضى على تلك الحالة حتى دخل إلى المهدي ، فقال له : ما بالك

(١) الأغاني : « بصيدة » .

(٢) الأغاني : « فلم أنه دعوى من أم دُلَامَةُ وابنها »

(٣) لبيه : أخذ بقلبه ، أي جم ثيابه عند صدر ونحره في المصومة ثم جره .

(٢٤) — شرح مقامات الحريري ج ١

وَنَحَكَ اِقْتُلْ لَه : حَمَل بِي هَذَا ابْنُ الْخَلِيْثَةِ مَا لَمْ يَعْمَلْ اَحَدًا بِاَبِيْهِ ، وَلَا يَرْضِيْهِ
إِلَّا أَنْ تَقْتُلَهُ ، وَأَخْبَرَهُ الْخَبِيرُ . فَضَحَكَ لِلْهَدْيِ حَتَّى اسْتَغْلَقَ ، وَأَبُو دَلَامَةَ يَقُولُ :
يَعْجَبُكَ فَعْلُهُ ، فَضَحَكَ مِنْهُ ا فَقَالَ : عَلَى السَّيْفِ وَالتَّقَطْعِ ، فَقَالَ دَلَامَةُ : اَسْمَعْ
حَبِيْبِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِيْنَ ، كَمَا سَمِعْتَ حُجَّتَهُ ، فَقَالَ : هَاتِ ، فَقَالَ : هَذَا الشَّيْخُ
أَصْفَقُ النَّاسَ وَجْهًا ، وَهُوَ بَيْنَكَ أُمِّيْ مِنْذُ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً فَمَا غَضِبْتَ ، وَنِكَتُ
جَارِيَتَهُ سَرَةً وَاحِدَةً فَغَضِبَ . فَضَحَكَ لِلْهَدْيِ أَشَدَّ مِنْ ضَحْكَه الْأَوَّلِ ، فَقَالَ :
دَعْمَا لَه [يَا أَبَا^(١) دَلَامَةَ] ، وَأَنَا أَعْطَيْكَ خَيْرًا مِنْهَا ، فَقَالَ : عَلَى أَنْ تَخْطَأَهَا بَيْنَ
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَإِلَّا نَا كَهَا كَمَا نَاكَ هَذِهِ ، وَحَلَفَ دَلَامَةُ إِنْ عَادَ لِيَقْتُلْنَهُ^(٢) .

وَجَاءَ دَلَامَةُ لِأَبِيْهِ فِي مَحْفَلٍ ، وَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَقَالَ لِلْجَمَاعَةِ : إِنْ شِئْتُمْ
كَأَنْتُمْ قَدْ كَبَّرْتُمْ سَنَتَهُ ، وَرَقَّ جِلْدُهُ وَدَقَّ مِظْمُهُ ، وَبَنَّا إِلَى حَيَاتِهِ حَاجَةً ، وَأَنَا
لَا أَزَالُ أَشِيرُ عَلَيْهِ بِشَيْءٍ يَمْسُكُ رِمَقَهُ ، وَيَبْقَى قُوَّتُهُ ؛ فَيُخَالِفُنِي . وَأَرْغَبُ إِلَيْكُمْ أَنْ
تَسْأَلُوهُ قَضَاءَ حَاجَةٍ فِيهَا صَلَاحٌ لِّجَسْمِهِ ، فَقَالُوا : حُبًّا وَكِرَامَةً ، فَأَخَذُوا أَبَا دَلَامَةَ
بِالسِّنْتَمِ ، فَقَالَ : قُولُوا لَهُ الْخَبِيرُث فَلَوْ قُلَّ مَا يَرِيدُ ، فَسَتَعْمَلُونَ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ إِلَّا
بِهَيْلَةٍ . فَقَالَ : إِنَّمَا يَقْتُلُهُ كَثْرَةُ النَّيْلِكِ ، وَلَا يَدْفَعُهُ عَنْهُ إِلَّا الْخِصَاءُ ، فَتَعَاوَنُونِي
عَلَيْهِ حَتَّى أَخْصِيَهُ ، فَضَحَكُوا مِنْهُ كَثِيرًا ، وَقَالُوا لِأَبِيْهِ : قَدْ سَمِعْتَ فَمَا عِنْدَكَ ؟
فَقَالَ : قَدْ عَرَفْتُمْ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ بِخَيْرٍ ، وَقَدْ جُمِلَتْ أُمُّهُ حَكَمًا بَيْنِي وَبَيْنَهُ ، فَقَوْمُوا
إِلَيْهَا ، فَدَخَلُوا عَلَيْهَا وَقَصَّوْا الْقِصَّةَ عَلَيْهَا ، فَأَقْبَلَتْ عَلَى الْجَمَاعَةِ وَقَالَتْ : إِنْ أَبَى
أَبِقَاءُ اللَّهِ ، قَدْ نَصَحَ أَبَاهُ وَبَرَّهَ ، وَأَنَا إِلَى بَقَاءِ أَبِيْهِ أَحْرَجُ مِنْهُ إِلَيْهِ ؛ إِلَّا أَنْ هَذَا
الْأَمْرُ لَمْ تَقَعْ فِيهِ تَجَرُّبَةٌ عَلَيْنَا ، وَلَا جَرَتْ بِهِ عَادَةٌ ، وَهُوَ قَدْ آدَمَى مَعْرِفَةَ ذَلِكَ ،

(١) مِنَ الْإِثْمَانِي .

(٢) الْخَبِيرُ فِي الْإِفْغَانِي ١٠ : ٢٦٣ ، ٢٦٤

فلهبدا بنفسه فليخسبها، فإذا عوفي ورأينا ذلك قد أبقى عليه أثرأ محموداً، استعمله أبوه على علم، فحمل القوم بضحكون ويَتَجَبَّون من اتفاقهم في الخُبث.

وأمره المهدي أن يلزم المسجد في رمضان، وقال له: إن تأخرت فلتشرب الخمر، ولئن علمتُ ذلك لأقتلَكَ، فشق عليه ذلك، وتشفع إليه بكل إنسان، فلم يشفعه، فأدخل إلى رِبْطَة رقعة - وكان للمهدي لا يخالفها - وفيها:

أبلغنا رِبْطَة أني كنت عبداً لأبيها
ففى يرحم الله وأوصى بي إليها^(١)
جاء شهرُ الصوم بشى مشية لا أشتيها
قائداً القلة ليدُر كائى أبتغيها
تنطح القِبْلة شهراً جَبْنِي لا تأنليها^(٢)
فاطلبي لى فرجاً مِنْهَا وأجرى لك فيها

فضحكت، وقالت: بصبر حتى تمضى ليلة القَدَر، فقال: إذا مضت ليلة القَدَر فى الشهر. وكعب إليها:

(١) بدمه فى الأغانى:

وأراها نَسَيْتَنِي مثل نِسْمان أخيها

(٢) بدمه فى الأغانى:

ولَقَدْ عَشِيتُ زماناً فى فَيَافَى وجيها

فى ليلٍ من شِتَاء كنتُ شَيْخاً أَصْطَلِها

قاهداً أَوْقَدْ ناراً لَصِيبٍ أَشَقَوِها

وصَبَّوحٍ وَغَبَّوقٍ فى هِلابٍ أَخْتَسِها

ما أبالى ليلة القَدَر ولا نُسَمِئِها

خَافِي الْمَلِكِ فِي نَفْسٍ قَدْ اخْتَضِرَتْ قَامَتْ قِيَامَتُهَا بَيْنَ الْمَصْلُوفِ
 مَالِيَةِ الْقَدَرِ مِنْ هَمٍّ فَأُطْلِبَهَا إِنِّي أَخَافُ الْمُنَايَا قَبْلَ هَشْرِ بِنَا
 لَا بَارِكَ اللَّهُ فِي خَيْرٍ أَوْ مُلْهُ فِي لِبْلَةٍ بَعْدَ مَا قُنَا ثَلَاثِينَ
 بِأَلِيَّةِ الْقَدَرِ قَدْ كَثُرَتْ أَرْجُلُنَا بِأَلِيَّةِ الْقَدَرِ حَقًّا مَا تُدِينُنَا
 فَلَمَّا قَرَأْتَهَا ضَحِكْتَ ، وَدَخَلْتَ إِلَى الْمَهْدَى فَشَعْنَهَا ^(١) فِيهِ . وَأَخْبَارُهُ كَثِيرَةٌ

• • •

وعلى قوله : جاء شهر الصوم قال أبو القاسم النعماني : أنشدني الفقيه
 أبو الحسن بن زرقون :

أَشْهَرَ الصَّوْمِ مَا مَنَّاكَ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ شَهْرٍ
 عَلَيَّ أَنْكَ حَرَمْتَ عَلَيْنَا لَذَّةَ السُّكْرِ
 وَقَرَعَ الْكَأْسَ بِالْكَأْسِ وَرَشَفَ الثُّغْرَ بِالثُّغْرِ
 وَإِنِّي وَالَّذِي شَرُّ فَ أَوْفَانَاكَ بِالذِّكْرِ
 وَمَا أُمْسَى يَصُدِّي فِيكَ مِنْ شَفْعٍ وَمِنْ وَثْرِ
 لِمَسْرُورٍ بَأَن تَنْفَى عَلَيَّ أَنْكَ مِنْ عُثْرِ

وقال ابن المعتز :

تَجَلَّى عِشَاءُ هِلَالِ الصَّوْمِ بِنَحْسٍ عَلَى الْكَأْسِ وَالْبَرْ بَطِ
 وَكَمْ مِنْ فِتْنٍ رَاحَ بَيْنَ الْقِيَا نَ نَشْوَانِ ذَا فَرَحٍ مُفْرِطِ
 وَكَانَ نَشِوْطًا فَلَمَّا رَأَى هَمَّ بِهِمْ وَلَمْ يَنْشَطِ
 فَأَعْرَضَ عَنْهُ كَمَا أَعْرَضَتْ فِتْنَةٌ عَنِ الْجَانِبِ الْأَشْمَطِ

وقال ابن رشيقي :

لَا حَ لِي حَاجِبِ الْهَلَاكِ عِشَاءَ فَفَتَيْتُ أَنْبِيَّ مِنْ سَحَابٍ^(١)
قُلْتُ أَهْلًا وَبَارِكًا لِمَا قُلْتُ وَلَكِنْ أَسْمَعُهَا أَصْحَابِي
مُظْهِرٌ حُبُّهُ وَعِنْدِي بُغْضٌ لِمَدْوَةِ الْكُؤُوسِ وَالْأَكْوَابِ

الحقيقة : الضربة ، والحلقة جماعة الناس ، وربما تؤدي فضيحتها أمام القوم
إلى أن يموت صاحبها غمًا ، وقد وجد ذلك .

• • •

[أفا كيه]

وحقيق أمر أبي في جماعة فاستحميا ، فأشار نحو استمه ، وقال : إنها خلف
نظفت خلفنا .

وذكر الحريري أن مطيع بن إياس وبجعي بن زياد وجهاد الراوية كانوا
يشربون ذات يوم ، ومهم نديم لهم ، فبرزت منه قلعة ، فنجعل وغاب منهم أيامًا ،
فكعب إليه مطيع :

أَمِنْ قُلُوبٍ غَدَتْ لَمْ يُوْذِهَا أَحَدٌ إِلَّا تَذَكَّرَهَا بِالرَّمْلِ أَوْ طَانَا
خَانَ الْعِقَالِ لَهَا قَانِبَتْ إِذْ كَفَرَتْ وَإِنَّمَا الذَّنْبُ فِيهِ لِلَّذِي خَانَا
أَخْطَرَتْ مِنْكَ لَنَا هُجْرًا وَمُجْهَبَةً وَغَبَتْ عَنَّا ثَلَاثًا لَسْتُ كَنَفْشَانَا
مَوْتٌ عَلَيْكَ فَنَافَى النَّاسِ ذُو إِبِلٍ إِلَّا وَأَيْقَهُ بِشَرُّدَنْ أَحْمَانَا

دخل^(٢) أبو الفضل بديع الزمان على الصاحب بن عباد ، ففرح به ، وأجلسه معه
على سريرته ، فحقيق البديع حقيقة منكورة ، ثم أراد أن يفتي عن نفسه التهمة ،
قال : يا مولانا هذا صرير التفت ، فقال له : بل صفه « التفت » ، فخرج البديع
خجلًا ، وانقطع عن الوصول إليه فكعب إليه الصاحب :

(١) نقله في التفت ١٢

(٢) يلجأ الأمر ٣ : ١٨٨

قل للصغيرى لاتذهب على خجلٍ من ضرطه أشبهت نايًا على عود^(١)
فلما الريح لاتسطيع تدفعها إذ لست أنت سليمان بن داود
تزوج أعرابي امرأة ، فلما دخل عليها عابثها ، فضرطت ، فخرجت غضبي
إلى أهلها ، وقالت : والله لا أرجع إليه أوفى من ما فعلت ، قال لها : عودي لأفعل ،
فعدت ، فعاثها فضرطت أخرى ، فقال :

طالبتي دينا قديما فلم أذنك حتى زدت في قرضك
فلا تلومني على مظهره إن كان ذا دأبك لم أقضك
قيل لأعرابي : ما تقول في الضرطة ؟ فقال : لأبأس بها ، وربما سببت
الضرطة وأنا راكع في الصلاة .

قدم أبو علقمة الأزدي على الفضل بن عبد الرحمن الماشقي بالبصرة ، فقال
الفضل لجلسائه : إذا جلسنا على المائدة وأبو علقمة معنا فليضرط أحدكم ثم الآخر
ثم الآخر ، وليسكن بين كل ضرطين فرجة ، فلما وضعت المائدة فعلوا ذلك ،
فأخذ أبو علقمة المائدة ، وقام بها ، فقيل له : إلى أين يا أبا علقمة ؟ قال : إلى
السكينف ، فمن أراد منكم أن يخرأ كان قريبا .

وجلس فقيل إلى بشار ، فضرط بشار ضرطة منكرة ، فظن الرجل أنها فلقه ،
ففسى في حديثه ، فضرط بشار ثانية وثالثة ، فقال له : ما هذا يا أبا معاذ ؟ قال :
رأيت أو سمعت ؟ قال : بل سمعت ، قال : كل ما سمعت ربح لاتصدق حتى تری .

قوله : حقه ، أى وعاء للطيب ، ويقال له : حق والجمع حقاق ، وتهدل عامقنا
من قافه كفا ، والروائح العطرة مضرّة بهذه الهوام المتلينة ، وقد قال المتنبي :
بذى النباوة من إنشادها ضررٌ تضرّ كما تضرّ رياح الورد بالجمل^(٢)

(١) ينيمة الدهر :

يابن الخضيرى لاتذهب على خجلٍ لحادث منك مثل الناي والعود

(٢) ديوانه ٣ : ٤٠

قوله هيك ، أى حسبك .

[ترجمة الحسن البصرى]

وأما الحسن فهو أبو سعيد بن أبي الحسن البصرى ، وهو من التابعين . وله بالمدينة لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، وأمه اسمها خيرة ، وكانت مولاة لأم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، فكانت تُعطيها نديها إذا اشتغلت أمه ، فدرّ نديها له بالبن ، فأظهر الله تعالى بركة ذلك اللبن عليه . وأبوه مولى لامرأة من الأنصار ، وقول إن أبويه كانا مملوكين لرجل من بني النجّار ، فنزّج امرأة في بني سَلَمَة من الأنصار ، فساقهما إليها من مهرها فأعتقتهما ، وكان أحسن الناس لفظاً وأبلغهم وعظاً ، وكان زاهداً عالمًا مقدّماً في العلم والدين على نظرائه من التابعين .

وكان الحجاج له معظماً ومتمجّباً من فصاحته ، ولم ينفك من مجلس وعظ أو تدريس علم ، إلى أن مات رحمه الله تعالى .

وقال أبو عمرو بن العلاء : مارأيت قطُّ أوعظَ ولا أفصحَ من الحسن البصرى .

وقال أبو أيوب السختماني : ماسمع أحد كلام الحسن البصرى إلا نُقِلَ عليه كلام الرجال .

قال حميد : قال لى الشعبي ونحن بمكة : أحب أن اختلي بالحسن ، فقلت : ذلك للحسن ، فقال : إذا شاء ، فجاء الشعبي ، فقلت له : ادخل عليه ، فإنه في البيت وحده ، فقال : أحب أن تدخل معي ، فدخلنا فإذا الحسنُ قبالة القبلة يقول : يا بن آدم ، لم تكن فكنوت ، وسألت فأعطيت ، وسئلت فمعت ، فبئس ما صنعت ! ثم يذهب فيرجع بعيد ذلك حتى أعادها مراراً ، فقال لى الشعبي : يا هذا انصرف فإن الشيخ في غير ما نحن فيه .

ولما دخل على الحجاج فقال له : ما تقول في علي وعثمان ؟ قال : أقول فيهما ما قال مَنْ هو خيرٌ مني بين يدي مَنْ هو شرٌّ منك ، قال : وَمَنْ ذلك ؟ قال : موسى وفرعون حيث قال له فرعون : ﴿ فَأَمَّا الْفِرْعَوْنِ الْأَوَّلَى قَالَ : عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ﴾ ^(١) .

الشمعي قال : قدمنا على الحجاج في البصرة في جماعة من قراء الشام والعراق في يوم صائف شديد الحر ، وهو في آخر ثلثة أبيات ، فدخلنا الأول فإذا فيه الثلج والماء قد أرسل فيه ، وفي الثاني أكثر وفي الثالث أكثر ، والحجاج قاعد على سريره وعنبسة بن سعيد إلى جانبه ، فجلسنا على الكرامى ، ودخل الحسن آخر مَنْ دَخَلَ ، فقال الحجاج : مرحباً بأبي سعيد ! اخلع قميصك ، فجعل الحسن يعالج زرّ القميص فأبعث به ، فطأطأ له الحجاج رأسه تلطفاً به حتى حله ، وجاءت جاريةٌ بدُهنٍ فوضعت على رأس الحسن وحده ، فقال له الحجاج : يا أبا سعيد ، مالى أراك منهوك الجسم ، لعلّ ذلك من قلة نفقة وسوء ولاية ! ألا تأمرُك بنفقة توسّع بها على نفسك ، وخادم لطيف ؟ فقال : إني من الله تعالى آتني سعة ونعمة وإني منه لفي عافية ، ولكنّ الكبيرَ والحرّ ، فأقبل الحجاج على عنبسة ، وقال : لا والله ، بل العلم بالله والزهد فيما نحن فيه ، فلم يسمها الحسن ، وسمعتها أنا لقربى من عنبسة ، وجعل الحجاج يسأله حتى ذكر على بن أبي طالب رضى الله عنه فقال منه ونزلنا منه مرضاة له ، وفرّقنا من شرّه ، والحسن عاضاً على إبهامه ، فقال له : مالى أراك ساكناً ؟ فقال : وما عسى أن أقول : فقال : أخيراً أبرأك في أبي تراب ، قال : إني سمعت الله عز وجل يقول : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنُعَلِّمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ لِيَعْلَمَ يَنْفَلِحُ عَلَى عَقَبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكِبْرَةٌ إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنْ اللَّهُ بِالنَّاصِرِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ ^(٢) فعلى ما تمنى هدى الله ، ومن أهل الإيمان وابن عمّ نبي الله صلى الله

عليه وسلم وحقته على بنته ، أحب الناس إليه ، وصاحب سوابق مباركات سهت له من الله عز وجل ، لن تستطيع أنت ولا أحد من الناس يحظرها عليه ، ولا يحول بينه وبينها . فتغير وجه الحجاج وقام مفضباً عن سريره ، ودخل بيتاً خلفه . وخرجنا وأخذت بيد الحسن ، قلت : يا أبا سعيد ، أغضبت الأمير ، وأوغرت صدره ، فقال : إليك عني يا عامر ، ألت شيطاناً من الشياطين إذ تواقفه في رأيه ! أالصدق إذ سئلت أو سككت فسلمت ؟ قلت : قلتها والله ، وأنا أعلم بما فيها ، قال الحسن : فذلك أعظم في الحجة عليك ، وأشد في التهمة . ثم خرجت إلى الحسن التحف والطرف ، وكانت له للنزلة واستخف بنا وجفانا ، فكان أهلاً لما أتى إليه ، وكنا أهلاً لما أتى إلينا ، فآرايت مثل الحسن بين العلماء إلا مثل الفرس العربي فيما بين المقاريف ، وما شهدنا بعده مشهداً إلا برز علينا بغضه ، وقال لله ، وقلنا موافقة للولاء ، وكان يقول : جدّدوا هذه الأنفس فإنها سريعة الدثور ، واقدّعوها فإنها طامعة وإنسكم إن لم تقدّعوها تنزع بكم إلى شر غاية .

وقال لطرف بن عبد الله بن الشخير : عظ أصحابك ، فقال له : إني أخاف أن أقول مالا أفضل ، فقال له : يرحمك الله ، وأينما يقول ما يفعل أيود الشيطان أنه ظفر بهذه منك ، فلم يأمر أحد بمعروف ولم ينه عن منكر .

ونظر إلى الناس في مصلى البصرة يضحكون ويلعبون في يوم عيد ، فقال : إن الله تعالى جعل الصوم مضماراً لعبيده ، ليستبقوا إلى طاعته ، ولتمزى لوكشف الخطاء لشغل بحسن بإحسانه ، ومضى بإساءته عن تجديد ثوب أو ترجيل شعر .

ومات في سنة عشرة ومائة وله تسعون . وتقدم موت ابن سيرين بمائة يوم ،
ومات في رجب ليلة الجمعة .

وقال عبد الواحد بن زيد : رأيت ليلة مات الحسن في النوم أبواب السماء
كأنها مفتحة ، وكان للملائكة صفوف ، فقلت : إن هذا لأمر عظيم ، فقال لي
قائل : ألا إن الحسن البصري قدِم على الله وهو عنه راض !

وسمع بعض أصحابه في منامه ليلة مات كأن منادياً ينادي في السماء : (إن الله
اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين) ، واصطفى الحسن
البصري على أهل زمانه .

[ترجمة الشعبي]

والشعبي ، اسمه عامر بن عبد الله بن شراحيل بن عبيد بن ذى كهار الشعبي
من شعب همدان ، وكنيته أبو عمرو ، منسوب إلى شعبان بن عمرو ، وهو من
حِمْيَر ، فمن كان منهم باليمن فهو حميري ، ويقال له شعباني ، ومن كان بالعراق
فهو همداني ، ويقال له شعبي . وولد لست سنين من خلافة عمر رضي الله عنه .
سمع علي بن أبي طالب رضي الله عنه والحسن والحسين وجماعة من الصحابة
رضوان الله عليهم أجمعين ، وهو كوفي ، وبه يُغَرَّبُ المثل في الحفظ ، فيقال :
أحفظ من الشعبي .

وقال الزهري : العلماء أربعة : سعيد بن المسيب بالمدينة ، وعامر الشعبي
بالكوفة ، والحسن البصري بالبصرة ، ومكحول بالشام .

وقال ابن شُبْرُمة : سمعت الشعبي يقول : ما كتبتُ سوداء في بيضاء إلى

يومى هذا ، ولا حدثنى رجل قطّ بحديث إلا حفظته ، ولا أحببت أن يُعيدَ على .
وقال الشعبي لأصحابه : ما أروى شيئاً أقلّ من الشعر ، ولو شئت لأُنشدنكم
شهر الأعداء .

وكان الشعبي فقيهاً عالماً حافظاً أدبياً ، وقال : لولا ما زوجت في الرحم
ما قامت لأحدٍ معى قائمة .

وكتب عبد الملك إلى الحجاج أن ابث إلى رجلا يصلح للدين والدنيا ،
أُتخذهُ سميراً وجليساً ، فبث إليه بالشعبي ، فلما دخل عليه وجده مغتماً ، فقال :
ما بال أمير المؤمنين ؟ قال ذكرت قول زهير ^(١) :

كأنى وقد جاوزتُ نسمين حجةً خلعتُ بها عني هذا رَ الجامي
رمتني بناتُ الدهر من حيث لا أرى فكيف بمن يرني وليس برام
فلو أننى أرزى بنبلِ رمتها ^(٢) ولكنى أرزى بنير سهامى
على راحتين تارة وعلى المصا أنوء ثلاثاً بمدهن قيسى ^(٣)

فقال له الشعبي : ليس كذلك ، ولكن كما قال لبيد بن ربيعة :

كأنى وقد جاوزتُ سمين حجةً خلعتُ بها عن منكبى ردائها ^(٤)
فلما بلغ سبماً وسمين ، قال :

(١) الأغاني « أصبحت كما قال عمرو بن قيس » .

(٢) الأغاني « ولو أنها نبلى إذا لا تقيتها »

(٣) موضعه في الأغاني :

وأهلكنى تأميلُ يوم وليلةٍ وتأميلُ عامٍ بعد ذلك وعامٍ

(٤) ملحق ديوان لبيد ٣٦١

بانت تشكى إلى الموت مجبهة^(١) وقد حملت سبعا بعد سبعمها
فإن تراخت ثلاثا تبلى أملا^(٢) وفي الثلاث وقلا لثانينا
فلما بلغ التسعين ، قال :

ولقد سننت من الحياة وطولها وسؤال هذى الناس كيف ليهد^(٣)
وغنيت سبعا قبل مجرى داحس لو كان للنفس اللجوج خلود
فلما بلغ عشرين ومائة ، قال :

أليس ورأى إن تراخت منيتي لزوم لامعا تحنى عليها الأصابع^(٤)
أخبر أخهار القرون التي مضت أنوء كأتى كلما قت راكم^(٥)
فلما بلغ ثلاثين ومائة حضرته الوفاة ، فقال :

نقى ابتلى أن يعيش أبوما وهل أنا إلا من ربمة أو مضر^(٦)
فقوما فقولا بالذى أنا أهله ولا تخميشا خذا ولا تخلفا شعر
وقولا هو الرد الذي لا صديقه أضاع ولا خان التليل ولا غدر
إلى الحول ثم اسم السلام عليكها ومن يهلك حولا كاملا فقد اعتذر

(١) الأغاني :

• قامت تشكى إلى الموت مجبهة •

(٢) الأغاني « فإن تزدى ثلاثا » .

(٤) ديوانه ١٧١

(٣) ديوانه ٣٠

(٥) الديوان :

• أدب كأنه كلما قت راكم •

(٦) ديوانه ٢١٣ ، وبعده في الديوان :

ونأحتان تندقان بماقل وأخاتقة لا عين منه ولا أثر
وفي ابني نزار أسوة إن جزعتما وإن تسالأم تغبرافهم الخبز
وفمين سوام من ملوك وسوقة ودعائم عرش خانه الدهر فانقر

قال الشعبي: فلقد رأيت السرور في وجه عبد الملك طمعا أن يعيشها^(١).
وقال الحريري في الدرّة: حدثني أحد شبوخي أن ليل الأخيلىة كانت
تسكلم بلغة بهزاء، فتكسر عرف المضارعة، فتقول: «أنت تنعلم» فاستأذنت يوما
على عبد الملك بن مروان وبمحضرة الشعبي، فقال: «أناذن لى بأمر المؤمنين
في التّصّ منها؟ فقال: افعل، فلما استقرّ بها المجلس قال لها الشعبي: يا بليّ،
ما بال قومك لا يكتنون! فقالت: ويحك أما نكتنى - بكسر النون - فقال: لا والله
ولو فعلت لا غتسلت، فتجملت عند ذلك، واستغرق عبد الملك في الضحك.

الأصمعي: وجّه عبد الملك الشعبي إلى ملك الروم في بعض الأمور، فاستكبر
الشعبي، فقال له: من أهل بيت الملك أنت؟ قال: لا، فلما أراد الرجوع إلى
عبد الملك حمّله رقعة لطيفة، وقال له: إذا بلغت صاحبك جميع ما يحتاج إلى معرفته
من ناحيتنا فادفع إليه هذه الرقعة، فلما رجع إلى عبد الملك ذكر له ما احتاج إلى
ذكره، ونهض. فلما خرج ذكر الرقعة، فرجع فقال: بأمر المؤمنين إنه حمّلى
إليك رقعة أنسيها، فدفعها إليه ونهض فقرأها عبد الملك، وأمر برده فقال:
أعلمت ما في الرقعة؟ قال: لا، قال: فيها عجب من العرب كيف ملكت غير
هذا! أفندري لم كتب إلى بهذا؟ قال: لا، قال: حسدى عليك، فأراد أن يُفري بي
بقتلك، فقال الشعبي: لورأك بأمر المؤمنين ما استكبرنى. فبلغ ذلك ملك الروم،
فذكر عبد الملك وقال: لله أبوه! والله ما أردت إلا ذلك.

وكان الشعبي خرج مع عبد الرحمن بن الأشعث على الحجاج، فلما هزم
عبد الرحمن أتى به موثقاً مع الأسرى، وكان حكم الحجاج فيهم: من أقر أنه
كافر أبقاه، ومن أقر أنه مسلم قتله. قال: فلما جئت باب القصر لقيني يزيد
ابن مسلم كاتبه، فقال: إنا لله يا شعبي، لما بين دفتيك من العلم! وليس

بيوم شفاعة، فقلت له: وما المخرج؟ فقال بؤ للأمر بالشرك والنفاق، وبالحرى أن تدجو، فلما دخلتُ على الحجاج قال لى: وأنت يا شعبي ممن خرج علينا! قلت: أصلح الله الأمير! أخزن بنا المنزل، وأجذب بنا الجناب، واستخلصنا الخوف، وضاق الملك، وخطبتنا^(١) فتنة، لم نكن فيها بررة أولياء، ولا فجرة أقوياء، قال: لله أبوك! لقد صدقت والله ما بررتم بخروجكم علينا، ولا قويتم. خلوا سبيلكم.

وكلم ابن هبيرة في قوم حبسهم، فقال: إن كنت حبستهم بباطل، فالحق يُطليهم، وإن كنت حبستهم بحقٍّ فالعفو يسعهم.

ودخل عليه رجل من النواكبي، وهو جالس مع امرأة، فقال: أيسكا للشعبي؟ فقال له: هذا، فقال: ما تقول أصلحك الله في رجل شتمني في أول يوم من رمضان هل يؤجر؟ فقال له الشعبي: أما إن كان قال لك: يا أحمق، فأرجو له الأجر.

وسأله آخر، فقال: ما تقول في رجل أدخل إصبه في أنفه في الصلاة، فخرج عليها دم، أنرى له أن يجتمع؟ فقال: الحمد لله الذي نقلنا من الفقه إلى الحجة. وسأله آخر: كيف كانت تسمى امرأة إبليس؟ قال ذلك نكاح لم نشهده ودخل الحتام فرأى داود الأودي بلا مئزر، فتمض عينيه، فقال له داود: متى سميت بأبا عمرو؟ فقال: مذ هتك الله سترك. ومات في سنة أربع ومائة وهو ابن اثنتين وثمانين سنة.

[ذكر الخليل بن أحمد]

والخليل رحمه الله هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد البصري الفراهيدي، ينسب إلى فراهيد بن مالك بن قثم بن عبد الله بن مالك بن نصر الأزدي، ويقال: اليعمدي. واليعمد بطن من الأزدي.

وكان الخليل من أزهّد الناس وأعلام نفسا ، وأشدّهم تعفّفاً ، ولقد كان الملوك يقصّدونه ويعترّفون إليه لينال منهم ، فلم يفعل ، وكان يعيش من بُستان له خلقه عليه والده ، وكان يفرّو سنة ويهجّج أخرى ، حتى جاءه الموت .

محمد بن حميد ، قال : تزوّجت إلى جبران الخليل ، فنزلت عليهم ، فكنت أسمع قرآن الخليل طول الليل ، فقالوا لي : ما عرفنا من هذا الرجل إلا ما ترى ، وإنه لهفوب عتافي غزوي وحجّ فتوحش إليه ، وقالوا : لا يجوز الصراط بعد الأنبياء والصعابة أدقّ ذهناً من الخليل . وكانت تلك الفضيلة فيه ببركة اسم أبيه ، لأنه أوّل من تسمّى بأحمد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أبو حاصم : دخلت عليه قبل وفاته بأيام ، فقال : والله ما فلت قطّ فعلا أخاف على نفسي منه وكان لي فضل فسكر ، صرفته إلى جهةٍ ودِدْتُ أي كفت صرفته إلى غيرها . وما علمت أي كذبت متعمداً قطّ ، وأرجو أن يغفر الله لي العاويل .

واجتمع أدباء من كلّ أقطاف ، فجعل أهل بلد يرفعون علماءهم ، ويقدمونهم حتى جرى ذكر الخليل ، فلم يبق أحد إلا قال : الخليل أذكى العرب ، وهو مفقاح العلوم ومصرّتها .

النفّسر : ما رأى الرادون مثل الخليل ، ولا رأى الخليل مثل نفسه . وكان أشعث الرأس ، شاحب اللون ، قشيف المهية ، متخرق الثياب ، متقلع القدمين ، مغموراً في الناس لا يُعرف .

محمد بن الفضل : كان بالبصرة رجل يعطى دواء لظلمة البصر ، فاستفاد به الناس ، فمات فأصرّ ذلك بمن كان يستعمله ، فدُكر للخليل فقال : أله نسخة ؟ فقالوا : لم نجد لها ، قال : فهل كان له آنية بعمله فيها ؟ قالوا : نعم ، إناء يجمع فيه أخلاطاً ، قال : فجيثوني به ، فعمل ينشّمه ، ويخرج نوعاً نوعاً حتى

أخرج خمسة عشر نوعاً ، ثم سأل من جمعها ومقاديرها فعرّفه مَنْ كان يعالج مثله فعلمه ، وأعطاه الناس ، فانتفعوا به مثل تلك المنفعة . ثم وجدت النسخة في كُتُب الرجل ، فإذا فيها ستة عشر خطأ ، فلم يغفل إلا عن خلط واحد .

وكتب إليه ملك اليونان كتاباً باليونانية ، فخلا به شهراً حتى فهمه ، فقيل له في ذلك ، قال : قلت : لا بد أن يفتح الكتاب باسم الله تعالى وما أشبهه ، فهنّيت أول الحروف على ذلك حتى انقاست لي .

الأنضر بن شميل . جاء رجل من حلقة يونس ، فسأل الخليل عن شيء ، فأطرق يفكر ، فقالوا له : ما هذا مما يحتاج إلى فكر يفكر فيه ؟ فقال لهم : فما الجواب عنكم ؟ قالوا : كذا ، قال : فإنه يزيدكم في الجواب كذا ، قالوا : يقول كذا ، يقول : كذا ، فانقطعوا ، فقال : ما أجبت بجواب قط إلا وأنا أعرف آخر ما على فيه .

وكان يخرج من منزله فلم يشعر إلا وهو في الصحراء ، ولم يردّها لشغله بالفكر .

وقال الأنضر : سمعت الخليل يقول : الأيام ثلاثة : فمهود وهو أمس ، ومشهود وهو اليوم ، وموهود وهو غد .

وقال الخليل : إذا نسخ الكتاب ثلاث نسخ ولم يعارض به تمحّل . بالفارسية .

ورأى مع رجل دفتراً وفيه خط دقيق ، فقال لصاحبه : أيسّت يا هذا من طول عمرك !

وقال : إن لم تعلم الناس ثوباً فمأثمهم لندرس بتعليمهم علمك ، ولا تخرج من تفرّج السؤال ، فإنه يذهبك على علم ما لم تعلم .

وقال : أكثر من العلم لفهم ، واختر قليلاً منه لتحفظ .

وكان يقول : إذا خرجتُ من منزلي لقوت أحد ثلاثة ، إما رجلاً أعلم بشيء مني ، فذلك يوم فائدة ، أو مثل فذلك يوم مذاكرة ، أو دوني فذلك يوم ثواب .

وقال : من الناس مَنْ يدرى ويذرى أنه يدرى ، فذلك عالم فاتبعوه ، ومنهم مَنْ لا يدرى ولا يذرى أنه لا يدرى ، فذلك جاهل فاحذروه ، ومنهم مَنْ يدرى ولا يدرى أنه يدرى ، فذلك خالٍ فأرشدوه .

وكان يقول : إذا أردت أن تعلم خطأ معلمك من صوابه فجالس غيره . وقال : أنا أول مَنْ سُمِّي الأوعية ظروفاً ؛ لأنها جُمِلت ظرفاً للأدب والنظافة . وقال : أدركت بعض ما أنا فيه بأطراح الحشمة بيني وبين المعلمين ، وَمَنْ رَقَّ وجهه في طلب العلم رَقَّ علمه .

وقال : إذا أخطأ بمحضرتك مَنْ تعلم أنه يأنف بإرشادك فلا ترد عليه خطأه ، فذلك إذا نبهته على خطئه أسرعت لإفادته ، واكتسبت هداوته .

وقال : اجمل ما نكتب بيت مال ، وما في صدرك للنفقة .

وقال : العلوم أفعال والسؤالات مفاتيحها .

وقال : الناس في سبعين ما لم يتأزحوا .

وقال : الرجل بلا صديق ، كاليمين بلا شمال .

وقيل له : إن استفساد الصديق أهونُ من احتضار العدو ، فقال : نعم ، كما أن تخريب الثوب أهونُ من نسجه .

وقيل له : ما الجود ؟ فقال : بذل الجهود ، قيل له : فما الزهد ؟ قال : ألاَّ تطلب المفقود ، حتى تفقد الموجود .

وقال : الدنيا أمد ، والآخرة أبد .

وقال : حسب امرئٍ من الشرِّ أن يرى في نفسه فساداً لا يصلحه ، ومن علم بفساد نفسه علم بصلاحها ، وأقبح التحول أن يتحول المرء من ذنب إلى غير توبة ولا إقلام عنه .

وقال : الدنيا أصدقاء متجاورة وأشياء متباينة ، وأقارب متباعدة ، وأبعد متقاربة .

وقال : ثلاثة أشياء أنا أحبُّها للنفس ولمن أحبَّ رُشدَه : أحبُّ أن أكون بيني وبين ربِّي من أفضل عبادِه ، وأكون بيني وبين الخلوقة من أوسطهم ، وأكون بيني وبين نفسي من شرِّهم . وقال عبد الله بن داود : لو كتب شيء بالذهب لكتب هذا .

ونظر في فقه لأبي حنيفة ، فقيل له : كيف ترى؟ فقال : أرى جدًّا وطريق جدًّا ، ونحن في هزل وطريق هزل .

وقال عبد الله بن داود : لقد نال الناس بالخليل وعلمه الرغائب ، وإنه ليهن أخصاص البصرة ، يزهد فيما يُرغب فيه .

وقال : ثلاث يُنسين المصائب : مرَّ الغيال ، والمرأة الحسناء ، ومحادثة الرجال .

التنفر : سمعت الخليل يقول : للتواني إضاعة ، والحزم بضاعة ، والإنصاف واحة ، والججاج وقاحة .

وكان له غلام كثير الخلاف عليه ، فقال له يوماً : قُمْ ، فقال : لا أقوم ، فقال : أقم : فقال : لا أقم ، قال : فأفنى شيء تصنع ؟ قال : لا أصنع شيئاً . ويشبه هذا قول الشاعر في امرأته :

سكتُ فقالتِ لم سكتَ من الحقِّ وقلتُ فقالت: مادعاك إلى انطقي^(١)
 فأومأتُ هل من حالةٍ بين ذاودا قالت وذا الإيماء أيضاً مع الحقِّ
 فلم أر لي إذ حلت الغربَ راحةً من الشرِّ إلا في الهروب إلى الشرِّ
 فلما أتيت الشرقَ ألقيتها به وقد قدمت لي منه في ضيق الطَّرِيقِ

ولما أكرثنا من أخباره لأنها آداب ، وحكمت من اقتدى بها امتدى ،
 وما تركناه من أخباره أكرث ، وذكر النحر والعروض مؤخر إلى المحسن إن
 شاء الله تعالى :

ولقد تمه في الدم ضربت العمراء به اللثل ، فمن ذلك قول أبي تمام يهجو
 ههناش بن لهيعة :

ولو نشر الخليلُ له لعمتُ بلادته على فِطْنِ الخليل^(٢)
 فما أدري عمائي من رشادي دعائي أم حماك من الجولِ
 وقال آخر :

يا مَنْ يزيدُ نَمَقًا وتباغضًا في كل لحظة
 والله لو كنتَ الخليلَ لما رَوينا عنك لَفْظَةً

وأنشد البرد :

لم تدرِ ما علمُ الخليلِ فقَتِدِي ببيان ذاك ولا حدودَ المَطْنِ

وقال المعري :

إذا قيل نُسكُ فالخليل ابن آزر وإن قيل فهم فالخليل أخو القُهمِ

ابن مزاحم الشاعر: كان الخليل صديقاً لي ، فدخلت عليه يوماً ؛ فقال: أجز .
رأيت غنى الإنسان نفساً زكوة

فقلت :

• مُظَهَّرَةٌ مِنْ كُلِّ رِجْسٍ وَبَاطِلٍ •

فقال :

• غنى عاجل الدنيا مديح ورفعة •

فقلت :

• وخيرٌ عظيم عاجلٌ بمد آجلٍ •

فقال : والله جئت بما في نفسي ، ثم قال :

كَأَنَّكَ كُنْتَ قَدْ خَامَرْتَ قَلْبِي جِئْتَ بِمَا شَفَقْتَ بِهِ الْغَلِيلَا
رَأَيْتَ بَرَاةَ الْإِيْمَازِ أَشْفَى فَصَارَ كَثِيرُ غَيْرِكَ لِي قَلِيلَا

وله :

الْعِلْمُ يُذَكِّي عَمَلًا حِينَ يَصْحَبُهَا وَقَدْ يَزِيدُهَا طَوْلَ التَّجَارِبِ
وَذَوِ الْعَادِبِ فِي الْجَهْلِ مَقْرَبٌ يَرَى وَيَسْمَعُ أَلْوَانَ الْعَجَائِبِ

وكان صديق سليمان بن حبيب ، وأنشده الشعراء ، فتشاغل عنهم سليمان ،
فذكروا ذلك لخليل فكتب إليه :

لَا تَقْبَلَنَّ الشَّعْرَ ثُمَّ تَعَقَّهُ وَتَنَامَ وَالشُّعْرَاءُ غَيْرَ نَهَامٍ
وَأَمَلْ بِأَنَّهُمْ إِذَا لَمْ يَنْصَقُوا حَكَمُوا لَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْحُكَّامِ
وَجَنَابَةِ الْجَنَانِ عَلَيْهِمْ تَنْقَضِي وَكُلُّهُمْ مِمَّنْ تَبَقَى عَلَى الْآيَامِ

[ذكر جرير]

وأما جرير فهو ابن عطية بن الخطمي . شاعر من خول العرب ، وانتفت
 العلماء على أن أشعر الإسلاميين جرير والفرزدق والأخطل ، وأكثروا على
 تفضيله عليهما . وسأذكر لك شيئا من غزله وهجوه ، نستدل به على منزلة
 شرفه في الشعر : ورأت أمه وهي حامل به كأنها ولدت جهلا من شعر أسود ،
 فلما سقط جمل ينزوي فيمقع في عنق هذا فيخفقه حتى فعل ذلك برجال كثيرة ،
 فانتحبت فائزة فأولت الرؤيا ، فقيل لها : تلهين غلاما شاعرا ذا أسير وشدة
 وشكيمة وبلاء على الناس ، فلما ولدت سمته جريرا ، باسم الحبل الذي رآته ، فهاجاه
 ثمانون شاعرا ، فذليهم .

وقال جرير : ما عشتُ ولو عشتُ لنسبت نسبها تسمه المعجوز فتبكي على
 ما قاتها من شباها . قالوا : وأرق ما جاء في النسب قوله :

إنَّ العيون التي في طرفها حورٌ قتلنا ثم لم يحسن قتلانا^(١)
 بصر من ذا اللب حتى لا حراك له ومن أضف خلق الله أركاننا
 أنسهم مُقلَّةً إنسانها غرقُ هل ما نرى تارك للمعن إنسانا

ومثل هذا أوجب على الحريري أن يذكر جريرا بالفضل ، وإلا فقد أخذ
 عليه في ذكر جرير بالفضل ، وإنما الذي اشتهر في زمانه بالفضل مثل عمر بن أبي
 ربيعة وكثير عزة وبجميل وقيس بن ذريح وأمثال هؤلاء ، وإنما اشتهر جرير
 بالمدح والهجو ، ولا نظما ، قد جاء في شعره من الفضل الرقيق كثير ، وإن كان
 خصلنا إذ لم يشق . قال الجاحظ : كان الفرزدق مشهورا بالنساء ، ومع ذلك

(١) دابول ٥٩٥ ، ٥٩٦ ، وفيه ، « في طرفها مرض »

فليس له بيت واحد في النسيب ، وكان جرير عفيفاً لم يمشق امرأة قط ، ومع ذلك فهو أغزل الناس شعراً .

وسئل الفرزدق عنه فتنفس حتى كادت حمازيته تنشق ، ثم قال : قاله الله !
فما أحسن ناحيته وأثر دافيقته ، والله لو تركوه لأبكي الشابة على أحبائها ،
والمعجوز على شبابها ، ولسكنهم هزؤه فوجدوه عند الهراش نابعاً ، وعند
الجراء قارحاً ، ولقد قال بيتاً ، لأن أكون قلعه أحب إلي مما طلعت عليه
الشمس ، وهو :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضاباً^(١)

وقال مسعود بن بشر : قلت لابن مغازي : من أشعر الناس ؟ قال : من
إذا شئت جدّ ، وإذا شئت لعب ، وإذا شئت أطعمك لعبه ، وإذا رمقته بعد
عليك ، وإذا جدّ فيها قصد له آيسك من نفسه . قلت : مثل من ؟ قال : مثل جرير
إذا يقول حين لعب :

إن الذين غدّوا بلبك غادروا وشلاً بيمينك لا يزال مميهاً^(٢)

غيمضن من عبراتهم وقلن لي ماذا لقيت من الهوى واقهنا !

ثم قال حين جدّ :

إن الذي حرّم الكارم تغلباً جميل الخلفة والنبوة فهنا^(٣)

مضر أبي وأبواللوك فهل لكم يا خزر تغلب من أبي كائينا

هذا ابن عمي في دمشق خليفة لو شئت قاذكم إلى قطيونا

فلما بلغ عهد الملك هذا، قال : ما زاد ابن المراغة أن جعلني شُرطِيَّاهُ ! أما إنه
و قال : « لو شاء ساقكم » لَسَقْتُهُمْ إِلَيْهِ كما قال .

ونزل الفرزدق حين قدم على الأخوص فقال : ما تشتهي ؟ قال شواء وظلًّا
وغذاء ، قال : ذلك لك ، ومضى به إلى قبعة نفقته :

ألا حتى الديار بسندٍ إني أحبُّ حبَّ فاطمة الديار^(١)

إذا ماحلَ أهلكِ بأسلمى بدارة صلصلٍ شَحَطُوا مَرَّارًا^(٢)

أراد الظالمون ليعرّفوني فهاجوا صدعَ قلبي فاحتطّارًا^(٣)

فقال : ما أرق أشعاركم يا أهل الحجاز ! قال : أو تدرى ابن هذا ؟ قال :

هو لجريير يهجوكم ، قال : ويل لابن المراغة ! ما كان أحوجهم عَفَافَه إلى صلابه
شمرى ، وأحوجنى مع فسوقٍ إلى رقة شعره ، وفي الفرزدق منها :

وكنْتَ إذا نزلت^(٤) بدار قوم رحلتَ بحزْية وتركتَ عارا

وقال جرير :

لقد طال كتمانى أمانة حبّها فهذا وإن الحبّ تَبَدُّ وشواكُلُهُ^(٥)

وإني وإن لام العواذلُ مولعٌ بحبِّ الغضامينِ حُبٌّ مَنْ لا يزالُهُ

ولما استقرّ الحبّ ألتقتُ بى العَصَا^(٦) ومات الهوى لنا أصهيت مقاتلُهُ

وقلنَ تَزَوَّجْ لا يكن لك حاجة^(٧) وقلبك لا تشغل وهُنَّ شواغلُهُ

(١) ديوانه ٢٨٠

(٢) الديوان : « المزارا »

(٣) الديوان : « ليجزوني » .

(٤) الديوان : « حلت » .

(٥) ديوانه ٤٧٨

(٦) الديوان :

• فلما التقى الحَيَّانَ أَلْقَيْتِ الْعَصَا •

(٧) الديوان :

• وَقُلْنَ تَزَوَّجْ لَا تَكُنْ لَكَ ضَمِيمَةٌ •

وقال أيضاً :

يا أخت ناجية السَّلامِ عليكمُ قبل الرِّحيل وقبل لوم المُذَلِّ^(١)
لو كنتُ أعلمُ أنْ آخرَ هَديكُمُ يومُ الفراقِ فلتُ مالمُ بفعلِ
وقال أيضاً :

بفسي مَنْ نَجَّيْتُهُ عَزِيزَ على وَمَنْ زيارتُهُ لِيَامِ^(٢)
وَمَنْ أُمسى وَأصبحَ لا أراه وَيَطْرُقُ إذا هَجَعَ النِّيامُ
أذكُرُ إذ تودَّعنا سُلَيْمَى بفرعِ بشاميةِ سَتِيّ البِشَامِ

وقال أيضاً :

لأنكفرتَ إذا جَعَلْتَ تُلومِي لا يذهبنَ بفعلك الإكثارُ^(٣)
كان الخليلُ مُمُ الخليلُ فزايَلُوا ولقد تَهَدَّلَ بالدارِ ديارُ
لَا يَلْبَثُ القُرْناةُ أنْ يَفترَقُوا ليلٌ بصكرٍ عليهمُ ونهارُ
ومن هجوه في الرامي :

ففضَّ الطرفَ إنك من نُميرٍ فلا كُعباً بلغت ولا كِلاباً^(٤)
وعندما قال هذا البيت وثب قائماً حتى أصاب السقف رأسه ، وقال :
أخبرتهُ واللهُ وغصصتهُ ، وقد تمت أخويه عليه ، واللهُ لا يفلح بعدها ، وكان كما قال ،
ما أفلح بعدها هو ولا نَمير .

وقال في جندل بن الرامي :

أجندلُ ما تقولُ بنو نَميرٍ إذا ما الأيرقُ است أبوك غاباً^(٥)

(١) ديوانه ٤٤٣ :

يا أمَّ ناجيةَ السَّلامِ عليكمُ قبل الرِّواحِ وقبل لوم المُذَلِّ^(١)

(٢) ديوانه ٥١٢ .

(٤) ديوانه ٧٥

(٣) ديوانه ٢٠١

(٥) ديوانه ٧٥

وأنشد القصيدة والفرزدق واقف ، فلما بلغ إلى قوله :

• تَرَى بِرِصًا بِأَجْعٍ إِسْكَنْيَهَا •

وضع الفرزدق يده على فيه ، وغطى منقته فقال :

• كَمَنْفَقَةٍ الْفِرْزَدَقُ حِينَ شَابَا •^(١)

فانصرف الفرزدق وهو يقول: اللهم أخزِه ، ولقد علمت حين بدأ البيت
ألا يقول غدها ، ولكن طعمتُ إلا نأته .

وقال في ابن لجا :

نَعَزْتُ نَيْمَ لِي عَمْدًا لِأَشْتِيهَا كَأَنَّمَرَّضَ لَأَسْتِ الْخَارَى الْحَجَرُ^(٢)
بَانِيَمَ تَيْمٍ عَدَى لَا أَبَالِكُمُ لَا يَلْقَيْنَكُمُ فِي سُوءٍ عَمُرُ

وقال يذكر أمه :

نَقُولُ وَالْعَبْدُ مَسْكِينُ يُزَحُّرُهَا وَفَقًا فِدَاكَ أَنْتَ الْفَاكِحُ الذِّكْرُ^(٣)

وبينا جرير ينشد في زوجته :

لَوْلَا الْحَيَاءُ لَعَادَنِي اسْتِعْبَارُ وَلَوُزْتُ قَبْرَكَ وَالْحَبِيبُ يُزَارُ^(٤)
كَأَنَّ إِذَا هَجَرَ الضَّجِيعُ فَرَاشَهَا^(٥) كَتَمَ الْحَدِيثُ وَعَفَّتِ الْأُمْرَارُ
لَا بَلِثَ الْقِرْنَاءُ أَنْ يَتَصَدَّعُوا لَوْلَا يَكْرَهُ عَلَيْهِمْ وَنَهَارُ

إذ طلع الأحوص فقطع إنشاده ، ورفع صوته ، يقول :

عَوَى الشَّعْرَاءُ بِمَعْضَمٍ لِبَعْضٍ عَلَى نَقْدِ أَصَابِهِمْ انْتِقَامُ^(٦)

(٢) ديوانه ٢٨٣

(١) ديوانه ٦٩

(٤) ديوانه ١٩٩ ، ٢٠١

(٣) ديوانه ٢٨٦

(٥) الديوان : « هَجَرَ الْخَلِيلُ فِرَاشَهَا » .

(٦) ديوانه ٥١٣ ، الأغانى ٨ : ٦٥

إذا أرسلتُ صاعقة عليهم رأوا أخرى تحرق فاستداموا^(١)
فصطلم^(٢) للسامع أو خصي^(٣) وآخر عظم هامته حطام

ثم عاد . فقيل : لم قلت هذا ؟ قال : إني نهيت الأحوص أن يمين الفرزدق
[على]^(٤) وإني والله يابى عمرو بن عوف مانعوذت من شاعر قط ، ولولا
حكم مانعوذت منه .

الأصمعي : حدثني أبي قال : رأى رجل جريرا في المنام ، فقال : ما فعل الله
بك ؟ قال : خفرتي ، قال : بماذا قال بتكبيره كبرت الله في الخمر - وهو ماء بالبادية -
قال : فافعل أخوك الفرزدق ؟ قال : هيأت أهلكه قذف الحصنات .
قال الأصمعي : لم يدعه في الحياة ولا في المات ، وتوفي سنة أربع
عشرة ومائة .

[ذكر قس بن ساعدة الإيادي]

وأما قس بن ساعدة الإيادي ، فيضرب به المثل في الفصاحة والخطابة ،
فيقال : أبلغ من قس ، وهو أسقف نجران ، وهو من حكماء العرب ، وكان
مؤمناً بالله ومبشراً برسوله ، وهو أول من خطب متوكئاً على عصا ، وأول من
كعب : من فلان إلى فلان ، وفيه يقول الأحمسي :

وأفصح من قس وأجبري من الذي بنى الدين من خفان أصبغ خادرا^(٥)
ولما^(٦) قدم وفد بكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سأله من رجل

(١) استداموا ، أي اعتظروا .

(٢) مصطلم : مقطوع

(٣) من الأغاني

(٤) في معجم البلدان : خر : عجب من أعراس المدينة .

(٥) البيت ليس في ديوانه

(٦) الخبر في الأغاني ١٥ : ٢٤٦

كان فيهم نازلاً ، يقال له : قُتْسَ بن ساعدة الإيادي ، قالوا : هلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد رأيته بمكافٍ يخطب على جبل له أوزق^(١) وهو يقول : أيها الناس اجتمعوا ، واسمعوا وعوا ، من عاشر مات ، ومن مات فات ، وكل ما هوات آت ، ليل موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تغور ، وبحر يور . أمّا بعد ، فإن في السماء ظهراً ، وإن في الأرض لمبراً ، مالي أرى الناس يموتون ولا يرجعون ، أرضوا بالإقامة فأقاموا ، أم تركوا كما هم فناموا . أقسم بالله قُتْسُ قُتْمًا حقاً ، فاحنث ولا أثم ، إن الله ديناً هو أرضى من ديننا ، هذا الذي نحن عليه ، ثم قال أحياناً ما أحفظكم ، فقال رجل من الأنصار : أنا شاهد يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي ! قال : فأنشدنا ، قال : سمعته يقول :

في الذاهبين الأولين من القُرون لنا بصائرُ
أما رأيت موارداً للموت ليس لها مصادرُ
ورأيت قومي نحوها تمضي الأصغرُ والأكابرُ
لا يرجع الماضي ولا يبقى من الباقين عابرُ
أيقنتُ أني لا عا له حيث صار المقوم صائرُ

وقال صاحب الأغاني^(١) فيه هو قُتْسَ بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك بن أيدعان^(٢) بن النخير بن واثق بن الطمئان بن عبد مناة بن يقدم بن أفضى ابن دُعْمَى بن إياد .

وكان يقد على قيصر زائراً فيكرمه ويهظمه ، فقال له قيصر : ما أفضل العلم ؟ قال : معرفة الرجل بنفسه ، قال : فما أفضل المثل ؟ قال : وقوف للمرء عند حله ، قال : فما أفضل الأدب ؟ قال : استبقاء الرجل ماء وجهه . قال : فما أفضل

(١) الأوزق : الذي فيه سواد وبياض .

(١) الأغاني ١٥ : ٢٤٦ (٢) ط : « أرهان » ، والمثبت من الأغاني

المروءة ؟ قال : قلة رغبة المراء في إخلاف وعده ، قال : فما أفضل المال ؟ قال :
ما قضى به الحق .

ابن عباس رضى الله عنهما : وفد الجارود بن عبد الله في وفد عبد القيس ،
وكان سيّدا في قومه ، معظما في عشيرته ، فأمن وآمن قومه ، فسرّ النبي صلى الله
عليه وسلم بهم ، ثم قال : يا جارود ، هل في جماعة عبد القيس من يعرف لنا
قُسا ؟ قال : كلنا نعرفه يا رسول الله ، وأنا كنت من بينهم ، أفقوا أثره ، وأطلع
خبره ، كان قسّ سبطا من أسباط العرب ، صحيح النسب ، فصيحاً ، ذا شعبة
حسنة ، عمّر سبعائة سنة ، بتقفر الفقار ، ولا نيكته دار ، ولا يُفتره قرار ، يتحصى في
تقفره بعض الطعام ، ويأنس بالوحوش والهوام ، يلبس المسوح ويتبع السواح
على منهاج المسيح ، لا يغير الزهانة ، مفرّ بالوحدانية ، تُضربُ بمكته الأمثال
ونتكشف به الأحوال ، وتنبه الأبدال ، أدرك رأس الحوارين سمان ، فهو
أول من تأله^(١) من العرب وأعجب من تعبد في الحُب ، وأيقن بالبعث والحساب ،
وحذر سوء المنقلب والمآب ، ووعظ بذكر الموت ، وأمر بالعمل قبل الفوت ،
الحسن الألفاظ ، الخاطب بسوق عكاظ ، العارف بشرق وغرب ، وبأس ورطب ،
وأجاج وعذب ، كأتى أنظر إليه ، والعرب بين يديه ، يقسم بالرب الذي هو له :
ليبلغن السكباب أجله ، وليوفين كلّ عامل عمله ، ثم أنشأ يقول :

هاج للقلب من هواه أدكارٌ وليالٍ خلّاهنّ نهارٌ
ونجوم يحتمها قمر الأيّس وشمسٌ في كلّ يوم تدارُ
ضوءها يطمس العميون وإرعا دُ شديد في الخاتين مشارُ
وغلام وأخبطٌ ورضيعٌ كلهم في القراب يوماً يُزارُ
وقصور مشيدة حوت الخيـرَ وأخرى حوتُ فـهنّ قفـارُ
وكثيرٌ ممّا تقصرُ عنه حدسة الفاطر الذي لا يحارُ

(١) تأله ، أى تعبد .

والَّذِي قَدْ ذَكَرْتُ دَلَّ عَلَى اللَّهِ نَفْسًا لَهَا هَدَىٰ وَاعْتَبَارُ
 قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : عَلَى رِسْلِكَ يَا جَارُودَ ، فَلَسْتُ أَنْسَاءُ بِسَوْقِ
 حِكَازٍ ، عَلَى جِلِّهِ أَوْزَقٍ ، وَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامِ مُوْتَقٍ ، مَا أَطْلَقَ أَحْفَظُهُ ، فَهَلْ
 فِيكُمْ لَامِشَرٍ لِلْهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ مَنْ يَحْفَظُ لَنَا مِنْهُ شَيْئًا ؟ فَوَثَبَ أَبُو بَكْرٍ قَائِمًا ،
 وَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَنَا أَحْفَظُهُ وَكُنْتُ حَاضِرًا بِمُكَازٍ حِينَ خُطِبَ فَأُطْنِبُ ،
 وَرَهَبٌ وَرَغَبٌ ، وَحَذَرٌ وَأَنْذَرٌ ، وَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ : أَيُّهَا النَّاسُ اسْمَعُوا وَعُوا ،
 وَإِذَا وَعَيْتُمْ فَاتَّقِعُوا ، إِنَّهُ مَنْ عَاشَ مَاتَ ، وَمَنْ مَاتَ فَاتَ ، وَكُلَّ مَا هُوَ آتٍ
 آتٍ ، مَطْلَرٌ وَنَبَاتٌ ، وَأَرْزَاقٌ وَأَقْوَاتٌ ، وَأَبَاءٌ وَأُمَهَاتٌ ، وَأَحْيَاءٌ وَأَمْوَاتٌ ، وَيَجْمَعُ
 وَشَقَاتٌ ، وَأَيَّاتٌ بَعْدَ أَيَّاتٍ ، إِنَّ فِي السَّمَاءِ ظُلُمًا ، وَإِنَّ فِي الْأَرْضِ أَعْيُرًا ، لَيْلٌ
 دَاجٍ ، وَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ ، وَأَرْضٌ ذَاتُ رَتَاجٍ ، وَبَحَارٌ ذَاتُ أَمْوَاجٍ ، مَا لِي أَرَى
 النَّاسَ يَذْهَبُونَ فَلَا يَرْجِعُونَ ! أَرْضُوا بِالْمَقَامِ فَأَقَامُوا ، أَمْ تَرَكُوا هُنَاكَ فَنَامُوا !
 أَقْسَمُ قُسًّا بِاللَّهِ قَسْمًا حَقًّا لَا آتَمَّا فِيهِ وَلَا حَاسَتَا ، إِنَّ اللَّهَ دِينًا هُوَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ
 دِينِكُمُ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ ، وَنَبِيًّا قَدْ حَانَ حَيْثُهُ ، وَأَخْلَسَكُمْ أَوَانُهُ وَأَدْرَكَكُمْ إِبَانَتُهُ ،
 فَطَوَيْتُمْ لِمَنْ آمَنَ بِهِ فَهَدَاهُ ، وَوَبَّلْتُمْ لِمَنْ خَالَفَهُ وَعَصَاهُ ! ثُمَّ قَالَ : تَبَّاءُ لِلْأَرْبَابِ الْغَفْلَةِ
 مِنَ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ ، وَالْقُرُونِ لِلْمَاضِيَةِ ! يَا مَعْشَرَ إِيَادَ ، أَيْنَ الْآبَاءُ وَالْأَجْدَادُ ، وَأَيْنَ
 لِلرَّبِضِ وَالْعُمُودِ ، وَأَيْنَ الْفَرَاعَةِ الشَّدَادُ ؟ أَيْنَ مَنْ بَنَى وَشَيَّدَ ، وَزَخَرَفَ وَنَجَّدَ ،
 وَغَرَمَ لِلْمَالِ وَالْوَلَدِ ! أَيْنَ مَنْ بَنَى وَطَنِي ، وَجَمَعَ فَأَوْعَى ، وَقَالَ : أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى .
 أَلَمْ يَكُونُوا أَكْثَرَ مِنْكُمْ أَمْوَالًا ، وَأَطْوَلَ مِنْكُمْ أَجَالًا ، طَحَنَتْهُمُ الثَّرَى بِكَتْلِكَ ،
 وَمَزَقَهُمْ بِطَلُولِهِ ، فَتَلَّكَ عِظَامُهُمْ بِالْيَةِ ، وَبَيَّوتَهُمْ خَاوِيَةً ، عَمَرَتْهَا الْقُدَّابُ الْمَاوِيَةُ .
 كَلَّا بَلْ هُوَ لِلْمَبُودِ ، لَيْسَ بِوَالِدٍ وَلَا مَوْلُودٍ ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ :

فِي الْقَاهِمِينَ الْأَوَّلِينَ . . . الْأَيَّاتِ الْمَتَقَدِّمَةِ . قَالَ : ثُمَّ جَلَسَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ
 عَنْهُ ، وَقَامَ رَجُلٌ ذُو هَامَةٍ عَظِيمَةٍ ، وَقَامَةً جَسِيمَةٍ ، فَقَالَ : يَا سَيِّدَ الْمُرْسَلِينَ ،
 وَصَفْرَةَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لَقَدْ رَأَيْتُ مِنْ قُسٍّ عَجِيبًا ؛ أَشْرَفَ بِي جِلِّي عَلَى وَادٍ ،

وشجر من شجر عاد ، مُورقة موقنة ، وقد تهطل أغصانها . قال : فدنوت منه ،
فإذا بُقِسَ في ظل شجرة ، بيده قضيب من أراك يفسكت به الأرض وهو
يترنم ، ويقول :

يا ناعى للوت والملودى جدثٍ عليهم من بقايا خزم خرق
دفعهم فإن لهم يوماً بطاح بهم فهم إذا انتهبوا من نومهم فرق
حق يمودوا بحال غير حالهم خلقتا جديداً كما من قبلها خلقتوا
مهم عراة ومنهم في ثيابهم منها الجديد ومنها المنهيج الخلق

قال : فدنوت منه ، وسلّمت عليه ، فردّ على السلام ، وإذا بهين خروار ،
في أرض خوار ، ومسجد بين قبرين ، وأسدّين عظيمين ، بلوذان به ، ويتمتعان
بأنوابه ، فأراه أحدهما أن يسبق إلى الماء ، وتبعه الآخر يطلب الماء ، ففصر به فصر
بالقضيب ، وقال : ارجع نكلك أمك احق يشرب القى ورّد قبلك . فرجع
ثم ورد بعده ، فقالت له : ما هذان القبران ؟ قال : هذان قبر أخوين لي كانا يعمدان
الله ممي في هذا المكان ، لا يشركان بالله شيئاً ، فأدركما الموت فقبرتهما ،
وهأنا بين قبريهما ، حتى ألحق بهما . ثم نظر إلى السماء فتفرغت عنها بالدموع ،
وانسكب عليهم ، وجعل يقول :

خَلِيلِي هَبَا طَالَمَا قَدْ رَقَدْتُمَا أَجِدُّكَ لَا تَقْضِيَانِ كَرَاكُمَا^(١)
ألم تعلمَا أنّي بِسَمْعَانٍ مفردٍ وما لي فيها من خليلٍ سواكما
مقيم على قبريكما لستُ براحاً طولَ الآبالي أو يُجيبَ صداكما
أبكمكما طول الحياة وما القى يردّ على عوّلٍ إن بكمكما
كانكما والموت أقرب غاية بروحي في قبريكما قد أنا كما

أَمِنْ طَوْلِ نَوْمٍ لَا يَجْبِيَانِ دَاعِيَا كَانَ الْقَدَى يَسْقَى الْعَقَّارَ سَقَا كَمَا
فَلَوْ جُمِلَتْ نَفْسٌ لِنَفْسٍ وَقَابَةً لَجِدْتُ بَنَفَى أَنْ تَكُونَ فِدَا كَمَا
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « رَحِمَ اللَّهُ قُتَيْبًا ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَبِيعَهُ اللَّهُ
أُمَّةً وَحِدَةً » .

• • •
[ذكر عهد الحميد]

وأما عهد الحميد ، فهو ابن يحيى بن سعيد ، كاتب مروان بن محمد ، آخر ملوك
في أمية ، وكتب أيضاً للمنصور . وقول إنه قتل مع مروان .
وكان رأساً في الكتابة ، ومقدماً في الفصاحة والخطابة ، بليغاً مرسلًا ، وقال
فيه ابن عبدبره : كتب عبد الحميد بن يحيى لعبد الملك بن مروان ، وكتب
ليسليمان بن عبد الملك ، وليزيد بن عبد الملك ، ثم لم يزل كاتباً لخلفاء بني أمية ؛
حتى انقضت دولتهم ^(١) .

وعبد الحميد أول من فتح أكام البلاغة ، وسهل طرقها ، وفك رقاب
الشعر ^(٢) .

وقال له مروان حين أيقن بزوال ملكه : قد احتجبت أن تصير مع عدوي ،
وتظهر الفدر بي ؛ فإن إعجابهم بأدائك بدعوم إلى حسن الظن بك ، فإن
استطعت أن تنفسي في حماي ، وإلا لم تعجز عن حفظ حرمتي بعد وفاتي . فقال
له عبد الحميد : إن القدي أشرت به عليّ أنفع الأمرين لك ، وأقبحهما لي ، وما عندي
إلا الصبر حتى يفتح الله لي ولك ، أو أقتل معك . ثم قال :

أَمِيرُ وفاء ثم أظهر خَدْرَةً فن لي بمذر يُوسِعُ الناسَ ظَاهِرُهُ ^(٣)

وعبد الحميد هو صاحب الرسائل والبلاغات ، وهو أوّل من أطلال الرسائل ، واستعمل التعميدات في فصول الكتب ، واستعملت بعده ، وهو القائل :
البلاغة تقرير المعنى في الأفهام ، من أقرب وجوه الكلام .

ولم يزل الشعراء ومهّرة الكتبة يضربون ببلاغته وكتابته الأمثال في كتبهم وأشعارهم في القديم والحديث ، كفضل صاحب وقرنائه ، مع طابع تمشيح ولفظ عذب ، وصلة نثر ينظم ، فإن شاء قال : أنا الوليد ، وإن شاء قال أنا عبيد ، وإن شاء قال : أنا عبد الحميد ، وإن شاء قال : أنا سعيد .

وقيل : بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد .



[ذكر أبي عمرو بن العلاء]

وأما أبو عمرو فهو ابن العلاء ابن عمار بن عبد الله بن الحُصَيْن بن الحارث ابن جَلْهَم بن خُزَاعِي بن مازن بن مالك بن عمرو بن نعيم : واسمه وكنيته واحد في الأشهر .

الفنجدية : اختلف في اسمه على تسعة عشر قولاً ، فقيل : اسمه محمد أو حميد أو حماد أو عثمان أو سفهان أو غير ذلك ، وأصعقها زَبَّان .

واختلف في مولده ، فقيل : ولد سنة خمس وسعين بمكة في أيام عبد الملك ابن مروان : وقيل : سنة سبعين .

أبو عبيدة : كان أبو عمرو أَسَمَّ طويلاً ضَرْبَ الِيدِين ، حادَ النظر ، مارأيت مثله قبله ولا بعده في فهمه ولا عليه ، وكان صاحب غريب ونحو وعلم ، وهو أحد الأئمة في القراءة ، وعنه أخذ يونس والأصمعي وأبو عبيدة . وفيه يقول الفرزدق :

ما زِلْتُ أَغْلِقُ أَبْوَابًا وَأَنْتَحُهَا حَتَّى أَتَيْتُ أَبَا عمرو بن عَمَّارٍ
وقال ابن مجاهد : كان أبو عمرو مقدِّمًا في عصره ، عالمًا بالفراة ووجوهها ،
قدوة في العلم باللغة ، إمام الناس في العربية .
وكان مع ذلك متمسكًا بالآثار ، ولا يكاد يخالف في اختياره ما جاء من
الأئمة قبله ، متواضعًا في علمه .

وقال أبو عبيدة : كان أبو عمرو أعلم الناس بالقرآن والعربية وأيام العرب
وأناسها وشعرها ، وكانت دياره ملء بيت ، فأما تنسك أحرقها ، وجعل على
نفسه أن يحتم القرآن في كل ثلاث ليل ، فلما أسنَّ اختلط بالناس ، واحتاجوه
إليه فموت على حفظه ، فأُمِّلِي من حفظه كتب الناس ووقع عليه الإجماع .

روى الأصمعي عن أبي عمرو قال : كنتُ أسمر مع مسلم بن قتيبة الباهلي
وكان يعجبه الزوى على السين ، فأنشدني ليلة سبعين قصيدة على السين لستين شاعرًا ،
اسمهم عمرو .

الأصمعي : كان لأبي عمرو كل يوم من غلة داره فلسان : فلس يشتري
به كوزًا ، وفلس يشتري به ربحانًا ، يشرب في الكوز يومه ، ويشمُّ الربحان
يومه ، فإذا أمسى تصدق بالكوز ، وأمر الجارية أن تجفف الربحان وتدقه
في الأشنان .

الأصمعي : قال أبو عمرو : كنت في ضيعتي ، فاشتدَّت عليَّ الحرُّ ، فسكنت
أدور في سِدْرٍ فيها نصف النهار ، فسمعت قائلًا يقول :

وإنَّ امرءًا دنياء أكبرُهم لمستمسكٌ منها بجملٍ غرورٍ^(١)

(١) الخبر والبيت في طبقات النحويين والتلوين لازيدي ٣٣ .

(٢٦ - شرح مقامات الحريري ج ١)

قلت : إنسى أم جئى ؟ فإجابى ، فنقشته فى خاتمى ، فكان نقش خاتمه .

الأصمعى : كنت واقفاً بالمربد ، وإذا أنا بأبى عمرو ، فلما بصُر بى مال
إلى ، فقال : ماوقوفك هنا يا أصمعى ؟ قلت : إني أحب المربد وأكثُر الجلوس
فيه ، فقال : الزم ، فإنه يشد النظر ويجلو البصر ، ويجمع بين ربيعة ومضر . ثم
أردت الانصراف ، فقال : إلى أين يا أصمعى ؟ فقلت : إلى صديق لى ، فقال :
إما لفائدة أو لعائدة أو لئائدة وإلا فلا . ثم قال لى : مالى أراك بلا عمامة ؟
قلت : لا عمامة لى ، فززع عمامته عن رأسه فدفعها لى ، فكبر ذلك على ، فقال
لى : إن لى بدلها إحدى عشرة عمامة ، ثم قال لى : الزم العمامة ، فإنها تشد اللامة ،
وتحفظ الهامة ، وتزيد فى القامة ، ثم استخرج من كُمته كيساً فدفعه لى ثم قال :
يا أصمعى ، لازتم بخير مادتم تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، فإذا تركتم
ذلك سلط الله عليكم أقواماً غلاظاً فظاظاً ، خبِر تسكم على قدر معرفكم .

وأما قراءته وإعرابه المذكوران فى المقامة ، فإن شجاع بن نصر ، قال :
قلت لأبى عمرو : كيف طلبت قراءة القرآن ؟ قال : لم أزل أطلب أن أقرأه كما
قرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكما أنزل عليه ، فقلت له : وكيف ذلك ؟
قال : هرب أبى من الحجاج ، وأنا شابٌ ، فقدمنا مكة ، فلقيت بها عدة من
التابعين بمن قرأ على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مثل مجاهد وسعيد
ابن جبير ومطاء وغيرهم ، فقرأت عليهم القرآن ، وأخذت العربية عن العرب
الذين سبقونا باللعن ، فهذه التى أخذت بها قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
فاشدّد يدك بها .

وقال : خرج أبى هاربا من الحجاج إلى اليمن ، فإننا لندسيرُ فى الصحراء باليمن
إذ لحقنا لاحقٌ يُبشِد :

رُبَّمَا تَجْزَعُ النَّفُوسُ مِنَ الْأَمْرِ لَهُ فَرْجَةٌ كَعَلَّ الْعِقَالِ^(١)
 فقال له أبي : ما الخبر ؟ فقال : مات الحجاج ، فأنا بقوله : « فَرْجَةٌ » بفتح
 فاء أخذ مروراً مني بموت الحجاج ، فقال أبي : اصرف ركبنا إلى البصرة .

الفجديهي : رأيت في بعض الفوائد أن الحجاج قال لأبي عمرو : ما وجه
 فرائدك : (إِلَّا مَنْ اعْتَرَفَ غُرْفَةً) بفتح الغين ؟ فقال : أبلغني ربي ، فقال :
 قد أبايتك الفرات . وقال : قاتل الله ابن أم الحجاج ، لئن لم تأتني بالجواب إلى
 خمسة عشر يوماً لأقتلك ثمرة قتلة ، ووكل به موكلين ، فخرج أبو عمرو يطوف
 في أحياء العرب ، فلم يجد له حُجَّةً إلى يوم وعده ، فجزه الموكلون به ليرجعوه إلى
 الحجاج ، فسمع راعياً ينشد : رُبَّمَا تَجْزَعُ النَّفُوسُ ... البيت ، فقال له أبو عمرو :
 كيف تشهد هذا البيت : له فَرْجَةٌ أو فَرْجَةٌ ، فقال : فَرْجَةٌ وفَرْجَةٌ ، وكذلك كل
 ما جاء على فَعْلَةٍ ، فلنا فيه ثلاث لغات ، فقال له أبو عمرو : فما سبب إنشادك
 هذا البيت في هذا الوقت ؟ فقال : إنا كنا خائفين من الحجاج ، وقد بلغنا نعيه ،
 قال : والله لا أدري بأيهما كنت أشدَّ فرحاً ، بوجودي الجواب والحجة لقولي
 واختماري ، أم بموت الحجاج !

سفيان بن عيينة : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام ، فقلت له :
 يا رسول الله ، قد اختلفت على القراءات ، فبقراءة مَنْ تأمرني أن أقرأ ؟ قال :
 بقراءة أبي عمرو بن العلاء .

وقال أبو العباس بن سُرَيْج : من أراد أن يتظرف فليبه بمذهب الشافعي ،

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت ، وهو في اللسان ، (فرج) وذكر قبله :

وقراءة أبي عمرو بن العلاء وشعر ابن المعتز ، فقبل له : قد عرفنا مذهب الشافعي
وقراءة أبي عمرو بن العلاء ، فأنشدنا من شعر ابن المعتز ما يوجب الظرف فأنشد :

كنت صباحي قري عين نصرت أمسي صريم بين
بين نفسي أصبت نفسي قاله بين وبين هيني

وكان يقول : إنما نحن فيمن مضى ، كبقل في أصول نخل طوال .

وقال أبو عمرو : ناظرت عمرو بن عبيد في الوعيد ، فقال : إن الله تعالى
لا يؤعدنا بشيء فيخلفه ، فقلت له : يا أبا عثمان^(١) ، ليس لك علم بالآفة ، إن خاف
الوعيد عند العرب ليس بخلف ، وأنشد :

وإني وإن أوعدته أو وعدته لـ يكذب إيمادي ويصدق موعدى^(٢)

وقال أبو عمرو : كنت رأسا والحسن حتى . وتوفي بالسكوفة سنة أربع
وخمسين ومائة ، وهو ابن ست وثمانين سنة ، وعلى قبره مكتوب « هذا أبو عمرو
ابن العلاء مولى بني حنيفة » .

وإنما قيل هذا لأن أمه كانت من بني حنيفة .

أبو عبيدة : دخل أبو عمرو على سليمان بن عبد الملك ، فسأله عن شيء
فصدقه فيه ، فلم يمجبه ما قال ، فخرج أبو عمرو وهو يقول :

أنفت من الأقل عند اللوك وإن أكرموني وإن قربوا
إذا ماصدت لهم خفتهم ويرضون مني بأن يكذبوا

وقال أبو بكر بن مجاهد : رأيت أبا عمرو في المنام ، فقلت : ما فعل الله

(١) أبو عثمان كنية عمرو بن عبيد .

(٢) البيت كما في اللسان (وعد) لما مر بن الطنيل ، وروايته .

• اخلف إيمادي ومنجز موعدى •

بك؟ فقال لي : دعني مما فعل الله بي ، مَنْ أقام بينداد على السنة والجماعة ومات ، نُقل من جنة إلى جنة .

* * *

[ذكر مناقب الأصمعي]

وأما ابن قُريب ، فهو أبو سميد عبد الملك بن قُريب بن علي بن أصمع ، وإلى أصمع هذا يُنسب . وأصمعُ يُخَذُّ من بني قتيبة بن معن بن أحمَر بن سميد بن قيس بن عيلان ، وبنو معن هُم بنو باهلة ، وباهلة امرأة من همدان تزوجت معنًا فذُنب ولده إليها . والأصمع في اللغة الضامر الذي ليس بمنفتح ، ومنه الصَّومعة لضُمرها ، وتديق رأسها ، ومثله قولهم : جاء بريدة مصمعة ؛ إذا رقعها وأخذ^(١) رأسها ، وسهم متصمع : متطأخ بالدم ، فانصمَّت قذذه^(٢) .

وكان الأصمعي حافظة عالمًا فطنًا عارفًا بأشعار العرب وأخبارها ، كثير الطول بالبوادى لاقتباس علومها وتلقى أخبارها ، فهو صاحب غرائب الأشعار ، وعجائب الأخبار ، وقدوة الفضلاء ، وقبلة الأدباء ، قد استولى على الغايات ، في حفظ اللغات ، وضبط العلوم الأدبيات ، صاحب دين معين ، وعقل رصين ، وكان خاصًا بالرشيد ، أخذًا لصلاته كثيرًا ، وقد تقدّم في هذا الكتاب من الحكايات المسندة إلى الأصمعي ، ما يدل على تبحره وحفظه .

ومن حكاياته عن أعرابه على ما أشار له الحريري هنا : حدث الأصمعي رحمه الله ، قال : أعرابي : حُسن التدبير مع الكفاف ، أ كفى من الكثير مع الإصراف .

الأصمعي سمعت أعرابيًا يقول : مَنْ كساه الحياء ثوبه ، أخفى على الناس عيبه .

(١) ط : أخذ .

(٢) القذذ : جمع قذذ ، وهي ريش السهم .

الأصمعيّ: قال أعرابيٌّ: من اقتصد في الفنى والفقر ، فقد استعدّ لنائبات الدهر .

قال : وقال أعرابيٌّ : مداوة الحكيم أقلّ عليك ضرراً من مودة الجاهل منهم .

قال : وقال أعرابيٌّ : أعجزُ الناسَ مَنْ تهرى في طلب الإخوان ، وأعجزُ منه مَنْ ضيَّعَ مَنْ ظفّرَ به منهم .

وقال : تزوّج أعرابيٌّ إلى بعضِ الحاضرة ، فلما كان ليلة دخوله بها ، إذا هى أدماء مجدورة ، فخرج من البيت وهو ينشد ويقول :

زَوَّجْتَنِي أَدْمَاءَ مَجْدُورَةٍ كأنها من خَشَبِ الْبَيْتِ
قُبُوحَةُ الْوَجْهِ لَهَا مَنَظَرٌ يَفْرَقُ مِنْهُ مَلَكُ الْمَوْتِ

قال : وجرى بين أعرابيٍّ وبين امرأته كلام بالمربد ، فشتمته ، فقال لها : اسكتي ، فوالله ما شعرك بوارد^(١) ، وما فوك ببارد ، ولا نديك بناهد ، ولا بطنك بوالد ، ولا الخير فوك بزائد ، ولا الشرّ فيك بواحد ، وما أنا لك بحامد ، ولا بعد موتك بواجد .

[مجلس للأصمعي عند الرشيد]

ونذكر بعد ذلك حكاياته المشهورة مع الرشيد ووزرائه ، ومحمل طولها لما احتوت عليه من غرائب الآداب ، وكان مجلس مذاكرة بين أفراد ، فأظهر كل رجل منهم أفضل ما يذكر .

حدث الأصمعيّ قال : استدعاني الرشيد في بعض الليالي ، وقد نصرمت قطعة من الليل ، فراءتني رسله ، ولم أفتأ أن مثلت بين يديه ، وإذا في المجلس يحيى بن خالد وجعفر والفضل ، فلما لحظني الرشيد استدعاني ، فدنوت منه ،

فتبين ما لبستى من الوجل ، فقال لى : أئفرخ روعك ، فما أردناك إلا لما يراد
له مثلك ، فكشكته هههه إلى أن ثابت إلى نفسى بعد أن كادت تطير شهماها ،
فقال : إنى نازعت هؤلاء القوم فى أشعر بيت قاله العرب فى التشبيه ، ولم يقع
إجماعنا على بيت ، فأردناك لفصل هذه القضية ، واجتماع عمرة الخطار^(١) فيها .
قلت : يا أمير المؤمنين ، إن التعمين على بيت واحد فى نوع واحد - قد سمعت
العرب فيه ، وجملته مقلما لأفكارها ، ومستراحا لخواطرها - لبعيد أن يقع
النص عليه ، ولكن أحسن الناس تشبيها امرؤ القيس فى قوله :

كَانَ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَاطِبًا وَيَابَسًا لَدَى وَكْرَهَا الْمُتَقَابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي^(٢)
وفى قوله :

كَانَ هُوْنَ الْوَحْشِ حَوْلَ خِيَانَتِنَا وَأَرْحَانَا الْجَزَعُ الَّذِى لَمْ يَنْقُبِ^(٣)
وفى قوله :

وَلَوْ مِنْ نَشَا غَيْرِهِ جَاءَنى وَجُرْجُحُ الْإِنَانِ كَجِرْحِ الْوَلْدِ^(٤)
وفى قوله :

سَمَوْتُ إِلَيْهَا بَعْدَ مَا نَامَ أَهْلُهَا سُمُوَ حَبَابِ الْمَاءِ حَالًا عَلَى حَالِ^(٥)
فالفتت إلى يحمى ، وقال : هذه واحدة ، قد نص على امرئ القيس أنه
أبدعهم تشبيها . قال يحمى : هى لك يا أمير المؤمنين ، ثم قال لى الرشيد : فما أبدع
تشبيهاه عندك؟ قلت : قوله يصف فرسا :

(١) الخطار : المراهنة

(٢) ديوانه ٣٨ ، والحشف : ردى التمر

(٣) ديوانه ٥٢ والجزع : الخرز

(٤) ديوانه ١٨٥

(٥) ديوانه ٣١

كَانَ تَشَوُّفَهُ بِالضَّمِيِّ تَشَوُّفُ أَزْرَقِ ذِي مِخْلَبٍ^(١)
إِذَا قَرَعَتْهُ حَلَالٌ لَهُ تَقُولُ سَلَبْتُ وَلَمْ تَسْلُبْ

فَقَالَ : هَذَا حَسَنٌ ، وَأَحْسَنُ مِنْهُ قَوْلُهُ :

غَرُحْنَا بِكَابْنِ الْمَاءِ يُجَنَّبُ وَسَطُنَا تَصَوَّبُ فِيهِ الْعَيْنُ طَوْرًا وَتَرْتَقِي^(٢)

فَقَالَ جَمْفَرُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَا هَذَا الْأَحْكَمُ ؟ قَالَ الرَّشِيدُ : وَكَيْفَ ؟ قَالَ :
يَذْكُرُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا وَقَعَ اخْتِفَاؤُهُ عَلَيْهِ ، وَنَذْكُرُ مَا اخْتَفَرْنَاهُ ، وَيَكُونُ الْحُكْمُ
وَأَقَمًا بَعْدَهُ ، فَقَالَ الرَّشِيدُ : أَمْرَضْتُ ، فَاسْتَحْسَنْهَا - يَقَالُ : أَمْرَضُ الرَّجُلَ : إِذَا قَارَبَ
الْأَصْوَابَ - ثُمَّ قَالَ الرَّشِيدُ : بَلْ تَبْدَأُ يَا بَحِي ، فَقَالَ بِحِي : أَحْسَنُ النَّاسِ تَشْبِيهَا
بِالْإِنْفَةِ فِي قَوْلِهِ :

نَظَرْتُ إِلَيْكَ بِحَاجَةٍ لَمْ تَقْضِهَا نَظَرَ السَّقِيمِ إِلَى وَجْهِ الْعُودِ^(٣)
وَفِي قَوْلِهِ :

فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُذَرِّكِي وَإِنْ خَلْتُ أَنْ الْمُنْقَاىَ مِنْكَ وَاسِعُ^(٤)
وَفِي قَوْلِهِ :

مِنْ وَحْشٍ وَجَرَةٍ مَوْشَى أَوْ كَارِعُهُ طَاوِي الْمَصِيرِ كَسَيْفِ الصَّقِيلِ الْفَرْدِ^(٥)
فَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ : أَمَّا تَشْبِيهِهُ مَرَضَ الطَّرْفِ فَحَسَنٌ ، إِلَّا أَنَّهُ مِجَنَّهُ بِذِكْرِهِ
الْعَلَّةَ ، وَتَشْبِيهِهُ الرَّاةَ بِاللَّيْلِ . وَأَحْسَنُ مِنْهُ قَوْلُ عَدِيِّ بْنِ الرَّقَاقِ الْعَامِلِيِّ :

وَكَاثِمًا بَيْنَ النِّسَاءِ أَعَارَهَا عَيْنِيهِ أَحْوَرُ مِنْ جَاذِرِ جَائِمٍ^(٦)

(١) لم يرد هذان البيتان في ديوانه .

(٢) ديوانه ١٧٦ وف ط : « بكأس الماء » ، تصحيف صوابه من الديوان .

(٣) ديوانه ٣٠ .

(٤) ديوانه ٥٥ .

(٥) ديوانه ١٨ .

(٦) اللآلئ ٥٢١ .

وَسَنَانُ أَفْصَدَهُ النَّمَامُ فَرَنْتُ فِي عَيْنِهِ سِنَةً وَابِسَ بِنَانِمْ
 وَأَمَّا تَشْبِيهِ الْإِدْرَاكِ بِالْأَيْلِ ، فَقَدْ تَسَاوَى الْإَيْلُ وَالنَّهَارُ فِيهَا بِدِرْكَانِهِ ، وَإِنَّمَا
 كَانَ سَبِيلُهُ أَنْ يَأْتِيَ بِمَا لَيْسَ لَهُ قَسِيمٌ ، حَتَّى يَأْتِيَ بِمَعْنَى يَنْفَرِدُ بِهِ ، وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ :
 إِنَّ قَوْلَ الْمَرْمُوزِ فِي هَذَا أَحْسَنُ ، لَوَجَدَ مَسَاغًا إِلَى ذَلِكَ حَيْثُ يَقُولُ :
 فَلَوْ كُنْتُ بِالْعِنْقَاءِ أَوْ بِسِنَامِهَا خَلَلْتُكَ إِلَّا أَنْتَ تُصَدِّقُ تَرَانِي
 وَأَمَّا قَوْلُهُ :

* طَاوَى الْعَصِيرِ كَسَيْفِ الصَّيْقَلِ الْفَرْدِ *

فَالطَّرْمَاحُ أَحَقُّ بِهَذَا الْمَعْنَى ، لِأَنَّهُ أَخَذَهُ لِحُزْنِهِ وَزَادَ عَلَيْهِ ، وَإِنْ كَانَ النَّابِغَةُ
 اخْتَرَعَهُ ، وَقَوْلُ الطَّرْمَاحِ :

يَبْدُو وَتُضْمِرُهُ الْبِلَادُ كَأَنَّهُ سَوْفَ عَلَى شَرَفٍ يُسَلِّ وَبُعْمَدُ

فَقَدْ جُمِعَ فِي هَذَا الْبَيْتِ اسْتِمَارَةُ لَطِيفَةٍ بِقَوْلِهِ : « وَتُضْمِرُهُ الْبِلَادُ » وَتَشْبِيهِهُ
 اثْنَيْنِ بِقَوْلِهِ : « يَبْدُو وَتُضْمِرُ » « وَبُسَلَّ وَبُعْمَدُ » ، وَجُمِعَ حَسَنُ الْقَسُومِ
 وَصَحَّةُ الْمَقَابِلَةِ .

قَالَ الْأَصْمَعِيُّ : فَاسْتَقْبَشَرَ الرَّشِيدَ وَبَرَقَتْ أَسَارِيرُ وَجْهِهِ ، حَتَّى خَلَتْ بَرَقَا
 بُؤْمُضٍ مِنْهَا ، وَقَالَ لِيَجِيئَ : فَضَلْتُكَ وَرَبَّ الْكَعْبَةِ ، فَانْتَفَعَ بِجِيئِ ، فَكَانَ
 الرَّمَادُ ذَرًّا عَلَى وَجْهِهِ ، قَالَ الْفَضْلُ : لَا تَعْجَلْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، حَتَّى أَمْرًا مَا قُلْتَهُ
 بِسَمْعِهِ ، فَقَالَ : قُلْ ، قَالَ : أَحْسَنُ النَّاسِ تَشْبِيهَا طَرْفَةً فِي قَوْلِهِ :

وَوَجْهُهُ كَانَ الشَّمْسُ أَلْقَتْ رِذَاءَهَا عَلَيْهِ نَقَى الْاَوْنَ لَمْ يَتَّخِذْ^(١)

(١) ديوانه ٣١٠ (ضمن مجموعة مختار الفعري الجاهلي) وق ط : « يتجدد » تحريف .

وفى قوله :

يشقُّ حَبَابُ الْمَاءِ حَبِزَومُهَا بِهَا كَمَا قَسَمَ الْقَرَبُ الْمَقَابِلُ بِالْيَدِ^(١)

قال : فقلت : هذا حَسَنٌ وغيره أحسن منه ، قد شرَكَ في هذا المعنى جماعة من الشعراء ، وبعد فطرفة صاحب واحدة ، لا يُقَطَّعُ بقوله مع التجوُّز ، وإنما يمدُّ من أصحاب الواحدة قال : وَمَنْ أَصْحَابُ الْوَاحِدَةِ؟ قلت : الحارث بن حِزْرَةَ
فى قوله :

أَذْنَنَّا بَيْنَهَا اسْمَاء رَبُّ تَاوِيْلُ مِنْهُ الشَّوَاءُ^(٢)

والأسعر الجعفى فى قوله :

هَلْ دَانَ قَلْبِكَ مِنْ سُلَيْمَى فَأَشْعِنِى وَلَقَدْ عَنَيْتُ بِحَبِّهَا فِيمَا مَضَى^(٣)

والأنفوه الأودى فى قوله :

إِن تَرَى رَأْسَى فِيهِ تَذَعَّ وَشَوَانِى خَلَّةٌ فِيهَا دَوَارُ^(٤)

وعلاصة فى قوله :

• طَعَابِكَ قَلْبٌ فِى الْحَسَانِ طَرُوبُ^(٥) •

وسويد بن أبى كاهل فى قوله :

بَسَطْتُ رَابِعَةَ الْحَبْلِ لَنَا فَوَصَلْنَا الْحَبْلَ مِنْهَا فَانْسَحَ^(٦)

(١) ديوانه ٣٠٩ .

(٢) مطالع المعلقة ٤٣٣ - بشرح ابن الأنبارى .

(٣) لم يرد فى مقصورته الأسمعية ٤٤ .

(٤) ديوانه ١١٤ (مجموعة الطرائف الأدبية)

(٥) مطالع قصيدته البائية ٤١٨ (مختار الشعر الجاهلى) وبقيته :

• يَعْبُدُ الشَّبَابَ عَصَرَ هَانَ مَشِيبُ •

(٦) مطالع قصيدته للفضيلة ص ١٩١ .

ومرو بن كلثوم في قوله :

ألا هُبِّي بصحنك فاصْبِرِينَا ولا تُبْقِي خُورَ الأندَرِينَا^(١)

ومرو بن ممد يسكرب في قوله :

أَمِنْ رِيحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيعِ يُورِّقُنِي وَأَصْحَابِي هُجُوعُ^(٢)

فاستخفت الرشيد الأرمينية ، وقال : ادنه ، فإنك جُعِيش وحدك ، وزدت في هبى نبلا ، فقال جعفر :

* أَبْتُ قَلِيلًا بِدُرِّكَ الْهَبِجَا سَحْل *^(٣)

بمرض بأنه قد يجوز أن يدرك ما يحاوله ، فقال له الرشيد : فانتك والله السوابق ، وجئت سُكَيْنَا^(٤) ذا زوائد أربع ، قال : ورأيت الحمية في وجهه ، فقال جعفر : على شريطة حملك . قال : أترأه يسع غيرك ويضيق منك ؟ فقال جعفر : لست أنص على شاعر واحد أنه أحسن الناس في بيت تشبيهها ، ولكن قول امرئ القيس :

كَانَ غُلَامِي إِذَا عَلَا حَالَ مَتْنِهِ عَلَى ظَهْرِ بَارِي السَّمَاءِ مَحْتَقِي^(٥)

وقول عدي بن الرقاع :

يَتَمَاوِرَانِ مِنَ الْغُبَارِ مَلَاءَةً غَبْرَاءَ مَحْكَمَةٍ هُمَا نَسَجَاهَا^(٦)

تَطْوِي إِذَا وَرَدَا مَكَانًا جَاسِمًا وَإِذَا اسْتَبَاكَ أَمْسَلَتْ نَشْرَاهَا^(٧)

(١) مطلع المعلقة ٣٧١ - بشرح ابن الأنباري .

(٢) مطلع قصيدته الأصمعية ٦١ .

(٣) السكيت : ما يهيئ آخر الحلبة من الخيل .

(٤) ديوانه ١٧٣ .

(٥) أمالي المرتضى ١ : ١٠٣ ، ١٠٤ وفيه : « ملاة يضاء » .

(٦) ط : « خاسئا » وما أثبتته من أمالي المرتضى . والجاسي : الفليظ من الأرض . وأسملت : صارت إلى سهولة الأرض . وفي الأمالي : « إذا وطئامكانا » .

وقول النابغة :

بأنك شمسٌ والملكُ كواكبٌ إذا طلعتْ لم يبدُ منهمْ كوكبٌ^(١)
قال الأصمعي : قالت : هذا حسن كُلهُ بارع ، وغيره أحسن منه ، وإنما يجب
أن يقع التعمين على ما اخترعه فائله فلم يُتمرّض له ، أو تمرّض له شاعر ، فوقع
دونه ، فأما قول امرئ القيس :

* على ظَهرِ بازٍ في السَّماءِ محلّقٍ *

فن قول أبي دواد :

إذا شاء رأكبه ضمه كما ضمّ بازٍ السماءَ الجفاح^(٢)
وأما قول عدي :

* يَتَقَاورانِ مِنَ الْغُبَارِ مُلَاءَةٌ *

فن قول الخنساء :

جارى أباه فأقبلا وهما يَتَقَاورانِ مُلَاءَةُ الْحَضَرِ^(٣)

وأول من نطق به جاهل من بني عقيل ، قال :

ألا يا ديارَ الحَيِّ بالبرَدانِ عَفَتْ حَجَجٌ بَعْدِي لَهْنٌ نَمَانِي^(٤)
فلم يبق منها غير نؤي مهديم وغير أنافٍ كالركي دِفَانِ
وَأَنَارِهَابٍ أَوْزَقِ اللَّوْنِ سَافَرَتْ بِهِ الرِّيحُ وَالْأَمْطَارُ كُلُّ مَكَانِ

(١) ديوانه ١٣.

(٢) ديوانه ١٣ ، وفيه « إذا شاء فارسه » وفي ط : « الجناحا »

(٣) ديوانها ٢٥٩ .

(٤) خزائن الأرب ٣ : ٢٧٦ ومعجم البلدان ٥ : ٣ ، وزهر الآداب ٩٢٦ ، وتلخيص هذه
الآيات إلى ابن مقبل ، كما تنسب لابن أحر .

قَفَارٌ مَرَوْرَآةٌ يَحَارُّ بِهَا الْقَطَا وَيُضْحَى بِهَا الْجَبَابُنِ يَغْتَرِكَانُ^(١)
 بُشَيْرَانِ مِنْ تَسْجِرِ الْغُبَارِ عَلَيْهِمَا قِمِيمَيْنِ أَسْمَالًا وَبِرْتِدْيَانِ
 وَشَارِكِ هَدْيًا أَبُو النِّجَمِ، وَأُورِدَهُ فِي أَحْسَنِ لَفْظٍ ، قَالَ يَصِفُ غَيْرًا وَأَنَاثًا
 وَمَا أَثَارَاهُ مِنَ الْغُبَارِ بِمَذْوُومَا :

أَلْقَى بِجَنْبِ الْقَمَاعِ مِنْ حِيَالِهَا مَرْبَا هُ وَانْشَامَ فِي مِرْبَالِهَا
 وَأَمَّا قَوْلُ النَّابِغَةِ :

• بَأَنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبُ •

فَقَدْ تَقَدَّمَ فِيهِ شَاعِرٌ قَدِيمٌ مِنْ شُعْرَاءِ كَنْدَةَ يَمْدَحُ عَمْرُو بْنَ هَنْدٍ ، وَهُوَ
 أَحَقُّ بِهِ مِنَ النَّابِغَةِ ؛ إِذْ كَانَ أَبَا عُدْرَتِهِ ، فَقَالَ :

كَادَتْ تَمِيدُ الْأَرْضُ بِالنَّاسِ إِذْ رَأَوْا لِعَمْرُو بْنِ هَنْدٍ غَضِبَةً وَهُوَ هَائِبُ
 هُوَ الشَّمْسُ وَافَتْ يَوْمَ سَمَدٍ فَأَفْضَلَتْ عَلَى كُلِّ ضَوْءٍ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبُ

قَالَ : فَكَأَنِّي وَافَقْتُ الْجَمْعَ فَرَأَى حَجَرًا . فَاهْتَزَّ الرَّشِيدُ فَوْقَ مَرِيرِهِ ، وَكَادَ
 يَطِيرُ عُجْبًا وَطَرَبًا ، وَقَالَ : وَاللَّهِ ، لِيِنَّ دَرَكَ يَا أَصْمَعِي ، أَسْمِعِ الْآنَ مَا كَانَ وَقَعَ
 عَلَيْهِ اخْتِيَارِي ، فَقَالَ : لَيَقُلُّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَحْسَنَ اللَّهِ تَوْفِيقَهُ ، فَقَالَ : عَيَّنْتَ عَلَى
 ثَلَاثَةِ أَشْعَارٍ ، أَقْسَمُ بِاللَّهِ إِنِّي أَمْلِكُ السَّبْقَ بِأَحَدِهَا ، فَقَالَ يَحْيَى : خَفِّضْ عَلَى هَيْبَتِكَ ،
 يَا أَبَى اللَّهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَكَ الْفَضْلُ ، ثُمَّ قَالَ الرَّشِيدُ : أَنْتُمْ يَا أَصْمَعِي تَشْبِهُنَّ
 أَفْخَرَ وَأَعْظَمَ فِي أَحْتَرِ مَشَبْهُ وَأَصْفَرَهُ فِي أَحْسَنِ مَعْرَضٍ ، مِنْ قَوْلِ عُنْتَرَةَ الْقَدِي
 لَمْ يَسْبِقْهُ إِلَيْهِ سَابِقٌ ، وَلَا نَازَعَهُ مَنَازِعٌ ، وَلَا طَمَعَ فِي مَجَارَاتِهِ طَامِعٌ ، حِينَ شَبَّهَ
 ذُبَابَ الرِّوَضِ الْعَازِبِ فِي قَوْلِهِ :

(١) المرواة : المغازة ، والجبابان ، مثنى جَاب ، وهو الحمار الفليط من حمر الوحش .

وخلأ الذبابُ بها فليس يبارح غردًا كفعول الشَّارِبِ المترنِّم^(١)
هزجًا يحكّ ذِرَاعَهُ بذِرَاعِهِ فَمَلَّ الْمُسْكِبَ عَلَى الزَّنَادِ الْأَجْذَمِ

ثم قال : يا أصمعي هذا من انقشيبات المعقّم التي لا تنتج ، شُبّهت بالريح المعقّم التي لا تُنتِج ثمرة ، ولا تُلقي شجرة ، فقلت : كذلك هو يا أمير المؤمنين ، وبمعجده آليت ما سمعت قطّ أحدًا يصف شعرا بأحسن من هذه الصفة ، ولا استطاع بلوغ هذه الغاية ، فقال : مهلا ، لا نمجّل أنعرف أحسن من قول الخطيئة يصف لغام ناقته ، أو تعلم أحدا قبله أو بعده شَبّه تشبيهه حوث بقول :

تَرَى بَيْنَ لَحْيَيْهَا إِذَا مَا رَعَتْ لُغَامًا كَنَسِجِ الْعَفْكَبُوتِ الْمَدْدِ^(٢)

قلت : والله ما علمتُ أحدًا تقدّمه إلى هذا التشبيه ، أو أشار إليه بعده ولا قبله ، قال : أنعرف بيتًا أبدع وأوقع من تشبيه الشّماخ لنعامل سقط ريشها ، وبقي أثره في قوله :

كَأَنَّمَا مُنْتَقَى أَقَاعٍ مَا مَرَّطَتْ مِنَ الْعِفَاءِ بِلَيْدَيْهَا الشَّالِهِلِ^(٣)

قلت : لا والله يا أمير المؤمنين ، فالتفت إلى يحيى ، فقال : أوجب ، فقال : وجب ، فقال : أزيدك ؟ فقال : وأيّ خير لم يزدني منه أمير المؤمنين ! قال : وقول النابغة الجعدي :

رَمَى ضَرْعُ نَابٍ فَاسْتَهْلَ بَطْمَنَةً كَكَاشَةِ الْبُرْدِ الْبِغَائِي لِلْسَهْمِ^(٤)

(١) المعلقة ٣١٤ ، ٣١٥ - يشرح ابن الأباري .

(٢) ديوانه ٧٣ ، الترفع : الصوت الضعيف . ولغام البعير زبده .

(٣) ديوانه ٢٧٨ ، أقاع : جمع قع ، وأصله القى على رأس الثمرة . ما مرطت : ماتفت .

والعفاء : الريش .

(٤) ديوانه ١٤٣ . والناب : الناقة المسنة . والبرد السهم : المخطط .

تم التفت إلى الفضل ، فقال : أوجب؟ قال : وجب ، قال : أزيدك ، قال :
ذلك لأمر المؤمنين ، قال : قول الأعرابي :

به ضرب أنداد المطايا كأنه ملاعبٌ ولدانٍ تحطّ وتمضُخ

ثم التفت إلى جعفر ، فقال : أوجب؟ قال : وجب ، قال : أزيدك ، قال :
لأمر المؤمنين علو الرأي ، قال : قول عدي بن الرقاع :^(١)

تَرْجِي أَغْنَى كَأَنَّ إِزْرَةَ رَوْقِهِ قَلَمُ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاةِ مِدَادَهَا

فقلت : يا أمير المؤمنين ، هذا بيت حسدٍ عدياً عليه جرير ، قال : وكيف
ذلك ؟ قلت : زعم أبو عمرو بن العلاء أن جريراً قال : لما ابتدأ عديّ ينشد :
• عَرَفَ الدَّبَّارَ تَوَهُّمًا فَأَعَادَهَا •^(٢)

فقلت في نفسي : ركب والله مركباً صعباً ، سيُبدع فيه ، فإزال يتخلص
من حسنٍ إلى حسن ، إلى أن قال :

• تَرْجِي أَغْنَى كَأَنَّ إِزْرَةَ رَوْقِهِ •

فرحمته ، وظننت أن مادته تقصُر به ، فلما قال :

• قَلَمُ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاةِ مِدَادَهَا •

حالت الرحمة حسداً ، فقال : لله أبوك يا أصمعي ؟ ثم أطرق ورفع رأسه ،
وقال : أتراك تهوئي في انحطاطك في هواي ؟ فقلت : كلا يا أمير المؤمنين ،
إنك لتجلب عن ذلك ، قال : انظر خمساً ، قلت : قد نظرت ، قال : فالسَّبق لمن ؟
قلت : لأمر المؤمنين ، قال : فقد أسهمت لك في العُشر والعُشر كثير ، ثم

رمى بطرفه إلى يحيى ، وقال : المال الساعة ، وأولى لك ! فإكان ساعة حتى
 حضرت البدر بينى وبينه ، ورأيت ضوء الصبح قد غلب على ضوء الشمع ،
 فأغار إلى خادم على رأسه ، كم هي ؟ فقال : ثلاثة آلاف ألف درهم ، فقال :
 دونك احتمل ثلاثين ألفاً إلى منزلك ، ونهض عن مجلسه ، وأمر الخدم بما وئى
 على تحمله ، فكانت أسعد ليلة ابتسم فيها الصبح عن أحدي بالفنى .
 فهذه الحكاية تدلّك على تبجّره فى علوم العربية وسمة حفظه .



تبع ابن الرّمادى غنّة فى قوله : « وخلا الذباب » بقوله :
 وكأمن كرى إلى ألف شمسها به وعيشى من هذا الشراب المشمس
 إذا ما نربنا كأسنا صبّ فضلها على روضنا للمسح مع المتخلع
 وقال ابن الرومى :

وأذكى نسيمُ الروض ريمانَ ظله وغنى مغنى الطير فيه فرجما
 وكانت أهازيجُ الذباب هنا كم على شدّواتِ الطير صوتاً موقماً

وكان أبوه قريب بخلافه ، كان نذلاً خسيساً ، وكان عطاء الملك أنى
 بجماعة من البصرة إلى قريب فوجدوه مائتاً بكساء ، نائماً للشمس ، فوكزه
 برجله ، وصاح به : قم يا قريب وبلك ! قال : ألقيت أحداً من أهل العلم قط
 أو من أهل اللغة أو الفقهاء أو من الحديثين ؟ قال : لا والله ، قال لمن حضر :
 اشهدوا على ما سمعتم ، لا يقول لكم غداً الأصمعى أو بعد غد : أنشدنى والدى
 أو حدثنى ؛ ففضحه .



ومن حكاياته عن أبيه قال الأصمعي : حدثني أبي قال : أتني همدانك
ابن مروان برجل مع بعض من خرج عليه ، فقال : اضربوا عنقه ، فقال :
يا أمير المؤمنين ، ما هذا جزائي منك ، قال : وما جزاؤك ؟ قال : والله ما خرجت
مع فلان إلا بالطير لك ، وذلك أني رجل مشنوم ، ما كنت مع رجل قط
إلا غلب وهُزِم ، وقد بان لك صحة ما ادعيت به ، وكنت عليك خيرًا لك من
مائة ألف مملوك . فضحك منه وختل به .

وكان للأصمعي ابنٌ ظريف ، فقبل له يوما : أين أبوك ؟ قال : في بيته
يكذب على الأعراب .

ومرض الأصمعي فعاده أبو ربيعة - وكان يحب أهل الأدب - فقال له :
أقرضني خمسة آلاف درهم ، فقبل ، وقال : أنشئني غير هذا ؟ فقال : نعم ، فصا
حسنًا ، وسيفًا قاطعًا ، وبزذونا حسنًا وسرجًا محلي ، فبعت بذلك إليه .

وكان إسحاق^(١) الموصلي يهظمه ويقرأ عليه ، فدخل الأصمعي يوما على
الفضل بن يحيى وإسحاق ينشده في صفة فرس :

كأنه في الجبل^(٢) وهو سايم مشتملٌ جاء من الحظام
يسور بين السرج والاعجام سور النطاي إلى الحجام^(٣)

فقال الأصمعي : هات بقيتها ، فقال له إسحاق : ألم تقل لي : ما بقي منها شيء ؟
فقال : ما بقي إلا ههنا . ثم أخذ بعد ذلك ثلاثين بيتًا ، فغضب إسحاق وعرف
الفضل قلةً عسكره لمارفة ، وبخله بما عنده ، وأخذ يصف فضل أبي هبيرة
وزواجه ، وبذله لما عنده ، واشتاله على علوم العرب ، فأنفذ إليه الفضل مالا جليلة

(١) الخبر والعمر في الأفاق ٥ : ٣٥٢ (بيروت) مع تصرف واختصار .

(٢) الجبل لدابة ، كالثوب للانس .

(٣) يسور : يثب . والنطاي : الصقر .

واستقدمه من البصرة ، وسمى بالأصمعي عند الرشيد ؛ حتى حط منزله . وقال
إسحاق يهجوهُ :

أليس من العجائب أن قرناً أصميصَ باعليا يستقبلُ
ويزعمُ أنه قد كان يُفقى أما عمرو وبسأله الخليلُ
إذا ما قال : « قال أبي » فعجبنا لما يأتي به ولما يقولُ
وجله عطاءُ الملك عاراً تزولُ الراسياتُ ولا يزولُ
قل لأبي ربيعة إذ عصاني وحاذ به عن القصدِ السبيلُ
لقد ضاعت برودك فاحسبنا وضاع الفص والسيف الصبيلُ
فأما الحمة الآلاف فاعلم بأنك غنهما لا تستقبلُ

والأصمعي لا يقدح هذا القدر في جانبه ، لأن بعض محاسنه يفتى هل
كل مساوئه .

وكان منشؤه بالبصرة ، وبها توفي سنة تسع عشرة ومائتين وبلغ ثمانيا
وثمانين سنة .

قوله : محرابي ، وما بعده في معناه ، يعني فَرَجَها . والإمام وما بعده ، يعني
به ذكره . وسمى محرابُ المسجد محراباً لأنه يباعده من ليس من أهله أن يقربه ،
إذ هو أرفع ما في المسجد ، وفلان حرب لفلان ، أي مهادله . والقِرَاب : وعاء
من جلد يحمل فيه السيف مع غده . والقِرَاب : وعاء الزاد .

• • •

فقال لها القاضي : أراكما شئنا وطبقة ، وحيدةً وبندقة ،
فاترك أيها الرجلُ اللدد ، واسلك في سبيلك الجدد .
وأما أنت فكنتي عن سبابه ، وقرى إذا أتى البيت
من بابه .

فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : وَاللَّهِ مَا أَسْجُنُ عَنْهُ إِنْسَانِي ، إِلَّا إِذَا كَسَانِي ،
وَلَا أَرْفَعُ لَهُ شِرَاعِي ، دُونَ إِشْبَاعِي . فَحَلَفَ أَبُو زَيْدٍ بِالْمَحْرُجَاتِ
الثَّلَاثِ ، إِنَّهُ لَا يَمْلِكُ سِوَى أَطْمَارِهِ الرِّثَاثِ .

فَنَظَرَ الْقَاضِي فِي قَصَصِهِمَا نَظَرَ الْأَلْمَمِيِّ ، وَأَفْكَرَ فِكْرَةَ
الْأَوْذَعِيِّ . ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِمَا بِوَجْهِ قَدْ قَطَبَهُ ، وَحِجْنٍ قَدْ قَلَبَهُ ،
وَقَالَ : أَلَمْ يَكْفِكُمَا التَّسَافُهُ فِي تَجَاسِ الْحُكْمِ ، وَالْإِقْدَامُ عَلَى
هَذَا الْجُرْمِ ، حَتَّى تَرَاقِبْتُمَا فِي فُحْشِ الْمُقَادَعَةِ ، إِلَى خُبْتِ
الْمُعَادَعَةِ ! وَايْمُ اللَّهِ لَقَدْ أَخْطَأْتُمَا اسْتِكْمَا الْخُفْرَةَ ، وَلَمْ يُصِيبْ
سَهْمُكُمَا الشُّعْرَةَ ! فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَعَزَّ اللَّهُ بَيْقَاتِهِ الدِّينَ ،
نَصَبَنِي لِأَقْضَى بَيْنِ الْخُصْمَاءِ ؛ لَا لِأَقْضَى دَيْنِ الْفُرْمَاءِ . وَوَحَقُّ
نِعْمَتِهِ الَّتِي أَحَلَّتْنِي هَذَا الْمَحَلَّ ، وَمَلَّكَتْنِي الْعَمَدَ وَالْحِلَّ ، لَنْ لَمْ
تَوْضَعَا لِي جَلِيَّةَ خَطْبِكُمَا ، وَخَيْثَةَ خَبْكُمَا ، لَأَنْدَدَنَّ بِكُمَا فِي
الْأَنْصَارِ ، وَلَأَجْمَلَنَّكُمَا غَيْرَةَ لَأُولَى الْأَبْصَارِ .

• • •

وَالْقَدَّ : شِدَّةُ الْخُصُومَةِ . الْجَدَدُ : الْأَرْضُ الصُّلْبَةُ ، وَاللُّغَى فِي قَوْلِهِ : اسْلَاكُ
فِي سِيرِكِ الْجَدَدِ ، جَاءَ مِنْهَا فِي الْفَرْجِ لَاغِيهِ ، وَفِي الْمَثَلِ : مَنْ سَلَكَ الْجَدَدَ
أَمِنَ النَّارَ .

قَرَى : اسْكَنَ . الْبَيْتُ ، كُنَايَةٌ عَنْ فَرْجِهَا . مِنْ بَابِهِ ، يَرِيدُ أَلَّا يَأْخُذَ
الْجَارَ بِالْجَارِ . وَقَوْلُهَا : إِلَّا إِذَا كَسَانِي ، قَالَ اللَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « اَعْرُوا
النِّسَاءَ بِلِزْمَنِ الْجِبَالِ » .

والشراع : قَلَعَ الصفيحة ، وأرادت برفعه كشف ثيابها ورفع رجلها حين يظوها ، وقال أبو نواس في ممتاعه :

ترنق قلبلاً قد اوجعتني وألحقت قُرطى بخلخالتيه

والقُرط في الأذن ، والخلخال في الرجل ، فانظر متى يجمعهمان . وقال ابن الرومي في ذلك :

يا أحمد بن سميح لو بصُرْتَ بها إذا الأكت لساقبها خلاخيلُ
وقال البهتري :

لم تَخْطُ باب الدهليز خارجة إلا وخلخالها مع الشفهِ^(١)
وقال ابن الرومي :

لو أن رجل عرسنا يداها^(٢) ما أخطأنا رحمة تنشأها
قد خللت مرفوعة رجلاها كأنما يستغفران الله
وه أيضاً :

شبع لنا يكفى أبا حفص
أقرن مثل الأبل الأنول^(٣)
تبيت في منزله نوسة يلبس ثوب الأبل كالنزل
يسلم فيه ملاً صالحاً يرفه الله إلى أسفل
يستغفر الناس بأيديهم وهن يستغفرون بالأرجل

قال الأصمعي : قلت لأمة ظريفة : يا جارية هل في يدك عمل ؟ قالت : لا ، ولكن في رجل .

والحُرْجَات الثلاث : هي الطلاق واللعق والمشي إلى مكة ، وقيل : هي الطلاق الثلاث ومحرجات : فيها حرج ، أي إثم وضيق .

(١) ديوانه ١٤١١ (٢) العرس : امرأة الرجل . (٣) الأنول : الأحمق

وحدث أبو حاتم ، عن الأصمعي عن عيسى بن عمر ، قال : أشجى رجل
اسرائيل ، فقال له شيخ من بني نصر ، كان أصنّ مده : ألا تكثّر بها بالحرجات
- يعني الطلاق - قال : قاتلك الله ! فما أغرك ، وعلى الطلاق ثلاثا .

حدثنا أبو بكر محمد بن أسد الديلمي قال : سمعت أبا فتان الدارم يقول :
الطلاق الثلاث البت لازم لي ، لقد سمعت أبا عبيدة معمر بن النخعي يقول :
الطلاق الثلاث ، التبت لازم لي ، لقد سمعت أبا عمرو بن العلاء ، يقول الطلاق
الثلاث التبت لازم لي ، إن كانت العرب قالت أحكم من هذه الأبيات .

كُنْ لِلْمَكَارِهِ بِالْعَزَاءِ مَقْعًا فَلَوْلَ بَوْمَا لَا تَرَى مَا تَكْرَهُ
فَلَرَبَّمَا اسْتَرَى الْفَقْرُ فَتَنَافَسَتْ فِيهِ الْعِيُونَ وَإِنَّهُ لَمَوَّةٌ
وَلَرَبَّمَا خَزَنَ الْكَرِيمُ لِسَانَهُ حَذَرَ الْجَوَابِ وَإِنَّهُ لَمَفْوَةٌ
وَلَرَبَّمَا ابْتَسَمَ الْكَرِيمُ مِنَ الْأَذَى وَفَوَّادَهُ مِنْ حَرِّهِ يَتَأَوَّى

قوله : أطواره الرثاء ، أي ثيابه الخلقية . الألمي : المتوقد الحاضر الذهن .
ابن الأعرابي : الألمي : الذي إذا لم له أولُ الأسوء عرف آخره ، فيمكنني بظنه
دون تعيينه . والهوذي : الغيظ الذي كفى الظريف الحديد الفؤاد . قطبه : عبسه .
مجنّ : ترنس . وقلبه ، كناية عن إبداء الشر بعد الخير ، وقد تقدم . التمسأه :
الإلحاش . والشتم : الجرم : الذنب . المناوذة : المشاعة بما فحش . الثفرة : الحفرة
في أصل المنق . خبتكما : خدامكما وغشكما . أنددن : أسمع الناس بما يخالسا
عندي من المكروه ، ونذّبه : شتمه وأسمه القبيح . الأمصار : البلاد . عبرة :
موعظة . أولى الأبصار : أهل العقول .

فأطرق أبو زيد إطراق الشجاع ، ثم قال له :
سماع سماع :

وَلَيْسَ كُفَاً الْبَدْرُ غَيْرُ الشَّمْسِ	أَنَا السَّرُوجِي وَهَذِي عِرْسِي
وَلَا تَنَاضَى دِيرُهَا عَنْ قُتِّي	وَمَا تَنَاضَى أَنْسُهَا وَأَنْسِي
لَكِنَّا مِنْذُ لِيَالٍ خَمِيسٍ	وَلَا عَدَتْ سُقَيَايَ أَرْضَ غَرَسِي
لَا نَعْرِفُ الْمَضْغَ وَلَا التَّعْحِي	نُصْبِحُ فِي ثَوْبِ الطَّوَيِّ وَنُتْسِي
أَشْبَاحُ مَوْتِي تُشِرُّوَانِ رَمْسِي	حَتَّى كَأَنَّا خِلْفُوتِ النَّفْسِ
وَشَفْنَا الضَّرَّ الْإِلِيمُ النَّسَّ	فَحِينَ عَزَّ الْعَصْبُ بَرُّ وَالتَّائِي
هَذَا الْمَقَامَ لاجْتِلَابِ فَلَسِي	قُمْنَا لَسَعْدِ الْجَدِّ أَوْ لِلنَّخْسِ
إِلَى التَّجَلِّي فِي لِبَاسِ اللَّبْسِ	وَالْفَقْرُ يُلْجِي الْحَرَّ حِينَ يُرْسِي
فَانْظُرْ إِلَى يَوْمِي وَسَلْ عَنْ أَمْسِي	فَهَذِهِ حَالِي وَهَذَا دَرْسِي
فَنِي يَدَيْكَ صِغْتِي وَنُكْمِي	وَأَمْرٌ يَجْزِي إِنْ تَشَاءَ أَوْ حَبْسِي

• • •

أطرق : أمال رأسه حاكناً الشجاع : الحية . سماع سماع ، أى اسمع مِنِّي ،
كُفء البدر : أى نظيره ، والكف : الخفاير والمثل . دِيرُهَا : لرجلها . قُتِّي : ذَكَرِي .
وأصل التيز للنصارى ، والقس والقيس : عالمهم وعابدهم . عَدَت : جارت .
وخرجت عن طريقها . والسُقيا : الشرب ، وهى هنا مصدر بمعنى السقى .
والتعحي : شرب الحسوة ، وأراد بالمضغ والتعحي أكل الخبز واللحم ، وحسنو
مرقه . والمضغ فى الرخاء والحسنو فى الشدة ، كاستعمالهم فيها حسنو السخونة

وغرهما. ومز: قل. الناسي: الافئداء بالنهر، وقد تأسى تأسيًا إذا اقتدى بفعل
غيره ونصبر، وهذا باب غلبت عليه الخفساء بقولها:

وَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَفَقَلْتُ نَفْسِي^(١)
وَمَا يَكُونُ مِثْلُ أَخِي وَلَكِنْ أَعَزَّى النَّفْسَ مِنْهُ بِالنَّاسِ

فزاد عليه ابن المصنف الرومي، في المعنى ويدنه حتى استعحقه حيث قال:

رَأَيْتُ الدَّمْعَ يَجْرَحُ ثُمَّ بِأَسْوَى يَوْسَى أَوْ يَمُوضُ أَوْ يَنْسَى^(٢)
أَبَتْ نَفْسِي الْمَلَاعَ لِرِزْوَانِهِ كَفَى رِزْوَانًا لِنَفْسِي رِزْوَانُ نَفْسِي
أَنْجَزَ عُحْشَةً لِفِرَاقِ الْفَرِيدِ وَقَدْ وَطَّنَهَا لِحُلُولِ رَمْسِي

فذهب في هذه الأبيات كل مذهب، ثم أراد أن يظهر ما عنده من فضل

الجنة وحسن التصرف، فقال:

بِأَشْبَابِي وَأَبْنِ مِثِّي شَبَابِي أَذْنَتُنِي أَبَامُهُ بِاتَّقْضَابِ
وَمِزَّتْ مِنْ الشَّبَابِ مَوْسِمَ بِمَشِيبِ اللَّذَاتِ وَالْأَهْوَاجِ
قُلْتُ لِمَا انْتَهَى يَمَدُّ أَسَاهُ بِمَصَابِ شَبَابِهِ بِمَصَابِ
لَيْسَ تَأْسُو كُلُّهُمْ غَيْرِي كُلُّوْنِي مَابِهِ وَمَابِي مَابِي

وكرر هذا المعنى فأحسن ما شاء، وذهب فيه مذاهب أخرى، فقال:

خَلِيلٌ قَدْ عَلَّانِي بِالْقِي وَأَنْعَمًا لَوْ أَنَّ نِي أَنْتَقَلُ^(٣)
النَّاسَ إِثَارِي وَإِلَّا فَا أَلَسَى وَعَيْشِكَا إِلَّا ضَلَالٌ مُضَالٌ
وَمَارَاحَةُ الرِّزْوَانِ فِي رِزْوَانِهِ أَيْحَمَلُ عَنْهُ بَعْضَ مَا يَتَعَمَلُ
كَلَّا حَامِلِي أَوْ فِي الرِّزْوَانِ مِثْلُ وَلَيْسَ مَعِينًا مِثْلُ الظَّاهِرِ مِثْلُ
وَضَرَبْتُ مِنَ الظُّلْمِ الْخَفِيِّ مَكَانَهُ تَمْزِيكَ بِالرِّزْوَانِ حِينَ تَأْمَلُ

ولابن رشيقي :

رَأَيْتُ التَّمَزِّيَّ عَمَّا يَبْجُ عَلَى الْمَرْءِ سَاكِنَ أَوْصَابِهِ^(١)
وَمَا نَالَ ذُو أُسْوَةٍ سُلُوءَ وَلَسْكَنَ أَنَّى الْحَزْنَ مِنْ بَابِهِ
تَفَكَّرَ فِي مِثْلِ أَرْزَائِهِ فَذَكَرَهُ مَا بِهِ مَا بِهِ

وقال ابن رشيقي : أَخَذْتُهُ مِنْ قَوْلِ هَرَبِ بْنِ أَبِي رَيْمَةَ :

وَذُو الشَّوْقِ الْقَدِيمِ وَإِنْ تَمَزَّى مَشُوقٌ حِينَ يَلْقَى الْعَاقِبِيهَا^(٢)

وأخذه هَرَبُ بْنُ أَبِي رَيْمَةَ :

وَقَالُوا أَنْبِئِي كُلَّ قَبْرِ رَأَيْتَهُ اقْبِرِي نَوَى بَيْنَ اللَّوَى وَالِدَّ كَادِكِ^(٣)
قُلْتُ لَهُمْ إِنْ الْأُمَى يَبْعَثُ الْبُكَاءَ دَعُونِي فِهَذَا كُلُّهُ قَبْرِ مَالِكِ^(٤)

• • •

خُفُوتُ : ضَعُفَ الْفَنَسُ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ ، وَخَفَّتْ خَفُوتًا : ضَعُفَ وَسَكَنَ
وَمَاتَ . وَالْأَشْبَاحُ : الْأَشْخَاصُ ، وَأَصْلُ الشَّبَحِ الشَّخْصُ تُبْصِرُهُ عَلَى بَعْدِهِ
فَلَا تَعْرِفُ مَا هُوَ ، وَيَقَعُ الشَّبَحُ عَلَى كُلِّ شَخْصٍ مَرَّتَيْنِ . نَشَرُوا : أَحْبَبُوا .
رَضُ : قَبْرٌ ، وَالْمَسَّ : لَصُوقٌ جَارِحَةٌ بِأُخْرَى . الْجَلْدَةُ : الْحِطَّةُ وَالنَّصِيبُ . يُرْمَى :
يُثْبِتُ وَيَقِيمُ . الْعَجَلَى : الْبُرُوزُ وَالظُّهُورُ . الْمَبْسُ : الْفُخْلُوطُ . دَرَمَى : ثَوْبُهُ انْخَلَقَ .

(١) التنف ١٤

(٢) ديوانه ٤٠٣ ، وفيه :

• وَذُو الْقَلْبِ الْمَصَابِ وَلَوْ تَمَزَّى •

(٣) أمال الغالي ٢ : ١ ، وذكر قبله :

لَقَدْ لَامَنِي عِنْدَ الْقُبُورِ عَلَى الْبُكَاءِ رَفِيقِي لَتَذَارَفِ الدُّمُوعُ السَّوَانِكُ

(٤) في الأمال : « إِنْ الشَّجَا يَبِيتُ الشَّجَا » وَذَكَرَ بَعْدَهُ :

أَلَمْ تَرَ فِيهَا يَقْسِمُ مَا لَهُ وَتَأْوِي إِلَيْهِ مُزِمَاتُ الضَّرَائِكِ ؟

الضرائك : الفقراء السهيو الحال -

الجبر : أن تُفني الرجل من فقر ، أو تصلح عظمه من كسر ، وجيره الله : سدّ مفارقة . والنكس : بضم النون : عود المرض بعد القوة ، ونكس نكسا .

• • •

فقال له القاضي : لَيْسَ أَنْسُكَ ، وَلِتَطْبِ نَفْسُكَ ، فَقَدْ حَقَّ
ثَ أَنْ تُفَرَّ خَطِيئَتُكَ ، وَتُؤَفَّرَ عَطِيَّتُكَ . فنارت الزوجة عند ذلك
واستطالت ، وأشارت إلى الحاضرين وقالت :

يا أهل تبريز لَكُمْ حَاكِمٌ أَؤْفَى عَلَى الْحُكَّامِ تَبْرِيزًا
مافيه مِنْ عَيْبٍ سِوَى أَنَّهُ يَوْمَ النَّدَى فِيسْتُهُ ضِيْزِي
قصدته وَالشَّيْخُ نَبِي جَنَى عُدِرَ لَهُ مَا زَالَ مَهْ—زُوزَا
فَسَرَحَ الشَّيْخَ وَقَدْ نَالَ مِنْ جَدَّوَاهِ تَخْصِيصًا وَتَعْيِيْزَا
وَرَدَّنِي أَخِيْبَ مِنْ شَأْمٍ بَرَقَا خَفَا فِي شَهْرٍ تَمُوزَا
كَأَنَّهُ لَمْ يَدْرِ أُنِّي الَّتِي لَقَنْتُ ذَا الشَّيْخِ الْأَرَاجِيْزَا
وَأَنِّي إِن شِئْتُ غَادَرْتُهُ أَضْحُوْكَةً فِي أَهْلِ تَبْرِيزَا

• • •

لَيْسَ : أي ليرجع . تُؤَفَّرُ : تكثر . نارت : ظهرت ، وأنشت سرما .
واستطالت : جرحت بلسانها ، وأملت كلامها . أوفى : أشرف عليهم وزاد .
تبريزا : ظهورا وسبقا . ضيزي : غير مستوية ، فيها بحس ونقصان ، وقد ضار
الحاكم ، إذا جار ، وضاره بضيظه ضيزا ، إذا نقصه ومنعه حقه . ويحكى أن مزبدا
المدني - ويكنى أبا إسحاق - صلى يوما ، فلما فرغ من صلاته قالت امرأته : اللهم

أَشْرَكَنِي فِي دَعَائِهِ ، فَقَالَ مُزِيدُ الْإِسْلَامِ أَصْلَابِي ، فَقَالَتْ امْرَأَتُهُ : أَمَّا قَلِي هَذَا فَلَا ، فَقَالَ :
بِأَسْرَاطِهِ ، تِلْكَ إِذَا قَسَمْتُ ضَبْرِي .

قوله والشَيْخُ : منصوب على المفعول معه . ابْنِي : نطلب . الْفَدَى :
السكرم . وَجَعَى الْعُودُ : ما يَجِيءُ مِنْ نَمْرِهِ ، وَأَرَادَتْ كَرَمَ الْقَاضِي . مَا زَالَ
مَهْزُوزًا ، أَيْ مَا زَالَ الْقَاصِدُونَ يَهْزُونَ عُرْدَهُ فَيَسَاقُطُ عَلَيْهِمْ جَنَاهُ ، فَعَمِيَ مَا زَالَ
مَهْزُوزًا ، أَيْ مَطْلُوبٌ مِنْهُ الْعَطَايَا . جَدَّوَاهُ : عَطَايَاهُ . تَخْصِمُهَا : تَرْفِيهَا . تَمَيِّزًا :
تَعْيِينًا ، وَقَدْ تَخْصِمُ الرَّجُلَ : تَشَبَّهُ بِالْخَوَاصِّ ، وَتَعْيِنَ : نَشَبَهُ بِالْأَعْيَانِ . شَائِمٌ :
فَاضِلٌ لِلْهَرَقِ . خَفِيَ : لَمَعَ . تَمُوزُ : يُولِيهِ بِالسَّرِيَانِيَةِ ، وَهُوَ أَشَدُّ الشُّهُورِ حَرًّا .
لَفَتَتْ : فَهِمَتْ وَحَفِظَتْ . خَادِرَتُهُ : تَرَكَّتُهُ . أَضْحُوكُهُ : يَضْحَكُ بِهِ مِنْ رَأْيِهِ .



قَالَ : فَلَمَّا رَأَى الْقَاضِي اجْتِرَاءَ جَنَائِمِهِمَا ، وَانْصِلَاتِ لِسَانِهِمَا ، هَلَمْ
أَنَّهُ قَدْ مَنَى مِنْهُمَا بِالذَّاءِ الْعِيَاءِ ، وَالذَّاهِيَةِ الدَّهْيَاءِ ؛ وَأَنَّهُ مَتَى مَنَعَ أَحَدَهُ
الزُّوجَيْنِ ، وَصَرَفَ الْآخَرَ صِفَرَ الْيَدَيْنِ ، كَانَ كَمَنْ قَضَى الدِّينَ
بِالدِّينِ ، أَوْ صَلَّى الْمَغْرِبَ رَكْعَتَيْنِ . فَطَلَسَمَ وَطَرَسَمَ ، وَآخَرَ نَطَمَ
وَبَرَطَمَ ، وَهَمَّهَمَ وَغَمَّهَمَ ، ثُمَّ التَّفَتَ يَمْنَةً وَشَامَةً وَتَمَلَّلَ كَأَبَةٍ
وَنَدَامَةٍ ، وَأَخَذَ يَذُمُّ الْقَضَاءَ وَمَتَاعِيَهُ ، وَيُعَدِّدُ شَوَائِبَهُ وَنَوَائِبَهُ ، وَيُقَنِّدُ
طَالِبَهُ وَخَاطِبَهُ . ثُمَّ تَنَفَّسَ كَمَا يَتَنَفَّسُ الْحَرِيبُ ، وَانْتَحَبَ حَتَّى كَادَ
يَفْضَحُهُ التَّحِيْبُ ، وَقَالَ : إِنْ هَذَا الشَّيْءُ عَجِيبٌ ! أَرَشَقُ فِي مَوْفٍ
بِسَهْمَيْنِ ! أَلْزَمُ فِي قَضِيَّةٍ بَعْمَرَيْنِ ! أَلَطِيقُ أَنْ أَرْضِيَ الْخَصْمَيْنِ ،
وَمِنْ أَيْنَ وَمِنْ أَيْنَ !



اجزاء : إقدام وتشجع جنائهما : قلبهما ، يريد أنهما لم يهاباه . انصلات
لسانها : خروجه بالكلام وطاقته بالشر ، وانصلت السيف : تسلل من غده
وخرج . مني : بلي . الداء العياء : الذي يعي الطبيب . والداهية : كل أمر
فظيع لا يطاق . المدهياء : مهالقة وتأكيدها الداهية ، أى الداهية الشديدة .
منح : إعطاء . صفر : فارغ . ومن قفى الدين بالدين ، فسكانه ما قضا وأندوا :
إذا كنت تقضى الدين بالدين لم يكن قضاء ولكن كان غرماً على غرم
تعمل : توجع وتقلب . كآبة : حزن وهم . شرائب : ما بكره ويحفظ
به . نوائبه : نوازله . يفتد : يُخطئ . الحريب : الحزون المألوب ماله ، وقد
خرّبه ، إذا سلبه «فعل» بمعنى «مفعول» . انتحب : بكى . يفضحه : يشهره .
أرشق : أرمى ، وأرشق جملة السهام تُرمى بمجموعة ، وقال لبيد^(١) .
فرميت القوم رشفاً صائهاً ليس بالطنش ولا بالفتل
وإذا وقعت السهام بمجموعة عند الفرض سُميت رشفاً . القضية : القضاء .
والحكومة . الغرم والغرامة واحد .

ثم عطف إلى حاجبه ، المنفذ لما ربه ، وقال : ما هذا يوم حُكم
وقضاء ، وفصل وإمضاء ؛ هذا يوم الاعتِمَام ، هذا يوم الاعتِرام ،
هذا يوم البُحران ، هذا يوم الحُسران ، هذا يوم عَصيب ، هذا
يوم نصاب فيه ولا نصيب ؛ فأرخني من هذين المَهْذَارَيْن ، واقطع
لسانَهُمَا بدينارين . ثم فرق الأصحاب ، وأغلق الباب ، وأُشِعْ

(١) ديوانه ١٩٤ ، والرشق ، بكسر الراء : أن تُرمى سهام كثيرة دفعة واحدة .

أَنَّهُ يَوْمٌ مَذْمُومٌ ، وَأَنَّ الْقَاضِيَ فِيهِ مَهْمُومٌ ؛ إِنْثِلَا يَخْضِرُنِي خُصُومٌ .
 قال : فَأَمَّنَ الْحَاجِبُ عَلَى دُعَائِهِ ، وَتَبَاكَى لِبُكَائِهِ ثُمَّ تَقَدَّ أَبَا زَيْدٍ
 وَهَرَسَهُ الْمِثْقَالَينِ ، وَقَالَ : أَشْهَدُ إِنْ كُما لِأَحْيِلُ الْمُثْقَلَيْنِ ؛ وَلَكِنْ
 احْتِرِمًا بِمَجَالِسِ الْحُكَّامِ ، وَاجْتِنَابًا فِيهَا فُخْشَ الْكَلَامِ ؛ فَمَا كُلُّ
 قَاضٍ قَاضٍ تَبْرِيزٍ ، وَلَا كُلُّ وَقْتٍ تُسْمَعُ الْأَرَاجِيزُ ، فَقَالَ لَهُ :
 مِثْلُكَ مَنْ حَجَبَ ، وَشُكْرُكَ قَدْ وَجَبَ ، وَنَهْضًا وَقَدْ حَظِيًا بِدِينَارَيْنِ ،
 وَأَصْلِيًا قَلْبَ الْقَاضِي نَارَيْنِ .

* * *

مَآرِبُهُ حَوَائِجُهُ . الْبُخْرَانُ : كَالْيَوْمِ السَّابِعِ مِنَ الْمَرَضِ ، وَالْبُخْرَانُ عِنْدَ
 الْأَطْبَاءِ : مَدَافِعُهُ عَظِيمَةٌ تَقَعُ بَيْنَ الطَّبِيعَةِ وَالْعِلَّةِ ، وَبَحَرُ الرَّجُلِ بَحْرًا ، إِذَا اجْتَهَدَ فِي
 الْعَدُوِّ طَالِبًا أَوْ مَطْلُوبًا ، فَانْقَطَعَ وَضَعُفٌ . وَرَجُلٌ بِحَرٍ : مَسْلُولٌ ذَاهِبٌ الْقَهْمُ .
 عَصِيبٌ : شَدِيدٌ . الْمِثْقَالَيْنِ : الْكَثِيرَيْنِ الْكَلَامِ بِلَا فَائِدَةٍ . اقْطَعَ لِسَانَهُمَا ،
 أَيْ صِلَهُمَا حَتَّى يَنْقَطَعَ بِالْدِينَارَيْنِ كَلَامُهُمَا ، وَهَذَا الْفِعْلُ الْقَدْ هُوَ قَطَعَ الْإِنْسَانُ
 بِالصَّلَةِ قَدْ نَطَقَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أُعْطِيَ الْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ مِنْ
 نَفْلِ حُنَيْنٍ ، مِائَةَ مِائَةٍ ، وَأُعْطِيَ الْعَبَّاسُ بْنُ مِرْدَاسٍ أَبَاعِرَ ، فَسَخَطَهَا وَقَالَ :

أَنْجَلْتُ نَهْجِي وَتَهَبَ الْمُجْنُونُ بَيْنَ عُمَيْيَةٍ وَالْأَنْعَرِ^(١)
 وَمَا كَانَ حَصْنٌ وَلَا حَابِسٌ يَتَوَقَّانِ مِرْدَاسَ فِي مَجْمَعٍ
 وَمَا أَنَا دُونَ أَمْرٍ مِنْهُمَا وَمَنْ يُخَفِّضِ الْيَوْمَ لَمْ يُرْفَعْ

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « اقْطَعُوا عَنِّي لِسَانَهُ » . فَأُعْطِيَ حَتَّى رَضِيَ وَقَدْ جَاءَ فِي

التوادرفى حكاية ليل الأختلية حين قال الجعاج : يا غلام اذهب إلى فلان ، قل له بقطع لسانها ، فأمر بإحضار الجعاج ، فقالت : شككتك أمك ! إنما أمرتك أن تقطع لسانى بالصِّلَّة ، وهى لفظة مستعملة عند مَنْ له أمرٌ ونهى .

قوله : أَمَّن ، قال : آمين ، ومعناه الرغبة فى الإجابة . تباكى : استعمل الهكاء . الثَّقَلَيْنِ : الإنسان والجن ، والواحد ثَقْلٌ وَثِقْلٌ كَثَلٌ وَمِثْلٌ ، وأصله ما يُحمَل من الشيء الثَقِيل ، فثِقِلَ لهما : ثَقُلَا ، لأنهما كالثَقْل على الأرض . والفحش فى القول كالفاحشة فى الفعل . نهضا : تقدما . شكرك قد وجب : يقال : وَجَبَ البعع والحق ، معناه وقع ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ ^(١) أى وقعت على الأرض وسقطت . ووجب الحائط : سقط ، ووجب قلبه : فزع وخفق . حَظَاتِيَا : سَيِّدَا . أَصْلِيَا : أَوْقَدَا وَالصَّغَابَه .

تفسير ما أودع هذه المقامة من الألفاظ اللغوية والأمثال العربية

قوله : « لقيتُ منها عَرَقَ القِرْبَةِ » ، هذا مثلٌ يضرب إِمْنٌ يَلْقَى شِدَّةً
مِنَ الأَمْرِ الَّذِي يُزَاوِلُهُ ، كما أن حَامِلَ القِرْبَةِ يَلْقَى جَهْدًا حَتَّى يَفْرَقَ .
وقوله : « جعلته دَبْرَ أَذْنِي » ، بمعنى طرحته ، وهو كقوله تعالى :
﴿ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِمْ ﴾ .

وقوله : « أَكْذَبُ مِنْ سَجَاحٍ » بمعنى أَلْيَ تَنْبَأَتْ فِي هَدْمِ مُسَيِّلَةِ
الكذاب ، وسارت إليه لَتُفَاظِرُهُ وتختبره ثم آمَنْتُ بِهِ ، ووهبتَ نَفْسَهَا ؛
وهذا الاسمُ ، مَبْنِيٌّ عَلَى الكسر ، مثل حَذَامٍ وقَطَامٍ ، لِكُونِهِ مِنَ الأسماءِ
لِلْمَدَوَلَةِ ، واشتقاقه مِنَ السَّجَاحَةِ ، وهى السَّهْوَةُ ، ومن قولهم : مَلَكْتَ
فَأَسَجَحَ .

وقولها : « أَكْذَبُ مِنْ أَبِي ثَمَامَةَ » ، هذه كنايةٌ مُسَيِّلَةُ الكذاب ، وكان
تَنْبَأُ بِالْيَمَامَةِ . وتخرق بها ، إلى أن سار إليه خالد بن الوليد رضى الله عنه فقتله .
وقوله : « لَا نَعِمْ عَوْنُكَ » . العَرَفَ : الحَالُ ، والعَوْنُ أَيْضًا الذِّكْرُ ،
وَيُدْعَى لِلْبَانِي عَلَى أَهْلِهِ فَيَقَالُ لَهُ : « نَعِمْ عَوْنُكَ » .

وقوله : « يَا دِفَارُ يَا خَجَارِ » . هذان الاسمان معدولان عن دَافِرَةٍ وَطَاجِرَةٍ ،
وَالدَّفَرُ : النِّقْنُ ؛ وَبِهِ تَحْمِيَتُ الدَّنَا أَمْ دَفَرٌ ؛ وَكُلٌّ مَأْمُومٌ بِصِفَةِ غَالِبَةٍ ، ثُمَّ عُدِلَ
بِهَا إِلَى « نَعَالٍ » ، بُنِيَ عَلَى الكسر عند النداء ، كقولك : يَا كَعَاخَ بِأَخْبَاطِ ،

يَا دَفَارِ بِاَجَارٍ ، وَلَا يَجُوزُ اسْتِعْمَالُ ذَلِكَ فِي غَيْرِ الدَّاءِ إِلَّا فِي ضَرُورَةِ الشَّعْرِ ،
كَقَوْلِ الْخَطِيئَةِ :

أَطُوفَ مَا أَطُوفَ ثُمَّ آوَى إِلَى بَيْتِ قَعِيدَتِهِ لِسَكَامٍ

وَأَمَّا قَوْلُهُ : « أَتَحَقُّ مِنْ رَجُلَةٍ » ، فَهِيَ ضَرْبٌ مِنَ الْحِمِضِ تَنْبُتُ فِي
بَجَارَى السَّيْلِ فَهَجَرُفُهَا .

وَأَمَّا قَوْلُهَا : « الْأُمُّ مِنْ مَادِرٍ » ، فَهِيَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي هَلَالِ بْنِ عَامِرٍ ؛
كَانَ اتَّخَذَ حَوْضًا لِسَقْيِ إِبِلِهِ ، فَلَمَّا رَوَيْتُ سَلَحَ فِيهِ ، وَمَدَّرَهُ بِسَلَحِهِ ؛ لئَلَّا
يَنْتَفِعَ بِهِ مَنْ بَعْدَهُ .

وَأَمَّا قَوْلُهَا : « أَشَامٌ مِنْ قَاشِرٍ » ؛ فَإِنَّهُ فَعْلٌ كَانَ فِي قَبَائِلِ سَعْدِ بْنِ زَيْدِ بْنِ
سَعْدَةَ بْنِ نَعْمٍ ، مَا طَرَقَ لِإِبِلٍ إِلَّا مَانَتْ . وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِهِ الْعَامُ الْمَجْدِبُ ، وَنُسِمَى
قَاشِرًا لِقَشْرِهِ مَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنَ الدَّهَاتِ .

وَأَمَّا قَوْلُهَا : « أَجْبِنٌ مِنْ صَافِرٍ » ، فَقَدْ اخْتَلَفَ فِي تَفْسِيرِهِ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ :
عَنَى بِهِ كُلَّ مَا يَصْفُرُ مِنَ الطَّيْرِ ، وَخَصَّ بِالْجَيْنِ لِكَثْرَةِ مَا يَقْتَنِيهِ مِنْ جَوَارِحِ
الْجَوِّ وَمَصَائِدِ الْأَرْضِ . وَقِيلَ : إِنَّهُ طَائِرٌ بَيْضِيٌّ ؛ إِذَا جَنَّهُ اللَّيْلُ تَعَلَّقَ بِبَعْضِ
الْأَغْصَانِ ، وَلَمْ يَزَلْ يَصْفُرُ طَوْلَ لَيْلَتِهِ خَوْفًا عَلَى نَفْسِهِ مِنْ أَنْ يَنَامَ فَيُؤْخَذَ . وَقِيلَ :
إِنَّهُ الَّذِي يَصْفُرُ بِالرَّأَةِ لِيَبْدُوَ وَهُوَ يَجِبُنْ وَقْتُ صَفَرِهِ مَخَافَةَ أَنْ يَظْهَرَ عَلَى أَمْرِهِ .
وَقِيلَ : إِنَّ الْمُرَادَ بِهِ فِي التَّلُّ الْمَصْفُورُ بِهِ ؛ وَهُوَ الَّذِي يَنْذِرُ بِالصَّغِيرِ لِهَرَبِ ،
فَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ فَاعِلٌ هُنَا بِمَعْنَى مَفْعُولٍ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مِنْ مَاءٍ دَانِقٍ ﴾ أَيْ
مَدْفُوقٍ وَكَقَوْلِهِمْ : رَاحِلَةٌ بِمَعْنَى مَرْحُولَةٍ ، وَهُوَ كَثِيرٌ فِي كَلَامِهِمْ ، وَقَدْ جَاءَ
« مَفْعُولٌ » بِمَعْنَى « فَاعِلٌ » ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ ، أَيْ سَاتِرًا .

وكفوه تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا ﴾

وأما قوله : « أَطَيْشٌ مِنْ طَامِر » ، فالمراد به البرغوث ؛ وبسَمِي طَامِر ابن طامر ؛ لكثرة وثوبه .

وأما قول القاضى : « أَرَاكُمْ شَنَا وَطَبَقَةً ، وَحِدَاءَ وَبُذْقَةً » ، فإنه أراد به أن كلاً منكما كفء لصاحبه وناوِم له . ولكل من المثلين تفسير مختلف فيه . أما شَنٌّ وطَبَقَةٌ ؛ فإن العلماء مختلفون فى معنى قولهم : « وافق شَنٌّ طَبَقَةٌ » ، فقال الآكثرون : إنهما قَبِيلَتَان ؛ فشَنٌّ هو ابن أنفى بن دُهمي . ابن جَدِيلَةَ بن أسد بن رَبِيعَةَ بن نزار . وطَبَقَةٌ حَيٌّ من إباد ؛ وكانت طَبَقَةٌ لا تَطَاق ، فأوقعت بها شَنٌّ ، فانتصفت منها .

وقال بعضهم : كان شَنٌّ رجلاً من دُهاة العرب ، وكان الزَّيْمُ نفسه . ألا يتزوج إلا بامرأة ثلاثه ، فكان محبوب البلاد فى ارتياد طَلَبِهِ ، فصاحبه رجلٌ فى بعض أسفاره ، فلما أخذ منهما السَّيْر ، قال له شَنٌّ : أَنَحْمَلُ أَمْ أَحْمَلُ ؟ فقال له الرجل : يا جاهل وهل يحمل الزَّاكِبُ الزَّاكِبُ ! فأمسك وسارَ اِحقَ اتِّيا على زرع ، فقال له شَنٌّ : أنرى هذا الزَّرْعَ أَكِلَ أَمْ لَا ؟ فقال له : يا جاهل ، أما تراه فى سنبله ! فأمسك إلى أن استقهما جَنَازَةً ، فقال له شَنٌّ : أنرى صاحبها حَيًّا أَمْ لَا ؟ فقال : ما رأيتُ أَجْهَلَ منك ، أنرام سَحَلُوا إلى القبر حَيًّا ! ثم إنهما وصلا إلى قرية الرجل ، فصار به إلى منزله ، وكانت له بنت تسمى طَبَقَةٌ ، فأخذ يُطَرِّفُها بحديث رفيقه ، فقالت له : ما نطق إلا بالصواب ، ولا أسفهمك إلا عما يستفهم عن مثله ذَوُو الألباب . أما قوله : أَنَحْمَلُ أَمْ أَحْمَلُ ، فإنه أراد : أَعَدُّنِي أَمْ أَحَدُّنِكَ ، حتَّى تَقَطَّعَ الطَّرِيقَ بالحديث . وأما قوله : أنرى هذا الزرع أَكِلَ أَمْ لَا ؟ فإنه أراد : هل استسلف أربابه ثمعه

أم لا ؟ وأما استفهامه من حياة صاحب الجنابة ، فإنه أراد به : أخلف عقبا يحيا ذكره به أم لا . فلما خرج إلى الرجل حدثه بتأويل ابنه كلامه ، فخطبها إليه ، فزوجه إياها ، فلما سار بها إلى قومه وخبروا ما فيها من الدماء والنفطة قالوا : وافق شن طبقة ، فصار مثلاً .

وحكى من الأسمى ، سئل عن تفسير هذا المثل فقال : أظن أن الشن وعاء من آدم كان قد استشن ، فلما اتخذ له غطاء واقفه ، ضرب فيه هذا للث . وأما حدأة وبندقة ؛ فإنه يقال في المثل المضروب لمن يفزع بعدوة أو يبلى بنظيره : حداً أو وراك بندقة ؛ وكان الأصل حدأة بإثبات الهاء ، فرخم في اللداء وقد اختلف في المراد بهما ، فقول : الحدأة هو الطائر المعروف ، وبندقة الراى . وقيل : إنهما قبيلتان من سماء المشيرة ، فأغارت حدأة - وكانت تنزل بالكوفة - على بندقة ، وكانت تنزل باليمن ، فنالت منهم ، ثم كرت بندقة على حدأة فأحمت هليهم .

وروى بعضهم هذا المثل : حدا حدا ، غير مهموز ، على مثال عصا وقفا ، وزعم أنه اسم التهيئة .

وأما قوله : « أخطأت استكما الحفرة » ؛ فإنه مثل يضرب لمن يخطئ في مقصده ويضع الشيء في غير موضعه .

وأما قوله : « طلسم وطرسم » ، فعنى طلسم كره وجهه ، ومعنى طرسم أطرق . وقوله : « اخرنطم وبرطم » أى غضب وقطب وجهه .

وقيل : معنى اخرنطم غضب مع تكبر . ومعنى برنطم غضب مع تعبس .

وأما قوله : « مهمم وغهمم » أى لم يبين الكلام .

ثم الجزء الرابع من كتاب شرح اللقائات للشربشى ويليه الجزء الخامس وأوله شرح اللقائمة الحادية والأربعون .

فهرس المقامات

صفحة

المقامة الحادية والثلاثون الرملية . تتضمن وعظ أبي زيد للحجاج
في حال مسيرهم ، وكونه حج في ذلك العام ماشياً . ٣٥ - ٣

المقامة الثانية والثلاثون الطيبيه أو الحربية . تتضمن أن أبا زيد
قام قديماً بمائة مسألة فقهية ملفزة . ٣٦ - ١٠٤

المقامة الثالثة والثلاثون التغلبية ، تتضمن أن أبا زيد به لقوة
وقام في المسجد مكدياً . ١٠٥ - ١٢٢

المقامة الرابعة والثلاثون الزيدية ، تتضمن أن أبا زيد باع ولده
في صفة غلام واشتراه الحارث . ١٢٣ - ١٦٤

المقامة الخامسة والثلاثون الشيرازية ، تتضمن أن أبا زيد رب
بكرا وطلب ما يحرمها به ، وكفى بذلك عن الحر . ١٦٥ - ١٩٢

المقامة السادسة والثلاثون اللطية ، تتضمن أن أبا زيد
بالمقايضة أي بما يائئها من الكلام . ١٩٣ - ٢٢١

المقامة السابعة والثلاثون الصمدية ، تتضمن مخاصمة أبي زيد عند
القاضي مع ابنه ينسبه إلى العتوق . ٢٢٢ - ٢٥٣

المقامة الثامنة والثلاثون المروية ، تتضمن كون أبي زيد دخل
مكدياً عند الوالي فلم يجبه وتعريضه له بذلك . ٢٥٤ - ٢٨٨

المقامة التاسعة والثلاثون العمانية والصحرارية ، تتضمن ركوب
أبي زيد البحر ، وأنه كتب عزيمة الطاق للعامل فوضت حملها . ٢٨٩ - ٣١٩

صفحة

المقامة الأربعون الشيرازية ، تتضمن نخاضم أبي زيد وزوجته
عند القاضي وأخذها منه دينارين .

٣٢٠ - ٣٢٣

استدراك

وقع خطأ في صفحة ١٦٥ في عنوان المقامة ، والصواب : « المقامة الخامسة
والثلاثون الشيرازية » .

فهرس الموضوعات

صفحة	
٦- ٤	عما قيل في الأوطان
١٤- ٧	ذكر مكة ومما لها
٢٣- ٢١	ذكر الرائيين وما قيل فيهم
٣١- ٢٨	عما قيل في المناق من أشعر
٦١- ٤٥	نقيه العرب وفتواه
٦٨ -٦١	الملاحن والمعارض
٧٩- ٧٢	ذكر قباح الوجوه من أهل العلم وغيرهم
٨٢، ٨١	عما قيل في وصف القلم
٨٥- ٨٢	ذكر مدح الشعراء لأشعر
٩٧- ٨٩	ترجمة الإمام الشافعي
١٠٤- ٩٨	فصل في زيارة قبر الرسول عليه السلام
١٠٩-١٠٦	عما قيل في أداء الصلاة لوقتها وما جاء في تركها
١١ ، ١٠٩	ذكر مدينة تقيس
١١٥-١١٣	من كلام الأعراب
١٣٣-١٣٠	ذكر الفلمان وأخبار عشاقهم
١٤٢-١٣٨	ذكر العرجي وإيراد بعض شعره
١٤٣، ١٤٢	نصلي في التضمين
١٤٧-١٤٣	خبر للنضر بن شميل مع المأمون
١٤٧	حكاية أبي حنيفة والإسكاف

١٤٩-١٤٧	من حكايات الجوارى والفتيان
١٦٢-١٥٩	قصّة يوسف عليه السلام
١٦٤-١٦٣	مما جاء من الشعر على أخبار يوسف عليه السلام
١٧٤-١٧٢	ذكر مسألة نخبوة
١٨١-١٧٦	وآد البنات
١٩٠-١٨٥	حكايات وأشعار حول الحر
١٩٢، ١٩١	مما قيل في ذم القناء ومدحه
١٩٤، ١٩٣	ذكر ملطمة
١٩٨، ١٩٧	مما قيل في المودة بين الشعراء
٢٠٤-٢٠٢	الهرباء وما ورد فيها من النظم
٢٠٦-٢٠٤	قصّة سليمان في الحرث
٢٠٨-٢٠٦	من وصف الشعراء للخمر
٢٢١-٢١٧	فصل في تفسير الأحاجي
٢٢٧-٢٢٥	ذكر مناقب سلمان الفارسي
٢٣١-٢٢٩	ذم العتوق
٢٣٦، ٢٣٥	بين أبي تمام وعبد الصمد بن العفل
٢٣٨-٢٣٦	مما قيل في ذم السؤال
٢٤٣، ٢٤١	فضل المال
٢٥٨-٢٥٧	ذكر مرو
٢٦١-٢٥٨	المياقة والزجر
٢٦٦-٢٦٣	من غرر للدائح
٢٧٢-٢٧٠	الذكر الحسن

صفحة	
٢٧٦، ٢٧٥	مدح الكرم وذم البخل
٢٧٩-٢٧٦	مما قيل في الشيب
٢٨٤-٢٨٢	مما قيل في طول الليل
٢٨٨، ٢٨٧	فصل في مدح الأدب
٢٩١، ٢٩٠	مما قيل في المذار
٢٩١	ذكر حمار
٢٩٧، ٢٩٦	ذكر الطوقان
٣١٢، ٣١١	ذكر أوبس القرني
٣١٣	ذكر الأملد ديس
٣٢٧-٣٢٤	قصة زواج مسيامة بسجاح
٣٣٠-٣٢٧	قصة تخامم أبي الأسود مع امرأته
٣٣٤-٣٣٢	زبيدة بنت جعفر زوج الرشيد
٣٤٢-٣٣٤	بوران بنت الحسن بن سهل وزواجها بالمأمون
٣٤٥-٣٤٢	ذكر بلقيس وعرشها
٣٤٧-٣٤٥	ذكر رابعة العدوية
٣٤٩-٣٤٧	ذكر خندف
٣٥٦-٣٤٩	ذكر الخلفاء
٣٧٣-٣٥٨	ذكر أبي دلامة
٣٧٨-٣٧٥	ترجمة الحسن البصري
٣٨٢، ٣٧٨	ترجمة الشعبي
٣٨٨-٣٨٢	ذكر الخليل بن أحمد
٣٩٤، ٣٨٩	ذكر جرير

ذكر قس بن ساعدة الإلادي	٣٩٩-٣٩٤
ذكر عبد الحميد السكائب	٤٠٠، ٣٩٩
ذكر أبي عمرو بن الملاء	٤٠٥-٤٠٠
ذكر مناقب الأصمعي	٤٠٦، ٤٠٥
مجلس للأصمعي عند الرشيد	٤١٦-٤٠٦

